





مكتبة الجاهل  
إلى عثمان عمرو بن براجا  
٢٥٥ - ١٥٠

بمقتضى  
عبد السلام محمد هارون

# رسائل الجاهل

## الجزء الأول

- |                             |                                  |
|-----------------------------|----------------------------------|
| ١ - مناقب الترك             | ٦ - في نفي التشبيه               |
| ٢ - المعاش والعاد           | ٧ - في كتاب الفتيا               |
| ٣ - كتمان السر وحفظ اللسان  | ٨ - إلى أبي الفرج بن نجاح الكاتب |
| ٤ - نحر السودان على البيضاء | ٩ - فصل ما بين العداوة والحمد    |
| ٥ - في الجد والهزل          | ١٠ - صناعات القواد               |

الناشر  
مكتبة الخزانة بالقاهرة

١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م

رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً

رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً

رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### تقديم

كتبتَ إلى - حفظك الله - أن أسمى سعيًا حثيثًا في إظهار ما بقي من آثار  
شيوخنا الجاحظ ، وزعمتَ أنني شغلت عنه بغيره . وكدت أن تلومني لما فرطت  
في جنب أبي عثمان فيما رأيت .

وإخالك عرفتَ بعض الحق ولم تظهر عليه كله ؛ فإن الحق يبدو أحيانًا  
في بعض الأمر أبلغ واضحًا ، وفي بعض الأمر يخفى وجهه حينًا فما تكاد تتبينه  
إلا بعد التعرف والتصفح . فإني لم أفارق آثار أبي عثمان منذ شذوت ، ولا تزال  
لك من همى ووكدى ، ما بين قراءة فيها وتنقيح ، وتجليه وتصحيح ، حتى  
أدبر منها بين الناس ما يستطيعه الجهد ، ويسمح به الزمان .

وقد بعثتُ له من قبل كتبًا ثلاثة ضخامًا ، بذلت فيها عصارة النفس وماء  
الشهاب ، وكان ذلك لنفسي صنيعةً أعزّ به وتشمانى به الغبطة ، لما علمت أن  
المصنفين من الأدباء قد تلقّوه بترحيب صادق ، وتقدير كريم .

وما كان بي - أيّدك الله - إلا أن أعدّ أصول ما بقي من آثار الجاحظ  
وأروزها ، وأنظر للصورة التي ينبغي أن تبدو فيها . فوجدتني بين خليط من  
الهامات والمطبوعات ، ووجدت فيما وجدت مجموعة رسائل الجاحظ المحفوظة  
في مكتبة « دأمد إبراهيم » ، غنية بآثار الجاحظ ، بعضها لم تظهر بعد عليه عيون  
محرري الأدباء .

فرايت أن أقوم بنشر هذه المجموعة كاملة في مجلدين مستقلين لها فهارسهما الفنية الخاصة ، ريثما تتاح لي الفرصة أن أكمل جمع سائر الرسائل المفرقة التي لم تحوها هذه المجموعة ، ومنها مختارات عبيد الله بن حسان ، التي كان لها فضل في تحقيق كثير من نصوص مجموعة داماد ، ومنها رسائل مضمنة بطون الكتب ، كما في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ، وطرار المجالس للشهاب الخفاجي ، وجمع الجواهر للحصري ، وغير ذلك من كبير الكتب وصغيرها .

### مجموعة داماد

وهي نسخة الأصل

كان من المهام الجليلية التي اضطلع بها معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية أن أتاح الفرصة للباحثين في الحصول على مصورات المخطوطات المتناثرة في المكتبات العامة ، ومنها مكتبات تركيا ، التي حوت مقداراً ضخماً من أنفس الكتب العربية .

وكان مما أسعدني أن أعثر على هذه المجموعة الجليلية القدر التي صورها معهد المخطوطات بعناية الأخ رشاد عبد المطلب من مكتبة ( داماد إبراهيم <sup>(١)</sup> ) بتركيا . ورقمها في مكتبة داماد هو ٩٤٩ ، وفي معهد المخطوطات ف ٩٤٣ من ١٨٥ .

ويحمل صدر هذه النسخة رسم خاتمين :

الخاتم الأعلى كبير ، وقراءته :

---

(١) الداماد في اللغة التركية : زوج البنت ، كما يقال لزوج الأخت « أنشته » .

« هذا مما وقفه . . . . . صاحب الخير والحسنة ، الصدر الأعظم  
والصهر الأنعم إبراهيم باشا يسر الله له بالخير ما يشاء وزيراً لحضرت السلطان  
الغازي أحمد خان خلدت خلافته إلى انقراض الدورات » .

والخاتم الأسفل صغير ، وقراءته :

« بونسخة وقفندر داماد إبراهيم باشانك » .

وتفسيره : هذه النسخة من وقف داماد إبراهيم باشا .

وليس لهذه النسخة تاريخ ، وإن كان المرجح أن خطها من خطوط القرن  
السادس ، كتبت بالخط النسخي المشرب ببعض قواعد الخط الفارسي ، كما يتضح  
ذلك في رسم بعض صنوف الهاء ، وصنوف السين ، وصنوف اللام ، مع إغفال  
لبعض النقط ، ومع ضبط قليل ذاهب في الندرة .

وهي في ٢٣٩ ورقة، منها ١٩ ورقة مفقودة في أولها . وبالصفحة ٢٢ سطرًا ،  
في كل سطر نحو ١١ كلمة .

ويبتدئ ترقيم أوراقها بالورقة ٢٠ . وهذا يفسر ما صنعت من بدء ترقيم  
نسختي هذه برقم ( ٢٠ ظ ) الذي أثبتته في ص ٥ من هذا المجلد تعبيراً عن أرقام  
الأصل التي حرصت على إثباتها في جنبات هذه النشرة . وقد أشرت إلى ذلك  
في مقدمة الرسالة الأولى في ص ٣ .

وربما كانت الرسالة المفقودة التي كانت في صدر المجموعة هي « كتاب  
حكاية عثمان الخياط في اللصوص ووصاياهم » التي يميز وجود أصل لها . وذلك  
أن داود الجلبى في كتابه ( مخطوطات الموصل ص ٢٦٤ ) ذكر مجموعة من  
رسائل للجاحظ كانت محفوظة في مكتبة أمين بن أيوب الجلبى تطابق

في عنوانات رسائلها مجموعة داماد وتزيد عليها في أولها « حكاية عثمان الخياط في اللصوص ووصاياهم ». ومن المؤسف أن مجموعة أمين الجليلي قد فقدت بعد وفاته ، كما ورد في مقدمة مجموع رسائل الجاحظ لسكراوس والهاجرى ص (و) .  
ويبدو كذلك أنه قد تجهل قديماً هذا النقص ، وابتدأ المجلد برسالة فضائل الأتراك ، وترقيمها في النسخة ( ٢٠ و ) أى وجه الورقة ٢٠ ، وجعل عنوانها وجهاً للمجلد ، وسردت تحت هذا العنوان محتويات المجلد بخط مخالف على الوضع التالى . وقد أثبتنا هنا بلفظها ، والترقيم لى :

- ١ — كتاب فضائل الأتراك<sup>(١)</sup> لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ .
- ٢ — رسالة كتبها إلى محمد بن عبد الملك في الأخلاق الحمودة .
- ٣ — كتاب كتمان السر وحفظ اللسان .
- ٤ — رسالة المعاش والمعاد في الأدب .
- ٥ — كتاب نحر السودان على البيضان .
- ٦ — رسالة في الجد والهزل .
- ٧ — رسالة في نفى التشبيه .
- ٨ — رسالة في معنى كتابه في الفتيا .
- ٩ — رسالة إلى أبى الفرج بن نجاح الكاتب تصنيف أبى عثمان .
- ١٠ — رسالة فصل ما بين العداوة والحسد .
- ١١ — رسالة في ذم القواد .

---

(١) ذكر بروكلمان في كتابه ٣ : ١١٥ من الترجمة العربية أنها ترجمت إلى التركية .

١٢ — رسالة في النابتة إلى أبي الوليد .

١٣ — كتاب الحجاب .

١٤ — كتاب مفاخرة الجوارى والغلمان .

١٥ — كتاب القيان .

١٦ — كتاب ذم أخلاق الكتّاب .

١٧ — كتاب البغال

١٨ — كتاب الحنين إلى الأوطان .

وظاهر هذا الفهرست أن بالمجموعة ١٨ رسالة وكتاباً . ولكن عند التحقيق ظهر لى أن عددها ١٧ لا ١٨ ؛ لأن الرسالة الثانية ، وهى رسالة « الأخلاق المحمودة والمذمومة » هى بعينها الرسالة الرابعة « رسالة المعاد والمعاش فى الأدب » أو بعبارة أدق : نسخة أخرى منها . وقد رجّحت لها التسمية الأخيرة الواردة فى النسخة الثانية ، أى « رسالة المعاد والمعاش » وبينت ذلك فى مقدمتها ص ٩٠ .

وعلى ذلك صارت الرسالة الخامسة فى هذا الفهرست تحمل رقم ٤ والسادسة فيه تحمل رقم ٥ ، ويتناقض الترقيم حتى يصير آخر الرسائل برقم ١٧ .

وقد قدّمت لكل رسالة أو كتاب من هذه المجموعة بمقدمة أوضحت فيها تاريخ نشرها إن كانت قد نشرت من قبل ، أو نبّهت على أنها تنشر للمرة الأولى .

وستظهر هذه المجموعة ، فى جزأين ، يلحق بالثانى منهما ( الفهارس الفنية ) لهما معاً . إن شاء الله تعالى .

## المجموعات التي نشرت من قبل

واستكمالاً لدراسة تاريخ نشر رسائل الجاحظ أشير هنا إلى مجموعات من رسائل نشرت من قبل ، وبعضها يتضمن شيئاً مما في هذه المجموعة ، أعني مجموعة داماد .

### أولاً :

مجموعة فان فلوتن . وعنوانها ( ثلاث رسائل لأبي عثمان بن بحر الجاحظ البصري ) . طبعت بمطبعة بريل بمدينة ليدن بهولاندا سنة ١٩٠٣ م . وتشمل :

١ — رسالة إلى الفتح بن خاقان في مناقب الترك وعامة جند الخلافة

ص ١ — ٥٦

٢ — كتاب نحر السودان على البيضان

ص ٥٧ — ٨٥

٣ — كتاب التربيع والتدوير

ص ٨٦ — ١٥٦

وقد قام بإكمال العمل في هذه المجموعة وتنقيحها ونشرها المستشرق

دي جويه : M. J. de Goeje

### ثانياً :

مجموعة الفصول المختارة ، اختيار عبيد الله بن حسان . طبعت على

هامش كامل المبرد سنة ١٣٢٣ — ١٣٢٤ في جزأين :

١ — من كتابه في الحاسد والمحسود

٢ : ١

٢ — من كتابه في المعلمين

١٧ : ١

٣ — من رسالته إلى الحسن بن وهب في مدح النبيذ وأصحابه

٩٧ : ١

٤ — من كتابه في طبقات المغنين

١٢٠ : ١

٥ — من كتابه في النساء

١٣٠ : ١

- ٦ — من رسالته إلى الفتح بن خاقان في مناقب الترك ١ : ١٦٦
  - ٧ — من كتابه في حجج النبوة ١ : ٢٧٥ إلى ٢ : ١١٧
  - ٨ — من كتابه في خلق القرآن ٢ : ١١٧
  - ٩ — من كتابه في الرد على النصارى ٢ : ١٤٨
  - ١٠ — رسالة إلى أبي الفرج الكاتب في المودة والخلعة ٢ : ١٩٩
  - ١١ — من كتابه في استحقاق الإمامة<sup>(١)</sup> ٢ : ٢١٢
  - ١٢ — من رسالته في استنجاز الوعد ٢ : ٢٢٠
  - ١٣ — من رسالته في تفضيل النطق على الصمت ٢ : ٢٢٧
  - ١٤ — من كتابه في صناعة الكلام ٢ : ٢٣٨
  - ١٥ — من رسالته في مدح التجارة وذم عمل السلطان ٢ : ٢٤٦
  - ١٦ — صفات الشارب والمشروب ٢ : ٢٥١
  - ١٧ — من رسالته في استحقاق الإمامة ٢ : ٢٦٩
  - ١٨ — من مقالة الزيدية والرافضة ٢ : ٢٩١
- وهذه النسخة ينقصها كثير مما في النسخة التيمورية ، ونسخة المتحف البريطاني ، فهي مجموعة من الاختيار مبتورة .

بيان :

مجموعة محمد ساسي ، وعنوانها ( مجموعة رسائل لمؤلفها العلامة الشهير والفهامة الكبير الأستاذ أبي عثمان عمرو بن محبوب المعروف بالجاحظ ) . طبع بمطبعة التقدم بمصر سنة ١٣٢٥ . وقد أعاد فيها ما طبع في مجموعة فان قوتن ، وضم إليها ثمانى رسائل أخرى فصارت كلها على الوضع التالى :

(١) كذا . ويبدو أنه كتاب آخر .

- ١ - رسالة في الحاسد والحسود
- ٢ - رسالة إلى الفتح بن خاقان في مناقب الترك وعامة جند الخلافة ص ٢ - ٥٣
- ٣ - كتاب نحر السودان على البيضان ص ٥٤ - ٨١
- ٤ - كتاب الترييع والتدوير ص ٨٢ - ١٤٧
- ٥ - في تفضيل النطق على الصمت ص ١٤٨ - ١٥٤
- ٦ - في مدح التجار ودم عمل الساطان ص ١٥٥ - ١٦٠
- ٧ - في العشق والنساء ص ١٦١ - ١٦٩
- ٩ - في استنجاز الوعد ص ١٧٣ - ١٧٧
- ١٠ - في بيان مذهب الشيعة ص ١٧٨ - ١٨٥
- ١١ - في طبقات الفنانين ص ١٨٦ - ١٨٩

#### رابعاً :

مجموعة يُوشَمَ فِنْكَل : J. Finkel

وعنوانها : ( ثلاث رسائل لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ )  
وهو موافق لعنوان مجموعة وَاْن ثَلَوْتِن . طبعت في المطبعة السلفية سنة ١٣٤٤ هـ  
وقد جعلت هذه المجموعة هدية من مجلة الزهراء ، التي كان يصدرها الأستاذ  
محب الدين الخطيب ، إلى قرائها في سنتها الثانية . وتشمل هذه المجموعة ثلاث  
رسائل :

- ١ - المختار من كتاب الرد على النصارى<sup>(١)</sup> من ص ٩ - ٣٨
- ٢ - دم أخلاق الكتاب من ص ٣٩ - ١٥
- ٣ - رسالة القيان من ص ٥٢ - ٧٥

(١) هكذا بأرقام صفحات مستقلة

(٢) وهي من اختيارات عبید الله بن حسان .



والرسالتان الأخيرتان منشورتان عن أصل بمكتبة نور الدين مصطفى  
برقم ١٠٠ وهو أصل بعد الآن مفقوداً .

خاصاً :

مجموعة ريشر : Rescher نشرت في مدينة شتوتجارت سنة ١٩٣١  
وهي مقتطفات وترجمات من آثار الجاحظ إلى جانب نصوص أصيلة أخرى له  
لم تنشر من قبل ، كما ذكر بروكلمان ٣ : ١١٠ من الترجمة العربية .  
ولم يتيسر لي الوقوف عليها لأنى لم أعثر عليها في المكتبات العامة بمصر ،  
وقد أمكننى أن أتقرب ترتيبها وجمعها من مواضع متفرقة متشعبة من كتاب  
بروكلمان على الوضع التالى :

- |                                    |             |
|------------------------------------|-------------|
| ١ — دراسة لمحتويات البيان والتبيين | ص ٢٢ — ٤٠   |
| ٢ — الرد على النصارى               | ص ٤٠ — ٦٧   |
| ٣ — ذم أخلاق الكتاب                | ص ٦٧ — ٧٨   |
| ٤ — رسالة القيان                   | ص ٧٨ — ١٠٠  |
| ٥ — رسالة في المعلمين              | ص ١٠١ — ١٠٨ |
| ٦ — في ذم اللواط                   | ص ١٠٨       |
| ٧ — في مدح النبيذ وصفة أصحابه      | ص ١١١       |
| ٨ — حجج النبوة                     | ص ١١٢ — ١٥٩ |
| ٩ — صناعة الكلام                   | ص ١٥٩ — ١٦٣ |
| ١٠ — الشارب والمثروب               | ص ١٦٣ — ١٦٨ |
| ١١ — استحقاق الإمامة               | ص ١٦٨ — ١٧٩ |
| ١٢ — الحاسد والمحسود               | ص ١٨٠ — ١٨٢ |
| ١٣ — تفضيل النطق على الصمت         | ص ١٨٢ — ١٨٦ |

ص ١٨٦ — ١٨٨	١٤ — مدح التجارة وذم عمل السلطان
ص ١٨٨ — ١٩٤	١٥ — العشق والنساء.
ص ١٩٤ — ١٩٥	١٦ — الوكلاء.
ص ١٩٥ — ١٩٦	١٧ — في استنجاز الوعد
ص ١٩٧ — ٢٠٤	١٨ — مذاهب الشيعة
ص ٢٠٤ — ٢٠٦	١٩ — طبقات المغنين
ص ٢٠٧ — ٢١٠	٢٠ — فضائل الأتراك ( محتوياته )
ص ٢١٠ — ٢١٢	٢١ — نحر السودان
ص ٢١٢ — ٢٥٥	٢٢ — التربيع والتدوير
ص ٢٥٧	٢٣ — تهذيب الأخلاق
ص ٢٦٧ — ٤٨٤	٢٤ — قطعة من البخلاء
ص ٤٨٨	٢٥ — الحنين إلى الأوطان
ص ٥٢٧	٢٦ — في ذم القواد
ص ٥٣٣ — ٥٥٠	٢٧ — الحجاب وذمه
ص ٥٥٠	٢٨ — في وصف العوام
ص ٥٥٢ وما بعدها	٢٩ — الأخبار

سارياً :

مجموعة حسن السندوبى بعنوان ( رسائل الجاحظ ) طبع الرحمانية سنة ١٣٥٢ هـ : ١٩٣٣ م . ذكر في مقدمتها أنها « منتقاة من كتب الجاحظ ومن كتب أخرى أكرها في متناول الأيدى . وهذه الرسائل في التاريخ والأدب

والاجتماع والجدل . وقد ألحقنا بها طائفة صالحة من رسائله الخاصة التي يسميها  
العرف الإخوانيات .

ولم يشر الأستاذ السندوبي إلى أصلي ما مما نشر عنه هذه المجموعة ،  
وتشتمل مجموعته على :

- ١ — خلاصة كتاب العثمانية ص ١ - ١٢ . وقد أتبعها بخلاصة نقض العثمانية  
للأبي جعفر الإسكافي ص ١٣-٦٦ . وقد كتبت عنها في مقدمة العثمانية .
- ٢ — من كتاب فضل هاشم على عبد شمس ٦٧ — ١١٦
- ٣ — » » حجج النبوة ١١٧ — ١٥٤
- ٤ — » » الحجاب ١٥٥ — ١٨٦
- ٥ — » » الترييع والتدوير ١٨٧ — ٢٤٠
- ٦ — » » استحقاق الإمامة ٢٤١ — ٢٥٩
- ٧ — » رسالته في صناعة القواد ٢٦٠ — ٢٦٥
- ٨ — » كتابه في النساء ٢٦٦ — ٢٧٥
- ٩ — » رسالته في الشارب والمشروب ٢٧٦ — ٢٨٤
- ١٠ — » » في مدح النبيذ ٢٨٥ — ٢٩١
- ١١ — » » في بني أمية ٢٩٢ — ٣٠٠
- ١٢ — » كتابه في العباسية ٣٠٠ — ٣١٦
- ١٣ — » رسائله الخاصة ٣٠٣ — ٣١٥

وهذه الرسائل الخاصة الأخيرة ست رسائل :

رسالة إلى أبي الفرج الكاتب في المودة والخلطة ، وأخرى في ذم الزمان ،  
ورسالة إلى محمد بن عبد الملك الزيات ، وأخرى إلى أحمد بن أبي دؤاد ، وغيرها  
لإبراهيم بن المدير ، ورسالة أخيرة كتب بها معاتباً .

مجموعة باول كراوس وطه الحاجرى ، وعنوانها ( مجموع رسائل الجاحظ )  
طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٣ . وهى نشرة علمية جيدة ، وبها :

١ — رسالة المعاد والمعاش ص ١ — ٣٦

٢ — كتاب كتمان السر وحفظ اللسان ٣٧ — ٦٠

٣ — رسالة فى الجد والهزل ٦١ — ٩٨

٤ — رسالة فصل ما بين العداوة والحسد ٩٩ — ١٢٤

وبانى لأزجى الشكر صادقاً إلى الأخ السيد ( محمد نجيب أمين الخانجى )  
لتيسيره نشر ساسلة هذه الرسائل وغيرها من نفائس التراث العربى ، مقتدياً  
فى ذلك بوالده المغفور له السيد ( أمين الخانجى ) ، الذى يحفظ له التاريخ سبقاً  
مبكراً بارعاً إلى إحياء كثير من المخطوطات العربية التى أولاها عناية وإخلاصه .

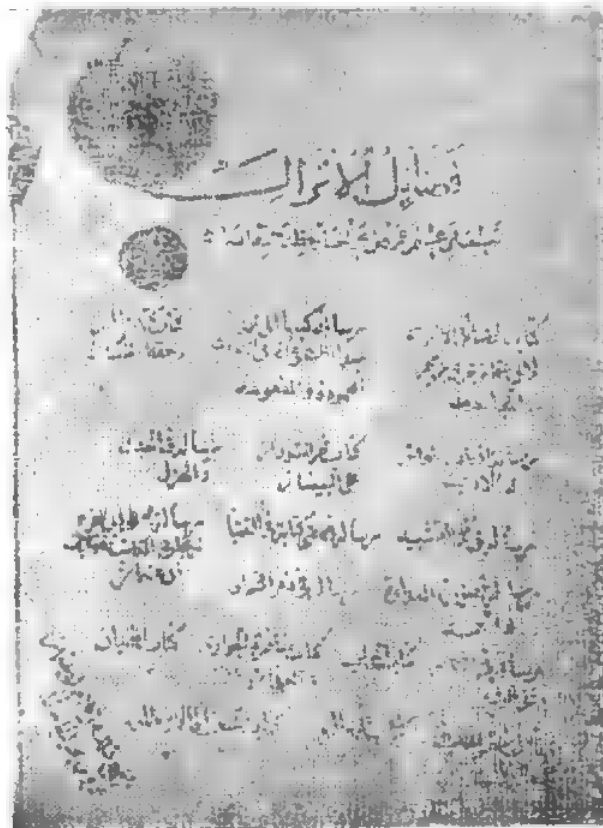
\* \* \*

وأما بعد ، فإنى أرجو أن أوفق — بعون الله — حينما أفرغ من نشر هذه  
المجموعة ( مجموعة داماد ) محققة على النهج الذى جريت عليه فى نشر الحيوان  
والبيان والعثمانية — أن أتم نشر ما بقى من رسائل الجاحظ فى أجزاء لاحقة .  
والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

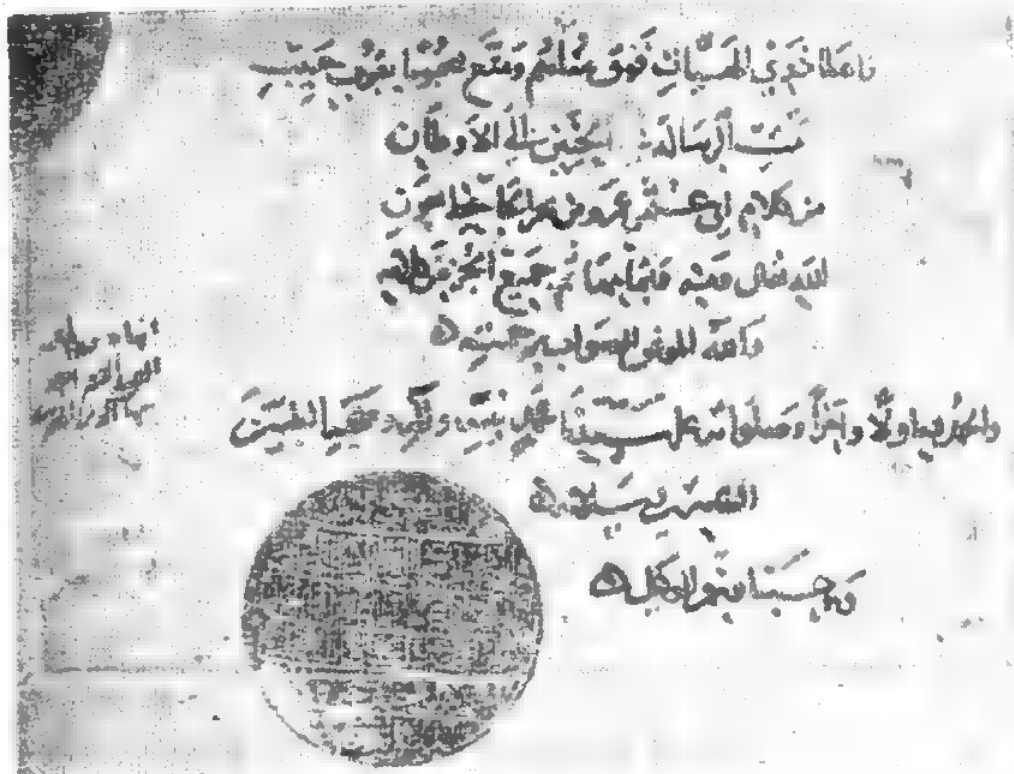
عبد السلام محمد هارون

٢٣ من جمادى الأولى ١٣٨٤  
٢٩ من سبتمبر سنة ١٩٦٤ } مصر الجديدة





سورة الصفحة الأولى من مجموعة داماد



الصفحة الأخيرة من مجموعة داماد

# ١ مَنَاقِبُ التُّرْكِ

رسالة إلى الفتح بن خاقان في مناقب الترك وعامة جند الخلافة





## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذه هي الرسالة الأولى من مجموعة رسائل الجاحظ نسخة مكتبة داماد ، وعنوانها في المجموعة « فضائل الأتراك » . وقد اخترت لها العنوان الذي في سائر المراجع الرموز لها بالرموز التالية :

م = مختارات فصول الجاحظ لعبيد الله بن حسان ، نسخة المتحف البريطاني المأخوذ منها نسخة مصورة بمكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٤٠٦٩ .

ف = الفصول المختارة لعبيد الله بن حسان ، المطبوعة بهامش كامل البريد طبعة التقدم العالية سنة ١٣٢٤ . وتختلف عن النسخة السابقة .

ن = ثلاث رسائل للجاحظ نشر قان ثلوثن . طبع ليدن ١٩٠٣ .

س = مجموعة رسائل للجاحظ نشر الساسي .

كما جعلت الرمز « ب » لبقية النسخ إذا انفردت نسخة من النسخ السابقة بصورة من النص يخالف أخواتها .

وهذه الرسالة تستغرق من الأصل ما بين الورقة ٢٠ والورقة ٤٩ . وقد أثبت أرقام هذه الأوراق على جنبات الكتاب تيسيراً للرجوع إلى الأصل .

وأكرر التنبيه هنا أن هذا الترقيم هو الترقيم الذي ورد في النسخة ، وأنه ترقيم مسلسل مع كتاب آخر غير مجموعة داماد سابق عليها .

والفتح بن خاقان هذا هو وزير المتوكل العباسي ، وكان أديباً شاعراً فصيحاً بارع الذكاء ، وكانت له خزانة كتب حافلة ، وله مؤلفات منها كتاب اختلاف الملوك ، وكتاب الصيد والجراح ، وكتاب الروضة والزهر . وقتل مع المتوكل سنة ٢٤٧ . وهو غير الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان صاحب قلائد العقيان .

انظر فهرست ابن النديم ١٦٩ - ١٧٠ وفوات الوفيات ٢ : ١٤٣ - ١٥٤ .



وَفَقَّكَ اللَّهُ لِرُشْدِكَ ، وَأَعَانَ عَلَى شُكْرِكَ ، وَأَصْلَحَكَ وَأَصْلَحَ عَلَى يَدَيْكَ ،  
وَجَعَلْنَا وَإِيَّاكَ مِمَّنْ يَقُولُ بِالْحَقِّ وَيَعْمَلُ بِهِ ، وَيُؤَثِّرُهُ وَيَحْتَمِلُ مَا فِيهِ [ مِمَّا قَدْ يَصُدُّهُ  
عَنْهُ <sup>(١)</sup> ] ، وَلَا يَكُونُ حَظُّهُ مِنْهُ <sup>(٢)</sup> الْوَصْفَ لَهُ وَالْمَعْرِفَةَ بِهِ ، دُونَ الْحَثِّ عَلَيْهِ  
وَالْإِنْقِطَاعِ إِلَيْهِ ، وَكُشِفَ الْقِنَاعُ فِيهِ ، [ وَإِصَالَهُ إِلَى أَهْلِهِ ، وَالصَّبْرَ عَلَى الْحَافِظَةِ  
لِئَلَّا يَصِلَ إِلَى غَيْرِهِمْ ، وَالتَّثَبُّتَ فِي تَحْقِيقِهِ لَدَيْهِمْ <sup>(٣)</sup> ] ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَعْلَمْ  
النَّاسَ لِيَكُونُوا عَالِمِينَ دُونَ أَنْ يَكُونُوا عَامِلِينَ ، بَلْ عَلَّمَهُمْ لِيَعْمَلُوا ، وَيَبَيَّنَ لَهُمْ  
لِيَتَّقُوا التَّوَرُّطَ فِي وَسْطِ الْخَوْفِ ، وَالْوُقُوعَ فِي الْمَضَارِّ <sup>(٤)</sup> ، وَالتَّوَسُّطَ فِي الْمَهَالِكِ .  
[ فَلِذَلِكَ <sup>(٥)</sup> ] طَلَبَ النَّاسُ التَّبَيُّنَ ، وَلَحَبَّ السَّلَامَةَ مِنَ الْمَلَكَةِ ، وَالرَّغْبَةَ  
فِي الْمَنْفَعَةِ ، احْتَمَلُوا ثِقَلَ الْعِلْمِ ، وَتَعَجَّلُوا مَكْرُوهُ الْمَعَاوَةِ . وَلَقَلَّةِ الْعَامِلِينَ وَكَثْرَةِ  
الْوَاصِفِينَ [ قَالَ الْأَوَّلُونَ : الْعَارِفُونَ أَكْثَرُ مِنَ الْوَاصِفِينَ ، وَالْوَاصِفُونَ أَكْثَرُ  
مِنَ الْعَامِلِينَ . وَإِنَّمَا <sup>(٦)</sup> ] كَثُرَتِ الصِّفَاتُ وَقَلَّتِ الْمَوْصُوفَاتُ ، لِأَنَّ ثَوَابَ  
الْعَمَلِ مُؤَجَّلٌ ، وَاحْتِمَالُ مَا فِيهِ مُعَجَّلٌ .

(١) ساقطة من الأصل ، وإثباتها من سائر النسخ .

(٢) في الأصل « فيه » ، وأثبت ما في ف ، ن ، س .

(٣) التكملة من م ، ف ، ن ، س .

(٤) في الأصل و س : « ليتقوا ولخوف الوقوع في المضار » .

(٥) التكملة من م ، ف .

(٦) التكملة من م ، ف ، ن ، س .

وقد أعجبنى ما رأيتُ من شَفَقِكَ بطاعة إمامك ، والحمامة لتدبير خليفتك ،  
 وإشفاقك من كل خلل وخلّة دخل على ملكك وإن دق<sup>(١)</sup> ، ونال سلطانه وإن  
 صغر ، ومن كل أمر خالفه وإن خفي مكانه ، وجانب رضاه وإن قل ضرره ؛  
 ومن تحوّل أن يحدّ المتأوّل إليه طريقا<sup>(٢)</sup> والعدو عليه متعلّقا ؛ فإنّ السلطان  
 لا يخلو من متأوّل ناظم ، ومن محكوم عليه ساخط ، ومن معدول عن الحكم  
 زار<sup>(٣)</sup> ، ومن متعطّل متصفّح ، ومن مُعجّب برأيه ذى خطل في بيانه ، مولع  
 بتهمين الصواب ، وبالأعراض على التدبير ، حتّى كأنّه رائدٌ لجميع الأُمّة ،  
 ووكيلٌ لسكان جميع المملكة ؛ يَضَع نفسه في موضع الرّقاء ، وفي موضع  
 التصفّح على الخلفاء والوزراء ؛ لا يعذر وإن كان تجاز العذر واضحاً ، ولا يقف  
 فيما يكون للشكّ محتملاً ، ولا يصدّق بأنّ الشاهد يرى ما لا يرى الغائب ،  
 وأنّه لا يعرف مصادر<sup>(٤)</sup> الرّأى من لم يشهد موارده ، ومُستدبره من لم يعرف  
 مُستقبله . ومن محرومٍ قد أضعفه الحرمان<sup>(٥)</sup> ، ومن لثيمٍ قد أفسده الإحسان .  
 ومن مستبطئٍ قد أخذ أضعاف حقّه ، وهو لجهله بقدره ، وليضيّق ذرعه وقلة  
 شكره ، يظنّ أن الذى بقي له أكثر ، وأنّ حقّه أوجب . ومن مستزيدٍ

٢١ و

(١) م ، ف : « من كل خلل يدخله وإن دق » ن : « من كل خلل دخل على ملكه وإن دق » .

(٢) المراد بالتأوّل المتعلّل الذى يتلمس علة وتأويلاً لقيامه على السلطان .

(٣) فى الأصل : « عن الحكمة » ، وأثبت ما فى ب . والزّارى ، من قولهم : زرى عليه يزرى زرياً وزراية : عابه وعاتبه .

(٤) فى الأصل : « . صدق » ، صوابه فى سائر النسخ .

(٥) أضعفه : حمّله على الضعن والحد . وفى الأصل : « أضعفه » ، صوابه فى سائر النسخ .

لو ارتجع السلطان<sup>(١)</sup> سالف أياديه البييض عنده ، ونعمه السالفه عليه ، لكان لذلك أهلاً ، وله مستحقاً . قد غرّه الإملاء<sup>(٢)</sup> ، وأبطره دوام الكفاية ، وأفسده طول الفراغ . ومن<sup>(٣)</sup> صاحب فتنة خامل في الجماعة ، رئيس في الفرقة ، تعاقد في المهرج ، قد أقصاه السلطان ، وأقام صنوه ثقاف الأدب<sup>(٤)</sup> ، وأذله الحكم بالحق ، فهو مفيظ لا يجد غير التشيع ، ولا يتشقى بغير الإرجاف ، ولا يستريح إلا إلى الأمانى . ولا يأنس إلا بكل مرجف كذاب ، ومفتون مرتاب ، وخارص لا خير فيه<sup>(٥)</sup> ، وخالف لا غناء عنده ، يريد أن يسوى بالكفاة ، ويرفع فوق الحماة : لأمر ما [ سلف له ، وإحسان كان من غيره ، وليس ممن يرب قديماً بحديث<sup>(٦)</sup> ، ولا يحفل بذروس شرف ، ولا يفصل بين ثواب الحسنيين ، وبين الحفظ لأبناء المحسنين .

وكيف يعرف فرق ما بين حق الإمام وثواب الكفاية ، من لا يعرف طبقات الحق في مراتبه ، ولا يفصل بين طبقات الباطل في منازلها .

(١) في الأصل : « لو ارتجع للسلطان » ، صوابه في سائر النسخ .

(٢) في الأصل و ف : « الأصل » .

(٣) كلمة « من » ساقطة من الأصل ون و س .

(٤) الصفو . المير في الأصل : « صغره » م ، ف : « صفره » . وأثبت ما في س ، ن .

(٥) الخارص : الكاذب ، يقال خرس وخرص واخترص . ورجل خراص : كذاب . وفي التزييل العزيز : « قتل الخراصون » س ، ن . « خارص » بالهملة ، تحريف .

(٦) ربه به : أصله وطيبه .

ثم أعلمتني بذلك أنك بنفسك بدأت في تعظيم إمامك ، والحفظ لمناقب  
أنصار خليفتك ، وإيّاها حُطت بحياطتك لأشياعه ، واحتجاجك لأوليائه .  
ونعم العون أنت إن شاء الله على ملازمة الطاعة ، والموازرة على الخير ،  
والمكافئة لأهل الحق<sup>(١)</sup> .

وقد استدلت بالذي أرى من شدة عنايتك ، وقرط اكتراثك ، وتفقدك  
لأخاير الأعداء<sup>(٢)</sup> وبحثك عن مناقب الأولياء ، على أن ما ظهر من نصحك  
أمم<sup>(٣)</sup> ، في جنب ما بطن من إخلاصك .

فأمتنع الله بك خليفته ، ومنحنا وإياك محبته<sup>(٤)</sup> ، وأعاذنا وإياك من قول  
الزور<sup>(٥)</sup> ، والتقرب بالباطل ، إنه حميد مجيد ، فقال لما يريد .

وذكرت أبقاك الله أنك جالست أخلاطاً من جند الخلافة ، وجماعة من  
أبناء الدعوة ، وشيوخاً من جلة الشيعة ، وكهولاً من أبناء رجال الدولة ،  
والمسويين إلى الطاعة والمناصرة ، [ والمحبة<sup>(٦)</sup> ] الدينية ، دون محبة الرغبة  
والرهبة ، وأن رجلاً من عرض تلك الجماعة ، ومن حاشية تلك الجلة<sup>(٧)</sup> ارتجّل

٢١ ظ

(١) المكافئة : المعاونة .

(٢) م ، ف فقط : « لأجناس الأعداء » .

(٣) الأمم : الشيء اليسير .

(٤) في الأصل : « نخبة » ، صوابه في سائر النسخ .

(٥) في الأصل ون : « قبول الزور » .

(٦) السكلة من ف ، م ، س .

(٧) م : « وأن رجلاً من عرض تلك الجملة » .

الكلام ارتجال مستبد<sup>(١)</sup>، وتفرد به تفرد معجب<sup>(٢)</sup>، وأنه لم يستأمر زعماءهم، ولم يراقب خطباءهم، وأنه تصف المعاني وتهجم على الألفاظ، وزعم أن جند الخلافة اليوم على خمسة أقسام: خراساني، وتركي، وموولي، وعربي، وبنوي. وأنه أكثر من حمد الله وشكره على إحسانه ومينته، وعلى جميع أياديه وسابغ نعمه، وعلى شمول عافيته وجزيل مواهبه، حين ألف على الطاعة هذه القلوب المختلفة، والأجناس المتباينة، والأهواء المتفرقة. وأنتك اعترضت على<sup>(٣)</sup> هذا التكلم المستبد، وعلى هذا القائل المتكلف، الذي قسم هذه الأقسام، وخالف [بين<sup>(٤)</sup>] هذه الأركان، وفصل بين أنسابهم<sup>(٥)</sup>، وقرق بين أجناسهم، وباعد بين أنسابهم<sup>(٦)</sup>. وأنتك أنكرت ذلك عليه أشد الإنكار، وقذعته أشد القذع<sup>(٧)</sup>، وزعمت أنهم لم يخرجوا من الاتفاق أو من شيء يقرب من الاتفاق. وأنتك أنكرت التباعد في النسب، والتباين في السبب. وقلت: بل أزعم أن الخراساني والتركي أخوان، وأن الحيز واحد، وأن [حكم ذلك الشرق، والقضية على<sup>(٧)</sup>] ذلك الضم متفق غير مختلف، ومتقارب غير متفاوت. وأن الأعراق في الأصل إن لا تكن [كانت<sup>(٧)</sup>] راسخة فقد كانت متشابهة، وحدود البلاد المشتعلة عليهم إن

(١) الكلام بعده إلى « خطباءهم » ساقط من ف .

(٢) في الأصل : « أعرضت عن » ، صوابه في سائر النسخ .

(٣) الكلمة ساقطة من الأصل ثابتة في سائر النسخ .

(٤) ن ، س : « وباعد بين أنسابهم » . وما بعده إلى « أنسابهم » التالية ساقط

من ف ، م .

(٥) في الأصول : « أنسابهم » ، والوجه ما أثبت .

(٦) قذعه قذنا : رماه بالفحش وسوء القول .

(٧) ما بين العطفين ثابت في جميع النسخ ساقط من الأصل .

لا تكن متساوية فإنها متناسبة ؛ وكلهم خراساني في الجملة وإن تميزوا ببعض الخصائص ، فافترقوا ببعض الوجوه .

وزعمت أن اختلاف التركي والخراساني ليس كالاختلاف بين العجمي والعربي ، ولا كالاختلاف بين الرُّومي والصَّقَلِي ، والزَنْجِي والحَبَشِي ، فضلاً عما هو أبعدُ جوهرًا وأشدُّ خلافاً . بل كاختلاف ما بين المكي والمدني ، والبدوي والحضري ، والسَّهْلِي والجَبَلِي ، وكاختلاف ما بين الطائي الجبلي والطائي السَّهْلِي ، وكما يقال : أن هذيلًا أكراد العرب ، وكاختلاف ما بين من نزل البطون وبين من نزل الحُرُون ، وبين من نزل النُجُود وبين من نزل الأغوار .

وزعمت أن هؤلاء وإن اختلفوا في بعض اللغة ، وفارق بعضهم بعضاً في بعض الصُّور ، فقد تحالفت عليها تميم ، وسُفْلَى قيس ، وعَجَز هوازن وفصحاء الحجاز ، في اللغة ، وهي في أكثرها على خلاف لغة حمير ، وسُكَّان تحاليف اليمن ، وكذلك في الصُّورة والشَّامِل والأَخلاق <sup>(١)</sup> . وكلهم مع ذلك عربيٌّ خالص ، غير مشوب ولا مُعلَّج <sup>(٢)</sup> ولا مذرَّع <sup>(٣)</sup> ولا مزَّج <sup>(٤)</sup> . ولم يختلفوا اختلاف ما بين بني قحطان وبني عدنان ، من قَبْل <sup>(٥)</sup> ما طبع الله

٢٢ و

(١) ج ، ف : « وكذلك الصورة والصورة ، والشَّامِل والشَّامِل ، والأَخلاق والأَخلاق » .

(٢) المُلَّحَج : الهجين . وهو العربي ولد من أمة

(٣) المذرَّع : الذي أمه عربية وأبوه غير عربي . وأنشد :

إذا باهلي عنده حظلية لها ولد منه فذاك المذرَّع

ف ، ج : « مربوع » تحريف .

(٤) المزَّج : الدعي ، والمزَّج بالقوم وليس منهم .

(٥) في الأصل : « بأمر قبل » ، صوابه في سائر النسخ .



عليه تلك البرية من خصائص الفرائز ، وما قسم الله تعالى لأهل كل جزيرة<sup>(١)</sup> من الشكل والصورة<sup>(٢)</sup> ومن الأخلاق واللغة .

فإن قلت : فكيف كان أولادها جميعاً عرباً مع اختلاف الأبوة .

قلنا : إن العرب<sup>(٣)</sup> لما كانت واحدة فاستووا في التربة وفي اللغة ، والسمائل والهمة ، وفي الأنف والحمية<sup>(٤)</sup> ، وفي الأخلاق والسجية ، فسبكوا سبكاً واحداً ، وأفرغوا إفراغاً واحداً ، وكان القلب واحداً ، تشابهت الأجزاء وتناسبت الأخلاط ، وحين صار ذلك أشد تشابهاً في باب الأعم والأخص وفي باب الوفاق والمباينة<sup>(٥)</sup> من بعض ذوى الأرحام . جرى عليهم حكم الاتفاق في الحسب ، وصارت هذه الأسباب ولادة أخرى حتى تناكحوا عليها ، وتظاهروا من أجلها ، وامتنعت عدنان قاطبة من منازحة بنى إسحاق وهو أخو إسماعيل ، وجادوا بذلك في جميع الدهر لبني قحطان - وهو ابن عابر<sup>(٦)</sup> - ففي إجماع<sup>(٧)</sup> الفريقين على التناكح والمصاهرة ، ومنعهما من ذلك جميع الأمم : كسرى فمن دونه ، دليل على أن النسب عندهم متفق ، وأن هذه المعاني قد قامت عندهم مقام الولادة والأرحام الماسة .

(١) الجزيرة ، بالكسر : الناحية ، كما في القاموس . ف . ج : « جزيرة » تحريف .

(٢) في الأصل : « الصور » مع سقوط الواو بعدها ، ووجه من سائر النسخ .

(٣) م . ف : « الجزيرة » .

(٤) الأنف . بالتحريك : الأنفة . ف فقط : « الأنفة » .

(٥) م . ف : « وفي البنية » . وفي الأصل : « المشية » ، وأثبت ما في سائر النسخ .

(٦) في الأصحاح ١١ : ١٢ من التكوين أنه قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفكشاد .

(٧) في الأصل : « اختلاف » ، صوابه من سائر النسخ .

وزعمت أنه أراد الفرقة والتحزيب<sup>(١)</sup> ، وأنت أردت الألفة والتقريب .  
 وزعمت أيضاً أن البَنَوِيَّ خُراساني ، وأنَّ نسبَ الأبناء نسبُ آبائهم ،  
 وأنَّ حُسنَ صنيعِ الآباء ، وقديمَ فعالِ الأجداد ، هو حسبُ الأبناء . وأنَّ  
 المواليَ بالعرب أشبه ، وإليهم أقرب ، وبهم أَمْسٌ ؛ لأنَّ السُّنَّةَ جعلتهم منهم .  
 فقلت : إنَّ المواليَ أقرب إلى العرب في كثير من المعاني ؛ لأنَّهم عربٌ  
 في المدَّعى<sup>(٢)</sup> ، وفي العاقلة<sup>(٣)</sup> ، وفي الوراثة<sup>(٤)</sup> . وهذا تأويل قوله « مولى  
 القوم مِنْهم » و « مولى القوم مِنْ أنفسهم »<sup>(٥)</sup> ، و « الولاء لِحُمةٍ كُلِّحُمةٍ  
 النَّسبِ »<sup>(٦)</sup> . وعلى شبيه ذلك صار حليفُ القوم منهم ، وحكمه حكمهم ، فصار  
 الأخنس بن شُرَيْق<sup>(٧)</sup> وهو رجلٌ من ثقيف ، وكذلك يعلَى بن مُنَيَّةَ<sup>(٨)</sup>  
 وهو رجلٌ من بَلْعَدَوِيَّةٍ ، وكذلك خالد بن عُرْفُطَةَ<sup>(٩)</sup> وهو رجلٌ من عُذْرَةَ

ظ ٢٢

(١) التحزيب : أن يجعلهم أحزاباً وفرقاً . في الأصل : « التخويف » صوابه في سائر النسخ .

(٢) في الأصل فقط : « النسب » .

(٣) العاقلة : العصبية التي تمقل عن القاتل دية .

(٤) م ، ف : الراية » .

(٥) أخرجه البخاري عن أنس . الجامع الصغير ٩١٢٤ .

(٦) أخرجه الطبراني عن عبد الله بن أبي أوفى ، والحاكم والبيهقي عن ابن عمر . الجامع الصغير ٩٦٨٧ .

(٧) ترجم له في الإصابة ٦١ وذكر أنه ممن اختلف في إسلامه .

(٨) في الأصل : « منه » ، صوابه في سائر النسخ وجمهرة ابن حزم ٢١٣ ،

٢٢٩ . قال ابن حزم : « وهى أمه ، وهى بنت غزوان ، أخت عتبة بن غزوان . اسم أبيه أمية بن عبدة » .

(٩) الاشتقاق ٥٤٧ .

من قريش . وبذلك النَّسَب حَرُمَت الصَّدَقَةُ عَلَى مَوَالِىِ بَنِي هَاشِمٍ : فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَجْرَاهُمْ فِي بَابِ التَّنْزِيهِ وَالتَّطْهِيرِ تَجْرَى مَوَالِيَهُمْ . وبذلك السَّبَبُ قَدَّمَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى عَبْدِ الْمُطَّلَبِ عَلَى بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ ، وَقَرَابَتِهِمْ سِوَاهُ وَنَسَبُهُمْ وَاحِدٌ ، لِأَمَقْدِ الْمُتَقَدِّمِ ، وَلِلْأَيْدِيِ الْمُتَّفِقَةِ .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مِنَّا خَيْرٌ قَارِسٍ فِي الْعَرَبِ : عُكَّاشَةُ ابْنُ مَخْصَنٍ <sup>(١)</sup> » ، فَقَالَ ضِرَارُ بْنُ الْأَزْوَْرِ الْأَسَدِيُّ : ذَاكَ رَجُلٌ مَنَّا يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ : « بَلْ هُوَ مَنَّا بِالْحِلْفِ » . فَجَمَلَ حَلِيفَةُ الْقَوْمِ مِنْهُمْ ، كَمَا جَعَلَ ابْنُ أُخْتِ الْقَوْمِ مِنْهُمْ .

ثُمَّ زَعَمْتَ أَنَّ الْأَتْرَاكَ قَدْ شَارَكُوا هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ فِي هَذَا النَّسَبِ ، وَصَارُوا مِنَ الْعَرَبِ بِهَذَا السَّبَبِ ، مَعَ الَّذِي بَاتُوا بِهِ مِنَ الْخِلَالِ ، وَحُبُّوَاهُ مِنْ شَرَفِ الْخِلَاصِ .

عَلَى أَنَّ وَلَا الْأَتْرَاكَ لِلْبَابِ قُرَيْشٍ ، وَلَمْ صَاصٍ عَبْدُ مَنْفٍ ، وَ [ هَمْ ] فِي سِرِّ بَنِي هَاشِمٍ ، [ وَهَاشِمٌ <sup>(٢)</sup> ] مَوْضِعُ الْعَذَارِ مِنْ خَدِّ الْفَرَسِ ، وَالْعِقْدِ مِنْ لَبَّةِ السَّكَاعِبِ ، وَالْجَوْهَرِ الْمَكْنُونِ ، وَالذَّهَبِ الْمَصْقَى ، وَمَوْضِعُ الْمُحَقَّةِ مِنَ الْبَيْضَةِ ، وَالْعَيْنِ فِي الرَّأْسِ ، وَالرَّوْحِ مِنَ الْبَدَنِ ؛ وَهُمْ الْأَنْفُ الْمُقَدَّمُ ، وَالسَّنَامُ الْأَكْبَرُ <sup>(٣)</sup> ، وَالذَّرَّةُ الزَّهْرَاءُ ، وَالرَّوْضَةُ الْخَضْرَاءُ ، وَالذَّهَبُ الْأَحْمَرُ . قَدْ شَارَكُوا الْعَرَبَ فِي أَنْسَابِهِمْ ، وَالْمَوَالِيَ فِي أَسْبَابِهِمْ ، وَفَضْلِهِمْ

(١) الإصابة ٥٦٣٦ . وعكاشة بتشديد الكاف وتخفيفها ، وفيه الحديث : « سبقك بها عكاشة » .

(٢) ساقطة من الأصل ثابتة في سائر النسخ .

(٣) في سائر النسخ : « الأكبر » .

بهذا الفضل الذي لا يبلغه فضل وإن برع ، بل لا يعشره شرف وإن عظم ، ولا مجد وإن قدم .

فرعمت أن أنساب الجميع متقاربة غير متباعدة ، وعلى حسب ذلك التقارب تكون المؤازرة والمكاتفة ، والطاعة والمناسحة ، والمحبة للخلفاء والأئمة .

وذكرت أنه ذكر رجلاً من مفاخرة الأجناس ، وجمهرة من مناقب هذه الأصناف ، وأنه جمع ذلك وقصّله<sup>(١)</sup> وفسّره ، وأنه ألغى ذكر الأتراك فلم يعرض لهم ، وأضرب عنهم صفحا ، يخبر عنهم كما أخبر عن حجة كل جيل ، وعن برهان كل صنف ؛ وذكر أن الخراساني يقول : نحن النقباء وأبناء النقباء ، ونحن النجباء وأبناء النجباء ، ومنا الدعاة ، قبل أن تظهر نقابة<sup>(٢)</sup> ، أو تعرف نجابة ، وقبل المغالبة والمباراة ، وقبل كشف القناع وزوال التقيّة وزوال ملك أعدائنا عن مستقرّه ، وثبات ملك أوليائنا في نصابه . وبين ذلك ما قتلنا وشردنا ، ونهكنا ضرباً<sup>(٣)</sup> وبضعنا بالسيف الحداد<sup>(٤)</sup> ، وعذبنا بالوان العذاب .

و ٢٣

وبنا شق الله الصدور ، وأدرك الثار . ومنا الاثناعشر النقباء ، والسبعون النجباء . ونحن الخندقية<sup>(٥)</sup> ، ونحن الكفّية وأبناء الكفّية<sup>(٦)</sup> .

(١) بعه في معظم النسخ : « وأجمله » .

(٢) النقابة ، بالفتح المصدر ، وبالكسر الاسم . والنقيب : التعريف على القوم المقدم عليهم الذي يتعرف أخبارهم وينقب عن أحوالهم .

(٣) م ، ف : « وطلباً » .

(٤) الحداد : المرهقة ، جمع حديد . والبضع : القطع والشق .

(٥) الخندقية : أصحاب الخنادق أيام نصر بن سيار ، كما سيأتي .

(٦) م ، ف : « الكفّية وأبناء الكفّية » .

ومنا المستجيبة ومن يهرج التيمية<sup>(١)</sup> ومنا نيم خزان<sup>(٢)</sup> وأصحاب الجورين<sup>(٣)</sup>  
ومنا الزغندية<sup>(٤)</sup> والآذمردية<sup>(٥)</sup>.

ونحن فتحنا البلاد وقتلنا العباد ، وأبدنا العدو بكل وادٍ . ونحن أهل هذه  
الدولة ، وأصحاب هذه الدعوة ، ومَنبَت هذه الشجرة . ومن عندنا هَبَّت  
هذه الرِّيح .

والأنصار أنصاران : الأوس والخزرجُ نصر النبي صلى الله عليه وسلم  
، أوَّل الزمان ، وأهل خراسان نصرُوا ورثته في آخر الزمان . غَدَانَا بِذَلِكَ  
الهاؤنا وغَدَوْنَا بِهِ أَبْنَاءَنَا ، وصار لنا نسباً لا نعرف إلاَّ بِهِ ، وديننا لا نوالِي  
إلاَّ عَلَيْهِ .

ثم نحن على وتيرة واحدة ، ومنهاج غير مشترك ؛ نعرف بالشيعة ،  
، لدين بالطاعة ، ونقتل فيها ونموت عليها . سِيَّامَنَا موصوفٌ ، ولباسنا معروف .  
، نحن أصحاب الرِّاياتِ السود ، والروايات الصحيحة ، والأحاديث الماثورة ،  
، الذين يهدمون مَدَنَ الجبابرة ، وَيَنزِعُونَ الْمُلُوكَ مِنْ أَيْدِي الظُّلَمَةِ . وفيها

(١) ن ، س : « يهرج » م . : « التيمية » .

(٢) ف : « تيم » بدل « نيم » .

(٣) الجورين مبهلة في الأصل وإعجمها من س ، ن . وفي ف : « الجوزتين »

م ، م : « الجوزتين » .

(٤) زغند ، في الفارسية بمعنى صوت الحيوان الوحشي . في الأصل : « الدغندية »  
« ألبي ما في سائر النسخ . وسيأتي قوله : « ولنا الأصوات التي تسقط منها الحبالى » :

(٥) الآذامردية ، اسم كان يطلق على طبقة الأشراف من الفرس . انظر مقال

الآذامرد كراوس في مجلة الثقافة العدد ٢٢٤ .

تَقْدَمُ الْخَبْرُ ، وَصَحَّ الْأَثَرُ . وَجَاءَ فِي الْحَدِيثِ صِفَةُ الَّذِينَ يَفْتَحُونَ عُمُورِيَّةَ<sup>(١)</sup> وَيُظْهِرُونَ عَلَيْهَا ، وَيَقْتُلُونَ مُقَاتِلِيهَا وَيَسْبُونَ ذُرَارِيَهَا ، حَيْثُ قَالُوا فِي نَعْتِهِمْ : « شُعُومُ شُعُورِ النِّسَاءِ ، وَثِيَابُهُمْ ثِيَابُ الرِّهْبَانِ » . فَصَدَّقَ الْفَعْلُ الْقَوْلَ ، وَحَقَّقَ الْخَبْرَ الْعِيَانُ .

وَنَحْنُ الَّذِينَ ذَكَرْنَا وَذَكَرَ بِلَاءُنَا أُمَامُ الْأُئِمَّةِ ، وَأَبُو الْخِلَاطِيِّ الْعَشْرَةِ : مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ<sup>(٢)</sup> ، حِينَ أَرَادَ تَوْجِيَةَ الدُّعَاةِ إِلَى الْآفَاقِ ، وَتَفْرِيقَ شِيعَتِهِ فِي الْبِلَادِ ، أَنْ قَالَ :

أَمَّا الْبَصْرَةُ وَسَوَادُهَا فَقَدْ غَلَبَ عَلَيْهَا عُثْمَانُ وَصَنَائِعُ عُثْمَانَ ، فَلَيْسَ بِهَا مِنْ شِيعَتِنَا إِلَّا الْقَلِيلُ . وَأَمَّا الشَّامُ فَشِيعَةُ بَنِي مَرْوَانَ وَآلِ أَبِي سُفْيَانَ . وَأَمَّا الْجَزِيرَةُ فَحَرُورِيَّةٌ شَارِيَّةٌ<sup>(٣)</sup> ، وَخَارِجَةٌ مَارِقَةٌ ، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِهَذَا الشَّرْقِ ؛ فَإِنَّ هُنَاكَ صَدُورًا سَلِيمَةً وَقُلُوبًا بَاسِلَةً ، لَمْ تُفْسِدْهَا الْأَهْوَاءُ ، وَلَمْ تَخَامِرْهَا الْأَدْوَاءُ ، وَلَمْ تَعْتَقِبْهَا الْبِدْعُ ، وَهُمْ مَغِيظُونَ مَوْتُورُونَ . وَهُنَاكَ الْقَدَدُ [ وَالْمُدَّةُ<sup>(٤)</sup> ] ، وَالْعَتَادُ وَالذَّجْدَةُ .

٢٣ ظ

(١) عُمُورِيَّةٌ : بَلَدٌ فِي بِلَادِ الرُّومِ ، فَتَحَهَا الْمُعْتَصِمُ الْعَبَّاسِيُّ سَنَةَ ٢٢٣ . وَلِهَذَا الْفَتْحُ قِصَّةٌ عَجِيبَةٌ فِي كُتُبِ التَّارِيخِ . وَفِيهِ يَقُولُ أَبُو تَمَامٍ :

يَا يَوْمَ وَقَعَتْ عُمُورِيَّةٌ انْصَرَفَتْ عَنْكَ الْمَنَى حَفْلًا مَعْرُولَةً الْحَلَبِ

(٢) مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ ، وَالِدُ السَّفَّاحِ وَالْمَنْصُورِ ، أَوَّلُ مَنْ نَطَقَ بِالدَّعْوَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ . تَوَفَّى سَنَةَ ١٢٥ . تَهْذِيبُ التَّهْذِيبِ .

(٣) الشَّارِيَّةُ : جَمْعُ شَارٍ ، وَهِيَ الَّتِي شَرَوْا أَنْفُسَهُمْ أَيَّ بَاعُوهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَهِيَ الْخَوَارِجُ .

(٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ ثَابِتَةٌ فِي سَائِرِ النُّسخِ .

ثم قال : [ وأنا أتفاءل<sup>(١)</sup> ] إلى حيث يطلع منه النهار<sup>(٢)</sup> . فكنا خير جُندٍ  
الخير إمام ؛ فصدقنا ظنه ، وثبتنا رأيه ، وصوبنا فراسته .

وقال مرة أخرى :

أمرنا هذا شرقاً لا غرباً ، ومُقبل لا مدبر<sup>(٣)</sup> ، يطلع كطلوع الشمس ،  
ويمتدُّ على الآفاق امتدادَ النهار ، حتَّى يبلغ حيث تبلغه الأخفاف<sup>(٤)</sup> ، وتناله  
الحوافر .

قالوا : ونحن قتلنا الصَّحَّاحِيَّةَ<sup>(٥)</sup> ، والدَّالِقِيَّةَ ، والدَّكْوَانِيَّةَ ، والرَّاشِدِيَّةَ<sup>(٦)</sup> .  
ونحن أيضاً أصحاب الخنادق أيتام نصر بن سيار ، وابن جُدَيْعِ الكَرْمَانِي<sup>(٧)</sup> ،  
وشيبان بن سلمة الخارجي . ونحن أصحاب نبأته بن حنظلة<sup>(٨)</sup> ، وعامر بن  
ضُبارة<sup>(٩)</sup> ، وأصحاب ابن هبيرة . فلنا قديم هذا الأمر وحديثه ، وأوله وآخره

(١) موضعها يابض في الأصل « وإثباتها من سائر النسخ .

(٢) م ، ف : « إلى حيث ما تطلع » فقط . ن ، س : « إلى حيث يطلع النهار » .

(٣) م ، ف : « غير مدبر » .

(٤) م ، ف : « حيثما تبلغه الأخفاف » .

(٥) في الأصل ، م ، ف : « الصحَّاحِيَّة » صوابه في ن . س .

(٦) الصحَّاحِيَّة : نسبة إلى صحَّاح ، وكان أحد التكلمين . انظر الحيوان  
٣ : ٣٩٥ والبخلاء ٤ والطبرى ٩ : ١٣١ في حوادث سنة ١٣٢ . والدالقية ، بدلها في  
الطبرى : « الدوكانية » . والراشدية ذكرهم الطبرى في الموضع الذي أشرت إليه .

(٧) هو علي بن جديع الكرماني . الطبرى ٩ : ٩١ ، ٩٧ . والاشتقاق ٢٩٥  
١ : ٣١٧ المخطوطات ٢ : ١٨٦ ، ١٩١ وجمهرة ابن حزم ٣١٧ .

(٨) جمهرة أنساب العرب ٢٨٣ . وهو من بني كلاب بن ربيعة .

(٩) الاشتقاق ٢٨٩ ، ٢٩٠ . والجمهرة ٢٥٤ ، وكان من قواد ابن هبيرة .

(٢ - رسائل الجاهظ )

ومنا قاتل مروان<sup>(١)</sup> .

ونحن قوم لنا أجسام وأجرام ، وشعور وهام ، ومناكب عظام ،  
وجباه عراض ، وقصر غلاظ<sup>(٢)</sup> ، وسواعد طوال .

ونحن أولد للذكورة ، وأنسل بعولة ، وأقل ضوى وضؤولة ، وأقل  
إتاما وأنتق أرحاما<sup>(٣)</sup> ، وأشد عسبا وأتم عظاما ، وأبداننا أحمّل للسلح ،  
وتجفأنا<sup>(٤)</sup> أملا للعيون .

ونحن أكثر مادة ، وأكثر عددا وعدة .

ولو أن ياجوج وماجوج كثروا من وراء النهر منا لظهروا عليهم بالتعدد .  
فأما الأيد وشدة الأسر ، فليس لأحد بعد عاد وثمود والعاقلة والسكنعانيين  
مثل أيدنا وأسرننا .

(١) في الطبري ٩ : ١٣٦ أن قاتل مروان بن محمد سنة ١٣٢ رجل من أهل  
البصرة يقال له « المغود » . في الأصل : « وبنا قاتل من ولي » ، صوابه في سائر النسخ .  
(٢) القصر ، بالتحريك : جمع قصرة ، وهي أصل العنق ، وبه فسر ابن عباس  
قوله تعالى : « إنها ترمي بشرر كالقصر » في قراءته بفتح الصاد . في الأصل : « قصص »  
وفي ن ، س : « قصص » صوابه في م ، ف .

(٣) هذا ما في م ، ف . والإتام : أن تلد اثنين في بطن . وأنتق أرحاما :  
أكثر ولادة . وفي الأصل : « وأجل أحسابا وأوثق أبدانا » وفي ن ، س :  
« وأقل أياح وأنتق أرحاما » ، لكن بعض أصول ن توافق الأصل .

(٤) التجفاف : ما جلل به الفرس من سلاح وآلة تقيه الجراح في الحرب .  
وفي الأصل : « وخفأنا » وفي سائر الأصول : « وأخفأنا » ، والوجه ما أثبت .  
وفي البيان ٣ : ١٨ في قول الشعوية : « ولا تعرفون الأقية ولا السراويلات ،  
ولا تعليق السيوف ، ولا الطبول ولا البنود ولا التجافيف » وانظر ص ١٩ س ١٢ .



ولو أن خيول الأرض وفرسان جميع الأطراف جُمِعوا في حَلْبَةٍ واحدة ،  
لَكُنَّا أَكْثَرَ فِي الْعَيُونِ ، وَأَهْوَلَ فِي الصُّدُورِ .

ومتى رأيتَ مواكبتنا وفرساننا ، وبنودنا التي لا يحملها غيرُنا ، عَلِمْتَ  
أَنَّا لَمْ نَخْلُقْ إِلَّا لِقَلْبِ الدُّوَلِ ، وَطَاعَةِ الْخُلَفَاءِ ، وَتَأْيِيدِ السُّلْطَانِ .

٢٤ و

ولو أن أهل الثَّبَّتِ ورجال الزَّابِج<sup>(١)</sup> ، وفرسان الهند ، وحلبة الروم ، هَجَمَ  
عليهم هاشم بن أشتانج<sup>(٢)</sup> لما امتنعوا من طَرْحِ السِّلَاحِ وَالْهَرَبِ فِي الْبِلَادِ .  
وَنَحْنُ أَصْحَابُ اللَّحَى وَأَرْبَابُ النَّهْيِ ، وَأَهْلُ الْحِلْمِ وَالْحِجَا ، وَأَهْلُ  
النَّخَانَةِ<sup>(٣)</sup> فِي الرَّأْيِ ، وَالْبُعْدِ مِنَ الطَّيْلِشِ . وَلَسْنَا كَجُنْدِ الشَّامِ الْمُتَعَرِّضِينَ لِلْحَرَمِ ،  
وَالْمُنْتَهَكِينَ لِكُلِّ مَحْرَمٍ .

وَنَحْنُ نَاسٌ لَنَا أَمَانَةٌ وَفِينَا عِفَّةٌ . وَنَحْنُ نَجْمَعُ بَيْنَ النَّزَاهَةِ وَالْقَنَاعَةِ وَالصَّبْرِ  
عَلَى الْخِدْمَةِ ، وَالتَّجْمِيرِ عِنْدَ بَعْدِ الشُّقَّةِ<sup>(٤)</sup> . وَلَنَا الطُّبُولُ الْمَهُولَةُ الْعِظَامِ وَالْبُنُودُ ،  
وَنَحْنُ أَصْحَابُ التَّجَافُيفِ وَالْأَجْرَاسِ ، وَالْبَازِيكَنْدِ<sup>(٥)</sup> وَاللُّبُودِ الطَّلَوَالِ ، وَالْأَغْمَادِ

(١) الزابج بفتح الباء وكسر ها : جزيرة في أقصى بلاد الهند في حدود الصين .  
وفي الحيوان ٧ : ٣٣٠ : « ويزعم تجار التبت ممن قد دخل الصين والزابج » . م :  
« الزنج » ، تحريف .

(٢) كلمة « بن » ساقطة من الأصل ، وإثباتها من سائر النسخ والطبرى  
٩ : ٢٨٣ . وقتل هاشم هذا سنة ١٥٢ .

(٣) في الأصل : « النجابة » ، وفي م ، س : « النجاة » ، وأثبت  
ما في سائر النسخ . والمراد قوة الرأي وجزالته .

(٤) تجمير الجيش : إبقاؤه في ثغر العدو .

(٥) البازيكند ، يبدو أنه كساء يلقي على الكتف . و « باز » في الفارسية =

المعقفة<sup>(١)</sup> والشوارب المعقربة ، والقلائس الشاشية ، والخيول الشهريّة<sup>(٢)</sup> ،  
والكافر كوبات<sup>(٣)</sup> والطبرزينات<sup>(٤)</sup> [ في الأكف ] ، والخناجر في الأوساط .  
ولنا حسن الجلسة على ظهور الخيل . ولنا الأصوات التي تسقط منها الخبالي .

وليس في الأرض صناعة غريبة من أدب وحكمة ، وحساب وهندسة ،  
وإيقاع وصنعة<sup>(٥)</sup> ، وفقيه ورواية ، نظرت فيها الخراسانية إلا فرّعت فيها  
الرؤساء<sup>(٦)</sup> ، وبرّت فيها العلماء .

ولنا صنعة السلاح من لبّد وركابٍ ودِرْع . ولنا مما جعلناه رياضة  
وتمريناً ، وإرهاصاً للحرب ، وتنقيفاً ودُرْبَةً المَجَاوِلَة والمُثَاوِلَة ، [ و ] للكرّ

---

= بمعنى الكتف . انظر البيان ١ : ٩٥ / ٣ : ١١٥ . في الأصل : « الباركد »  
وفي سائر النسخ : « البار فكد » .

(١) المعقفة : المعوجة ، وذلك لاعوجاج السيوف التي تجعل فيها . ف :  
« والأعمدة والحقفة » ج : « والأعمدة والمعقفة » .

(٢) في البيان : « والشهريّة : ضرب من البراذين ، وهو بين البرذون والقرف  
من الخيل » .

(٣) الكافر كوبات : جمع كافر كوب ، وهي القرعة . انظر حواشي البيان  
١ : ١٤٢ . في الأصل : « الكافر كورات » ، صوابه في سائر النسخ .

(٤) الطبرزينات : جمع طبرزين ، وهو فأس تستعمل في القتال عند الفرس .  
مركب من « تبر » بمعنى الفأس ، و « زين » بمعنى السرج ، لعله سمي بذلك للترام  
وضعه بجانب السرج . استينجاس ٢٧٠ والمغرب ١٩٤ والألفاظ الفارسية ١١١ .  
وكلمة « في الأكف » بعدها من سائر النسخ .

(٥) م ، ف : « وارتفاع بناء وصنعة » .

(٦) فرّعه : علاه وطاله .

بعد الكر : مثل الدَّبُوق<sup>(١)</sup> ، والنَّزْو على الخيل صغارًا ، ومثل الطَّبْطَاب<sup>(٢)</sup> والصَّوَالِجَة الكبار ، ثم رمى الجُثْمَة<sup>(٣)</sup> ، والبرجاس<sup>(٤)</sup> والطائر الخَطَاف .  
فنحن أحقُّ بالأثَرَة<sup>(٥)</sup> ، وأولى بشرف المنزلة .

ثم قلت : وزعم أن القُرْبَة<sup>(٦)</sup> تُسْتَحَقُّ بالأسباب الثابتة ، وبالأرحام الشائكة ، وبالقدمة ، والطاعة للآباء ، والعشيرة ، وبالشكر النافع ، والمدح الكافي<sup>(٧)</sup> بالشعر الموزون الذى يبقى بقاء الدهر ، ويلوح ملاح نجم ، ويُفَسِّد ما أهْلٌ بالخج ، وما هَبَّت الصَّبا ، وما كان للزَّيت عاصر : وبالكلام المنثور والقول الماثور . أو بصفة مخرج الدولة والاحتجاج للدعوة ، وتقييد المآثر ، إذ لم يكن [ ذلك من<sup>(٨)</sup> ] عادة العجم ، ولا كان يُحفظ ذلك معروفًا لسوى العرب . ونحن نرتبطها بالشعر المقفى ، ونصلها بحفظ الأُمِّيِّين<sup>(٩)</sup> . [ الذين

٢٤ ظ

(١) فى اللسان : « الدبوق : لعبة يلعب بها الصبيان ، معروفة » .

(٢) الطبطاب : مضرب الكرة .

(٣) الجثمة : مانصب من الحيوان للرمى والقتل ،

(٤) البرجاس : غرض فى الهواء على رأس رمح أو نحوه . الألفاظ الفارسية

١٨ . فى الأصل وم : « البرجاسب » وفى ف : « البرجاسبار » ، وأثبت ما فى سائر النسخ .

(٥) فى الأصل وبعض أصول ن : « بالإمرة » . وانظر ٢٥ س ٩ و ٢٨ س ١٤ .

(٦) القربة : القرابة . م : « إن تكن القربة » ف « إن تكن القرى » :

(٧) م ، ف : « والمدح الباقي » ولعلها : « والمدح الباقي » .

(٨) التكملة من سائر النسخ .

(٩) فى الأصل : « الأثر » ، صوابه من سائر النسخ . وقد سقط بعده سقط كبير

ينتهى فى ص ٢٥ أثبتته من سائر النسخ بين معقفين .

لا يتكلمون على الكتب المدونة ، والخطوط المطرسة . ونحن أصحاب التفاخر والتنافر ، والتنازع في الشرف ، والتعالم إلى كل حكم مقنع وكاهن سجاج ولنا التعاير بالمثالب ، والتفاخر بالمناقب . ونحن أحفظ لأنسابنا ، وأرعى لحقوقنا وتقييدها أيضاً بالمشور المرسل ، بعد الموزون المعدل ، بلسان أمضى من السنان ، وأرهف من السيف الحسام ، حتى نذكرهم ما قد درس رسمه ، وعفا أثره .

وبين القتال من جهة الرغبة والرغبة فرق ، وليس المشرق في الحفاظ كمن هذا فيه حادث . وهذا باب يتقدم فيه التالذ القديم الطارف الحديث .

وطلاب الطوائل رجلا : سجستاني وأعرابي . وهل أكثر النقباء إلا من صميم العرب ، ومن صليبة هذا النسب ، كأبي عبد الحميد قحطبة ابن شبيب الطائي ، وأبي محمد سليمان بن كثير الخزاعي ، وأبي نصر مالك ابن الهيثم الخزاعي ، وأبي داود خالد بن إبراهيم الذهلي ، وكأبي عمرو لاهز ابن قريظ المرئي<sup>(١)</sup> ، وأبي عتبة موسى بن كعب المراني<sup>(٢)</sup> ، وأبي سهل القاسم ابن مجاشع المزني ، ومن كان يجري مجرى النقباء ولم يدخل فيهم ، مثل مالك ابن الطواف المرئي .

وبعد فمن هذا الذي باشر قتل مروان<sup>(٣)</sup> ، ومن هزم ابن هبيرة ، ومن

(١) نسبة إلى امرئ القيس . فهو لاهز بن قريظ بن سري بن الكاهن بن زيد بن عصية بن امرئ القيس . جمهرة أنساب العرب ٢١٤ . قال : « كان من وجوه أهل دعوة بني العباس » وفي الأصول : « المزني » ،

(٢) إن صح كان نسبة إلى مران بن جعفي بن سعد العشيرة . انظر جمهرة ابن حزم ٤٠٩ . والمعارف ٤٨ .

(٣) انظر ما سبق في ص ١٨ . ويبدو أن قتل مروان بن محمد كان موضع مفاخرة بين العرب وغيرهم .

قتل ابن ضبارة ، ومن قتل نباتة بن حنظلة ، إلا عَرَبُ الدَّعْوَةِ ، والصَّمِيمُ من أهل الدولة ؟! ومن فتح السُّنْدَ إلا موسى بن كعب ، ومن فتح إفريقية إلا محمد ابن الأشعث ؟!

وقلت : وقال : وتقول الموالى : لنا النصيحة الخالصة ، والمحبة الراسخة ، ونحن موضع الثقة عند الشدة . وعالم المولى<sup>(١)</sup> من تحت موجبة لمحبة المولى من فوق ، لأن شرف مولاه راجع إليه ، وكرمه زائد في كرمه ، وخوله يسقط لقدره . وبودّه أن خصال الكرام كلها اجتمعت فيه ؛ لأنه كلما كان مولاه أكبر وأشرف وأظهر ، كان هو بها أشرف وأنبل . ومولاك أسلم لك مدرا ، وأرد ضميرا ، وأقل حسدا .

وبعد فالولاء لجملة كلجمة النسب<sup>(٢)</sup> ، فقد صار لنا النسب الذي يصوبه العربي ، ولنا الأصل الذي يفتخر به العجمي .

قال : والصبر ضروري ، فأكرمها كلها الصبر على إفشاء السر . وللمولى ، هذه المكرمة ما ليس لأحد .

ونحن أخص مدخلا ، وألطف في الخدمة مسلكا . ولنا مع الطاعة ، الخدمة والإخلاص وحسن النية ، خدمة الأبناء للآباء ، والآباء للأجداد ، ومواليهم آنس ، وبناحيتهم أوثق ، وبكفائتهم أسر .

وقد كان المنصور ، ومحمد بن علي ، وعلي بن عبد الله ، يخصّون مواليهم بالمرأكة والبسط والإيتاس ، لا يهيجون الأسود لسواده<sup>(٣)</sup> ، ولا الدميم

(١) م : « المولى » ، وكذا بعض أصول ن .

(٢) انظر ما سبق في ١٢ س ٧ .

(٣) بهرج الشيء : أبطله وأهدره . والمراد أنهم لا يضعون من قدره .

لدمامته ، ولا الصناعة الدينية لدنايتها . ويوصون بحفظهم أكابر أولادهم ،  
ويعملون لكثير من موتاهم الصلاة على جنازتهم ، وذلك بحضرة من الصومعة  
وبني الأعمام والأخوة .

ويتذاكرون إكرام رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد بن حارثة  
مولاه ، حين عقد له يوم مؤتة على حيلة بني هاشم ، وجعله أمير كل بلدة  
يطؤها<sup>(١)</sup> .

ويتذاكرون حبه لأسامة بن زيد ، وهو الحب ابن الحب<sup>(٢)</sup> . وعقد له  
على عطاء المهاجرين وأكابر الأنصار .

ويتذاكرون صنيعه بسائر مواليه ، كأبي أنسة<sup>(٣)</sup> ، وشقران<sup>(٤)</sup> ،  
وفلان وفلان .

قالوا : ولنا من رؤوس النقباء أبو منصور مولى خزاعة ، وأبو الحكم  
عيسى بن أعين مولى خزاعة ، وأبو النجم عمران بن إسماعيل مولى آل

(١) أي يدخلها ويفتحها .

(٢) العثمانية للجاحظ ١٤٧ ، وقد وقع هناك تحريف في الطبع .

(٣) اختلف في اسم قتيل أنسة أيضا كما في الإصابة ٢٨٥ . وكان حبشيا كما في  
جوامع السيرة لابن حزم ١١٤ وكان يأذن على النبي صلى الله عليه وسلم ، ومات  
في خلافة أبي بكر .

(٤) شقران يقال كان اسمه صالح بن عدي ، وكان حبشيا أهدها عبد الرحمن بن  
عوف لرسول الله . الإصابة ٣٩١١ . وهو أحد من ولي رسول الله صلى الله عليه وسلم  
في فبره . جوامع السيرة ٢٦٥ . وذكر ابن هشام في السيرة ١٠١٨ أنه تولى صب  
الماء عليه في غسله .

أبى مُعَيْط . فلنا مناقب الخراسانية ، ولنا مناقب الموالي في هذه الدعوة ،  
ونحن منهم وإليهم ، ومن أنفسهم ، لا يدفع ذلك مسلم ولا ينكره مؤمن ،  
خدمناهم كباراً وحملاًهم على عواتقنا صفاراً . هذا مع حق الرضاع والخوالة ،  
والنشوء في الكتاب ، والتغلب في تلك العراض التي لم ييلفها إلا كل  
سعيد الجد ، وحيه في الملوك . فقد شاركنا العربي في غزوه ، والخراساني  
في مجده ، والبنوي في فضله ، ثم تفرّدنا بما لم يشاركونا فيه ، ولا سبقونا إليه .  
قالوا : ونحن أشكل بالرعية ، وأقرب إلى طباع الدهاء ؛ وهم بنا آنس  
وإلينا أسكن ، وإلى لقائنا أحن ؛ ونحن بهم أرحم ، وعليهم أعطف ، وبهم  
أشبه . فمن أحق بالآثرة ، وأولى بحسن المنزلة ممن هذه الخصال له ، وهذه  
الخلال فيه .

وقلت وذكرت أن البنوي قال :

أنا أصلي خراسان ، وهي تخرج الدولة ومطلع الدعوة ؛ ومنها نجم هذا  
القرن ، وصبا هذا الناب<sup>(١)</sup> ، وتفجّر هذا ينبوع ، واستفاض هذا البحر ،  
حتى ضرب الحق بجمراته<sup>(٢)</sup> ، وطبق الآفاق بضياته ، فأبرأ من الشقم القديم ،  
وشفى من الداء المضال ، وأغنى من العيلة<sup>(٣)</sup> ، وبصّر من العمى<sup>(٤)</sup> .

(١) صبا الناب : طلع حده وخرج .

(٢) ضرب بجمراته : استقر وثبت . وأصل الجمران باطن عنق البعير . فإذا  
برك البعير واستقر قيل : ألقى جمراته . وفي حديث عائشة أيضاً : « حتى ضرب الحق  
بجرانه » .

(٣) أي بعد العيلة وهي الفقر .

(٤) هنا يذهب السقط الذي بدأ في ص ٢١ ، وأثبتته من سائر النسخ .

قال : وفرعى بغداد ، وهى مستقرُ الخلافة ، والقرار بعد الحولة<sup>(١)</sup> ،  
وفيهما بقية رجال الدعوة ، وأبناء الشيعة ، وهى خراسان العراق ، وبيت  
الخلافة ، وموضع المادة .

قال : وأنا أغرقُ فى هذا الأمر من أبى ، وأكثرتُ تردداً فيه من جدى<sup>(٢)</sup> ،  
وأحقُّ فى هذا الفضل<sup>(٣)</sup> من المولى والعربى . ولنا بعدُ فى أنفسنا ما لا يُنكر من  
الصبر تحت ظلال السيوف القصار والرماح الطوال<sup>(٤)</sup> . [ ولنا معانقة الأبطال  
عند تحطُّم القنا وانقطاع الصفائح<sup>(٥)</sup> . ولنا المواجهة بالسكاكين ، وتلقى الخناجر  
باليون ، ونحن حُماة المستلحِم ، وأبناء المضايق . ونحن أهل الثبات عند  
الجولة ، والمعرفة عند الحيرة<sup>(٦)</sup> ، وأصحاب المشهورات ، وزينة المساكر  
وحلَى الجيوش ، ومن يمشى فى الرمح ، ويختال بين الصَّفين . ونحن أصحاب  
الفتك والإقدام ، ولنا بعدُ التسلُّق ، ونقب المدن ، والتقحم على ظلمات  
السيوف وأطرافِ الرماح ، ورضخ الجندل ، وهشمُ العمد ، والصبر على  
الجراح وعلى جرِّ السَّلاح<sup>(٧)</sup> إذا طار قلبُ الأعرابى ، وساء ظنُّ الخراسانى .  
ثم الصبر تحت العقوبة ، والاحتجاج عند المسألة ، واجتماع العقل ، وصحة

(١) الحولة ، بالحاء المهملة المفتوحة : التحول والتقل .

(٢) فى الأصل ون ، س : « وأكثرتُ تردداً من جدى » ، وأثبت ما فى م ، ف .

(٣) ج ، ف : « وأحقُّ بهذا الفضل »

(٤) بعده سقط فى الأصل ، تمامه فى ص ٢٨ س ٩ .

(٥) الصفائح : جمع صفيحة ، وهى السيف العريض .

(٦) ج وبعض أصول ن : « الحيرة » . وفى سائر النسخ : « الخبرة » ،

وانوجه ما أثبت .

(٧) يقال أجرة الرمح ، إذا طعنه به فمضى وهو يجره .



الطرف ، وثبات القدمين ، وقلة التكفي بخيل العقابين<sup>(١)</sup> ، والبعد من الإقرار<sup>(٢)</sup> ، وقلة الخضوع للدعر والخضوع عند جفوة الزوار<sup>(٣)</sup> وجفاء الأقارب والإخوان .

ولنا القتال عند أبواب الخنادق ، ورؤوس القناطر . ونحن الموت الأحمر عند أبواب الثقب . ولنا المواجهة في الأزقة ، والصبر على قتال الشجون . فسئل عن ذلك الخايدية<sup>(٤)</sup> ، والكتفية ، والبلائية ، والخريبة<sup>(٥)</sup> . ونحن أصحاب المكابدات<sup>(٦)</sup> وأرباب البيات ، وقتل الناس جهاراً في الأسواق والطقات .

ونحن نجمع بين السلة والمزاحفة<sup>(٧)</sup> . ونحن أصحاب القنا الطوال ما كنا رجالة ، والمطارذ القصار ما كنا فرسانا<sup>(٨)</sup> . فإن صرنا كمننا<sup>(٩)</sup> فالحنف

(١) التكفي : التميل والتقلب . والعقaban : خشبتان يشبع بينهما الرجل فيجلد . اللسان ( عقب ) وجنى الجنتين ٨٠ .

(٢) ف فقط : « من الفرار » . والمراد الإقرار بالذال .

(٣) في « نظم الأصول : « حفة » . بالحاء المهملة ، والوجه ما أثبت .

(٤) طائفة منسوبون إلى خلد ، وجاء في البخلاء ٤٢ - ٤٣ : « سأل عن الكتيفية والخليدية والخريبة والبلائية » . ويبدو أنهم طوائف من أهل الشغب والقوضى .

(٥) الخريبة : نسبة إلى الخرية ، بالتصغير . وهي موضع بالبصرة ، يبدو أنه كان أوى للشاطر .

(٦) هذا ما في ف . وفي سائر الأصول : « المكابدات » .

(٧) السلة : الدفعة في السباق إحضاراً .

(٨) المطارد ، جمع مطرد بالكسر ، وهو الرمح القصير .

(٩) جمع كمين . وهم الذين يكمنون ويخفون في الحرب .

القاضي ، والسُّمُّ الذُّعَاف . وإنْ كُنَّا طلائعَ فُكُنَّا يقوم مقامَ أمير الجيش .  
نقاتل بالليل كما نقاتل بالنَّهار ، ونقاتل في الماء كما نقاتل على الأرض ، ونقاتل  
في القرية كما نقاتل في الحلة .

ونحن أفنك وأخشب<sup>(١)</sup> ، ونحن أقطع للطريق وأذكر في الشُّعُور ،  
مع حُسن القدود وجودة الخُرط ومقادير اللِّحَى ، وحُسن العِمَّة ، والنفس المُرَّة .  
وأصحابُ الباطل والفتوة<sup>(٢)</sup> ، ثم الخط والكُتابة ، والفقه والرُّواية .

ولنا بغدادُ بأسرها ، تسكن ماسكننا ، وتتحرك ما تحركنا . والدُّنيا  
كلُّها معلقةٌ بها ، وصائرة إلى معناها . فإذا كان هذا أمرها وقدرها فجميع  
الدُّنيا تبعُ لها<sup>(٣)</sup> . وكذلك أهلها لأهلها . وفَتَّاكها لفتَّاكها ، وخُلاَعها  
لخُلاَعها<sup>(٤)</sup> ، ورؤساؤها لرؤسائها ، وصلحاؤها لصلحائها .

ونحن بعدُ تربيةُ الخلفاء ، وجيرانُ الوُزراء ، ولِدنا في أفنية مُلوكننا ،  
ونحن أجنحةُ خلفائنا ، فأخذنا بآثارهم ، واحتدبنا على مثالمهم ، فلسنا نعرف  
سواهم ، ولا نعرف بغيرهم ، ولا يطمع فينا أحدٌ قَطُّ من خطاب مُلكهم ،  
ومن يترشَّح للاعتراض عليهم . فمَنْ أَحَقُّ بالأثمة ، وأولى بالقرب في المنزلة  
يَمُنُّ هذه الخصالُ فيه . وهذه الخلالُ له .

(١) أى أشد خشونة وغلاظة .

(٢) كلمة « الباطل » ساقطة من ف .

(٣) هنا ينتهى سقط الأصل الذى بدأ فى ص ٢٦ س ٦ وإثباته من سائر النسخ .

(٤) كذا فى جميع النسخ .

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنْ ذَهَبْنَا حَفْظَكَ اللَّهُ بِمَقَبِ هَذِهِ الْاِحتِجَاجَاتِ ، وَعِنْدَ مَقْطَعِ هَذِهِ  
الْاِستِدْلَالَاتِ ، نَسْتَعْمِلُ هَذِهِ الْمَعَارِضَةَ <sup>(١)</sup> بِمَنَاقِبِ الْاَتْرَاكِ ، وَالْمَوَازِنَةِ بَيْنَ  
خِصَالِهِمْ وَخِصَالِ كُلِّ صَنَفٍ مِنْ هَذِهِ الْأَصْنَافِ ، سَلَكْنَا فِي هَذَا الْكِتَابِ  
سَبِيلَ أَصْحَابِ الْخُصُومَاتِ فِي كُتُبِهِمْ ، وَطَرِيقَ أَصْحَابِ الْأَهْوَاءِ فِي الْاِخْتِلَافِ  
الَّذِي بَيْنَهُمْ .

وَكِتَابُنَا هَذَا إِنَّمَا تَكَلَّفْنَاهُ لِنُؤَافِ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ الَّتِي كَانَتْ مُخْتَلِفَةً ، وَلِنَزِيدَ  
الْأَلْفَةَ إِنْ كَانَتْ مُؤْتَلِفَةً ، وَلِنُخْرِجَ عَنْ اتِّفَاقِ أَسْبَابِهِمْ لِنَجْتَمِعَ كُتُبُهُمْ ، وَلِنَقْلِمَ  
صُدُورَهُمْ ، وَلِنَعْرِفَ مَنْ كَانَ لَا يَعْرِفُ مِنْهُمْ مَوْضِعَ التَّفَاوُتِ فِي النِّسْبِ ،  
وَكَمْ مَقْدَارُ الْاِخْتِلَافِ فِي الْخُصْبِ <sup>(٢)</sup> ، فَلَا يُغَيِّرُ بَعْضُهُمْ مَقْيَرَهُ ، وَلَا يَفْسِدُهُ عَدُوُّهُ  
بِأَبَاطِيلِ مُمَوِّهَةٍ وَشُبُهَاتِ مَزُورَةٍ ؛ فَإِنَّ الْمَنَافِقَ الْعَلِيمَ ، وَالْعَدُوَّ ذَا الْكَيْدِ الْعَظِيمَ ،  
قَدْ بَصُورَ لَهُمُ الْبَاطِلَ فِي صُورَةِ الْحَقِّ ، وَبَلْبَسَ الْإِضَاعَةَ ثِيَابَ الْحَزْمِ .  
إِلَّا أَنَّ عَلَى حَالِ سَنَدِ كَرَجَلَاءٍ مِنْ أَحَادِيثِ رَوَيْنَاهَا وَوَعَيْنَاهَا ، وَأُمُورٍ رَأَيْنَاهَا  
وَشَاهَدْنَاهَا ، وَفَضَائِلَ تَلَقَّيْنَاهَا <sup>(٣)</sup> مِنْ أَفْوَاهِ الرِّجَالِ وَسَمِعْنَاهَا .

٢٥

وَسَنَدِ كَرَجَمِيعِ مَا فِي هَذِهِ الْأَصْنَافِ <sup>(٤)</sup> مِنَ الْآلَاتِ وَالْأَدَوَاتِ ، ثُمَّ نَنْظُرُ  
أَيُّهُمْ لَهَا أَشَدُّ اسْتِعْمَالاً ، وَبَيِّبَ أَشَدُّ اسْتِقْلَالاً ، وَمَنْ أَثَقَبَ كَيْسًا وَأَفْتَحَ عَيْنًا

(١) مَا عِدَا الْأَصْلَ وَبَعْضُ أَصُولِ ن : « الْمَعَارِضَةُ » ، وَالْوَجْهَ مَا أَثْبِتَ .

(٢) م . ف : « كَمْ مَقْدَارُ » يَدُونُ وَאו .

(٣) فِي الْأَصْلِ : « تَلَقَّيْنَاهَا » ، وَأَثْبِتَ مَا فِي سَائِرِ النُّسخِ .

(٤) فِي سَائِرِ النُّسخِ : « مَا حَفِظَ كُلِّجَمِيعِ الْأَصْنَافِ » .

وأذكى يقيناً ، وأبعد غوراً وأجمع أسراً ، وأعم خواطر وأكثر غرائب ،  
وأبداع طريقاً ، وأدوم نفعاً في الحروب ، وأضرى وأدرب ذربة ، وأغضر  
مكيدة<sup>(١)</sup> ، وأشدّ احتراساً وأطف احتيلاً ؛ حتى يكون الخيار في يد الناظر  
للتصفح لمعانيه ، والمقلب لوجوهه ، والمفسر في أبوابه ، والمقابل بين أوله  
 وآخره ، فلا نكون نحن انتحلنا شيئاً دون شيء ، وتقلدنا تفضيل بعض  
على بعض ، بل [ لعلنا أن لا<sup>(٢)</sup> ] نخبر عن خاصة ما عندنا بحرف واحد .

فإذا دبرنا كتابنا هذا التدبير ، وكان موضوعه على هذه الصفة . كان  
أبعد له من مذاهب الجدال والمراء ، واستعمال الهوى .

وقد ظنّ ناس أن أسماء أصناف الأجناس كما اختلفت في الصورة  
والخطّ والهجاء ، أن حقائقها<sup>(٣)</sup> ومعانيها على حسب ذلك . وليس الأمر  
على حسب ما توهمه ؛ ألا ترى أن اسم الشاكرية<sup>(٤)</sup> وإن خالف في الصورة  
والهجاء اسم الجنيد ، فإن المعنى فيهما ليس ببعيد ؛ لأنهم يرجعون إلى معنى  
واحد وعمل واحد . والذي إليه يرجعون طاعة الخلفاء ، وتأيد الساطان .

وإذا كان المولى منقولاً إلى العرب في أكثر المعاني ، ومجموعاً لمنهم في عامة

(١) بعده في الأصل : « وأبداع طريقاً وأدوم نفعاً في الحروب » ، وهو تكرار .

(٢) التكملة من سائر النسخ .

(٣) ج ، ف : « كانت حقائقها » .

(٤) الشاكرية : ضرب من الجنود . وفي القاموس : « الشاكري : الأجير

المستخدم ، معرب جاكرك » . وانظر الحيوان ٢ : ١٣٠ .

الأسباب ، لم يكن ذلك بأعجب ممن جعل الخال والدًا ، والخليف من الصميم ، وابن الأخت من القوم .

وقد جعل ابن الملائنة<sup>(١)</sup> المولود على فراش البعل منسوبًا إلى أمه .

وقد جعلوا إسماعيل وهو ابن عجميين عربيًا ؛ لأن الله تعالى فتق لهاته بالعربية الميمنة على غير التافين والترتيب ، ثم فطره على الفصاحة العجيبة على غير النشو والتقدير<sup>(٢)</sup> ، وسلخ طباعه من طبائع العجم ، ونقل إلى بدنه تلك الأجزاء ، [وركبه اختراعاً<sup>(٣)</sup>] على ذلك التركيب ، وسواه تلك التسوية ، وصاغه تلك الصياغة<sup>(٤)</sup> ، ثم حباه من طبائعهم ، ومنحه من أخلاقهم وشمائلهم ، وطبعه من كرمهم وأنفيتهم وهمهم على أكرمها وأمكنها ، وأشرفها وأعلاها ، وجعل ذلك برهاناً على رسالته ، ودليلاً على نبوته ؛ فكان أحق بذلك النسب ، وأولى بشرف ذلك الحساب .

وكما جعل إبراهيم أباً لمن لم يلد ، فالنبوي خراساني من جهة الولادة ، والمولى عربي من جهة المدعى والعاقلة<sup>(٥)</sup> . وإن أحاط علمنا بأن زيداً لم يخلق من نجل عمرو إلا عياراً لنفيته عنه<sup>(٦)</sup> ، وإن وثقنا<sup>(٧)</sup> أنه لم يخاق من صلبه .

(١) الملائنة : أن يقذف الرجل امرأته برجل أنه زنى بها .

(٢) وكذا في بعض أصول ن ، وفي سائر النسخ : « والتمرين » .

(٣) التكملة من سائر النسخ .

(٤) وكذا في بعض أصول ن . وفي سائر النسخ : « الصيغة » .

(٥) انظر ما سبق في ص ١٢ الحاشية ٣ .

(٦) في الأصل وبعض أصول ن : « إلا بما هو الحقناه به » .

(٧) وكذا في بعض أصول ن ، وفي سائر النسخ : « وإن أيقنا » .

وكما جعل النبي صلى الله عليه وسلم أزواجه أمهات المؤمنين وهن لم يلدنهم ولا أرضعنهم ، وفي بعض القراءات<sup>(١)</sup> : ﴿ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَهُوَ أَبٌ لَهُمْ ﴾ ، على قوله : ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ﴾<sup>(٢)</sup> . وجعل المرأة من جهة الرضاع أمًا ، وجعل [ امرأة ] البعل أم ولد البعل من غيرها ، [ وجعل ] الراب والدًا ، وجعل الممَّ أبًا [ في كتاب الله<sup>(٣)</sup> ] . وهم عبيده لا يتقلبون إلا فيما قلبهم فيه . وله أن يجعل من عباده من شاء عربيا ومن شاء عجميا ، ومن شاء قرشيا ، ومن شاء زنجيا ؛ كما له أن يجعل من شاء ذكرا ومن شاء أنثى ، [ ومن شاء خنثى<sup>(٤)</sup> ] ، ومن شاء أفرده من ذلك فجعله لا ذكرا ولا أنثى ولا خنثى .

وكذلك خلق الملائكة وهم أكرم على الله من جميع الخليفة . وخلق آدم فلم يجعل له أب ولا أمًا ، وخلق من طين ونسبه إليه ، وخلق حواء من ضلع آدم وجعلها له زوجا وسكنا . وخلق عيسى من غير ذكر ونسبه إلى أمه التي خلقه منها . وخلق الجان من نار السموم ، وآدم من طين ، وعيسى من غير نطفة . وخلق السماء من دخان ، والأرض من الماء ، وخلق إسحاق من عاقرة . وأنطق عيسى في المهد ، وأنطق يحيى بالحكمة وهو صغير ، وعلم سليمان منطق الطير ، وكلام النمل ، وعلم الحفظة من الملائكة جميع الألسنة حتى كتبوا بكل خط ، ونطقوا بكل لسان . وأنطق ذئب أهبان بن أوس<sup>(٥)</sup> .

(١) هي قراءة أبي وعبد الله بن مسعود في الآية ٦ من سورة الأحزاب .

تفسير أبي حيان ٧ : ٢١٢ .

(٢) الآية ٧٨ من سورة الحج .

(٣) هذه التسمية والثاني قبلها من سائر النسخ .

(٤) التسمية من سائر النسخ .

(٥) أهبان هذا : أحد الصعابة ، ذكروا أن الذئب كله ثم يسمه بالرسول ، =

والمؤمنون من جميع الأمم إذا دخلوا الجنة ، وكذلك أطفالهم والمجانين  
[ منهم <sup>(١)</sup> ] ، يتكلمون ساعة يدخلون الجنة بلسان أهل الجنة ، على غير الترتيب  
والتنزيل ، والتعليم على طول الأيام والتلقين . فكيف يتعجب الجاهلون من  
إنطلاق إسماعيل بالعربية على غير تعليم الآباء ، وتأديب الحواضن ؟ !

وهذه المسألة ربّما سأل عنها بعض القحطانية ، ممن لا علم له ، بعض العدنانية ،  
وهي على القحطانيّ أشدّ . فأمّا جواب العدنانيّ فسلس النظام سهل المخرج ،  
قريب للمعنى ؛ لأنّ بني قحطان لا يدعون لقحطان نبوّة <sup>(٢)</sup> فيعطيه الله مثل  
هذه الأعجوبة .

وما الذي قسّم الله - عزّ اسمه - بين الناس من ذلك ، إلّا كما صنع في طينة  
الأرض ، فجعل بعضها حجراً ، وبعض الحجر ياقوتاً ، وبعضه ذهباً ، وبعضه  
نحاساً ، وبعضه رصاصاً ، وبعضه حديدًا ، وبعضه ترابًا ، وبعضه فخارًا .  
وكذلك الزّاج <sup>(٣)</sup> ، والمغرة ، والزّرنبخ ، والمزتك ، والكبريت <sup>(٤)</sup> ، والقار <sup>(٥)</sup>

= انظر تفصيل ذلك في ثمار القلوب ٣٠٩ . وانظر كذلك الحيوان ١ : ٢٩٨ / ٣  
٥١٣ / ٤ : ٧ / ٨٠ : ٥٠ ، ٢١٣ ، ٢١٧ والإصابة ٣٠٥ . في الأصل : « ليار » .  
صوابه في سائر النسخ والمراجع المقدمة .

(١) التكملة من م ، ف .

(٢) في الأصل وبعض أصول ن : « بنوم » ، تحريف .

(٣) في الأصل وبعض أصول ن : « الزجاج » ، تحريف .

(٤) في الأصل وبعض أصول ن : « والطين » ، صوابه في سائر النسخ .

(٥) في بعض أصول ن وس : « والقار » تحريف . والقار : الزفت .

( ٣ - رسائل الماحظ )

والتوتيا، والنوشادر<sup>(١)</sup>، والمرقشيثا، والمغنطيس .

ومن يَحْصِي عددَ أجزاء الأرض<sup>(٢)</sup>، وأصناف الفلز؟!

وإذا كان الأمر على ما وصفتنا فالبنوي خراساني . وإذا كان الخراساني

مولي، والمولي عربي - فقد صار الخراساني والبنوي والمولي والعربي واحداً

وأدنى ذلك أن يكون الذي معهم من خصال الوفاق غامراً ما معهم من

خِصال الخلاف، بل هم في معظم الأمر وفي كبر الشأن<sup>(٣)</sup> وعمود النسب

متفقون . والأثر الكُ خراسانية وموالي الخلفاء قُصرة<sup>(٤)</sup>، فقد صار التركي

إلى الجميع راجعاً، وصار شرفه إلى شرفهم زائداً .

وإذا عُرِف سائر ذلك ساحت النفوس، وذهب التعقيد<sup>(٥)</sup>، ومات الضغن،

وانقطع سبب الاستنقال؛ فلم يبق إلا التحاسد والتنافس الذي لا يزال يكون

بين المتقاربين في القرابة وفي المجاورة .

على أن التوازن والنسالم<sup>(٦)</sup> في القربات وفي بني الأعمام والعشائر، أفشى

وأعم من البُعداء .

(١) انظر حواشي الحيوان ٣ : ٣٧٧ و ٥ : ٣٤٩ .

(٢) وكذا في بعض أصول ن . وفي سائر النسخ : « جواهر الأرض » .

(٣) كبر الشأن، بكسر الكاف وضمها : معظمه . وبهما قرئ قوله تعالى :

« والذي تولى كبره منهم » .

(٤) قُصرة، بالضم، أي أدنى إليهم، كما يقال هو ابن عمي قُصرة، أي داني

النسب . وفي الأصل وبعض أصول ن : « نصرة » .

(٥) التعقيد كناية عن الضغينة العقودة، ويقولون للرجل إذا سكن غضبه : قد

تحللت عقده . وفي الأصل وبعض أصول ن : « التعقل »، تحريف .

(٦) في الأصل وبعض أصول ن : « فإن التوازن في الفساد »، صوابه في

سائر النسخ .



وَلَحُوفِ التَّخَاذُلِ وَلِحُبِّ التَّنَاصُرِ ، وَالْحَاجَةِ إِلَى التَّعَاوُنِ - انضَمَّ بَعْضُ الْقَبَائِلِ فِي الْبُوَادِي إِلَى بَعْضٍ ، يَنْزِلُونَ مَعًا وَيَقْطَعُونَ مَعًا . وَمِنْ فَارَقَ أَصْحَابَهُ أَقْلٌ<sup>(١)</sup> ، [ و ] مِنْ نَصَرَ ابْنَ عَمِّهِ أَكْثَرُ . وَمَنْ اغْتَبَطَ بِنِعْمَتِهِ وَتَمَنَّى بَقَاءَهَا وَالزِّيَادَةَ فِيهَا أَكْثَرُ مِمَّنْ بَقَاها الْغَوَائِلُ<sup>(٢)</sup> ، وَطَلَبَ انْقِطَاعَهَا وَزَوَالَهَا . وَلَا بَدَّ فِي أَضْعَافِ ذَلِكَ مِنْ بَعْضِ التَّنَافُسِ وَالتَّخَاذُلِ ، إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ قَلِيلٌ مِنْ كَثِيرٍ .

وَلَيْسَ يَجُوزُ أَنْ تَصْفُوَ الدُّنْيَا وَتَنْقَى مِنَ الْفَسَادِ وَالْمَكْرُوهِ<sup>(٣)</sup> حَتَّى يَمُوتَ جَمِيعُ الْخَلَائِقِ ، وَتَسْتَوِيَ لِأَهْلِهَا ، وَتَتَمَهَّدَ لِسُكَّانِهَا عَلَى مَا يَشْتَهُونَ وَيَهْوَوْنَ ؛

لأن ذلك من صفة دار الجزاء ، وليس كذلك صفة دار العمل .

ظ ٢٦

(١) فِي الْأَصْلِ : « أُولَى » .

(٢) الْغَوَائِلُ : الْمَهْلَكَاتُ . وَيُقَالُ بِغَيْتِكَ الشَّيْءُ : طَلَبْتَهُ لَكَ وَتَمَنَيْتَهُ . وَفِي التَّنْزِيلِ

الْعَزِيزُ : « يَغْوِنُكُمُ الْفِتْنَةُ » ، أَيْ يَغْوِيهِمْ لَكُمْ .

(٣) نَقَى الشَّيْءُ يَنْقَى : صَارَ نَقِيًّا خَالِصًا .

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذا كتاب كنتُ كتبتُه أيامَ المعتصم بالله<sup>(١)</sup>، رضى الله عنه، فلم يصل إليه، لأسبابٍ يطول شرحها، فلذلك لم أعرض للإخبار عنها. وأحببتُ أن يكونَ كتاباً قَصِداً، ومذهباً عدلاً، ولا يكونَ كتابَ إسرافٍ في مديح قوم، وإغراقٍ في هجاء آخرين. وإن كان الكتابُ كذلك شابةً الكذب، وخالطه التزَيُّدُ، وبُنِيَ أساسُه على التكلُّف، وخرج كلامُه مخرجَ الاستكراه والتغليق<sup>(٢)</sup>.

وأنفعُ المدائح<sup>(٣)</sup> للمادح وأجداها على المدوح، وأبقاها أثراً وأحسنها ذكرها: أن يكونَ للمديحُ صدقاً، وللظاهر<sup>(٤)</sup> من حالِ المدوح موافقاً، وبه لا تقا، حتَّى لا يكونَ من المعبرِ عنه والواصفِ [له<sup>(٥)</sup>] إلا الإشارةُ إليه، والتنبيهُ عليه.

وأنا أقول: إن كان لا يمكن ذلك في مناقب الأتراك إلا بذكر مثالب سائر الأجناد، فتركُ ذكرِ الجميعِ أضوب، وإلا ضربُ عن [هذا الكتاب

(١) بويغ المعتصم بالله محمد بن هارون الرشيد بعد وفاة أخيه المأمون سنة ٢١٨. وتوفي بسرمن رأى سنة ٢٢٧. وولى الخلافة بعده ولده هارون الواثق.

(٢) التغليق، المراد به العسر، كما يغلُق الباب تغليقاً. وفي جميع الأصول: «التغليق» بعين مهملة.

(٣) في الأصل وبعض أصول ن: «المدح». ولا تساوق سائر الكلام.

(٤) في الأصل وبعض أصول ن: «والظاهر»، والوجه من سائر النسخ التي سقطت منها كلمة «من» بعدها.

(٥) التكملة من سائر النسخ، وقد سقطت من بعض أصول ن.

أحزم ، وذكر الكثير من <sup>(١)</sup> [ هذه الأصناف بالجميل <sup>(٢)</sup> ] ، لا يقوم بالقليل <sup>(٣)</sup> من ذكر بعضهم بالقبيح ، لأن ذكر الأكثر بالجميل نافلة ، وباب من التطوع ، وذكر الأقل بالقبيح معصية ، وباب من ترك الواجب . وقليل الفريضة أجدى علينا من كثير التطوع .

ولكل نصيب من النقص ، ومقدار من الذنوب ؛ وإنما يتفاضل الناس بكثرة المحاسن وقلة المساوى . فأما الاشتغال على جميع المحاسن ، والسلامة من جميع المساوى دقيقتها وجليلها ، وظاهرها وخفيها ، فهذا لا يعرف .

وقد قال النابغة :

ولست بمسبقي أخاً لا تلمه على شعث ، أي الرجال المهذب  
وقال حريش السعدي <sup>(٤)</sup> :

أخ لي كأيام الحية إخاؤه تلون ألواناً على خطوبها  
إذا عبت منه خلّة فتركته دعنى إليه خلّة لأعيها  
وقال بشار <sup>(٥)</sup> :

إذا كنت في كل الأمور معاتباً خليلك لم تلق الذي لا تعاتبه

(١) الكلمة من سائر النسخ .

(٢) في الأصل : « أجمل » ، صوابه من سائر النسخ .

(٣) في الأصل : « لا يقوم الكثير من ذكر بعضهم بالجميل بالقليل » ، وتوجيه

العبارة من باقي النسخ .

(٤) في الأصل : « مرس السعدي » ، وأثبت ما في سائر النسخ . والبيتان

بدون نسبة في عيون الأخبار ٣ : ١٧ .

(٥) ديوان بشار ١ : ٣٠٩ وحماسة البحرى ١٠٠ وحماسة ابن الشجرى ١٤٣

والأغاني ٣ : ٤٧ والتمثيل والمحاضرة للثعالبي ٧٤ .

فِعِشْ واحداً أو صِلْ أخاك فإنه      مُقَارِفُ ذَنْبٍ مَرَّةً وَنَجَابِهِ  
إذا أنت لم تشربِ مراراً على القذى      ظَلِمْتَ وأَيُّ الناسَ تَصِفُو مشارِبَهُ  
وقال مطيع بن إلياس الليثي :

ولئن كنتَ لا تصاحبُ إلاَّ      صاحباً لا تَزِلُّ ، ما عاشَ ، نَعْلُهُ  
لم تجذهُ ولو جَهِدْتَ وأَنْتِ      بالذي لا يَكُونُ يُوجَدُ مثله  
إنما صاحبي الذي يَغْفِرُ الذَّنْبَ      بَ وَيَكْفِيهِ من أخيه أَقْلُهُ

وقال محمد بن سعيد<sup>(١)</sup> ، وهو رجل من الجُند :

سا شكرَ عمراً إن تراختَ مَنِيَّتِي      أيادي لم تُنَنَ وإن هي جَلَّتْ  
فتي غير محجوب الغنى عن صديقه  
ولا مُظهِرِ الشُّكْرِ إذا النعلُ زَلَّتْ  
رأى خَلَّتِي من حيثُ يَخْفَى مكانها      فكانت قَذَى عَيْنِيهِ حَتَّى تَجَلَّتْ

(١) في معجم الشعراء للمرزباني ٤٢١ أنه محمد بن سعد الكاتب التيمي ، وأنه شاعر بغدادى . وقيل الشعر لأبى الأسود الدؤلى وكان عند عمرو بن سعيد بن العاص فينا هو يحدث إذ ظهر كم قبضه من تحت جيبه وبه خرق ، فلما انصرف بعث إليه بعشرة آلاف درهم ومائة ثوب ، فقال هذا الشعر . وقيل الشعر لعبد الله بن الزبير الأسدي ، وأنه أتى عمر بن أبان بن عثمان فسأله فأعطاه . اللآلى ١٦٦ . ونسب إلى إبراهيم بن العباس الصولى في مجموعة المعاني ٩٦ ومعجم الأدباء ٥ : ٢٥٨ مرجليوت وابن خلكان ٢ : ٢٤٧ . وقيل لعمر بن كميل يدح عمرو بن ذكوان وكان قد رآه وعليه جبة بلا قميص فتشفع له حتى ولى الحرب بالبصرة ، فأصاب في ولايته مالا عظيما . أو هو رجل من أشرف المدينة أنعم عليه عمرو بن سعيد بن العاص وكان قد ظهر كم قبضه من تحت جيبه . شرح التبريزى للحماسة . والأبيات بدون نسبة في الحماسة ١٥٨٩ بشرح الرزوق وحماسة البعترى ١٥٩ والكامل ١٢٣ .

فإذا كان الخلقاء<sup>(١)</sup> من جمهور الناس، وأصحاب المعاش من دماء الجماعة، يرون ذلك واجباً وتديراً في التعامل، على ما هم فيه من مشاركة الخطأ للصواب، وامتزاج الضعف بالقوة، فلسنا نشك أن الإمام الأكبر والرئيس الأعظم، مع الأعراق الكريمة والأخلاق الرفيعة، والتّمام في الحلم والعلم، والكمال في الحزم والعزم، مع التمكن والقُدرة، والفضيلة والرّئاسة [ والسيادة<sup>(٢)</sup> ]، والخصائص التي معه من التّوفيق والعصمة، والتأييد وحسن المعونة، أن الله<sup>(٣)</sup> جلّ اسمه لم يكن ليجلّله باسم الخلافة، ويحبّوه بتاج الإمامة، وبأعظم نعمة وأسبغها، وأفضل كرامة وأسنّاها، ثم وصل طاعته بطاعته، ومعصيته بمعصيته، إلّا ومعه من الحلم في موضع الحلم، والعفو في موضع العفو، والتّغافل في موضع التّغافل، ما لا يبلغه فضل ذى فضل، ولا حلم ذى حلم.

ونحن قائلون، ولا حول ولا قوة إلا بالله، فيما انتهى إلينا في أمر الأتراك:

زعم محمد بن الجهم، وثمّامة بن أشرس، والقاسم بن سيار، في جماعة<sup>٢٧</sup> ظ من يغشّى دار الخلافة، وهى دار المأمّة<sup>(٤)</sup>، قالوا جميعاً:

بيننا حميد بن عبد الحميد جالساً ومعه بخشاد الصفدى<sup>(٥)</sup>، وأبو شجاع

(١) في الأصل وبعض أصول ن: «الخطاء»، صوابه في سائر النسخ.

(٢) التكملة من سائر النسخ.

(٣) في الأصل، وبعض أصول ن: «وأن الله»، وفي سائر النسخ: «لم يكن الله».

(٤) ف فقط: «الإمامة».

(٥) ن، س: «بخشاد» ج، ف: «إخشياد الصفدى».

[ شبيب<sup>(١)</sup> ] بن بخار اخداى الباغى ، ويحيى بن معاذ ، ورجال من المدودين المتقدمين فى العلم بالحرب [ من أصحاب التجارب والمراس ، وطول المعالجة والمعاناة<sup>(٢)</sup> ] فى صناعات الحرب<sup>(٣)</sup> ، إذ خرج رسول المأمون فقال لهم : نقول لكم متفرقين<sup>(٤)</sup> ونجتمعين : ليكتب كل رجل منكم دعواه وحجته ، وليقل أئباً أحب إلى [ كل<sup>(٥)</sup> ] قائد منكم إذا كان فى عدته من صحبه وثقاته : أن يلقى مائة تركي أو مائة خارجي ؟ فقال القوم جميعاً : [ لأن<sup>(٥)</sup> ] نلقى مائة تركي أحب إلينا من أن نلقى مائة خارجي ! وحميد<sup>(٦)</sup> ساكت .

فلما فرغ القوم [ جميعاً ] من حججهم<sup>(٧)</sup> ، قال الرسول : قد قال القوم قتل

(١) التكملة من سائر النسخ .

(٢) فى سائر النسخ : « بصناعة الحرب » . وكذا فى بعض أصول ن .

(٣) فى سائر النسخ وبعض أصول ن : « مفترقين » .

(٤) التكملة من سائر النسخ .

(٥) التكملة من ف فقط .

(٦) هو أبو غانم حميد بن عبد الحميد الطوسي ، أحد أمراء الدولة العباسية وقوادها وأجوادها ، وهو أحد من وطد الخلافة للمأمون بهزيمة إبراهيم بن المهدي . وكان لأبي العتاهية وعلى بن جبلة وأبي تمام فيه مدائح . كما رثاه أبو تمام ورثى بنيه محمداً وقحطبة وأبا نصر بقوله :

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر فليس لعين لم يفض ماؤها غدر

وقد قتل بشربة صنعها له جبريل بن بختيشوع سنة ٢١٠ . الأغاني ١٩ :

١٠٠ - ١١٤ والطبرى ٩ : ٢٤٥ - ٢٥٤ وأسماء القتالين من نواذر المخطوطات

٢ : ١٩٩ - ٢٠٠ .

(٧) فى الأصل وبعض أصول ن : « حججهم » ، وأثبت ما فى سائر النسخ .

وكلمة « جميعاً » قبله تكملة من ف وبعض أصول ن .

واكتب قولك ، وليكن حجة لك أو عليك . قال : بل ألقى مائة خارجي أحب إلي ؛ لأنني وجدت الخصال التي يفضل بها الخارجي جميع المقاتلة غير تامة في الخارجي ، ووجدتها تامة في التركي . ففضل التركي على الخارجي بقدر فضل الخارجي على سائر المقاتلة ، ثم بان التركي عن الخارجي بأمور ليس فيها للخارجي دعوى ولا متعلق . على أن هذه الأمور التي بان بها التركي عن الخارجي ، أعظم خطراً وأكثر نفعاً ، مما شاركه الخارجي في بعضها<sup>(١)</sup> .

ثم قال حميد : والخصال التي يصول بها الخارجي على سائر الناس صدق الشدة عن أول وهلة ، وهي الدفعة التي يبلغون بها ما أرادوا ، وينالون الذي أملوا<sup>(٢)</sup> .

والثانية : الصبر على الخيب وعلى طول الشرى ، حتى يصبح القوم [ الذين مرقوا بهم<sup>(٣)</sup> ] غارين<sup>(٤)</sup> فيهمجموا عليهم وهم بسوء<sup>(٥)</sup> ، ولحم على وضهم<sup>(٦)</sup> ، يتعجلونهم عن الروية ، وعن رد النفس عن النزوة والجولة ؛ لا يظنون أن أحداً يقطع في ذلك المقدار من الزمان ذلك المقدار من البلاد .

(١) ج ، ف : « في بعضه » .

(٢) ج ، ف : « وينالون بها ما أملوا » .

(٣) التكملة من سائر النسخ . والروق : المرور بسرعة ، كما يمرق السهم من الرمية .

(٤) غارين : غافلين .

(٥) ج ، ف وبعض أصول ن : « بشر » .

(٦) الوضم : جمع وضمة ، وهو كل شيء يوضع عليه الخشب من خشب أو حصير يوقى به الأرض . والضم على الوضم مثل للضعف وعدم الامتناع .

والثالثة : أنَّ الخارجىَّ موصوفٌ عند<sup>(١)</sup> الناس بأنَّه إن طلبَ أدركَ ، وإن طلبَ فات .

والرابعة : خِفَّةُ الأزوادِ وقِلَّةُ الأمتعة ، وأنها تَجُنَّبُ الخيلَ<sup>(٢)</sup> وتركبُ البغالَ ، وإن احتاجتْ أَمَسَتْ بأرضٍ وأصبحتْ بأخرى ، وأنَّهم قومٌ حينَ خَرَجُوا لم يَخْلُفُوا الأموالَ الكثيرةَ ، والجِنَانِ الملتفةَ ، والدُّورَ المشيدةَ ، ولا ضياعاً ولا مُسْتَفَلَّاتٍ ، ولا جوارى مطَّهَّاتٍ<sup>(٣)</sup> ، و [أنهم<sup>(٤)</sup>] لا سَلَبَ لهم ولا مالَ معهم فيرغبُ الجندُ في لقائهم ، وإنَّما هم كالطَّير لا تدَّخر ولا تهتمُّ لعدوِّ ، ولها في كُلِّ أرضٍ من المياه والأقوات ما تَبَلَّغُ به<sup>(٥)</sup> ، وإن لم تجد ذلك في بعض البلاد فأجِنَحَتْها تُقَرِّبُ لها البعيدَ ، وتسهِّلُ لها الحزونَ . وكذلك الخوارج لا يمتنع عليهم القرى والمطعمُ ، وإن تمنَّع عليهم ففي بنات شَحَّاجٍ وبنات صَهَّالٍ<sup>(٦)</sup> ، وخِفَّةُ الأثقالِ على طولِ الخَبَبِ ، ما يسهِّلُ أقواتها ، ويكثرُ من أرزاقها .

(١) وكذا في بعض أصول ن . وفي سائر النسخ : « بعد » .

(٢) أى تقودها إلى جنب البغال . والضمير للخوارج .

(٣) للطَّيْم من الناس والخيل : الحسن التام كلِّ شيء منه على حدته ، فهو بارع الجمال .

(٤) التكملة من ج ، ف وبعض أصول ن .

(٥) ج ، ف وبعض أصول ن : « من المياه والبرور ما يقوتها » .

(٦) بنات شَحَّاجٍ ، هى البغال ، لأنها تشحج بصوتها . وبنات صَهَّالٍ ، هى الأفراس ، فللفرس صهيل . ويقال بنات شاحج أيضاً . وبنات صهال لم ترد في اللسان ولا القاموس ، ولكن وردت في الزهر ١ : ٥٢٥ .



والخامسة : أن الملوك إن أرسلوا إليهم أعدادهم ليكونوا في خفة أوزارهم<sup>(١)</sup> وأثقالهم ، وليقوؤا على التنقل كقوتهم ، لم يقوؤا عليهم ؛ لأن مائة من الجند لا يقومون لمائة من الخوارج ؛ وإن كثفوا الجيش بالجيش ، وضاعفوا العدد [ بالعدد<sup>(٢)</sup> ] ثقلوا عن طلبهم ، وعن القوت إن طلبهم عدوهم . ومتى شاء الخارجى أن يقرب منهم ليتطرقهم<sup>(٣)</sup> أو ليصيب الفرّة منهم ، أو ليسلبهم ، فقل ذلك ثقة بأنه يغتم عند الفرصة<sup>(٤)</sup> ورؤية العورة ، ويمكنه الحرب عند الخوف . وإن شاء كبسهم ليقطع نظامهم ، أو ليقطع<sup>(٥)</sup> القطعة منهم .

قال حميد : فهذه هي مفاخرهم وخصالهم ، التي لها كره القواد لقاءهم .

قال قاسم بن سيار : وخصلة أخرى ، وهي التي رعبت القلوب وخلّقتها ، ونقضت العزائم وفسختها ، وهو ما تسمع الأجناد ومقاتلة العوام ، من ضرب المثلى بالخوارج ، كقول الشاعر :

إذا ما البخيلُ والمحاذِرُ للقري

رأى الضيفَ مثل الأزرقِ الجفّ<sup>(٦)</sup>

(١) الأوزار : جمع وزر بالكسر ، وهو الحمل الثقيل . ف ، ج وبعض أصول ن : « أزوادهم » ، وهو جمع زاد .

(٢) التكملة من سائر الأصول .

(٣) التطرف : الإغارة من حول العسكر .

(٤) في الأصل : « وليعلم ذلك فإنه يغتم عن الفرصة » ، وصوابه من سائر النسخ .

(٥) في الأصل وبعض أصول ن : « ليقطع » .

(٦) المجفف : الذي جفف فرسه بالتجفاف ، وهو ما جلال به من سلاح وآلة نقيه الجراح .

وكقول الآخر :

وَقَلْبٍ وَدَّ حَالًا عَنْ عَهْدِهِ وَالسَّيْفُ يَنْبُو بِيَدِ الشَّارِي

وكقول الآخر :

لِقَاءِ الْأَسَدِ أَهْوَى مِنْ لِقَاءِهِ إِذَا التَّحْكِيمُ يَسِيرُ بِالْأَصِيلِ

فهذه زيادة قاسم بن سيار .

فأما حميد فإنه قال :

الشَّدَّةُ الْأُولَى التَّرْكِيُّ فِيهَا أَحَدٌ [ أَثَرًا ، وَأَجْمَعٌ <sup>(١)</sup> ] أَمْرًا ، وَأَحْكَمُ شَأْنًا ؛

لأنَّ التَّرْكِيَّ مَنْ أَجَلَ أَنْ تَصْدُقَ شِدَّتُهُ وَيَتِمَّكَنَ عَزْمُهُ ، وَلَا يَكُونُ مَشْتَرَكُ الْعَزْمِ

٢٨ ظ

وَلَا مُتَقَسِّمِ الْخَوَاطِرِ ، قَدْ عَوَّدَ بِرِذْوَنِهِ إِلَّا يَنْثَنِي وَإِنْ ثَنَاهُ ، أَنْ يَمْلَأَ فَرْجَهُ <sup>(٢)</sup>

لِلْأَمْرِ يَدِيرُهُ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ، وَإِلَّا فَإِنَّهُ لَا يَدَعُ سَنَنَهُ ، وَلَا يَقْطَعُ رِكْضَهُ . وَإِنَّمَا

أَرَادَ التَّرْكِيَّ أَنْ يُوَسِّسَ نَفْسَهُ مِنَ الْبَدَوَاتِ <sup>(٣)</sup> ، وَمَنْ أَنْ يَعْتَرِيَهُ التَّكْذِيبُ بَعْدَ

الاعْتِزَامِ ، لِهَوَلِ [ الْلِقَاءِ <sup>(٤)</sup> ] ، وَحُبِّ الْحَيَاةِ ؛ لِأَنَّهُ إِذَا عَلِمَ أَنَّهُ قَدْ صَيَّرَ بِرِذْوَنِهِ

إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ حَتَّى لَا يَنْثَنِيَ وَلَا يُجْبِيهِ إِلَى التَّصَرُّفِ مَعَهُ إِلَّا بِأَنْ يَصْنَعَ شَيْئًا بَيْنَ

الصَّفَيْنِ فِيهِ عَظْبُهُ ، لَمْ يُقَدِّمِ عَلَى الشَّدَّةِ إِلَّا بَعْدَ إِحْكَامِ الْأَمْرِ ، وَالْبَصَرِ

(١) الكلمة من سائر النسخ .

(٢) الفروج : ما بين قوائم الفرس ، وملؤها كناية عن الإسراع وشدة العدو حتى لا تكاد تبدو .

(٣) البدوات : الخطرات والآراء تبدو وتظهر .

(٤) موضع هذه الكلمة بياض في الأصل ، وإثباته من سائر النسخ . وفي الأصل : « لظول » ، تحريف .

بالعورة<sup>(١)</sup> . وإنما يريد أن يُشَبَّه نفسه بالمُحَرَج الذى إذا رأى أشدَّ القتال<sup>(٢)</sup> لم يدع جهدا ولم يدخر حيلة ، ولينفى عن قلبه خواطر الفِرار ، ودواعى الرُّجوع . وقال : الخارجىُّ عند الشَّدَّةِ إنما يعتمد على الطَّمان ، والأتراك تطعن طعنَ الخوارج ، وإن شدَّ منهم ألفُ فارسٍ فرَمُوا رِشْقاً واحداً صرعوا ألفَ فارس ، فما بقاء جيشٍ على هذا النوع من الشَّدَّةِ !

والخوارج والأعراب ليست لهم رِمايةٌ مذكورة على ظهور الخيل ، والتركيُّ يرمى الوحشَ والطَّيرَ ، والبرجاس<sup>(٣)</sup> ، والنَّاس<sup>(٤)</sup> ، والمجشمة ، والمثلَ الموضوع ، ويرمى وقد ملأ فروجَ دابَّته مُدبراً ومُقبلاً ، ويمتنة ويسرة ، وصُعداً وسُقلاً ، ويرمى بعشرة أسهم قبل أن يفوقَ الخارجىُّ سهماً واحداً<sup>(٥)</sup> ، ويركض دابَّته متحدراً من جَبَل ، أو مستغلاً إلى بطن واد بأكثر مما يمكن الخارجىُّ على بسيط الأرض .

وللتركيُّ أربعة أعين<sup>(٦)</sup> : عينان فى وَجْهه ، وعينان فى قفاه . وللخارجىُّ

(١) فى الأصل : « والنظر إلى العودة » وكذا فى بعض أصول ن ، والصواب من سائر النسخ .

(٢) فى الأصل : « إذا أثر القتال » ، ووجهه من سائر النسخ .

(٣) سبق تفسيره فى ص ٢١ .

(٤) انظر ما سيأتى فى ص ٤٨ س ٦ و ٥٩ س ٢ .

(٥) فوق السهم : جعل له فوقاً ، والفوق بالضم : موضع الوتر من السهم ، والمراد وضع السهم فى الفوق .

(٦) كذا بتأنيث الأربعة مع العين المؤنثة ، وهو وجه جائز فى العربية مذكور فى المطولات . انظر الصبان ٤ : ٦٣ حيث ذكر ابن هشام أن ما كان لفظه مذكراً ومعناه مؤنثاً ، أو بالعكس . فإنه يجوز فيه وجهان .

عيبٌ في مُستدبرِ الحرب ، وللخراسانيّ عيبٌ في مُستقبلِ الحرب . فعيب  
الخراسانيّة أنّ لها جولةً عند أوّل الالتقاء<sup>(١)</sup> ، وإن ركبوا [ كُساءهم<sup>(٢)</sup> ]  
كانت هزيمتهم ، وكثيراً ما يثوبون ، وذلك [ بعد<sup>(٣)</sup> ] الخطار بالعسكر ،  
وإطاع العدو في الشدّة .

والخوارج إذا ولّوا فقد ولّوا وليس لهم بعد الفرّ كرّ ، إلّا ما لا يُعدّ .  
والتركيّ ليست له جولةُ الخراسانيّ ، وإذا أدبرَ فهو السّمّ الناقع ، والحتف  
القاضي ؛ لأنه يصيب بسهمه وهو مدبرٌ كما يصيب به وهو مُقبل ، ولا يُؤمن  
وهقه<sup>(٤)</sup> ، ولا انتسافُ الفرس<sup>(٥)</sup> ، واختطافُ الفارس بتلك الرّكضة .

ولم يُقلت من الوهق في جميع الدّهر إلّا المهلب بن أبي صفرة ، والحريش  
ابن هلال<sup>(٦)</sup> ، وعباد بن الحصين<sup>(٧)</sup> . وربّما رمى بالوهق وله فيه تدبير آخر

و ٢٩

(١) في الأصل : « بين أول الالتقاء » ، ووجهه من سائر النسخ .  
(٢) موضعها يابض في الأصل ، وإثباتها من سائر النسخ ما عدا ف ، ففيها :  
« أ كساءهم » بالجمع . ويقال ركب كساءه : وقع على قفاه ، والمراد أدبروا وتقهقروا .  
وكس ، كل شيء : مؤخره .  
(٣) إثباتها من سائر النسخ .  
(٤) الوهق ، بالتحريك : جبل شديد القتل يرمى وفيه أنشوطة ، فتؤخذ فيه  
الدابة والإنسان ، وجمعه أوهاق . والكلام بعده إلى كلمة « المرمى » ساقط من  
ج ، ف ، وبعض أصول ن .

(٥) انتسف الشيء : اقتلعه . قال أبو النجم :

وانتسف الجالب من أندابه إغباطنا ليس على أصلا به

(٦) في الاشتقاق ٢٥٧ : « الحريش بن هلال بن قدامة ، كان من فرسان  
بنى تميم ، وله أيام بخراسان مشهورة » .

(٧) هو عباد بن الحصين بن يزيد التميمي ، كان شجاعاً رئيساً . جمهرة ابن حزم  
٢١٣ والاشتقاق ٢٠٢ والبيان ٤ : ٣٦ .

وإن لم يَجْنُب المرمى معه ، يوم الجاهل أن ذلك إنما كان لخرق التركي<sup>(١)</sup> ،  
أو لحذق المرمى .

قال : وهم علّموا الفرسان حمل قوسين وثلاثة قِسي ، ومن الأوتار  
على حسب ذلك .

قال : والتركي في حال شدّته ، معه كلُّ شيء يحتاج إليه لنفسه وسلاحه  
ودابته وأداة دابته . فأما الصبر على الخَبَبِ وعلى مواصلة السّفر ، وعلى طول  
الشّرى وقطع البلاد ، فمَجِيبٌ جداً .

فواحدة : أن فرس الخارجي لا يصبر صبر برذون التركي .  
والخارجي لا يُحَسِّن أن يعالج فرسه إلا معالجة الفرسان لخيولهم ،  
والتركي أحذق من البيطار ، وأجود تقويماً لبرذونه على ما يريده من الرّاضة<sup>(٢)</sup>  
[ وهو استنتجته<sup>(٣)</sup> ] ، وهو ربّاه فِلْواً ، وتتبعه إن سماه<sup>(٤)</sup> ، وإن ركض  
ركض خلفه . وقد عوّده ذلك حتّى عرفه ، كما يعرف الفرس أقدم<sup>(٥)</sup> ،

(١) في الأصل : « لحذق » صوابه في ن ، س . والخرق ، بالضم : الجهل والحق ،  
وتقيض الفرق .

(٢) الرّاضة : جمع راض . وهو من يروض الدابة ويسوسها ويذلّلها .  
وفي الأصل وبعض أصول ن : « الرّياضة » ، صوابه من سائر النسخ .

(٣) موضعها بياض في الأصل ، وإثباتها من النسخ .

(٤) في الأصل وبعض أصول ن : « وثبته » ، صوابه من سائر النسخ .

(٥) أقدم : زجر للفرس ، وكذا أقدم . ومثله أجدم وهجدم ، كلها زجر  
للفرس . في معظم النسخ : « أجدم » بالجيم ، وهذه بوصل المهمزة وفتح الدال .

وَالنَّاقَةُ حَلٌّ<sup>(١)</sup> ، وَالْجَلُّ جَاهٌ ، وَالْبَغْلُ عَدَسٌ ، وَالْجَمَارُ سَاسَا ، وَكَمَا يَعْرِفُ  
الْجَنُونُ لِقَبِّهِ وَالصَّبِيُّ اسْمَهُ .

ولو حصلتُ عُمر التُّرْكِيِّ وَحَسِبْتُ أَيَّامَهُ لَوَجَدْتُ جُلُوسَهُ عَلَى ظَهْرِ دَابَّتِهِ  
أَكْثَرَ مِنْ جُلُوسِهِ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ . وَالتُّرْكِيُّ يَرْكَبُ فَحْلاً أَوْ رَمَكَةً ، وَيَخْرُجُ  
غَازِيًا أَوْ مُسَافِرًا ، أَوْ مُتَبَاعِدًا فِي طَلَبِ صَيْدٍ ، أَوْ سَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ ، فَتَتَّبِعُهُ  
الرَّمَكَةُ وَأَفْلَاوُهَا ، إِنْ أَعْيَاهُ اصْطِيَادُ النَّاسِ اصْطَادَ الْوَحْشِ ، وَإِنْ أَخْفَقَ مِنْهَا  
أَوْ احْتَجَّاجٌ إِلَى طَعَامٍ فَصَدَّ دَابَّةً مِنْ دَوَابِّهِ ، وَإِنْ عَطِشَ حَلَبَ رَمَكَةً مِنْ  
رِمَاكِه ، وَإِنْ أَرَاهُ وَاحِدَةً تَحْتَهُ رَكَبَ أُخْرَى مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْزِلَ إِلَى الْأَرْضِ .  
وَلَيْسَ فِي الْأَرْضِ أَحَدٌ إِلَّا وَبَدَنُهُ يَنْتَقِضُ عَلَى اقْتِيَاتِ اللَّحْمِ وَحَدِّهِ غَيْرُهُ ؛  
وَكَذَلِكَ دَابَّتُهُ تَكْتَفِي بِالْعَنْقَرِ<sup>(٢)</sup> وَالْعُشْبِ وَالشَّجَرِ ، لَا يَظُنُّهَا مِنْ شَمْسٍ وَلَا يَكْشُهَا  
مِنْ بَرْدٍ .

قَالَ : وَأَمَّا الصَّبْرُ عَلَى الْحَبِّ فَإِنَّ الثَّغْرَيْنِ<sup>(٣)</sup> وَالْفَرَاتَيْنِ<sup>(٤)</sup> ، وَالْخَصْيَانِ  
وَالْخَوَارِجَ ، لَوْ اجْتَمَعَتْ قَوَامٌ فِي شَخِصٍ وَاحِدٍ لَمَا وَفَوْا بِتُرْكِيٍّ وَاحِدٍ<sup>(٥)</sup> .

(١) وَيُقَالُ : « حَلَى » أَيْضًا كَمَا فِي بَعْضِ النُّسخِ . وَقَالَ أَبُو النَّجْمِ :

\* وَقَدْ حَدَوْنَاهَا بِحُوبٍ وَحَلَّ \*

(٢) الْعَنْقَرُ ، بَضْمُ الْعَيْنِ وَالْقَافِ : أَوَّلُ الْبَقْلِ وَالْقَصَبِ وَالْبَرْدَى مَا دَامَ أَيْضُ  
مَجْتَمَعًا . فِي الْأَوَّلِ : « بِالْعَنْقَرِ » ، صَوَابُهُ مِنْ سَأَرَ النَّسَخِ .

(٣) الثَّغْرِيُّونَ : نَسَبَةٌ إِلَى الثَّغْرِ ، وَهُوَ وَاحِدُ ثَغُورِ الشَّامِ ، وَمِنْ أَشْهُرِ مَدَنِهِ  
أَنْطَاكِيَّةُ وَبِغْرَاسُ وَالْمَصِيصَةُ ، وَأَوَّلُ أَهْلِهَا مِنَ الرُّومِ .

(٤) نَسَبَةٌ إِلَى الْفَرَاتِ ، يَعْنِي بِهِمْ عَمَالُ الْبَرِيدِ . وَيَبْدُو أَنَّهُمْ كَانُوا مِنْ غَيْرِ الْعَرَبِ .  
وَالْفَرَاتِيُّ : الَّذِي يَدُلُّ صَاحِبَ الْبَرِيدِ عَلَى الطَّرِيقِ ، مَعْرَبٌ « بِرَّ وَأَنْتَ » .

(٥) يُقَالُ فِي الشَّيْءِ الشَّيْءُ ، وَوَفَّى بِهِ : عَادَلَهُ . وَفِي الْأَوَّلِ وَبَعْضُ أَصُولِهِ :  
« لَمْ يَوْفُوا » ، تَحْرِيفٌ .

والتركي لا يبقى معه على طول الغاية إِلَّا الصَّميم <sup>(١)</sup> . [ و ] الذي يقتله التركي بإتباعه له ، وبنفيه <sup>(٢)</sup> عند غزاته ، هو الذي لا يصبر معه فرس الخارجي ، ولا يبقى معه كل بردون بخاري <sup>(٣)</sup> . ولو سابر خارجيًا لاستفرغ وسعه قبل أن يبلغ الخارجي عَفْوَه <sup>(٤)</sup> .

ظ ٢٩

والتركي هو الراعي ، وهو السائس وهو الرائض ، وهو النخّاس ، وهو البيطار ، وهو الفارس . والتركي الواحد أمة على حدة .

قال : وإذا سار التركي في غير عساكر الترك ، فسار القوم عشرة أميال سار عشرين ميلًا ؛ لأنه ينقطع عن المسكر يمنة ويسرة ، ويسرع في ذرى الجبال ، ويستبطن قُصور الأودية في طلب الصيد ؛ وهو في ذلك يرمي [ كُلَّ ] <sup>(٥)</sup> ما دبَّ ودَرَج ، وطارَ ووقع .

قال : والتركي لم يسِر في العساكر سِيرَ النَّاسِ قطُّ ، ولا سارَ مستقيمًا قطُّ .

قالوا : وإذا طالت الدُّلجة واشتدَّ السير ، وبعدَ المنزل ، وانتصف النهار ، واشتدَّ التعب ، وشغلَ الناسَ الكلال <sup>(٦)</sup> ، وحَمَّتِ المنسايرون فلم ينطقوا ،

(١) الصميم : الخالص المحض . في الأصل : « الاطول الصميم » ، صوابه في سائر النسخ .

(٢) في بعض أصول ن : « ويبقيه » .

(٣) نسبة إلى بخاري . وفي بعض أصول ن : « تخاري » .

(٤) العفو : ما يجيء بسهولة وبغير كلفة . في سائر النسخ : « لاستفرغ جهده » .

(٥) التكملة من سائر النسخ .

(٦) الكلال : التعب والإعياء . ج ، ف وبعض أصول ن : « الكلام » ،

تحريف

وقطعهم ما هم فيه عن التشاغل بالحديث ، وتفسخ كل شيء من شدة الحر ،  
 وخذ كل شيء من شدة البرد<sup>(١)</sup> ، وتمنى كل جليد القوى على طول السرى<sup>(٢)</sup>  
 أن تطوى له الأرض ، وكلما رأى خيالاً أو أبصر علماً<sup>(٣)</sup> سرَّ به واستبشر ،  
 وظنَّ أنه قد بلغ المنزل ؛ فإذا بلغه الفارس نزل وهو متفحج<sup>(٤)</sup> كأنه صبي  
 محقون ، يئنُّ أنين المريض ، ويستريح إلى التثاوب ، ويتداوى مما به بالتمطى  
 والتضجع . وترى التركي في تلك الحال وقد سار ضعف ما ساروا وقد أتعب  
 منكبيه كثرة النزاع<sup>(٥)</sup> ، يرى قرب المنزل غيراً<sup>(٦)</sup> أو ظبياً ، أو عرض له  
 ثعلب أو أرنب ، فيركض ركض مبتدئ مستأنف ، كأن الذي سار ذلك  
 السير وتعب ذلك التعب غيره .

وإن بلغ الناس وادياً فازدحموا على مسلكه أو [ على<sup>(٧)</sup> ] قنطارته ، بطن  
 برذونه فأقحمه<sup>(٨)</sup> ثم طلع من الجانب الآخر كأنه كوكب . وإن اتهموا إلى  
 عقبة صعبة ترك السنن<sup>(٩)</sup> وذهب في الجبل ضعداً ، ثم تدلى من موضع يعجز

(١) ج ، ف : « وتفسخ كل شيء من شدة البرد » فقط .

(٢) ف فقط : « قوى على طول السرى » .

(٣) أبصر ، من الأصل فقط . وفي الأصل : « عطاء » موضع « علماً » ، صوابه  
 من باقى النسخ .

(٤) متفحج : قد فتح ما بين رجليه .

(٥) النزاع فى القوس : مد وترها للرمى بسهامها .

(٦) فى الأصل وبعض أصول ن : « عنزا » ، ووجهه من سائر النسخ .

(٧) التكملة من سائر النسخ .

(٨) بطنه بطناً : ضرب بطنه .

(٩) السنن : نهج الطريق ومحجته . فى الأصل ، ف : « السير » ، صوابه فى  
 سائر النسخ .



عنه الوعل ؛ وأنت تحسبه مخاطراً بنفسه ، للذى ترى من مظلّعه . ولو كان  
فى كلّ ذلك مخاطراً لما دامت له السلامة مع تتابع ذلك منه .

قال : ويفخر الخارجىّ بأنّه إذا طلب أدرك ، وإذا طلب لم يدرك . ٣١ و  
والتركىّ ليس يحوج إلى أن يفوت ؛ لأنه لا يطلب ولا يرام . ومن يروم  
[ ما لا يطمع فيه ] ؟ !

فهذا . على أنّا قد علمنا أنّ العالة التى عمّت الخوارج بالنجدة استواء  
حالاتهم فى الدّيانة ، واعتقادهم أنّ القتال دين ؛ لأنّنا حين وجدنا السّجستانىّ  
والخراسانىّ والجزرىّ واليمامىّ والمغربىّ والممانىّ ، والأزرقىّ منهم والنّجدىّ<sup>(١)</sup>  
والإباضىّ والصفوىّ ، والمولى والعربىّ ، والعجمىّ والأعرابىّ ، والعبيد  
والنّساء ، والحائك والفلاح ، كلّهم يقاتل مع اختلاف الأنساب وتباين  
البلدان<sup>(٢)</sup> - علمنا أنّ الدّيانة هى التى سوت بينهم ، ووفقت بينهم فى ذلك .  
كما أنّ كلّ حجّام فى الأرض من أىّ جنس كان ، ومن أىّ بلد كان ، فهو يحبّ

(١) نسبة إلى نجدة بن عامر - وقيل عاصم - الحنفى . وهم النجدات أيضاً . وكان  
نجدة ممن خرج مع ابن الزبير ثم فارقه هو ونافع بن الأزرق من الخوارج ، فصار  
نافع إلى البصرة ، ونجدة إلى اليمامة . وذلك فى سنة ٦٤ . الملل والنحل ١ : ١٦٥  
والطبرى ٧ : ٥٦ - ٥٧٠ . ثم صار إلى الطائف ثم إلى البحرين ، ووجه إليه مصعب  
الزبير بجيـل بعد خيل فهزمهم ، وظل خمس سنوات هو وعماله بالبحرين واليمامة وعمان  
وهجر والعرض ، ثم تم عليه الخوارج فخلعوه بعد أن كان يسمى أمير المؤمنين ،  
وأقاموا أباً فديك مكانه سنة ٧٣ وقتل نجدة فى تلك السنة . الطبرى ٧ : ١٩٤ .  
وانظر أيضاً الفرق بين الفرق ٦٧ والمواقف ٦٢٩ .

(٢) فى الأصل : « وسائر البلدان » ، صوابه من سائر النسخ .

النبذ ، وكما أن أصحاب الخلقان<sup>(١)</sup> والسماكين والنخاسين والحاكة في كل بلد من كل جنس ، شرار خلق الله في المباينة والمعاملة . فعلمنا بذلك أن ذلك خاقعة في هذه الصناعات ، وبنيّة في هذه التجارات ، حين صاروا من بين جميع الناس كذلك .

قال : ورأينا التركي في بلاده ليس يقاتل على دين ولا على تأويل ، ولا على ملك ولا على خراج ، ولا على عصبية ولا على غيرة دون الحرمة والمحرّم<sup>(٢)</sup> ، ولا على حية ولا على عداوة ، ولا على وطن ومنع دار ولا مال ؛ وإنما يقاتل على السلب والخيار في يده . وليس يخاف الوعيد إن هرب ، ولا يرجو الوعد إن أبى عذرا . وكذلك هم في بلادهم وغاراتهم وحروبهم . وهو الطالب غير المطلوب ؛ ومن كان كذلك فإنما يأخذ العفو من قوته ، ولا يحتاج إلى [ مجهوده<sup>(٣)</sup> ] . ثم هو مع ذلك لا يقوم له شيء ولا يطمع فيه أحد ، فما ظنك بمن هذه صفته أن لو اضطره إخراج أو غيرة أو غضب أو تدبّر ، أو عرض له بعض ما يصحب المقاتل الحامي من العلل والأسباب .

قال : وقناة الخارجى طويلة صماء ، وقناة التركي مطرد أجوف<sup>(٤)</sup> . والقنى المجوفة القصار أشد طعنة وأخف في الحمل . والعجم تجعل القنى

(١) يراد بهم من يبيعون الخلقان من الثياب ، جمع خلق ، وهو البالي . انظر

الحيوان ٢ : ١٠٥ .

(٢) أى على غيرة على حرمة ومحرمه . فى الأصل وبعض أصول ن : « غير ذلك »

صوابه فى سائر النسخ . (٣) موضعها يابض فى الأصل ، وإثباتها من ب .

(٤) المطرد : رمح قصير .

الطَّوَالِ لِلرَّجَالَةِ ، وهى قُبَى الأبناء<sup>(١)</sup> ، على أبواب الخنادقِ والمضايق . ٣٠ ظ  
والأبناء فى هذا الباب لا يَجْرُونَ مع الأتراك والخراسانية : لأنَّ الغالبَ على  
الأبناء المطاعنة على أبواب الخنادق وفى المضايق ، وهؤلاء أصحاب الخيل والفرسان  
وعلى الخيل والفرسان تدور الجيوش ، لم الكثرة والفرث . والفارس هو الذى  
بَطَوَى الجيش طَى السَّجَلِ ، وبفَرَقَهُم تفريق الشعر . وليس يكون الكمينُ  
إلا منهم ولا الطليعة ولا السَّاقَةُ<sup>(٢)</sup> . وهم أصحاب الأيَّام المذكورة والحروبِ  
الكبار والفتوح العظام<sup>(٣)</sup> ، ولا تكون المقانب والكتائب إلا منهم .  
ومنهم من يحمل البُنُودَ والرَّايَات ، والطُّبُول والتجافيف<sup>(٤)</sup> والأجراس .  
وهم أصحاب الصَّهِيل والقَتَام<sup>(٥)</sup> ، وزجرِ الخيل ، وقمعةِ الرِّيح فى الشَّيَاب<sup>(٦)</sup>

(١) الأبناء . قوم من الفرس أرسلهم كسرى مع سيف بن ذى يزن لما جاء  
يستعجده على الحبشة ، فنصروه وملكوا اليمن وتديروها . وتزوجوا فى العرب ف قيل  
لأولادهم الأبناء ، وغلب عليهم هذا الاسم ، لأن أمهاتهم من غير جنس آبائهم .  
اللسان ( بنو ) . وفى التنبيه والإشراف ٢٢٦ أنهم الذين ساروا مع خرزاذ بن نرسی  
ابن جاماسب أخى قباد بن فيروز . وفى ص ٤٢١ أنهم الذين شخصوا مع وهرز  
إلى اليمن . ويبدو أن جميع الذين اجتذبهم الحروب من الفرس إلى جزيرة العرب  
كان العرب يسمونهم الأبناء .

(٢) كذا فى الأصل وبعض أصول ن . وفى ب : « وليس يكون الكمين  
ولا الطليعة ولا الساقاة إلا الكبار منهم » .

(٣) الكلام بعده إلى موضع التنبيه فى ص ٦٥ لم يرد فى ج ، ف . ومأنبه على  
ذلك فى موضعه .

(٤) جمع تجفاف ، بكسر التاء وفتحها . وهو ما يوضع على الخيل من حديد  
وسلاح يقيه الجراح فى الحروب .

(٥) القتام : الفبار . وفى الأصل وبعض أصول ن : « القيام » .

(٦) فى الأصل : « ثياب » مع يابض بعدها ، وأثبت ما فى ن . س .

والسلاح ووقع الخوافر ، والإدراك إذا طلبوا ، والفؤث إذا طلبوا . ولم يجعل النبي صلى الله عليه وسلم للفارس سهمين وللراجل من المقاتلة سهمًا واحدًا إلا لتضعيف الرد في القتل والفتوح ، والنهبة والمفانم<sup>(١)</sup> .

ثم قال : ولعمري إن للأبناء من القتال في السكك والشجون<sup>(٢)</sup> والمضايق ما ليس لغيرهم . ولكن الرجالة أبدأ أتباع ومأمورون ومنقادون ، وقائد الرجالة لا يكون [ إلا<sup>(٣)</sup> ] فارساً ، وقائد الفرسان من الممتنع أن يكون راجلاً . ومن تعود الطمان والضرب والرمي راكباً إن اضطر إلى الطمن والضرب والرمي راجلاً كان على ذلك أدفع عن نفسه ، وأرد عن أصحابه ، من الراجل إذا احتاج أن يستعمل سلاحه فارساً . وعلى أنه ما أكثر ما ينزلون ويقاتلون . وقد قال الشاعر<sup>(٤)</sup> :

لم يطيقوا أن ينزلوا ونزلنا وأخو الحرب من أطاق النزولا  
وقال الضبي<sup>(٥)</sup> :

\* وعلام أركبه إذا لم أنزل<sup>(٦)</sup> \*

(١) الرد : النفع . والنهبة ، بالضم الغنمة . كالنهي . وفي الأصل : « الهية » . صوابه في ن ، س .

(٢) وكذا سبق في ص ٢٧ س ٦ .

(٣) تسكمة ضرورية .

(٤) هو مهمل ، كما في الأغاني ٤ : ١٤٩ وشروح سقط الزند ٦٦ والخزانة ٢ : ٣٠٥ . وانظر ما قيل في النزول في هذا الموضع من الخزانة .

(٥) هو ربيعة بن مقروم الضبي . الحماسة ص ٦٢ بشرح الرزوقي والخزانة ٢ : ٣٠٥ .

(٦) صدره : فدعوا نزال فسكنت أول نازل

وقال آخر :

\* فماتوا ومنـازل<sup>(١)</sup> \*

وقال حميد : وليس في الأرض قومٌ إلّا والقسائد في الحروب ، والاشتراك في الرياسة ضارٌّ لهم ، إلّا الأتراك . على أن الأتراك لا يتساندون ولا يتشاركون ؛ وذلك أن الذي يُكره من المساندة والمشاركة اختلافُ الرأي ، والتنافس في السر<sup>(٢)</sup> ، والتحاسد بين الأشكال ، والتواكل فيما بين المشتركين .

والأتراك إذا صاغوا جيشاً إن<sup>(٣)</sup> كان في القوم موضع عورة فكلُّهم قد أبصرها وعرفها ؛ وإن لم تكن هناك عورة ولم يكن فيهم مطمع ، وكان الرأي الانصراف ، فكلُّهم قد رأى ذلك الرأي وعرف الصواب فيه . وخواطرم واحدة ، ودواعيهم مستوية بإقبالهم معاً . وليس هم أصحاب تأويلات ولا أصحاب تفاخر وتناشد ، وإنما شأنهم إحكام أمرهم ؛ فالاختلاف يقلُّ بينهم .

وكانت الفرس تعيب العرب إذا خرجوا إلى الحرب متساندين ، وكانت تقول : الاشتراك في الحرب وفي الزوجة وفي الإمرة سواء .

قال حميد : فما ظنك بقوم إذا تساندوا لم يفرهم التساند ، فكيف يكونون إذا تحاسدوا .

(١) لم أهد إلى بقيته ولا إلى قائله .

(٢) في الأصل وبعض أصول ن : « السر » .

(٣) في الأصل وبعض أصول ن : « وإن » ، وانواو مقحمة .

فلما انتهى الخبر إلى المأمون<sup>(١)</sup> قال : ليست بالترك حاجةٌ إلى حكم حاكم بعد حميد ؛ فإن حميداً قد مارس الفريقتين ، وحميد خراساني وحميد عربي ، فإيس للثمة عليه طريق .

قالوا : وأتى الخبرُ ذا اليميني<sup>(٢)</sup> طاهر بن الحسين فقال : ما أحسن ما قال حميد . أما إنه لم يقصّر ولم يفرط .

فهذا قول الخليفة المأمون ، وحكم حميد ، وتصويب طاهر .

وخبرني رجلٌ من أهل خراسان أو من بني سدوس قال : سمعت أبا البطّ يقول : ويلكم ، كيف أصنع بفارس يملأ فروج دابته منحدرًا من جبل ، أو مُصعدًا في مقطعٍ عفير ، ويمكنه على ظهر الفرس ما لا يمكن الرقاص الأبلّ<sup>(٣)</sup> على ظهر الأرض .

قال : وقال سعيد بن عقبة بن سليم الهنائي<sup>(٤)</sup> ، وكان ذا رأي في الحرب وابن ذى رأي فيها<sup>(٥)</sup> : فرق ما بيننا وبين الترك أن الترك لم تفرق قوماً قط ،

(١) كلمة « الخبر » ساقطة من ن ، س .

(٢) قالوا : سمى بذلك لأنه ضرب شخصاً بالسيف في وقته مع علي بن ماهان . فقدّه نصفين ، وكانت الضربة بيساره . ولد طاهر سنة ١٥٩ وتوفي سنة ٢٠٧ . وفيات الأعيان وثمار القلوب ٢٠٧ .

(٣) نسبة إلى الأبلّة ، وهي بلدة على شاطئ دجلة ، وفيها يقول الأصمعي : جنان الدنيا ثلاث : غوطة دمشق ، ونهر بلخ ، ونهر الأبلّة .

(٤) نسبة إلى بني هنة بن مالك بن فهم بن دوس . الاشتقاق ٤٩٨ وجمهرة ابن حزم ٣٨٠ حيث ذكر عقبة بن سلم .

(٥) كان عقبة بن سلم والد سعيد والياً للنصور على البحرين والبصرة .

ولا صَافَتْ جَيْشًا وَلَا هَجَمَتْ عَلَى عَدُوِّكَانُوا عَرَبًا أَوْ عَجَمًا ، فَأَخْرَجُوا إِلَيْهِمْ  
أَعْدَادَهُمْ وَلَقَوْهُمْ بِمِثْلِهِمْ . وَلَيْسَ غَايَتُهُمْ إِلَّا أَنْ يَنْقَادُوا لِيَكْفُوا عَنْهُمْ بِأَسْمِهِمْ  
وَمَعْرِتِهِمْ <sup>(١)</sup> ، وَيَصْرِفُوا عَنْهُمْ كَيْدَهُمْ . فَإِنْ هُمْ امْتَنَعُوا مِنَ الصُّلْحِ وَاعْتَزَمُوا  
عَلَى الْحَرْبِ فَلَيْسَ شَأْنُهُمْ وَالَّذِي يَدُورُ عَلَيْهِ أَمْرُهُمْ إِلَّا مَنَعَ أَنْفُسَهُمْ وَتَحَصَّنَ  
عَسْكَرُهُمْ ، وَالْإِحْتِرَاسَ مِنْهُمْ . فَأَمَّا أَنْ تَرُقَى هِمُّهُمْ وَتَسْمُو أَنْفُسُهُمْ إِلَى  
الْإِحْتِيَالِ عَلَيْهِمْ ، وَالتَّمَاسِ غَرَّتَّهُمْ ، فَإِنَّ هَذَا شَيْءٌ لَا يَخْطُرُ عَلَى بَالٍ مِنْ يَخَارِبِهِمْ .  
ثُمَّ قَالَ : وَقَدْ عَرَفْتُمْ حِيلَهُمْ فِي دُخُولِ الْمَدِينِ مِنْ جِهَةِ حَيْطَانِهَا الْمُصَنَّمَةِ  
الْعَرِيضَةِ ، وَحِيلَتَهُمْ فِي عُبُورِ نَهْرِ بَلْخِ .

وَسَعِيدٌ هَذَا هُوَ الَّذِي قَالَ : إِذَا حَارَبْتُمْ وَكُنْتُمْ ثَلَاثَةً فَاجْعَلُوا وَاحِدًا مَدَدًا ،  
وَأَخْرَجَ كَيْفًا . وَلَهُ كَلَامٌ فِي الْحَرْبِ غَيْرَ هَذَا كَثِيرٌ .

قَالَ سَعِيدٌ : وَأَخْبَرَنِي أَبِي قَالَ : شَهِدْتُ أَبَا الْخَطَّابِ يَزِيدَ بْنَ قَتَادَةَ  
ابْنَ دِعَامَةَ الْفَقِيهِ <sup>(٢)</sup> ، وَذَكَرَ قَوْلَ عَمْرِو بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي التُّرْكِ  
حَيْثُ قَالَ : « عَدُوٌّ شَدِيدٌ طَلَبُهُ ، قَلِيلٌ سَلْبُهُ » ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْعَالِيَةِ :  
نَهَى عَمْرٌ <sup>(٣)</sup> أَبَا زَيْدٍ الطَّائِيَّ عَنْ وَصْفِ الْأَسَدِ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ مِمَّا يَزِيدُ فِي رُعْبِ

(١) المعرة : الشدة والأذى في الحرب .

(٢) ليس الفقيه يزيد ، بل أبوه قتادة هو الفقيه . وهو قتادة بن دعامة السدوسي .  
وكنيته أبو الخطاب أيضاً . ولد سنة ٦١ وتوفي سنة ١١٧ . تهذيب التهذيب ووفيات  
الأعيان ونسكت الهميان ٢٣٠ . وقد ذكر الجاحظ قتادة في مواضع كثيرة من  
الحيوان والبيان .

(٣) كذا . والمعروف أن عثمان بن عفان هو الذي نهاه . انظر طبقات ابن سلام

٥١٠ و الأغاني ١١ : ٢٤ والخزانة ٢ : ١٥٥ .

الجبان ، وفي هَوَلِ الْجَنَانِ ، وَيَقْلُ مِنْ رَغَبِ الشَّجَاعِ<sup>(١)</sup> ، وقد وُصِفَ التُّرْكُ بأشدَّ من وصف أبي زُبَيْدٍ الأسد .

وقال سعيد في حديثه يومئذ ، وقد قطعتُ شِرْذِمَةً منهم بلادَ أبي خزيمة - يُرِيدُ حَمْزَةَ<sup>(٢)</sup> بن أدركَ الخارجي - وما والى خراسانَ [ في ] بعض الأمر ، وَحَمْزَةُ في مُعْظَمِ النَّاسِ ، فقال لأصحابه : أفرجوا لهم ما تركوكم ، ولا تتعرضوا لهم ؛ فإنه قد قيل : « تاركوهم ما تاركوكم » .

فهذا قول سعيد بن عقبة ورأيه وحديثه ؛ وهو عربيٌّ خراساني .

وذكر يزيد بن مَزِيد الوُقْعَةَ التي قُتِلَ فيها يولُباً<sup>(٣)</sup> التُّرْكِيُّ الوليد بن طريف<sup>(٤)</sup> الخارجي ، فقال في بعض ما يصف من شأن التُّرْكِ : ليس لبدن التُّرْكِي على

(١) الرَغَب : الرغبة والطمع والحرص .

(٢) في الأصل وبعض أصول ن : « يزيد بن حمزة » تحريف . وأبو خزيمة كنية حمزة . وفي البيان ٤ : ٢٥ عند الكلام على الكنية بأبي خزيمة : « وهذه الكنية كنية زرارة بن عدس ، وكنية خازم بن خزيمة ، وكنية حمزة بن أدرك » . وفي الطبري ١٠ : ٦٥ وابن الأثير ٦ : ٥٣ : « حمزة بن أترك » وما هنا يطابق البيان والملل والنحل ١ : ١٧٤ . وكان حمزة صاحب فرقة من فرق العجاردة من الخوارج ، خرج في أيام هارون الرشيد سنة ١٧٩ بسجستان وخراسان ومكران وقهستان ، وهزم الجيوش الكبيرة ، وبقي الناس في فتنه إلى أن مضى صدر من أيام خلافة المأمون ، ودارت بينه وبين طاهر بن الحسين وعبد الرحمن النيسابوي حروب انتهت بموت حمزة . وانظر المواقف ٦٣٠ والفرق بين الفرق ٧٦ والاعتقادات للرازي ٤٨ .

(٣) أهمل نقط الحرف الأول في الأصل وبعض أصول ن .

(٤) هذا نص نادر ، فإن الضربة التي أصيب بها الوليد بن طريف لم يعين =



ظهر الدابة ثقل ، ولا لمشيته على الأرض وقع ، وإنه ليرى وهو مدبر ما لا يرى  
 الفارس منّا وهو مقبل . وهو يرى الفارس منا صيداً ويعدّ نفسه قهّداً ،  
 ويعدّه ظيياً<sup>(١)</sup> ويعدّ نفسه كلباً . والله لو رمى به في قعر بئر مكتوفا لما أعجزته  
 الحيلة ؟ ولولا أن أعمار عاقمتهم تقصر دون الجبل - بمعنى جبل خلوان -  
 ثم هموا بنا ، لألقوا لنا شُفلاً طويلاً .

وأنشد رجل من أصحابه :

هَبِ الدُّنْيَا تُسَاقُ إِلَيْكَ عَفْوَاً أليس مصيرُ ذاك إلى ذَوَالٍ

قال : أما التُّركي فلأن ينال الكفافَ غصباً أحبُّ إليه من أن ينال  
 الملكَ عفواً . ولم يتهنَّ تركي بطعامٍ إلا أن يكون صيداً أو مغنماً ، ولا يُعزُّ<sup>(٢)</sup>  
 على ظهر دابته طالباً كان أو مطلوباً .

وقال ثمامة بن أشرس ، وكان مثل محمد بن الجهم في كثرة ذكره للتُّرك .  
 قال ثمامة : التُّركي لا يخاف إلا مخوفاً ولا يطعم في غير مطعم ، ولا يكفه عن  
 الطلب إلا اليأس صرفاً ، ولا يدع القليل حتى يصيب أكثر منه ، وإن قدر  
 أن يجمعهما لم يفرط في واحدٍ منهما . والباب الذي لا يُحسنه لا يُحسن منه شيئاً ،

= ضاربها المؤرخون . انظر ابن الأثير ٥١: ٦ في حوادث ١٧٩ وكذا الأغاني ١١: ٩ .  
 وقد ذكر ابن الأثير وأبو الفرج والطبري ١٠: ٦٥ أن يزيد بن يزيد هو الذي  
 احتز رأسه بعد ما أصيب . وفي ذلك تقول أخت الوليد ليلى بنت طريف ، أو الفارعة :  
 فإني بك أرداه يزيد بن يزيد فيارب خيل فضها وصفوف  
 وانظر الأمل ٣: ٢٧٤ والآل ٩١٣ ووفيات الأعيان ٢: ١٧٩ .

(١) أي يعد الفارس منا ظيياً جديراً بالقتل . وفي الأصل وبعض أصول ن :

« ونعده » .

(٢) أي لا يغلب . في الأصل ون : « ولا يغر » . وفي س : « ولا يفر » .

والباب الذي يُحسّنه قد أحكمه بأسره وأمره<sup>(١)</sup> وخفيّه عنده كظاهرة<sup>(٢)</sup> ،  
ولا يتشاغل بشيء ليس فيه شيء ، ولا على نفسه من شيء<sup>(٣)</sup> . فلو لا أن يُجِمْ  
نفسه بالنوم لما نام ، على أن نومه مشوبٌ باليقظة ، ويقظته سليمة من الوسنة .  
ولو كان في شِقَمهم أنبياء ، وفي أرضهم حُكماء ، وكانت هذه الخواطر قد مرّت  
على قلوبهم ، وقرعت أسماعهم<sup>(٤)</sup> ، لأنسوك أدب البصريين ، وحكمة  
اليونانيين ، وصنعة أهل الصين .

وقال ثمامة : عرضَ لنا في طريق خراسانَ تركيٌّ ومعنا قائدٌ يصولُ بنفسه  
ورجاله ، وبيننا وبين التركيِّ وادٍ ، فسأله أن يبارزه فارسٌ من القوم ، فأخرج  
له رجلاً لم أر قطُّ أكملَ منه ، ولا أحسنَ تماماً وقواماً منه ، فاحتال حتى عبر  
إليهم الفارس ، فتجاوزوا ساعةً ، ولا نظنُّ إلا أن صاحبنا يفي بأضعافه ، وهو  
في ذلك يتباعد عنا . فبينما هما في ذلك إذ ولى عنه التركيُّ كالهارب منه ، وفعل  
ذلك في موضعٍ ظننّا أن صاحبنا قد ظهر عليه ، وأتبعه الفارس لا نشكُّ إلا أنه  
سيأتينا برأسه ، أو يأتينا به مجنوباً إلى فرسه ، [ فلم نشعر<sup>(٥)</sup> ] إلا وصاحبنا قد  
أفلتَ عن فرسه وغاب عنه ، فنزل التركيُّ إليه فأخذ سلبه وقتله ، ثم عارض  
فرسه فجنبه إليه معه .

(١) أمره إمراراً : أحكمه ووثقه توثيقاً .

(٢) في الأصل و ن : « وأمره عنده خفيه كظاهرة » . والوجه ما أثبت من س .

(٣) صححت في ن ، س بزيادة « يخاف » بعد كلمة « لا » .

(٤) هذا هو الصواب ، وعدلت في ن ، س إلى : « وفرغت لها أسماعهم » ،  
وليس ما يدعو إلى ذلك ، وما أثبت من الأصل أوفق وأعلى .

(٥) موضعها يياض في الأصل ، وإثباتها من ن ، س .

قال ثمامة : ثم رأيتُ بعد ذلك التركيَّ قد جِيءَ به أسيراً إلى دار الفضل ابن سهل ، فقلتُ له : كيف صنعتَ يومئذٍ ، وكيف طاولته ثمَّ علاك ثم وليت عنه هارباً ثم قتلته ؟ قال : أمّا إنّي لو شئتُ أن أقتله حين عَبرَ ، وقد كانَ مقتله بارزاً لي ، ولكنّي احتلتُ عليه حتّى نَحَيْتُهُ عن أصحابه لأجوزَه ، فلا يُحَالَ بيني وبين فرسه وسكّبه .

قال ثمامة : وإذا هو يدير الفارس من سائر الناس ويُرِيغُه كيف شاء وأحبَّ<sup>(١)</sup> .

قال ثمامة : وقد غَبرْتُ في أيديهم أسيراً فما رأيتُ كإكرامهم وتُخفيم والطفهم .

فهذا ثمامة بن أشرس ، وهو عربيٌّ لا يُتَمُّ في الإخبار عنهم . وأنا أخبرك أنّي قد رأيتُ منهم شيئاً عجيباً وأمرأ غريباً : رأيتُ في بعض غزوات المأمون سِماطِي خيلٍ على جَنَبَتِي الطَّرِيق بقرب المنزل ، مائة فارس من الأتراك في الجانب الأيمن ، ومائة من سائر الناس في الجانب الأيسر ، وإذا هم قد اصطَفَوْا ينتظرون مجيء المأمون ، وقد انتصفَ النهار واشتدَّ الحر . فورد عليهم وجمعُ الأتراك<sup>(٢)</sup> جلوسٌ على ظهور خيولهم إلّا ثلاثة أو أربعة ، وجميع تلك الأخطا من الجند قد رَمَوْا بنفوسهم إلى الأرض إلّا ثلاثة أو أربعة . فقلت

(١) أراغه : أراحه وطلبه . وعلى الأمر : أداره عليه . وأنشدوا :

يديروني عن سالم وأريغه وجلدة بين العين والأنف سالم

(٢) في الأصل وبعض أصول ن : « وجميع » .

لصاحب لي : انظر أي شيء اتفق لنا . أشهد أن المعتصم كان أعرف بهم حين  
جمعهم واصطنعهم .

وأردت مرة القاطول - وهي المباركة - وأنا خارج من بغداد ، وأرى  
فوارس من أهل خراسان والأبناء وغيرهم من أصناف الجند ، قد عارَ لهم  
فرس<sup>(١)</sup> ، وهم على خيل عتاق يُريغونه فلا يقدرّون على أخذه ، ومرة تركي<sup>(٢)</sup>  
ولم يكن من ذوى هيناتهم وذوى القدر منهم ، وهو على برذون له خيس ،  
وهم على الخيول المطّمة ، فاعترض الفرس اعتراضاً ، وقتله قتلاً وحياً<sup>(٣)</sup> ؛ وأتاه  
من زجره بشيء ، فوقف أولئك الجند وصاروا نظّارة ، فقال بعضهم من كان  
يزري على ذلك التركي : هذا وأبيك التكلف والتعرض : أن فرساً قد أعجزهم  
وهم أسد البلاد ، وجاء هذا مع قصر قامته وضعف دابته ، فطمع أن يأخذه .  
فما انقضى كلامه حتى أقبل به ثمّ سلّمه إليهم ومضى لطلبته ، لم ينتظر ثناءهم  
ولا دعاءهم . ولا أراه أنه قد صنع شيئاً ، أو أتى إليهم معروفاً .

والأتراك قوم لا يعرفون الملق ولا الخلافة ، ولا النفاق ولا السعاية ،  
ولا التصنع ولا النسيمة ولا الرّياء ، ولا البدخ على الأولياء<sup>(٣)</sup> ، ولا البغى  
على الخطاء ، ولا يعرفون البدع ، ولم تفسد الأهواء ، ولا يستحلّون الأموال  
على التأول ، وإنما كان عيبتهم ، والذي يوحش منهم ، الحنين إلى الأوطان ،  
وحبّ التقارب في البلدان ، والصّباة بالفارات ، والشغف بالنّهب ، وشدة

و ٣٣

(١) عار يعير : انقلت وذهب هاهنا وهاهنا وحاد عن الطريق .

(٢) الوحي : السريع .

(٣) البدخ : الكبر والتطاول والفخر .

الإلف للعادة ، مع ما كانوا يتذاكرون من سُرور الظفر وتتابعه ، وخلاوة  
المغنم وكثرته ، وملاعبهم في تلك الصحارى ، وترددهم في تلك المروج ،  
والأ يذهب بطول الفراغ فضل نَجْدَتِهِمْ باطلا ، ويصير حَدْثُهم على طول  
الأيام قليلا .

وَمَنْ حَدَقَ شَيْئًا لَمْ يَصِرْ عَنْهُ ، وَمَنْ كَرِهَ أَمْرًا فَرَّ مِنْهُ .  
وإنما خُصُّوا بالحنين من بين جميع العجم لأنَّ في تركيبهم وأخلاق طبايعهم من  
تركيب بلادهم وتربيتهم ، ومشاكلهم مياهم ومناسبة إخوانهم ، ما ليس مع أحدٍ  
سواهم . ألا ترى أنَّك ترى البصرى فلا تدري أبصرى هو أم كوفى ، وترى  
المكئى فلا تدري أمكئى هو أم مدنى . وترى الجبلى فلا تدري أجبلى هو  
أم خراسانى ، وترى الجزرى فلا تدري أجزرى هو أم شامى . وأنت لا تفأط  
في التركي ، ولا تحتاج فيه إلى قيافة ولا إلى فِرَاسة ، ولا إلى مُسألة . ولساؤهم  
كرجالهم ، ودوابهم تركية مثاهم .

وهكذا طبع الله تلك البلدة ، وقسم لتلك التربة . وجميع دُور الدنيا  
ونشونها إلى منتهى قواها ومدَّة أجلها ، جارية على عللها ، وعلى مقدار أسبابها ،  
وعلى قدر ما خصَّها الله تعالى به وأبانها ، وجعل فيها . فإذا صاروا إلى دار  
الجزاء ، فهي كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً <sup>(١)</sup> ﴾ .

وكذلك ترى أبناء العرب والأعراب الذين نزلوا خراسان ، لا تفصل بين  
من نزل أبوه بفرغانة وبين أهل فرغانة ، ولا ترى بينهم فرقا في السبال الضئيل

والجلود القشيرة<sup>(١)</sup> ، والأقفاء العظيمة ، والأكسية الفرغانية . وكذلك جميع تلك الأرباع ، لا تفصل بين أبناء النازلة وبين أبناء النابتة .

ومحبة الوطن شيء شامل لجميع الناس ، وغالب على جميع الجيرة<sup>(٢)</sup> . ولكن ذاك في الترك أغلب ، وفيها أرسخ ؛ لما معها من خاصّة المشاكلة والمناسبة ، واستواء الشبه ، وتكافؤ التركيب . ألا ترى أن العبدى يقول<sup>(٣)</sup> : « عمر الله البلدان بحب الأوطان » ، وأن ابن الزبير قال : « ليس الناس بشيء من أقسامهم أقنع منهم بأوطانهم »<sup>(٤)</sup> ، وأن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : « لولا تفرق أهواء المباد لما عمر الله البلاد » ، وأن جمة الإيادية قالت : « لولا ما أوصى الله به العباد من قفر البلاد ، لما وسعهم واد ولا كفاهم زاد » . وذكر قتيبة بن مسلم الترك فقال : « هم والله أحسن من الإبل المعقاة إلى أوطانها » ؛ لأن البعير يحن إلى وطنه وعطنه ، وهو نهمان ، من ظهر البصرة ، فهو يحنط<sup>(٥)</sup> كل شيء ويستبطن كل واد ، حتى يأتي مكانه ؛ على أنه طريق لم يملكه إلا مرة واحدة ، فلا يزال بالشّم والاسترواح وحسن الاستدلال ، وبالطبيعة المخصوص بها حتى يأتي مبركه ، على بُعد ما بين عمان والبصرة .

(١) من القشر ، بالتحريك ، وهو شدة الحر .

(٢) في الأصل وبعض أصول ن : « الحيرة » . وفي ف : « الجيزة » . والجيزة

بمعنى الناحية .

(٣) بدله في الحيوان ٣ : ٢٢٧ : « وقد قالوا » .

(٤) الأقسام : جمع قسم ، بالكسر ، وهو الحظ والنصيب . والنس في الحيوان

٣ : ٢٢٧ .

(٥) في الأصل وبعض أصول ن : « فحن تحت » تحريف .

فذلك ضرب به قتيبة المثال<sup>(١)</sup> .

والشَّخْ على الوطن [ والحنين إليه<sup>(٢)</sup> ] ، والعنابة به ، مذكورة في القرآن ، مخطوطة في [ الصحف بين<sup>(٣)</sup> ] جميع الناس . غير أن التركي للعلل التي ذكرناها أشد حنيناً وأكثر نزوعاً<sup>(٤)</sup> .

وباب آخر ، مما كان يدعوهم إلى الرجوع قبل العزم الثابت<sup>(٥)</sup> ، والعادة المنقوضة<sup>(٦)</sup> : وذلك أن الترك قومٌ يشتدُّ عليهم الحضر [ والجثوم<sup>(٧)</sup> ] ، وطول اللَّبث والمكث ، وقلة التصرف والتحرك ، وأصل بنيتهم إنما وُضِعَ على الحركة ، وليس للسكون فيها نصيب ، وفي قوى أنفسهم فضلٌ على قوى أبدانهم ، وهم أصحاب توقد وحرارة ، واشتغال<sup>(٨)</sup> وفطنة ، كثيرة خواطرهم ، سريع لخطهم ، وكانوا يرون الكفاية معجزة ، وطول المقام بلاذة ، والراحة عُقْلة<sup>(٩)</sup> ، والقناعة من قصر الهمة ؛ وأن ترك الغزو يورث الذلة .

(١) إلى هنا ينتهي إغفال الاختيار في ج ، ف الذي نبت على بدايته في ص ٥٣ .

(٢) الكلمة من ب .

(٣) هذا ما في ف . وفي الأصل . ن : « وأشد نزاعاً » . ج : « وأكثر نزاعاً » .

(٤) ج : « عزم الثاني » ف : « ثنى العزم » . وفي الأصل : « العزم الثاني » ، والوجه ما أثبت من سائر النسخ .

(٥) في الأصل . س : « والمادة المنقوضة » . صوابه في ج . ف . وفي ن : « والمادة المنقوضة » .

(٦) الكلمة من ن . والكلمة ساقطة من ف . وبدلها في ج : « الجثوم » . جثوم : لزم مكانه فلم يبرحه .

(٧) في الأصل و ف : « واستعال » . وأثبت ما في ب .

(٨) أى تعقل صاحبها وتحمسه عن الانطلاق .

٣٤ و

وقد قالت العرب في مثل ذلك : قال عبد الله بن وهب الراسبي :  
 « حب الهويّنا يكسب النَّصَب » . والعرب تقول : « من غلادماغه  
 في الصَّيف غَلَّتْ قِدرُهُ في الشَّتَاء » . وقال أكرم بن صَيْق : « ما أحبُّ أنِّي  
 مكفِّي كلِّ أمرٍ الدنيا » . قيل : ولم ؟ قال : « أخاف المعجز » .

فهذه كانت عِلال التُّرك في حبِّ الرُّجوع والحنين إلى الوطن .

ومن أعظم ما كان يدعُّوهم إلى الشُّرودِ ويبعثهم على الرجوع ، ويُكرِّه  
 عندهم المقام ، ما كانوا فيه من جهل قوَّادهم بأقذارهم ، وقلة معرفتهم  
 بأخطارهم ، وإغفالهم موضع الرُّد عليهم والانتفاع بهم ، حتَّى جعلوهم أسوة  
 أجنادهم ، ولم يقنعوا أن يكونوا في الخاشية والحُشوة ، وفي غمار العامة  
 ومن عُرض العساكر ، وأنفوا من ذلك لأنفسهم ، وذكروا ما يجب لهم ،  
 ورأوا أنَّ الضَّيْم لا يليق بهم ؛ وأنَّ الخمول لا يجوز عليهم ، وأنهم في المُقام  
 على من لا يعرف حقَّهم ألوم ممَّن منهم حقَّهم ، فلما صادفوا ملكاً حكيماً ،  
 وبأقدار النَّاس عليماً ، لا يميل إلى [ سوء<sup>(٢)</sup> ] عادةٍ ولا ينجح إلى هوى ،  
 ولا يتعصَّب لبلدٍ على بلد ؛ يدور مع التدبير حيثما دار ، ويقم مع الحقِّ حيثما  
 أقام ، أقاموا إقامةً من قد فهم الحظَّ<sup>(٣)</sup> ، ودان بالحقِّ ونبذ العادة ، وآثر

(١) في الأصل وبعض أصول ن : « الدنيا » ، صوابه في ب .

(٢) التَّكَلُّف من ب .

(٣) في الأصل وبعض أصول ن : « الحق » ، وأثبت ما في ب . لكن في ف :

« منع » موضع « فهم » .



الحقيقة ، ورحل نفسه لقطيعة وطنه<sup>(١)</sup> ، وآثر الإمامة على ملك الجبرية<sup>(٢)</sup> ، واختار الصواب على الإلف .

ثم اعلم<sup>(٣)</sup> بعد هذا كله أن كل أمة وقرن ، وكل جيل وبني أب وجدتهم قد برعوا في الصناعات ، وفضلوا الناس في البيان ، أو فاقوهم في الآداب ، وفي تأسيس الملك ، وفي البصر بالحرب ؛ فإنك لا تجدهم في الغاية وفي أقصى النهاية ، إلا أن يكون الله قد سخرهم لذلك المعنى بالأسباب ، [ وقصرهم<sup>(٤)</sup> ] عليه بالعلل التي تقابل تلك الأمور ، وتصلح لتلك المعاني ؛ لأن من كان متقسم الهوى ، مشترك الرأي ، ومتشعب النفس ، غير موافق على ذلك الشيء ولا مهيناً له ، لم يحدق من تلك الأشياء [ شيئاً<sup>(٥)</sup> ] بأمره ، ولم يبلغ فيه غايته ، كأهل الصين في الصناعات ، واليونانيين في الحكم والآداب ، والقرب فيما نحن فيه ذا كروه في موضعه ، وآل ساسان في الملك ، والأتراك في الحروب . ألا ترى أن اليونانيين الذين نظروا في العلل لم يكونوا تجاراً ولا صناعاتاً كفهم ، ولا أصحاب زرع ولا فلاحة وبناء وغرس ، ولا أصحاب جمع ومنع ، وحرص وكد ، وكانت الملوك تفرغهم ، وتجرى عليهم كفايتهم ،

٣٤ ظ

(١) يقال رحل نفسه لكذا ، إذا صبر على أذاه . وفي الأصل وبعض أصول ن : « فطنه » تحريف .

(٢) في الأصل وبعض أصول ن : « وآثر ملك الإقامة على ملك الحرية » ، صوابه في ب .

(٣) في الأصل وبعض أصول ن : « وأعظم » .

(٤) موضعها يابض في الأصل ، وإثباته من ب .

فَنظَرُوا حِينَ نَظَرُوا بِأَنْفُسِ مَجْتَمِعَةٍ ، وَقُوَّةٍ وَافِرَةٍ ، وَأُذْهَانٍ فَارِغَةٍ ، حَتَّى اسْتَخْرَجُوا الْأَلَاتِ وَالْأَدَوَاتِ ، وَالْمَلَاهِيَّ الَّتِي تَكُونُ جَمَامًا لِلنَّفْسِ ، وَرَاحَةً بَعْدَ الْكَدِّ ، وَسُرُورًا يَدَاوِي قَرْحَ الْهَمِّ ، فَصَنَعُوا<sup>(١)</sup> مِنْ أَمْرَاقٍ ، وَصَانَعُوا مِنْ الْمَنَافِعِ كَالْقَرِصُطُونَاتِ<sup>(٢)</sup> ، وَالْقَبَانَاتِ ، وَالْأَسْطُرْلَابَاتِ<sup>(٣)</sup> ، وَآلَةِ السَّاعَاتِ ، وَكَالْكُونِيَا<sup>(٤)</sup> وَكَالشِّيزَانِ<sup>(٥)</sup> وَالْبَرَكَارِ<sup>(٦)</sup> وَكَأَصْنَافِ الْمَزَامِيرِ وَالْمَعَارِفِ ، وَكَالطَّبِّ وَالْحِسَابِ وَالْهَنْدَسَةِ وَاللُّحُوفِ ، وَآلَاتِ الْحَرْبِ كَالْجَانِيْقِ .

(١) فِي الْأَصْلِ وَبَعْضُ أَصُولِ ن : « فَصَنَعُوا » .

(٢) جَاءَ فِي الزَّهَةِ الْمُبْهَجَةِ لِدَاوُدِ الْأَنْطَاكِيِّ بِهَامِشٍ تَذَكُّرُ دَاوُدَ ١ : ١٥ : « عِلْمُ مَرْكَزِ الْأَثْقَالِ مِثْلُ الْقَرِصُطِيِّونَ ، يَعْنِي الْقَبَانِ » . وَجَاءَ فِي كِتَابِ التَّرْبِيعِ وَالتَّدْوِيرِ ص ١٣٨ سَاسِي : « وَخَبَرَنِي عَنْ الْقَرِصُطُونِ كَيْفَ أَخْرَجَ أَحَدَ رَأْسِيهِ ثَلَاثِمِائَةَ رِطْلٍ زَادَ ذَلِكَ أَمْ تَقْصُ ، وَوَزَنَ جَمِيعَهُ ثَلَاثُونَ رِطْلًا زَادَ ذَلِكَ أَوْ تَقْصُ » . وَانْظُرِ الْحَيَوَانَ ١ : ٨١ ، فَيَدُو أَنَّهُ ضَرَبَ مِنَ الْقَبَانِ .

(٣) الْأَسْطُرْلَابُ أَوْ الْأَسْطُرْلَابُ : مَقْيَاسٌ لِلنَّجُومِ ، وَهُوَ بِالْيُونَانِيَّةِ أَصْطُرْلَابُون . وَأَصْطَرَهُو النِّجْمَ ، وَلَابُونُ هُوَ الْمِرَاةُ ، وَقَدْ يَهْدَى بَعْضُ الْمُؤَلِّمِينَ بِالِاسْتِثْقَاقَاتِ فِي هَذَا الْمَعْنَى بِمَا لَا مَعْنَى لَهُ ، وَهُوَ أَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ لَابَ اسْمُ رَجُلٍ وَأَسْطَرُ جَمْعُ سَطَرٍ . وَهَذَا اسْمٌ يُونَانِيٌّ ، اسْتِثْقَاقُهُ مِنْ لِسَانِ الْعَرَبِ جَهْلٌ وَسَخْفٌ . مِفْتَاحُ الْعُلُومِ لِلْخَوَارِزْمِيِّ ص ١٣٤ وَالْحَيَوَانَ ١ : ٨١ / ٢ : ٢٤٢ . وَقَدْ وَقَعَ صَاحِبُ الْقَامُوسِ فِي هَذَا الْوَهْمِ الَّذِي نَبَهَ عَلَيْهِ الْخَوَارِزْمِيُّ فِي مَادَّةِ ( لُوب ) .

(٤) فِي الْأَصْلِ : « وَكَالْكِرْمَا » بِهَذَا الْإِهْمَالِ ، وَأَثْبَتَ مَا فِي ج ، ف . وَفِي مِفْتَاحِ الْعُلُومِ : « الْكُونِيَا » بِالْوَاوِ ، وَقَالَ : « لِلنَّجَّارِينَ يَقْدُرُونَ بِهَا الزَّاوِيَةَ الْقَائِمَةَ » .

(٥) ج ، ف : « وَالْكُسِيرَانِ » ن ، س : « وَالْكُشْتَوَانِ » .

(٦) الْبَرَكَارُ : آلَةٌ هَنْدَسِيَّةٌ مَرْكَبَةٌ مِنْ سَاقَيْنِ مُتَصِلَتَيْنِ تُثَبَّتُ إِحْدَاهُمَا وَتَدُورُ حَوْلَهَا الْآخَرَى . تَرَسُّمُهَا الدَّوَائِرُ وَالْأَقْوَاسُ ، وَتُسَمَّى بِالْعَامِيَةِ « الْبَرَجَالِ » . وَهِيَ فِي الْفَارْسِيَةِ « بَرَكَار » .

والمرآدات<sup>(١)</sup> ، والرتيلات<sup>(٢)</sup> ، والدُّبَابَات ، وآلة النَّفَاط<sup>(٣)</sup> ، وغير ذلك مما يطول ذكره .

وكانوا أصحابَ حكمة ولم يكونوا قلة ؛ يصوِّرون الآلة ، ويخرطون الأداة ، ويصوغون المثل ولا يُحسنون العملَ بها<sup>(٤)</sup> ، ويشيرون إليها ولا يمشونها ، ويرغبون في العلم ويرغبون عن العمل .

فأما سُكَّان الصين فهم أصحاب السِّبْك والصِّياغة ، والإفراغ والإذابة والأصباغ العجيبة ، وأصحاب الخُرط والتَّحت والتصاوير ، والنَّسخ والنَّحْط ، ورقف الكف في كلِّ شيء يتولَّونه ويُعائِنونه ، وإن اختلف جوهره ، وتباينت صناعته ، وتفاوت ثمنه .

واليونانيون يعرفون الفلك ، لأنَّ أولئك حكماء وهؤلاء قلة<sup>(٥)</sup> . وكذلك العرب ، لم يكونوا تجَّارًا ولا صنَّاعا ، ولا أطباء ولا حُسابًا ، ولا أصحابَ فلاحه فيكونون مَهْنة ، ولا أصحابَ زرع ، لخوفهم من صغار

(١) العرادة : منجنيق صغير . والمنجنيق : آلة ترمى بها الحجارة في القتال . وانظر حواشي البيان والتبيين ٣ : ١٧ .

(٢) في الأصل وبعض أصول ن : « الترسلات » بالإهمال . وفي بعض أصول ن : « الرقيلات » ، وباقي النسخ : « الرتيلات » . وفي البيان ٣ : ١٧ : « الرتيلة » .

(٣) ج ، ف : « النفاطين » .

(٤) في الأصل وبعض أصول ن : « المثل ولا يحسنون العمل به » ، وعدلت العبارة لتتفق مع سائرهما .

(٥) في الأصل وبعض أصول ن : « حكماء وهم قلة » وأثبت الصواب من ب .

الجزية<sup>(١)</sup> . ولم يكونوا أصحاب جمع وكسب ، ولا أصحاب احتكار لما في أيديهم  
 وطلب ما عند غيرهم ، ولا طلبوا المعاش من السنة الموازين وريوس المكاييل ،  
 [ ولا عرفوا الدوانيق والقراريط ، ولم يفتقروا الفقر المدقع الذي يشغل عن  
 المعرفة<sup>(٢)</sup> ] ، ولم يستغنوا الفنى الذى يورث البلدة<sup>(٣)</sup> ، والثروة التى تحدث  
 الفرة ، ولم يحملوا ذلًا قط فِيمِيت قلوبهم ويصغر عندهم أنفسهم . وكانوا سكان  
 فياف وتربية القراء ، لا يعرفون العمق ولا اللثق<sup>(٤)</sup> ، ولا البخار ولا الغلظ  
 ولا العفن ، ولا التخم<sup>(٥)</sup> . أذهان حداد ، ونفوس منكرة ، فحين حملوا حذهم  
 ووجهوا قواهم لقول الشعر وبلاغة المنطق ، وتشقيق اللغة وتصاريف الكلام ،  
 بعد قيافة الأثر وحفظ النسب ، والاهتداء بالنجوم ، والاستدلال بالآفاق ،  
 وتعرف الأنواء ، والبصر بالخليل والسلاح وآلة الحرب ، والحفظ لكل مسموع  
 والاعتبار بكل محسوس ، وإحكام شأن المثالب والمناقب ، بلفوا فى ذلك  
 الغاية ، وحازوا كل أمنية . وبيعض هذه العلل صارت نفوسهم أكبر ،  
 وهمهم<sup>(٦)</sup> أرفع من جميع الأمم وأنحر ، ولأيتامهم أحفظ وأذكى .

٣٥ و

وكذلك الترك أصحاب عمد وسكان فياف وأرباب مواشي ، وهم أعراب

(١) الصَّخَار : الذل .

(٢) التَّكَلُّة من ب ، ولم يبيض لها فى الأصل .

(٣) البلدة ، بضم الباء وفتحها : ضد النفاذ والذكاء والمضاء فى الأمور .

(٤) العمق : الندى والرطوبة والوخامة . واللثق : الندى مع سكون الريح .

فى الأصل وبعض أصول ن : « العمق والسق » ، تحريف .

(٥) التخم : الوخم ، وهو الوباء .

(٦) فى الأصول وبعض أصول ن : « وهمهم » ، وأثبت ما فى ب .

العجم كما أن هذيلاً أكراد العرب . فحين لم تشغفهم الصناعات والتجارات ، والطب والفلاحة والهندسة : ولا غرس ولا بُنيان ، ولا شق أنهار ، ولا جباية غلات ، ولم يكن همهم غير الفوز والفارة والصيد وركوب الخيل ، ومقارعة الأبطال ، وطلب الغنائم وتدويخ البلدان ، وكانت همهم إلى ذلك مصروفة وكانت لهذه<sup>(١)</sup> المعاني والأسباب مستخرة ومقصورة ، عليها ، وموصولة بها ، [ أحكموا ذلك الأمر بأسره ، وأتوا على آخره<sup>(٢)</sup> ، و [ صار ذلك هو صناعتهم وتجارنتهم ، [ ولذتهم<sup>(٣)</sup> ] ونخرم ، وحديثهم وسموم .

فلما كانوا كذلك صاروا في الحرب كالليونانيين في الحكمة ، وأهل الصين في الصناعات ، والأعراب فيما عدونا ونزلنا ، وكآل ساسان في الملك والرياسة .

ومما يستدل به على أنهم قد استقصوا هذا الباب واستفروا ، وبلغوا أقصى غاية وتعرفوه ، أن السيف إلى أن يتقلده متقلد ، أو يضرب به ضارب ، قد مرّ على أيدي كثيرة ، وعلى طبقات من الصنائع ، كل واحد منهم لا يعمل عمل صاحبه ، ولا يحسنه ولا يدعيه ولا يتكلفه ، لأن الذي يذيب حديد السيف ويميعه ، ويصفيه ويمهذه . غير الذي يمدّه ويمطّله<sup>(٤)</sup> : والذي يمدّه ويمطّله<sup>(٥)</sup>

(١) في الأصل وبعض أصول ن : « وكانوا بهذه » .

(٢) التكلفة من ب .

(٣) في الأصل وبعض أصول ن : « غير الذي يحده ويمده » . وأثبت ما في ب .

(٤) المطال : المد . وفي الأصل وبعض أصول ن : « ويمطّله » تحريف .

٣٥ ظ

غير الذى يطبعه ويسوى متنه ، ويقم خشيبته<sup>(١)</sup> ؛ والذى يطبعه ويسوى متنه  
غير الذى يسقيه ويرهفه ، والذى يرهفه غير الذى يركب قبيعته ويستوثق  
من سيلانه<sup>(٢)</sup> ، والذى يعمل مسامير السيلان و [ شاربى<sup>(٣)</sup> ] القبيعة ونصل  
السيف غير الذى ينحت خشب غمده ، والذى ينحت خشب غمده غير الذى  
يدبغ جلده ، والذى يدبغ جلده غير الذى يحلّيه ، والذى يحلّيه ويركب نعله  
غير الذى يحرز حمائله . وكذلك السرنج<sup>(٤)</sup> ، وحالات السهم والجمبة والرمح  
وجميع السلاح ، مما هو جارح أو جنة<sup>(٥)</sup> .

والتركي يعمل هذا كله لنفسه من ابتدائه إلى غايته ، فلا يستعين برفيق ،  
ولا يفرع فيه إلى صديق<sup>(٦)</sup> ، ولا يختلف إلى صانع ، ولا يشغل قلبه بمطالعه  
وتسويفه ، وأكاذيب مواعيده ، ويغرم كرائه .

وحين بلغ أوس بن حجر صفة القانص ، وبلغ له النهاية في جمعه لأبواب  
الكفاية بنفسه ، قال :

(١) في اللسان : « يقال سيف مشقوق الخشبية ، يقول عرض حين طبع » .  
في الأصل وبعض أصول ن : « جنبتيه » ، ج : « خشابته » ، وأثبت ما في ن ،  
س ، ف .

(٢) السيلان ، بالكسر : سنخ قائم السيف ، أى أصل مقبضه .

(٣) التكملة من ن ، س . وبدلها في ج « وشاذى » وفي ف : « وشاذى » .  
والقبيعة : ما على مقبض السيف من فضة أو حديد . والشاربان : أنقان طويلان  
في أصل مقبض السيف .

(٤) في الأصل وبعض أصول ن : « السراج » .

(٥) الجنة ، بالضم : ما يتقى به من ترس ونحوه . في الأصل وبعض أصول ن :  
« خارج أو منه » ، تحريف .

(٦) ب : « ولا يفرع إلى رأى صدق » .

قَصِي مَبِيتِ اللَّيْلِ لِلصَّيْدِ مُطْعَمٌ لِأَسْهَمِهِ غَارٍ وَبَارٍ وَرَاصِفٌ<sup>(١)</sup>  
وليس أنه ليس في الأرض تركيٌّ إلا وهو كما وصفنا ، كما أنه ليس كل  
يونانيٍّ حكيمًا ولا كل صينيٍّ غايةً في الخدق ، ولا كلُّ أعراقيٍّ شاعرًا قانيًا ،  
ولكنَّ هذه الأمور في هؤلاء أعمُّ وأتمُّ ، وهي فيهم أظهر وأكثر .

قد قلنا في السبب الذي تكاملت به النجدة<sup>(٢)</sup> والفروسيَّة في الترك دون  
جميع الأمم ، وفي العالم التي من أجلها انتظموا جميع معاني الحرب ، وهي معاني  
تشتمل على مذاهب غريبة ، وخصال عجيبة .

فمنها : ما يقضى لأهله بالكرم وينبغي المنة وطلب الغاية . ومنها : ما يدلُّ  
على الأدب الشديد والرأى الأصيل ، والفطنة الثاقبة والبصيرة النافذة .  
! ألا ترى أنه ليس بدًّا لصاحب الحرب من الحلم والعلم ، والحزم والعزم ، والصبر  
والكتمان ، ومن الثقافة<sup>(٣)</sup> ، وقلة الغفلة وكثرة التجربة . ولا بدُّ من البصر  
بالخيل والسلاح ، [ والخبرة<sup>(٤)</sup> ] بالرَّجال وبالبلاد ، والعلم بالمكان والزمان  
والمكايد ، وبما فيه صلاح هذه الأمور كلها .

(١) ديوان أوس ص ٧١ . قصي مبيت الليل . يقول : لا يبيت مع أهله ،  
إنما يبيت مع الوحش . ويقال فلان مطعم للصيد ومطعم الصيد ، إذا كان مرزوقا .  
منه . غار . هو من غراه يغروه ، إذا طلاه بالغراء . والبرى معروف . والراصف ،  
من الرصفة ، وهي ما يشد على صدر السهم . في الأصل : « وواصف » ، صوابه في ن ،  
س . والبيت والكلام المتعلق به قبله ساقط من ج . ف .

(٢) في الأصل وبعض أصول ن : « قد قلنا في السنة التي تكاملت النجدة » .  
صوابه في ب .

(٣) التسكلة من ب . (٤) التسكلة من ب .

٣٦ و

والملك يحتاج إلى أواخ شداد وأسباب ممتان ، ومن أتمها سببا وأعمقها  
نفعاً ما ثبتته في نصابه ، وأقره وسكنه في قراره ، وزاد في تمسكه وبهائه ،  
وقطع أسباب المظمة فيه ، ومنع أيدي البغاة من الإشارة إليه فضلا عن البسط  
عليه<sup>(١)</sup> .

قال : ثم إنَّ الترك عطفَت على العرب بالحاجة والمقايسة ، وقالوا : قلتم  
إن تكن القرابة مما يستحق بالكفاية فنحن أقدم في الطاعة والودِّ والمنفعة ،  
وإن تكن تُستحق بالقرابة فنحن أقرب قرابة .

قالوا : والعرب بعد هذا صنفان : عدنان وقحطان . فأما القحطاني فنسبتنا  
إلى الخلفاء أقرب من نسبتهم ، ونحن أُمسُّ بهم رحماً : لأن الخليفة من ولد  
إسماعيل بن إبراهيم ، دون قحطان وعابر . وولد إبراهيم عليه السلام إسماعيل ،  
وأُمُّه هاجر ، وهي قبطية . وإسحاق وأُمُّه سارة وهي شريانية . والستة الباقون  
أُمهم قَطُورا بنت منطون<sup>(٢)</sup> عربية ، من العرب العاربة .

وفي قول القحطانية : إنَّ أُمَّنا أشرف في الحسب إذ كانت عربية .  
وأربعة من الستة هم الذين وقَّعوا بخراسان ، فأولدوا ترك خراسان . فهذا قولنا  
للقحطاني .

(١) الكلام بعده إلى « وكلها جواد » في ص ٨٧ ليس في اختيار ج ، ف .  
(٢) في الأصل وبعض أصول ن : « أمهم قنطور » ، والوجه ما أثبت من جمهرة  
أنساب العرب ٥١٠ . ٥ . وسيرة ابن هشام ٧١ . وفي سفر التكوين ٣٥ : ١  
« قنطورة » . وقد ذكرت أسماء الستة في سفر التكوين .



وأما قولنا للعدنانى ، فأبراهيم أبونا ، وإسماعيل عمنا ، وقرابتنا من إسماعيل كقرابتهم .

قال الهيثم بن عدى : قيل لمبارك التركى ، وعنده حماد التركى : إنكم من مدحج . قال : ومدحج هذا من هو ذاك ؟ وما نعرف إلا إبراهيم خليل الله وأمير المؤمنين .

قال الهيثم : وقد كان سقط إلى بلاد الترك رجل من مدحج فأنسل نسلاً كثيراً ، ولذلك قال شاعر الشعوية للعرب فى قصيدة طويلة :

زعمتم بأن الترك أبناء مدحج      وبينكم قربى وبين البرابر  
وذلك نسل ابن ضبة باسل      وصوفان أنسال كثير الجرائر<sup>(١)</sup>  
وقال آخر :

متى كانت الأتراك أبناء مدحج      ألا إن فى الدنيا عجيباً إن عجيب

وقد سمعتم ما جاء فى سد بنى قطورا<sup>(٢)</sup> وشأن خيولهم بنخل السواد<sup>(٣)</sup> ،  
وإنما كان الحديث على وجه التهويل والتخويف بهم لجميع الناس ، فصاروا  
للإسلام مادة [ و ] جنداً كثيفاً ، وللخلفاء وقاية وموثلاً وجنة حصينة ،  
وشعاراً دون الدثار .

(١) فى جهرة ابن حزم ٢٠٣ : « وباسل بن ضبة يقال إن الديلم من ولده » .

(٢) فى الأصل : « قنطور » . وانظر ما سبق .

(٣) ن ، س : « تبخو السواد » . والسواد سواد العراق ، وهى قرى الكوفة والبصرة ، وأصل السواد جماعة النخل والشجر .

وفي المأثور من الخبر : « تَارَكُوا التُّرْكَ مَا تَارَكُوكُمْ » . وهذه وصية لجميع العرب ؛ فإنَّ الرأى متاركتنا ومسالتنا . وما ظنكم بقوم لم يعرض لهم ذو القرنين . وبقوله « اتركوهم » ثموا التُّرك . هذا بعد أن غلب على جميع الأرض غلبة وقسراً ، وعنوة وقهراً .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « هذا عدوٌّ شديدٌ كَلْبُهُ ، قليلٌ سَلْبُهُ » . فنهى كما ترى عن التعرُّضِ لهم ، بأحسنِ كناية .

والعربُ إذا ضربت المثل في العداوة الشديدة قالوا : ما هم إلا التُّركُ والدِّلمُ . قال عَمَلَسُ بْنُ عَقِيلٍ بنِ عُلْفَةَ :

تبدلت منه بعد ما شاب مفرق عداوة تركي وبغض أبي حنبل  
وأبو حنبل هو الضَّبُّ . والعرب تقول : « هو أعقُّ من ضَبٍّ » ؛ لأنَّه يأكل أولاده .

ولم يُرْعِبْ قلوبَ أجناد العربِ مثلُ التُّركِ . وقال خلف الأحرر :  
كأنِّي حينَ أرهَنهم بَيْتِي دَفَعْتهمُ إِلَى ضُهْبِ السَّبَالِ<sup>(١)</sup>  
قال : وإيَّاهم عني أوس بن حجر :

نَكَبَتْهَا مَاءُهم لما رأيتهم ضُهْبَ السَّبَالِ بأيديهم بيازير<sup>(٢)</sup>

(١) يجوز في ياء المتكلم المدغم فيها ياء أن تكون مفتوحة كما يجوز كسرها . وبالأخيرة قرأ حمزة : « وما أتم بصرخي » بالكسر . الأشموني ٢ : ٢٨٢ .

(٢) في الأصل وفي بعض أصول ن : « بكسهم اسامهم » ، وكتب في حاشيتها : « ظ حسبهم أنهم لما رأيتهم » أي الظاهر . والصواب ما أثبت من ن ، س وديوان أوس ٣٣ . والبيازير : جمع بيزارة ، وهي العصا العظيمة . وفي الأصول : « مارين » صوابه من الديوان .

وحدثني إبراهيم بن السندي مولى أمير المؤمنين ، وكان عالماً بالدولة ، شديد الحب لأبناء الدعوة ، وكان يحوط مواليتيه ويحفظ أيتامهم ، ويدعو الناس إلى طاعتهم ، ويدرسهم مناقبهم<sup>(١)</sup> ، وكان نغم المعاني نغم الألفاظ ، لو قلت لسانه كان أرد<sup>(٢)</sup> على هذا الملك من عشرة آلاف سيف شهير ، وسنان طرير<sup>(٣)</sup> ، لكان ذلك قولاً ومذهباً .

قال : حدثني عبد الملك بن صالح ، عن أبيه صالح بن علي ، أن خاقان ملك الترك واقف مرة الجنيد بن عبد الرحمن<sup>(٤)</sup> أمير خراسان ، وقد كان الجنيد هاله أمره ، وأفرغه شأنه ، وتعاطمه جموعه وجمعه ، وبعل به<sup>(٥)</sup> ، وفطن به خاقان وعرف ما قد وقع فيه ، فأرسل إليه :

« إني لم أقف هذا الموقف وأمنك هذا الإمساك وأنا أريد مكروهاً ، فلا ترع . ولو كنت أريد غلبة أو مكروهاً لقد كنت انتفت عسكرك انتفاقاً

(١) يقال درسته الشيء درساً وأدرسته إياه : علمته إياه . انظر اللسان ( درس ٣٨٢ ) .

(٢) يقال هذا الشيء أرد من ذلك ، أي أنفع وأكثر عائدة .

(٣) الشهير : المشهور المسلول ، وإن كان لم ينص عليه في المعاجم المتداولة . والطرير : المحدد . وانظر البيان ٣ : ٢٧٣ .

(٤) هو الجنيد بن عبد الرحمن بن عمرو بن الحارث ، المري . جمهرة أنساب العرب ٢٥٢ ، وفتوح البلدان للبلاذري ٦٠٣ ، ٦٢١ ، ٦٢٢ . وقد استعمله هشام ابن عبد الملك على خراسان سنة ١١١ وكانت له حروب مع خاقان ملك الترك . الطبري ٨ : ٣٠٤ - ٣١٤ . وهو غير الجنيد بن عبد الرحمن بن عوف بن بجيد الكلابي . وقد ولي خراسان أيضاً . الجمهرة ٢٨٧ .

(٥) بعل به : ضاق به ودهش فلم يدرك كيف يصنع .

أعجلك فيه عن الروية وقد أبصرت موضع العورة . ولولا أن تعرف هذه المسكيدة فتعود بها على غيرى من الأتراك ، لعرفتك موضع الانتشار والخلل والخطأ فى عسكريك وتعبيتك . وقد بلغنى أنك رجل عاقل ، وأن لك شرفاً فى بيتك وفضلاً فى نفسك ، وعلماً بدينك ، وقد أحبيت أن أسأل عن شئ من أحكامكم لأعرف به مذهبكم ، فاخرج إلى فى خاصتك لأخرج إليك وحدى ، وأسألك عما أحتاج إليه بنفسى . ولا تحتفل ولا تحترس ؛ فليس مثلى من غدر ، وليس مثلى يؤمن من نفسه ، ومن مكره وكيده ، ثم ينكث بوعده . ونحن قوم لا نخدع بالعمل ، ولا نستحسن الخديعة إلا فى الحرب ، ولو استقام أمر الحرب بغير خديعة لما جوزنا ذلك لأنفسنا .

فأبى الجُنيد أن يخرج إليه إلا وحده ، ففصلاً من الصفوف . وقال : سَلْ عَمَّا أَحْبَبْتَ ، فإن كان عندى جواب أرضاه أُجبتك ، وإلا أشرت عليك بمن هو أبصر بذلك منى .

قال : ما حكمكم فى الزانى ؟

قال الجُنيد : الزانى عندنا رجلان : رجلٌ دفعنا إليه امرأة تُغْنِيه عن حُرْمِ الناس ، وتكفُّه عن حُرْمِ الجيران ؛ ورجلٌ لم تُعْطِه ذلك ، ولم نَحُلْ بينه وبين أن يفعل ذلك لنفسه . فأما الذى لازوجة له فإننا نجلده مائة جلدة ونُحْضِرُ ذلك الجماعة من الناس لنشهره ونحذره به ، ونقرّبه فى البلدان ليزيد فى شهرته وفى التحذير منه ، ولينزجر بذلك كلُّ من كان يُهمُّ بمثل عمله . فأما الذى قد [ أغيناه <sup>(١)</sup> ] فإننا نرجّمه بالجندل حتى نقتله .

(١) موضعها يابض فى الأصل . وإثباتها من ن ، س .

قال : حَسَنٌ جَمِيلٌ ، وتَدِيرٌ كَبِيرٌ ، فاقولكم في الذي يَقْذِفُ عَفِيفًا بِالزُّنَى ؟

قال : يَحْلَدُ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ، وَلَا نَقْبِلَ لَهُ شَهَادَةً ، وَلَا نَصَدِّقَ لَهُ حَدِيثًا .

قال : حَسَنٌ جَمِيلٌ ، وتَدِيرٌ كَبِيرٌ ، فاحْكُمكم في السَّارِق ؟

قال : السَّارِقُ عِنْدَنَا رَجُلَانِ : رَجُلٌ يَحْتَالُ لِمَا قَدْ أَحْرَزَهُ النَّاسُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ حَتَّى يَأْخُذَهَا بِنَقَبِ حَيْطَانِهِمْ وَبِالتَّسْلُقِ مِنْ أَعَالَى دُورِهِمْ ؛ فِهَذَا نَقْطَعُ يَدَهُ الَّتِي سَرَقَ بِهَا ، وَنَقَبُ بِهَا ، وَاعْتَمِدَ عَلَيْهَا . وَرَجُلٌ آخَرُ يُخَيِّفُ السَّبِيلَ ، وَيَقْطَعُ الطَّرِيقَ ، وَيَكَايِدُ عَلَى الْأَمْوَالِ <sup>(١)</sup> ، وَيَشْهَرُ السَّلَاحَ فَإِنْ مَنَعَهُ صَاحِبُ الْمَتَاعِ قَتَلَهُ ، فِهَذَا نَقْتُلُهُ وَنَصْلِبُهُ عَلَى الْمَنَاهِجِ وَالطُّرُقِ .

قال : حَسَنٌ جَمِيلٌ ، وتَدِيرٌ كَبِيرٌ . قال : فاحْكُمكم في الْغَاصِبِ وَالْمُسْتَلْبِ ؟

قال : كُلُّ مَا فِيهِ الشُّبْهَةُ وَيَجُوزُ فِيهِ الْغَلَطُ وَالْوُجُوهُ ، كَالْفَضْبِ وَالِاسْتِلَابِ ، وَالْجُنَايَةِ ، وَالسَّرِقَةِ لَمَّا يُؤْكَلُ أَوْ يُشْرَبُ فَإِنَّا لَا نَقْطَعُ فِيهَا فِيهِ شُبْهَةً وَنَتَمَحَّلُ <sup>(٢)</sup> لَذَلِكَ وَجْهًا غَيْرَ السَّرِقَةِ .

قال : حَسَنٌ جَمِيلٌ وتَدِيرٌ كَبِيرٌ . قال : فاحْكُمكم في الْقَاتِلِ وَقَاطِعِ الْأُذُنِ وَالْأَنْفِ ؟

(١) المراد بالمكايده هنا الاحتيال والمعالجة . وفي الأصل : « يكابر » ، وأثبت ما في ن ، س .

(٢) في أصول ن : « ويمتعل » وقد جعلها فان فلوتن : « ويمتعل » ، وتبعته نسخة س . وما أثبت من الأصل أولى وأوفق .

قال : النَّفْسُ بِالنَّفْسِ ، وَالْعَيْنُ بِالْعَيْنِ ، وَالْأَنْفُ بِالْأَنْفِ . وَإِنْ قَتَلَ رَجُلًا عَشْرَةً قَتَلْنَاهُمْ . وَنَقْتُلُ الْقَوِيَّ الْبَدَنَ بِالضَّعِيفِ الْبَدَنِ ، وَكَذَلِكَ الْيَدُ وَالرَّجُلُ .  
قال : حَسَنٌ جَمِيلٌ وَتَدْبِيرٌ كَبِيرٌ . قال : فَمَا تَقُولُونَ فِي الْكَذَّابِ وَالنَّمَامِ وَالضَّرَاطِ .

قال : عِنْدَنَا فِيهِمُ الْإِقْصَاءُ ثُمَّ وَإِبَادُهُمْ وَإِهَاتِهِمْ ، وَلَا نَقْبِلُ شَهَادَتَهُمْ ، وَلَا نَصَدِّقُ أَحْكَامَهُمْ .

قال : وَلَيْسَ إِلَّا هَذَا ؟

قال : هَذَا جَوَابُنَا عَلَى دِينِنَا .

قال له : أَمَّا النَّمَامُ عِنْدِي ، هُوَ الَّذِي يُضْرَبُ بَيْنَ النَّاسِ <sup>(١)</sup> ، فَإِنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي مَكَانٍ لَا يَرَى فِيهِ أَحَدًا . وَأَمَّا الضَّرَاطُ فَإِنِّي أَكْوِي اسْتَهَ ، وَأَعَاقِبُ ذَلِكَ الْمَكَانَ فِيهِ <sup>(٢)</sup> . وَأَمَّا الْكَذَّابُ فَإِنِّي أَقْطَعُ الْجَارِحَةَ الَّتِي بِهَا يَكْذِبُ ، كَمَا قَطَعْتُ الْيَدَ الَّتِي بِهَا يَسْرِقُ ، وَأَمَّا الَّذِي يُضْحِكُ النَّاسَ وَيَعُوِّدُهُمُ الشُّخْفَ فَإِنِّي أَخْرِجُهُ مِنْ سَاطِئِي ، وَأُصْنِجُ بِإِخْرَاجِهِ عُقُولَ رَعِيَّتِي .

قال : فَقَالَ الْجَنْفِيدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ : أَتَمَّ قَوْمٌ تَرُدُّونَ أَحْكَامَكُمْ إِلَى جَوَارِ الْعُقُولِ ، وَإِلَى مَا يَحْسُنُ فِي ظَاهِرِ الرَّأْيِ ؛ وَنَحْنُ قَوْمٌ نَتَّبِعُ الْأَنْبِيَاءَ ، وَنَرَى أَنَّ لَمْ نَصْلُحْ عَلَى تَدْبِيرِ الْعِبَادِ . وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَعْلَمُ بِغَيْبِ الْمَصَالِحِ وَسِرِّ الْأَمْرِ <sup>(٣)</sup>

(١) وكذا في ن مع عدم سبق واو لكلمة « هو » فيهما . لكن في س :

« وهو الذي يرفع الحديث بين الناس إشاعة » .

(٢) جملة في ن ، س : « منه » .

(٣) ن ، س : « وبسر الأمر » .

وحقائقه ، ومَحْصُولُهُ وعواقبه ، والناسُ لا يعلمون ولا يَرونَ الحِزْمَ إِلَّا على ظاهر  
الأمور . وكَم من مُضِيعِ يَسْمٍ ، وحازِمٍ يعطب .

قال : ما قَلَّتْ كَلَاماً أَشْرَفَ من هذا ، ولقد أَلْقَيْتَ لِي فِكْراً طويلاً .

قال إبراهيم : قال عبدُ الملك : قال صالح : قال الجنيد : فلم أَرَأَوْني  
ولا أَنْصَفَ ولا أَفْهَمَ ولا أَذْكَى منه . ولقد واقَفْتُهُ ثلاثَ ساعاتٍ من النَّهارِ  
وما تَحَرَّكَ مِنْهُ شَيْءٌ إِلَّا لسانُهُ ، وما مَنَى شَيْءٌ لَمْ أَحَرِّكْهُ .

٣٨ و

وهكذا يَصِفُونَ مُلُوكَ التُّرْكِ ، يزعمون أَنَّ ساسانَ وخاقانَ الأَكْبَرِ ،  
تَوَاقَفَا بَعْضُ الكُسُورِ<sup>(١)</sup> ، وفَصَلَا مِنَ الصَّفِّينِ ، وطالتِ المَنَاجاةُ ، فلما انفتَلا  
قالوا : كان خاقانُ أَرَكُنَ وآدَبَ ، وكان مَرَكَبُ كَسْرِي أَرَكُنَ وآدَبَ<sup>(٢)</sup> ،  
ولم يَتَحَرَّكَ مِنْ خاقانَ إِلَّا لسانُهُ ، وكان يَرِذُونُهُ يرفعُ قائِمةً وَيَضَعُ أُخْرَى ،  
وكان مَرَكَبُ كَسْرِي كَأَنَّمَا صُبَّ صَبًّا ، وكان كَسْرِي يَحَرِّكُ رَأْسَهُ وَيُشِيرُ بِيَدِهِ .

قالوا : ومن الأَعاجيبِ أَنَّ الحارثَ بْنَ كَعْبٍ لا يَقُومُ لِلْحِزْمِ<sup>(٣)</sup> ، وحِزْمُ  
لا يَقُومُ لِكَنْدَةَ ، وكَنْدَةُ لا يَقُومُ لِلحارثِ بْنِ كَعْبٍ .

(١) كُسُورُ الأودِيَةِ والجِبَالِ : معاطِفُها وشُعابُها ، لا يَمْرُدُ لَهَا واحِدَةٌ كَمَا فِي اللِّسانِ .  
و« حُورَتِ فِي ن » ، سَإِلُ « الجُسُورِ » خِلافًا لِمَا فِي الأُصُولِ ، وَلَيْسَ ما يَدْعُو إِلَيْهِ .  
(٢) أَرَكُنُ مِنَ الرِّكَائَةِ . وَهِيَ السُّكُونُ وَالوَقَارُ . وَفِي جَمِيعِ الأُصُولِ : « أَزْكَى »  
فِي هَذَا المَوْضِعِ .

(٣) بَنُو حِزْمٍ بَنُ زَيْدٍ بَنُ لَوْذَانَ بَنُ عَمْرٍو بَنُ عَبْدِ بَنُ عَوْفٍ بَنُ غَنَمٍ بَنُ مالِكٍ  
ابْنِ النُّعْجَارِ . جُمُهوريةُ أَنْسابِ العَرَبِ ٣٤٨ . وَفِي العَرَبِ جَرَمُ بَنُ رَبِيعٍ بَنُ حُلُوانَ  
ابْنِ هَمْرَانَ بَنُ الحَافِ بَنُ قِضَاعَةَ . الجُمُهوريةُ ٤٥١ .

قالوا : ومثل ذلك من الأعاجيب في الحارث : أن العرب لا تقوم للترك ،  
والترك لا تقوم للرؤوم ، والرؤوم لا تقوم للعرب .

قال جهم بن صفوان الترمذى<sup>(١)</sup> : قد عرفنا ما كان بين فارس والترك  
من الحرب ، حتى تزوج كسرى أبرويز ، خاتون بنت خاقان ، يستميله بذلك  
الصهر ، ويدفع بأسه عنه . وقد عرفنا الحروب التي كانت بين فارس والرؤوم ،  
وكيف تساجلوا الظفر ، وبأى سبب غرس الزيتون بالمدائن وسوسا<sup>(٢)</sup> ، وبأى  
سبب بنيت الرؤمية<sup>(٣)</sup> ولم سميت بذلك ، ولم بنى كسرى على الخليج قبالة  
قُسطنطينية النواويس<sup>(٤)</sup> وبيوت النار . ولكن متى ظهرت الرؤوم على ترك  
خراسان ظهوراً موالياً ، ضربوا بها المثل إلى آخر دارمسه<sup>(٥)</sup> ، ومن هناك من  
الأشباه ، ومن يتخلل هذا النسب .

وكانت خاتون بنت خاقان عند أبرويز فولدت له شيرويه . وقد ملك  
شيرويه بعد أبرويز ، فتزوج شيرويه مريم بنت قيصر ، فولدت له

(١) نسبة إلى ترمذ ، وكان قد أظهر دعوته بها . السمعاني ١٤٩ والفرق بين  
الفرق ١٩٩ والملل والنحل ١ : ١٠٩ . وقد قتل سنة ١٢٨ . البداية والنهاية  
١٠ : ٢٧ ولسان الميزان ٢ : ١٤٣ . ويقال له أيضاً السمرقندي كما في لسان الميزان .  
وفي الأصول : « الريدى » بالإهمال .

(٢) الذي في معجم البلدان « شوشة » قال : قرية بأرض بابل .

(٣) هذه رومية المدائن ، وهي غير رومية الروم . انظر معجم البلدان  
( رومية ) .

(٤) النواويس : جمع ناووس ، وهي مقابر النصارى .

(٥) كذا وردت هذه العبارة .



فيروز اشاهي<sup>(١)</sup> أمّ يزيد الناقص<sup>(٢)</sup> والوليد . وكان يقول : ولدني أربعة أملاك :  
كسرى ، وخاقان ، وقيصر ، ومروان . وكان يرتجز في حروبه التي قتل فيها  
الوليد بن يزيد بن عاتكة :

أنا ابن كسرى وأبي خاقان وقيصر جدّي وجدّي مروان<sup>(٣)</sup>  
فلما صار إلى الافتخار في شعره بالنجدة والثقافة بالحرب ، لم يفخر  
إلا بخاقان فقط فقال :

فإن كنت أرمي مُقبلاً ثم مُدبراً وأطلع من طودٍ زليق على مهر  
نخاقان جدّي فاعرف في ذلك واذكري أخايرة في السهل والجبل الوعر<sup>(٤)</sup>  
قوله « وأطلع » يريد : وأنزل ، وهي لغة أهل الشام<sup>(٥)</sup> وأخذوها من  
نازلة العرب في أوّل الدهر . وجعل دابته مهراً ، لأنّ ذلك أشدّ وأشق .

(١) في الأصول : « فيروزا بنتاهي » تحريف . وفي الطبري ٩ : ٤٦ أن اسمها  
« شاه آفريد بنت فيروز » .

(٢) هو يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان . الطبري ٩ : ٢٢ ، ٤٦ قال :  
« وإنما قيل يزيد الناقص لنقصه الناس الزيادة التي زادها لها الوليد بن يزيد في أعطياتهم  
وذلك عشرة عشرة » . وروى الطبري أيضاً أنه سمي بذلك تلقياً له من مروان  
ابن محمد ، إذ سماه الناقص بن الوليد فسماه الناس الناقص لذلك . فهذا تعليل آخر .  
وفي أمثلة النحويين : « الناقص والأشج أعدلا بني مروان » . والأشج : عمر  
ابن عبد العزيز ، سمي بذلك لشجّة أصابته .

(٣) في الطبري ٩ : ٤٦ :

أنا ابن كسرى وأبي مروان وقيصر جدّي وجدّي خاقان  
(٣) ن ، س : « أخايره » .

(٤) لم تسجلها المعاجم المتداولة ولا كتب الأضداد ، لكنهم ذكروا طلع عنهم  
وعليهم بمعنى غاب واختفى . وطلع عنهم وعليهم بمعنى أقبل .

وقال الفضل بن العباس بن رزيق : أتاننا ذات يوم فرسان من الترك ، فلم يبق أحد ممن كان خارجا إلا دخل حصنه وأغلق بابه ، وأحاطوا بحصن من ذلك الحصون ، وأبصر فارس منهم شيخا يطلع إليهم من فوق ، فقال له التركي : لئن لم تنزل إلى لأقتلنك قتلة ماقتلتها أحدا ! قال : فنزل إليه وفتح له الباب ، ودخلوا الحصن ، واكتسحوا كل شيء فيه ، فضحك من نزوله إليه وفتح له وهو في أحسن موضع وأمنع مكان ، ثم أقبل به إلى حصن أنا فيه فقال : اشتروه مني . قلنا : لا حاجة لنا في ذلك . قال : فإني أبيعهم بدرهم واحد . فرمينا إليه بدرهم نخل سبيله ، ثم أدبر عنا ومضى مع أصحابه ، فما لبث إلا قليلا حتى عاد إلينا فوقف حيث نسمع كلامه ، فراعنا ذلك ، فأخرج الدرهم من فمه وكسره بنصفين . وقال : لا يسوى درهما<sup>(١)</sup> ، وهذا غبن فاحش ، فخذوا هذا النصف ، وهو على كل حال غال جدا بالنصف الآخر . قال : فإذا هو أظرف الخلق .

قال : وكنا نعرف ذلك الرجل بالجنين ، وقد كان سمع باحتيال الترك في دخول المدن وغبور الأنهار في الحروب ، فتوهم أنه لم يتوعد بفتح الباب<sup>(٢)</sup> .

وقال ثمامة : ما شبهت الذر إلا بالترك ؛ لأن كل ذرة على حداثتها معها من المعرفة بادخار الطعم ، ومن الشم والاسترواح ، ونجيب المدخر<sup>(٣)</sup> حتى

(١) أي لا يساوى درهما . وقد أنكر هذه الكلمة أبو عبيد ، وحكاها أبو عبيدة كما في اللسان ( سوى ١٤٠ ) .

(٢) أي لم يكن كلامه وعيدا فحسب . وفي ن بعده : « إلا وعنده » ، ثم أكملها فان فلو تن بعبارة « شيء من ذلك » .

(٣) النجب : العض والقشر ، والمراد شق الجيوب . انظر الحيوان ٤ : ٦-٥ ، =

لا يَنْبُتَ فِي جَعْرِهِ<sup>(١)</sup> ، ثُمَّ الْاِحْتِيَالُ لِلنَّاسِ فِي الْاِحْتِيَالِ لَهَا بِالصَّمَامَةِ وَالْعِفَاصِ  
وَالْمَزْدَجِرِ<sup>(٢)</sup> ، وَتَعَالِيْقُ الطَّعَامِ عَلَى الْأَوْتَادِ وَالْبَرَّادَاتِ ، مِثْلُ الذَّرِّ مَعَ صَاحِبَتِهَا .  
وَقَالَ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ : كُلُّ جَنِيْسٍ يَحْتَاجُ إِلَى أَمِيرٍ وَرَيْدِيْسٍ وَمُدَبِّرٍ ،  
حَتَّى الذَّرِّ<sup>(٣)</sup> .

وَرَوَى أَبُو عَمْرِو الضَّرِيرُ<sup>(٤)</sup> ، أَنَّ رَيْدِيْسَ الذَّرِّ الرَّائِدَ الَّذِي يُخْرِجُ أَوَّلًا  
لِشَيْءٍ ، قَدْ سَمَّاهُ دُونَ أَصْحَابِهِ ، لِخُصُوصِيَّةِ خَصَّهَ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا ، وَلَطَافَةِ الْحِسِّ ،  
فَإِذَا حَاوَلَ حَمْلَهُ وَتَعَالَى نَقْلَهُ ، وَأَعْجَزَهُ ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ يُبْلِيَ عُذْرًا ، أَتَاهُنَّ  
فَأَخْبَرَهُنَّ فَرَجَعَ ، وَخَرَجَتْ بَعْدَهُ كَأَنَّهَا خِيْطٌ أَسْوَدٌ مَمْدُودٌ . وَلَيْسَتْ ذَرَّةٌ أَبَدًا  
تَسْتَقْبِلُ ذَرَّةً أُخْرَى إِلَّا وَاقَفَتْهَا وَسَارَتْهَا بِشَيْءٍ ، ثُمَّ انْصَرَفَتْ عَنْهَا<sup>(٥)</sup> .

و ٣٩

وَكَذَلِكَ الْأَتْرَاكُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ غَيْرُ عَاجِزٍ عَنْ مَعْرِفَةِ مَصْلَحَةِ أَمْرِهِ ،  
إِلَّا أَنَّ التَّفَاضُلَ وَاجِبٌ فِي جَمِيعِ أَصْنَافِ الْأَشْيَاءِ وَالنَّبَاتِ وَالْمَوَاتِ . وَقَدْ تَخْتَلَفُ  
الْجَوَاهِرُ وَكُلُّهَا كَرِيمٌ<sup>(٦)</sup> ، وَتَتَفَاضَلُ الْعِتَاقُ وَكُلُّهَا جَوَادٌ .

= ١٨ و ٣٥ : ٧ . فِي الْأَصْلِ « مَجْبٍ » بِإِهْمَالِ الْحَرْفِ الْأَوَّلِ وَالثَّلَاثِ . وَجَعَلَهَا  
فَانْ فَلَوْنَيْنِ : « وَتَجْنِبُ الْمَزْجِرَ » .

(١) فِي الْأَصْلِ : « حَتَّى لَا يَبِيْتُ إِلَّا فِي جَعْرِهِ » . وَالْوَجْهَ مَا أَثْبَتَ . انْظُرِ التَّنْبِيْهَ  
السَّابِقَ وَمَرَا جَعَهُ .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « وَالْمُودَجِرَ » .

(٣) انْظُرِ الْحَيَوَانَ ٤ : ١٩ ، ٢٠٠ .

(٤) وَكَذَا وَرَدَ اسْمُهُ فِي الْبَيَانِ ٢ : ٦٩ . وَفِي بَعْضِ نَسَخِ الْبَيَانِ « أَبُو عَمْرٍو الضَّرِيرُ »  
وَوَرَدَ فِي الْحَيَوَانَ ٤ : ٢٠ « أَبُو عَمْرٍو الْمَكْفُوفُ » .

(٥) انْظُرِ الْحَيَوَانَ ٤ : ٧ — ٨ .

(٦) فِي الْأَصْلِ : « وَكُلُّهُ كَرِيمٌ » .

وقد قلنا في مناقب جميع الأصناف بجُمْل ما انتهى إلينا وبلغه علمنا ؛ فإن وقعَ ذلك بالموافقة فبتوفيق الله وصُنْعِه ، وإن قصّر دون ذلك فالذى قصّر بنا نقصانُ علمنا ، وقلةُ حفظنا وسماعنا . فأمّا حُسْنُ النِّيَّةِ ، والذي نُصير من المحبة والاجتهاد في القرينة ، فإننا لا نرجع في ذلك إلى أنفسنا بلائمة . وبين التقصير من جهة التفريط والتضييع ، وبين التقصير من جهة العجز وضعف العزم ، فرق .

ولو كان هذا الكتاب من كتب المناقضات ، وكتب المسائل والجوابات ، وكان كلُّ صنفٍ من هذه الأصناف يريد الاستقصاء على صاحبه ، ويكون غايته إظهارَ فضلِ نفسه وإن لم يصل إلى ذلك إلا بإظهار نقص أخيه ووليّه<sup>(١)</sup> ، لكان كتاباً كبيراً ، كثيرَ الورق عظيماً ، وكان العدد<sup>(٢)</sup> الذين يَقْضُونَ لمؤلّفه بالعلم والاتّساع في المعرفة أكثرَ وأظهر ، ولكنّا رأينا أن القليل الذي يُجمع خيراً من الكثير الذي يُفرّق .

ونحن نعوذ بالله من هذا المذهب ، ونسأله العون والتسديد ، إنه سميع قريب ، فقال لما يريد .

تم الكتاب والله المنة ، وبيده الحول والقوة

والله الموفق للصواب

الحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله الطيبين الطاهرين وسلامه  
وهو حسيننا ونعم الوكيل .

(١) في ن ، س : « وولده » .

(٢) في ب : « عدد » .

٢

## رِسَالَة

الْمِعَاشِ وَالْمِعَادِ  
أَوْ

الْأَخْلَاقِ الْمَحْمُودَةِ وَالْمَذْمُومَةِ

كتب بها إلى أبي الوليد محمد بن أحمد بن أبي دواد

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذه الرسالة من نسختين في الأصل :

النسخة الأولى عنوانها : ( رسالة أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ إلى محمد بن عبد الملك في الأخلاق الحمودة والذمومة ) وهي ثاني رسالة في مجموعة الأصل ، والنسخة الثانية عنوانها : ( رسالة المعاد والمعاش في الأدب وتدبر الناس ومعاملاتهم كتب بها إلى أبي الوليد محمد بن أحمد بن أبي دواد ) وترتيبها في المجموعة هو الرابع ، إذ يفصل بين النسخة الأولى والثانية رسالة أخرى هي ( كتاب كتمان السر وحفظ اللسان ) .

أما محمد بن عبد الملك الزيات فهو في غنى عن التعريف ، وإن كنت قد عرفت به في كتابي الحيوان والبيان .

وأما محمد بن أحمد بن أبي دواد فكان قاضياً كأيّيه . ولاء المتوكل على قضاء بغداد والأعمال بعد أن فاجأه أبوه سنة ٢٣٣ ، ثم عزله المتوكل سنة ٢٣٧ . وتوفي أبو الوليد محمد سنة ٢٣٩ ومات أبوه بعده بعشرين يوماً<sup>(١)</sup> .

والراجع أن الرسالة كتبها الجاحظ إلى أبي الوليد محمد بن أحمد بن أبي دواد ، لا إلى محمد بن عبد الملك ؛ لأنه يذكر في صدرها أنه عرف المکتوب إليه هذه الرسالة « أيام الحداثة » . ولا ينطبق ذلك على محمد بن عبد الملك الزيات ، فقد كانت حياته بين سنتي ١٧٣ ، ٢٣٣ ولم تعرف صلة الجاحظ به إلا في أيام سلطانه .

---

(١) تاريخ بغداد ١ : ٢٩٧ — ٣٠١ . وانظر لدرجة أيّيه وإخوته جبهة أنساب العرب ٣٢٨ وتاريخ بغداد ٤ : ١٤١ — ١٥٦ ووفيات الأعيان ١ : ٢٢ — ٢٦ . وقد انفرد ابن حزم بتسمية أيّيه أحمد بن محمد بن أبي دواد .

وتجد ما يقتضى التسمية بالمعاش والمعاد فى ص ٩٥ س ١٧ .  
وقد حققت هذه الرسالة على أربع نسخ :

- ١ — نسخة الأصل فى الموضع الأول من المجموعة .
- ٢ — نسخة الأصل فى الموضع الثانى من المجموعة ، ورمزها د .
- ٣ — نسخة المتحف البريطانى التى تمثلها مصورة الجامعة ، ورمزها م .
- ٤ — نشرة باول كراوس ومحمد طه الحاجرى ورمزها ط .

حَفِظَكَ اللَّهُ وَأَمْتَعَ بِكَ <sup>(١)</sup>

أما بعدُ فإنَّ جماعاتٍ أهلِ الحكمة قالوا : واجبٌ على كلِّ حكيمٍ أن يُحسِّنَ الارتياذَ لموضعِ البُغيَةِ ، وأن يبيِّنَ أسبابَ الأمور ويمهِّدَ لعواقبها . فإنَّما سُحِدَتِ العلماءُ بحسنِ التنبُّتِ في أوائلِ الأمور ، واستشفافِهِم <sup>(٢)</sup> بِمَقُولِهِمْ ما تجيءُ به العواقبُ ، فيعلمون عندَ استقبالِها ما تؤولُ به الحالاتُ في استدبارِها . وبقدرِ تفاوتِهِمْ في ذلك تستبينُ فضائلُهم . فأما معرفةُ الأمورِ عندَ تَكشُّفِها وما يَظْهَرُ من خَفِيَّاتِها فذاك أمرٌ يعتدلُ فيه الفاضلُ والمفضولُ ، والعالمونُ والجاهلون <sup>(٣)</sup> .

وإِنِّي عَرَفْتُكَ - أكرمَكَ اللهُ - في أيامِ الحداثةِ ، وحيثُ سُلْطَانُ اللَّهِ المَخْلُوقِ للأعْراضِ أَغْلَبُ على نظرائِكَ ، وسُكْرُ الشَّبَابِ والجِدَّةِ <sup>(٤)</sup> المتَحَيِّفِينَ لِلدِّينِ والمَرْوَةِ مستولٍ على لِدَاتِكَ فاخْتَبِرْتَ أَنْتَ وَهُمْ [ ففَقَّتَهُمْ <sup>(٥)</sup> ] يَبْسُطَةُ المَقْدِرَةِ وَحَمَيَّا الحداثةِ ، وطَوَّلِ الجِدَّةَ ، مع ما تقدَّمَتْهُمْ فيه من الوسامةِ في الصُّورَةِ ، والجمالِ في الهَيْئَةِ . وهذه كُلُّها أسبابٌ [ تَكَادُ أَنْ <sup>(٦)</sup> ] توجبَ

(١) « حفظك الله وأمتع بك » من د فقط .

(٢) د : « واستشراقهم » .

(٣) م : « والعالم والجاهل » .

(٤) الجدة ، كهدة : اليسار والسعة والغنى ، ومثلها الوجد مشاة الواو : م :

« الحدة » تصحيف .

(٥) التكملة من م .

(٦) التكملة من م .



الانقياد للهوى ، ولنَجِجُ من الممالك لا يَسْلُمُ منها إلا المنقطع القرين في صحّة  
الفطرة ، وكمال العقل . فاستعبدتهم الشهوات حتى أعطوها أزمّة أديانهم ،  
وسلّطوها على مُروءاتهم وأباحوها أعراضهم ، فألت باكثرهم الحال إلى ذلّ  
العدم وقد عَزَّ الغنى في العاجل ، والنّدامة الطويلة والحسرة في الآجل .

وخرجت نسيجَ وحدك ، أوحدياً في عصرك<sup>(١)</sup> ، حكمت وكيل الله  
عندك - وهو عقلك - على هواك ، وألقيت إليه أزمّة أمرك ، فسلك بك  
طريق السّلامة<sup>(٢)</sup> ، وأسلك إلى العاقبة المحمودة ، وبلغ بك من نيل اللذات  
أكثر مما بلغوا ، ونال بك من الشهوات أكثر مما نالوا ، وصرفك من صنوف  
النّعم<sup>(٣)</sup> أكثر مما تصرفوا ، وربط عليك من نعم الله التي خوّلك ما أطلقه  
من أيديهم إيثار اللهو<sup>(٤)</sup> وتسليطهم الهوى [على أنفسهم]<sup>(٥)</sup> ؛ فخاض بهم سبيل  
تلك اللّجج<sup>(٦)</sup> ، واستنقذك من تلك المعاطب ، فأخرجك سايماً الدين ، وافرّ  
المروءة ، نقى العرض ، كثير الثّراء ، بين الجدة<sup>(٧)</sup> . وذلك سبيل مَنْ كان ميله  
إلى الله تعالى أكثر من ميله إلى هواه .

٤١ و

(١) هذا ما في د . وفي الأصل و م : « نفسك » .

(٢) هذا ما في د . وفي الأصل : « طرق » وفي م : « سبيل » .

(٣) هذا ما في د ، م وفي الأصل : « التّنعيم » .

(٤) د : « إيثار الهوى » .

(٥) هذه من د .

(٦) في الأصل ، م : « نخاض بك تلك اللّجج » ، وأثبت ما في د .

(٧) هذه الكلمة والتي قبلها ساقطتان من د . وفي الأصل ، م : « من الجدة » ،

فلم أزل [ أبقاك الله<sup>(١)</sup> ] في أحوالك تلك كلها بفضيلتك عارفاً ، ولك  
 بنعم الله عندك غابطاً ، أرى ظواهر أمورك المحمودة فتدعوني إلى الانقطاع  
 إليك ، وأسأل عن بواطن أحوالك فتزيدني رغبة في الاتصال بك ، ارتياداً  
 مني لموضع الخبرة في الأخوة ، والتماساً لإصابة الاصطفاء في المودة ، وتحيراً  
 لمستودع الرجاء في النّابة .

فلما محضتُك الخبرة ، وكشفك الابتلاء عن الحمدة ، وقضتُ لك  
 التجاربُ بالتّقدمة ، وشهدتُ لك قلوبُ العامّة بالقبول والمحبة ، وقطع الله  
 عُذرَ كلٍّ من كان يطلبُ الاتصالَ بك ، طابتُ الوسيلةُ إليك والاتصالُ  
 بحبك ، ومثّتُ بحرمة الأدب وذمام كرمك . وكان من نعمة الله عندي  
 أن جعل أبا عبد الله<sup>(٢)</sup> - حفظه الله - وسيلتي إليك ، فوجدتُ المطلبَ سهلاً  
 والمرادَ محموداً ، وأفضيتُ إلى ما يجوز الأمانة ويفوت الأمل ، فوصلتُ  
 إخائي<sup>(٣)</sup> بمودّتك ، وخلطتني بنفسك ، وأسّمتني في مراعي ذوى الخاصّة  
 بك ، تفضلاً لا مجازاة ، وتطوّلاً<sup>(٤)</sup> لا مكافاة ، فأمنتُ الخطوبَ ، واعتليتُ  
 على الزّمان ، واتخذتُك للأحداثِ عدّةً ، ومن نوائب الدهر حصناً منيعاً .

فلما حُرّتُ الموانسة ، وتقلّبتُ من فضلك في صنوف النّعمة ، وزاد  
 بصرى من مواهبك في الشرور والخيرة ، أردتُ خبرة المشاهدة ، فبلوتُ

(١) التّكلمة من أحد أصول ط .

(٢) لعله يعنى أبا عبد الله أحمد بن أبي دواد .

(٣) د : « رجائي » .

(٤) د : « وتكرما » .

أخلاقك ، وامتنحت شيمك ، وعجمت مذهبك على حين غفلاتك ، وفي  
 ٤١ ظ الأوقات التي يقل فيها تحفظك ، أراعى حركاتك ، وأراقب مخرج أمرِك  
 ونهيك ، فأرى [ من ] استصغارك لعظيم النعم التي تنعم بها ، واستكثارك  
 لقليل الشكر من شاكرِك ، ما أعرف به <sup>(٢)</sup> [ و ] بما قد بلوت من غيرك ،  
 وما قد شهدت لي به التجارب ، أن ذلك منك طبع غير تكلف .

هيئات ! ما يكاد ذو التكلف أن يخفى على أهل الغباوة <sup>(٣)</sup> ، فكيف  
 على مثلي من المتصفحين . فزادتنى المؤانسة فيك رغبة ، وطول العشرة لك  
 محبة ، وامتنحاني أفاعيلك لك تفضيلاً ، وبطاعتك دينونة .

وكان من تمام شكري لربي ولي كل نعمة ، والمبتدئ بكل إحسان ،  
 الشكر لك والقيام بمكافأتك بما أمكن من قول وفعل <sup>(٤)</sup> ؛ لأن الله تبارك  
 وتعالى نظم الشكر له بالشكر لذى النعمة من خلقه ، وأبى أن يقبلهما  
 إلا معاً ؛ لأن أحدهما دليل على الآخر ، وموصول به . فمن ضيع شكر  
 ذى نعمة من الخلق فأمر الله ضيع ، وبشاهده استخف <sup>(٥)</sup> .

ولقد جاء بذلك الخبر عن الطاهر الصادق صلى الله عليه وسلم ، فقال  
 صلى الله عليه وسلم : « من لم يشكر للناس لم يشكر لله » .

(١) الكلمة من أحد أصول ط .

(٢) في الأصل و د : « أعرف » فقط . والكلمة التي قبلها والتي بعدها من أحد  
 أصول ط . وقد زدت الواو بعد هذه العبارة ليلتئم القول .

(٣) في الأصل و د : « على الغباوة » ولم يعرف هذا الجمع للغي ، ولا هو عقيس .  
 وأثبت ما في م .

(٤) د : « وعمل » .

(٥) الشاهد : الدليل . في الأصل : « وبشهادته » ، وأثبت ما في د .

ولعمري إنَّ ذلك لَمَوْجُودٌ فِي الْفِطْرَةِ ، قَائِمٌ فِي الْعَقْلِ : أَنَّ مَنْ كَفَرَ نِعَمَ الْخَلْقِ كَانَ لِنِعَمِ اللَّهِ أَكْفَرُ ؛ لِأَنَّ الْخَلْقَ يُعْطَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِالْكُلْفَةِ وَالْمَشَقَّةِ ، وَثِقَلِ الْعَطِيَّةِ عَلَى الْقُلُوبِ ، وَاللَّهُ يُعْطَى بِلا كُلْفَةٍ . وَلِهَذَا الْعَلَّةُ جَمَعَ بَيْنَ الشُّكْرِ لَهُ وَالشُّكْرِ لَذَوِي النِّعَمِ مِنْ خَلْقِهِ .

فَلَمَّا وَجِبَتْ عَلَى الْحِجَّةِ بِشُكْرِكَ ، وَقُطِعَ عُذْرِي فِي مَكافَأَتِكَ ، اعْتَرَفْتُ بِالتَّقْصِيرِ عَنْ تَقْضَى ذَلِكَ ، إِلَّا أَنِّي بَسَطْتُ لِسَانِي بِتَقْرِيطِكَ وَنَشْرِ مُحَاسِنِكَ . مَوْصُولٌ ذَلِكَ مَنِّي <sup>(١)</sup> عِنْدَ السَّامِعِينَ بِالاعْتِرَافِ بِالْعَجْزِ عَنْ إِحْصَائِهَا .

وَقَدْ رَوَى عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « مَنْ أُوْدِعَ عُرْفًا فَلْيَشْكُرْهُ ، فَإِنْ لَمْ يُمْكِنْهُ فَلْيَنْشُرْهُ ، فَإِذَا نَشَرَهُ فَقَدْ شَكَرَهُ ، وَإِذَا كَتَمَهُ فَقَدْ كَفَرَهُ » .

ثُمَّ رَأَيْتُ أَنَّ قَدْ بَقِيَ عَلَى أَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ يُمْكِنُنِي فِيهِ بَرُّكَ ، وَهُوَ عِنْدِي عَتِيدٌ ، وَأَنْتَ عَنْهُ غَيْرُ مُسْتَفْنٍ . وَالْمَنْفَعَةُ لَكَ فِيهِ عَظِيمَةٌ عَاجِلَةٌ وَآجِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ . ٤٢ و

وَلَمْ أَزَلْ أَبْقَاكَ اللَّهُ بِالْمَوْضِعِ الَّذِي قَدْ عَرَفْتَ <sup>(٢)</sup> ، مِنْ جَمْعِ الْكُتُبِ وَدِرَاسَتِهَا وَالنَّظَرِ فِيهَا ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ طَوْلَ دِرَاسَتِهَا إِنَّمَا هُوَ تَصَفُّحُ عُقُولِ الْعَالَمِينَ ، وَالْعِلْمُ بِأَخْلَاقِ النَّبِيِّينَ ، وَذَوِي الْحِكْمَةِ مِنَ الْمَاضِينَ وَالْبَاقِينَ مِنْ جَمِيعِ الْأُمَمِ ، وَكُتُبِ أَهْلِ الْمَلَلِ .

فَرَأَيْتُ أَنَّ أَجْمَعَ لَكَ كِتَابًا مِنَ الْأَدَبِ ، جَامِعًا لَعِلِمٍ كَثِيرٍ مِنَ الْمَعَادِ وَالْمَعَاشِ ، أَصِفُّ لَكَ فِيهِ عَالَمَ الْأَشْيَاءِ ، وَأُخْبِرُكَ بِأَسْبَابِهَا وَمَا اتَّفَقَتْ عَلَيْهِ مُحَاسِنُ الْأُمَمِ .

(١) فِي الْأَصْلِ : « عِنْدِي » وَأَثْبَتَ مَا فِي د .

(٢) د : « عَلِمْتُ » .

وعلمتُ أنَّ ذلك من أعظم ما أبرَّك به<sup>(١)</sup> ، وأرجح ما أتقرب به إليك .  
وكان الذى حدانى على ذلك ما رأيتُ الله قَسَمَ لك من الفهم والعقل ،  
وركَّب فيك من الطَّبع الكريم .

وقد أجمعت الحكماء<sup>(٢)</sup> أنَّ العقل المطبوع والكرم الغريزى لا يبلغان  
غاية الكمال إلَّا بمعاونة العقل المكتسب . ومثَّلوا ذلك بالنَّار والخطب ،  
والمِصباح والدُّهن . وذلك أنَّ العقل الغريزى آلة والمكتسب مادَّة ، وإنَّما  
الأدب عقلٌ غيرك تزيده فى عقلك .

ورأيتُ كثيراً من واضعى الآداب قبلى قد عَهِدوا إلى الغابرين<sup>(٣)</sup> بعدَم فى  
الآداب عهوداً قاربوا فيها الحقَّ ، وأحسنوا فيها الدلالة ، إلَّا أنَّى رأيتُ أكثرَ  
مارسَموا من ذلك فروعاً لم يبيِّنوا عللها ، وصفاتٍ حسنة لم يكشفوا أسبابها ،  
وأموراً محمودة لم يدلُّوا على أصولها .

فإنَّ كان ما فعلوا من ذلك [ رواياتٍ رووها عن أسلافهم ، و<sup>(٤)</sup> ] وراثاتٍ  
وَرِثوها عن أكابرهم ، فقد قاموا بأداء الأمانة ، ولم يبلغوا فضيلة من استنبط<sup>(٥)</sup> .  
وإنَّ كانوا تركوا الدَّلالة على علل الأمور<sup>(٦)</sup> التى بمعرفة عللها<sup>(٧)</sup> يُوصل إلى

(١) د : « أسرك به » .

(٢) م : « وقد اجتمعت الحكماء على » .

(٣) د : « الغابر » .

(٤) التكملة من د ، م .

(٥) د . « يستنبط » . م : « استطب » .

(٦) هذا مافى الأصل و م . وفى د : « على أعيان الأمور » .

(٧) د : « اللاتى على معرفة عللها » . وفى الأصل : « التى فى معرفة عللها »

وأثبت ما فى م .

مباشرة اليقين فيها ، وينتهي إلى غاية الاستبصار منها ، فلم يعدوا في ذلك منزلة الظن بها . ولن تجدوا وصايا أنبياء الله أبداً إلا مبيّنة الأسباب ، مكشوفة العلل ، مضروبة معها الأمثال .

فألفت لك كتابي هذا إليك ، وأنا واصل لك فيه الطبائع التي ركب عليها الخلق ، وفطرت عليها البرايا كلهم ، فهم فيها مستوون<sup>(١)</sup> ، وإلى وجودها في أنفسهم مضطرون ، وفي المعرفة بما يتولد عنها متفقون .

ثم مبيّن لك كيف تفرق بهم الحالات ، وتفاوت<sup>(٢)</sup> بهم المنازل ، وما العال التي يوجب بعضها بعضاً ، وما الشيء الذي يكون سبباً لغيره ، متى كان الأول كان ما بعده ، وما السبب الذي لا يكون الثاني فيه إلا بالأول ، وربّما كان الأول ولم يكن الثاني . وفرق ما بين الطبع الأول وبين الاكتساب والعادة التي تصير طبعاً ثانياً . ولم اختلّف ذلك ؟ وكيف دواعي قلوب الناس ، وما منها يمتنعون عنه ، وما منها لا يمتنعون منه . وما أسباب نوازع شهواتهم ؟ وما الشيء الذي يمتلئ قلوبهم به حتى تستال ، وحتى تؤنس بعد الوحشة ، وتسكن بعد التفار ؟ وكيف يتأتّى لينقض<sup>(٣)</sup> ما فيهم من الطبائع المذمومة حتى تصرف إلى الشيم الحمودة ؟ ورأسم<sup>٤</sup> لك في ذلك أصولاً ، ومبيّن لك مع كل أصل منها علته وسببه .

(١) في الأصل : « متساوون » وأثبت ما في د .

(٢) أي تفاوت ، بحذف إحدى التامين وفي د : « وتفاوت » .

(٣) د : « لنقض » .

وقد علمتَ أنَّ في كثيرٍ من الحقِّ مشبَّهاتٍ لا تُستبان إلا بعد النظر ،  
وهناك يَخْتَلُ (١) الشَّيْطَانُ أَهْلَ الغفلة ، وذلك أنَّه لا يجد سبيلا إلى اختداعهم عن  
الأمور الظاهرة (٢) .

فلم أدعُ من تلك المواضع الخفية موضعا إلا أقمتُ لك يازء ، كلَّ شبهةٍ منه  
دليلا (٣) ، ومع كلِّ خفيٍّ من الحقِّ حجةً ظاهرة ، تستديط لها غوامض البرهان  
وتستبين بها دقائق الصواب (٤) ، وتكشف بها سرائر القلوب ، فتأني ما تأتي  
عن بينة ، وتدع ما تدع عن خبرة ، ولا يكون بك وحشةٌ إلى معرفة كثيرٍ  
مما يغيب عنك ، إذا عرفت العال والأسباب ، حتى كأنك مشاهدٌ لضمير  
كلِّ امرئ ، لمعرفتك بطبعه وما ركب عليه ، وعوارض الأمور الداخلة عليه  
ثمَّ ؛ غيرَ راضٍ لك بالأصول حتى أتقضى لك ما بلغه علمي من الفروع .  
ثم لا أرسم لك من ذلك [ إلا (٥) ] الأمر المعقول في كل طبيعة ، والموجود  
في فطر البرايا كلها (٦) . فإن أحسنت [ رعاية (٧) ] ذلك وأقمته على حدوده ،  
ونزلته منازلَه ، كان عمرك - وإن قصرت أيامه - طويلا ، وفارقت ما لا بدَّ  
لك من فراقه محموداً ، إن شاء الله .

٤٣ و

(١) في الأصل : « يَخْتَلُ » صوابه في د . ويختل : يخدع .

(٢) في الأصل : « عن الأمر الظاهر » ، وأثبت ما في د .

(٣) كلمة « منه » ليست في الأصل ، وإثباتها من م وفي د : « منها دليلا » .

(٤) هذا ما في د . وفي الأصل : « دقائق الصواب » .

(٥) التكملة من د .

(٦) في الأصل : « في فطرة » ، وأثبت ما في د .

(٧) التكملة من د .

واعلم أن الآداب إنما هي آلات تصلح أن تستعمل في الدين وتستعمل في الدنيا ، وإنما وضعت الآداب على أصول الطباع . وإنما أصول أمور التدبير في الدين والدنيا واحدة ، فما فسدت فيه المعاملة في الدين فسدت فيه المعاملة في الدنيا ، وكل أمر لم يصح في معاملات الدنيا<sup>(١)</sup> لم يصح في الدين . وإنما الفرق بين الدين والدنيا اختلاف الدارين من الدنيا والآخرة فقط ، والحكم هاهنا الحكم هناك ، ولولا ذلك ما قامت مملكة ، ولا ثبتت دولة ، ولا استقامت سياسة . ولذلك قال الله عز وجل : ﴿ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾<sup>(٢)</sup> ، قال ابن عباس في تفسيرها : من كان ليس له من العقل ما يعرف به كيف دُبِّرَت أمور الدنيا ، فكذلك هو إذا انتقل إلى الدين ، فإنما ينتقل بذلك العقل . فبقدر جهله بالدنيا<sup>(٣)</sup> يكون جهله بالآخرة أكثر ؛ لأن هذه شاهدة وتلك غيب<sup>(٤)</sup> ؛ فإذا جهل ما شاهد فهو بما غاب عنه أجهل .

فأول ما أوصيك به ونفسي تقوى الله ؛ فإنها جاع كل خير ، وسبب كل نجاة ، وإقحاح كل رشد . هي أحرز حريز ، وأقوى معين ، وأمنع جنة . هي الجامعة محبة قلوب العباد<sup>(٥)</sup> ، والمستقبلة بك محبة قلوب من لا تجرى عليهم

(١) د : « في معاملة الدنيا » .

(٢) الآية ٧٢ من سورة الإسراء .

(٣) في النسخ : « في الدنيا » ، والوجه ما أثبت .

(٤) الشاهدة : نقيض الغائبة .

(٥) في الأصل : « قلوب محبة العباد » ، صوابه في د .



نعمك<sup>(١)</sup>. فاجعلها عدتك وسلاحك<sup>(٢)</sup>، واجعل أمر الله ونهيه نصب عينيك.

وأحذر نفسك ونفس الله والاعتزاز به، والإدهان في أمره، والاستهانة بعزائمه، والأمن لمكره؛ فقد رأيت آثاره<sup>(٣)</sup> في أهل ولايته وعداوته، كيف جعلهم الماضين عبرة، وللغابرين مثلاً.

واعلم أن خلقه كلهم بريئة، لا وصلة بينه وبين أحد منهم إلا بالطاعة، فأولاهم به أكثرهم تزيّداً في طاعته، وما خالف هذا فإنه أمانى وغرور.

وقد مكن الله لك من أسباب المقدرة، ومهد لك في تمكين الغنى والبسطة ما لم تنحله بحيلة<sup>(٤)</sup>، ولا بلغته بقوة<sup>(٥)</sup>، لولا فضله وطوله. ولكنّه مكنك ليلو خبرك، ويختبر شكرك، ويحصي سعيك، ويكتب أمرك، ثم يوقّيك أجرك، ويأخذك بما اجتاحت يدك أو يعفو؛ فأهل العفو هو.

ولله ابتلاء، إن في خلقه - والابتلاء هو الاختبار - ابتلاء بنعمة، وابتلاء بمصيبة. ويقدر عظمها بحسب التكليف من الله عليها<sup>(٦)</sup>؛ فبقدر ما حوّل من النعمة يستأديك الشكر<sup>(٧)</sup>.

(١) كلمة « محبة » ساقطة من الأصل، وإثباتها من د.

(٢) د: « عونك وسلاحك ».

(٣) د: « أثره ».

(٤) تنحله، من النحلة وهي العطية. د: « ما لم تنله بحيلة ».

(٥) في الأصل: « ولم تلقه بقوة »، وأثبت ما في د.

(٦) د: « ويقدر عظمها بحسب التكليف عليهما ».

(٧) استأداه المال ونحوه: استخرجه منه وطلب أدائه.

## أبو سلوم المعتزلي

ولو تقصّى الله على خلقه لعذبهم ؛ ولذلك قال : ﴿ وَلَوْ يُوَاسِئُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ <sup>(١)</sup> ﴾ . ولكنه قبل التوبة ، وأقال العثرة ، وجعل بالحسنة أضعافها .

واعلم أنّ الحكم في الآخرة هو الحكم في الدنيا : ميزان قسط ، وحكم عدل . وقد قال الله تعالى : ﴿ قَمَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ <sup>(٢)</sup> ﴾ .

وهذا مثل ضربته الله ؛ لأنّ الناس يعلمون أن لو وضع في إحدى كفتي الميزان شيء ولم يك في الأخرى قليل ولا كثير ، لم يكن للوزن معنى يُعقل . وذلك أن أحداً من الخلق لا يخلو من هفوة أو زلة أو غفلة ؛ فأخبر أن من كان حسناته الراجعة على سيئاته ، مع الندم على السيئات ، كان على سبيل النجاة ، وطريق الفوز بالإفلاح . ومن مالت سيئاته بحسناته كان العطب والمذاب أولى به .

وكذلك حكمه في الدنيا ؛ لأنّه قد تولّى أولياء من خلقه وشهد لهم بالعدالة ، وقد عاتبهم في بعض الأمور لغلبة الصّلاح [ في أفعالهم وإن هفوا ، وتبرأ من آخرين وعاداهم لغلبة الجور <sup>(٣)</sup> ] على أفاعيهم <sup>(٤)</sup> ، وإن أحسنوا في بعض الأمور .

(١) الآية ٤٥ من سورة فاطر .

(٢) الآية ١٠٢ — ٢٠٣ من سورة المؤمنون .

(٣) التكملة من د .

(٤) د : « على أفعالهم » .

وكذلك جرت معاملات الخلق بينهم ، يُعدّلون العادل بالغالب من فعله  
وربّما أساء ، ويفسّقون الفاسق وربّما أحسن . وإنما الأمور بعواقبها ، وإنما  
يُقضّى على كلّ امرئ بما شا كلّ أحواله .

فهذه الأمور قائمة في العقول ، جرت عليها المعاملة ، واستقامت بها  
السياسة ، لا اختلاف بين الأمة فيها .

فلا تُفَبِّتَنَّ حَظَّكَ مِنْ دِينِكَ<sup>(١)</sup> ، وإن استطعت أن تبلغ من الطاعة  
غاياتها فأنفesk تُهد ، وإلا فاجهد أن يكون أغلب أفعالك عليك الطاعة<sup>(٢)</sup> ،  
مع الندامة عند الإساءة ، ويكون ميلك عند الإساءة ، إلى الله أكثر .  
والله يوفّقك .

اعلم أن الله جلّ ثناؤه خلق خلقه ، ثمّ طبعهم على حبّ اجترار  
المنافع<sup>(٣)</sup> ، ودفع المضار ، وبُغض ما كان بخلاف ذلك<sup>(٤)</sup> . هذا فيهم طبع  
مرتب ، وجبلة منطورة ، لا خلاف بين الخلق فيه ؛ موجود في الإنس  
والحيوان ، لم يدّع غيره مدّع من الأوّلين والآخرين . وبقدر زيادة ذلك  
ونقصانه تزيد المحبة والبغضاء ؛ [ فنقصانه<sup>(٥)</sup> ] كزيادته تميل الطبيعة معهما<sup>(٦)</sup>  
ككيل كفتي الميزان ، قلّ ذلك أو كثر .

(١) في الأصل : « فلا تعتبر » ، صوابه في د .

(٢) في الأصل : « أفعالك الطاعة » ، وأثبت ما في د .

(٣) اجترار المنافع : اجتلابها . وكلمة « حب » سافطة من د .

(٤) في الأصل : « ونقص من كان » ، صوابه في د .

(٥) تسكلة ضرورية ليتزن بها الكلام .

(٦) في الأصل . د . : « معها »

وهاتان جملتان داخلٌ فيهما جميع تحابِّ العباد ومكارهمهم . والنفس  
في طبعها حبُّ الرّاحة والدّعة ، والازدياد والعلو ، والعزّ والغابة ، والاستطراف  
والتنوّق<sup>(١)</sup> ، وجميع ما تستلذّ الحواسُّ من المناظر الحسنة ، والروائح الطيّبة ،  
والطّعم الطيّب<sup>(٢)</sup> ، والأصوات الموثقة ، والملامس اللذيذة . ومما كراهيته<sup>(٣)</sup>  
في طباعهم أصدادُ ما وصفتُ لك وخلافه .

فهذه الخلالُ التي تجمعها خلتان<sup>(٤)</sup> غرائزُ في الفطر ، وكوامن في الطّبع ؛  
حبّةٌ ثابتة ، وشيمةٌ مخلوقة . على أنّها<sup>(٥)</sup> في بعض أكثر منها في بعض ،  
ولا يعلم قدر القلّة فيه والكثرة إلاّ الذي دبرهم .

٤٤ ظ

فلما كانت هذه طبائعهم ، أنشأ لهم من الأرض أرزاقهم ، وجعل في ذلك  
ملاذّ لجميع حواسّهم ، فتعلّقت به قلوبهم ، وتطلّعت إليه أنفسهم . فلو تركهم  
وأصل الطّبيعة ، مع ما مكّن لهم من الأرزاق المشتهاة في طبائعهم ، صاروا إلى  
طاعة الهوى ، وذهب التعاطف والتبارّ . وإذا ذهب كان ذلك سبباً للفساد ،  
وانقطاع التّناسل ، وفناء الدّنيا وأهلها ؛ لأنّ طبع النفس لا يسّلس بعطيّة  
قليل ولا كثيرٍ مما حوته ، حتّى تعوّض أكثر مما تُعطى ، إمّا عاجلاً  
وإما آجلاً مما تستلذه حواسّها .

(١) التنوّق في النّوى : التّجود والبالغة فيه . مثل التّأنق . وفي النسختين :  
« التلون » ، وقد ارتضيت هذا التصحيح من ناشر ط .

(٢) في الأصل : « والطعم ذو الطّيبة » ، وأثبت ما في د .

(٣) هذا ما في د . وفي الأصل : « كراهته » .

(٤) يحى : « المحاب والمكاره » . وفي د : « التي وصفت لك تجمعها خلتان » .  
ولا وجه لهذه الزيادة .

(٥) د : « إلا أنّها » .

فَعَلِمَ اللَّهُ أَنَّهُمْ لَا يَتَعَاطَفُونَ وَلَا يَتَوَاصِلُونَ وَلَا يَنْقَادُونَ<sup>(١)</sup> إِلَّا بِالتَّأْدِيبِ ،  
وَأَنَّ التَّأْدِيبَ لَيْسَ إِلَّا بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ ، [ وَأَنَّ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ<sup>(٢)</sup> ] غَيْرَ نَاجِعِينَ  
فِيهِمْ إِلَّا بِالْتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيْبِ اللَّذَيْنِ فِي طِبَاعِهِمْ<sup>(٣)</sup> . فَدَعَاهُمْ بِالَّتَّغْيِيبِ إِلَى  
جَنَّتِهِ ، وَجَعَلَهَا عَوْضًا مِمَّا تَرَكَوْا فِي جَنْبِ طَاعَتِهِ<sup>(٤)</sup> ، وَزَجَرَهُمُ بِالَّتَّهْيِيبِ بِالنَّارِ  
عَنْ مَعْصِيَتِهِ ، وَخَوَّفَهُمْ بِعِقَابِهَا عَلَى تَرْكِ أَمْرِهِ . وَلَوْ تَرَكَهُمْ جَلًّا ثَنَاؤُهُ وَالطَّبَّاعُ  
الْأَوَّلُ<sup>(٥)</sup> جَرَّوْا عَلَى سَنَنِ الْفِطْرَةِ ، وَعَادَةُ الشَّيْمَةِ<sup>(٦)</sup> .

ثُمَّ أَقَامَ الرَّغْبَةَ وَالرَّهْبَةَ عَلَى حُدُودِ الْعَدْلِ ، وَمَوَازِينَ النِّصْفَةِ ، وَعَدَّلَهُمْ  
تَعْدِيلًا مُتَّفَقًا ، فَقَالَ : ﴿ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ  
ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ<sup>(٧)</sup> 》 .

ثُمَّ أَخْبَرَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ غَيْرُ دَاخِلٍ فِي تَدْيِيرِهِ الْخَلْلُ ، وَلَا جَائِزٌ  
عِنْدَهُ الْمَحَابَاةُ ؛ لِيَعْمَلَ كُلُّ عَامِلٍ عَلَى ثِقَةٍ مِمَّا وَعَدَهُ وَوَاعَدَهُ ، فَتَعَلَّقَتْ قُلُوبُ

(١) وَلَا يَنْقَادُونَ ، ساقطة من د .

(٢) التَّكْمِلَةُ من د .

(٣) د : « طِبَاعُهُمْ »

(٤) فِي الْأَصْلِ : « طَاعَتُهُمْ » ، وَأُثْبِتَ مَا فِي د .

(٥) الطَّبَّاعُ : الطَّبِيعَةُ وَالسَّجِيَّةُ . قَالَ الزَّجَّاجِيُّ : « الطَّبَّاعُ وَاحِدٌ مَذْكَرٌ كَالنَّحَاسِ  
وَالنَّجَارِ » ، يَعْنِي بِكسر أولهما . انْظُرِ اللِّسَانَ ( طَبِعَ ) . وَفِي د : « وَالطَّبِيعُ الْأَوَّلُ » ،  
وَكُلَاهُمَا مُتَّجِهٌ .

(٦) م : « وَعَادَاتُ الشَّيْمَةِ » .

(٧) الْآيَةُ ٧ — ٨ مِنْ سُورَةِ الزَّلْزَالِ .

العباد بالرغبة والرَّهبة ، فاطرَدَ التدبير ، واستقامت السَّياسة ، لموافقتهما<sup>(١)</sup> ما في الفِطرة ، وأخذها بمجامع المصلحة .

ثمَّ جعلَ أكثر طاعته فيما تَسْتَقِلُّ النفوس ، وأكثر معصيته فيما تَلَذَّ .  
ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : « خَفَّتِ الجنة بالمسكاره ، والنارُ بالشهوات<sup>(٢)</sup> » . [ يخبر أنَّ الطريق إلى الجنة احتمال المسكاره ، والطريق إلى النار اتباع الشهوات<sup>(٣)</sup> ] .

فإذا كانوا لم يصلحوا لخالقهم ولم ينقادوا لأمره إلا بما وصفتُ لك من  
الرَّغبة والرَّهبة ، فأعجزُ الناسِ رأياً وأخطأهم تدبيراً ، وأجباهم بموارد الأمور  
ومصادرها ، من أمَّل أو ظنَّ أَوْرجاً أنَّ أحداً من الخلق - فوقه أو دونه أو من  
نظرانه<sup>(٤)</sup> - يصلح له ضميره ، أو يصحَّ له بخلاف ما دبرهم الله عليه ، فيما  
بينه وبينهم .

فالرَّغبة والرَّهبة أصلاً كلَّ تدبير ، وعليهما مدار كلِّ سياسة ، عظمتُ  
أو صغرت . فاجعلهما مثالك الذي تَحْتَذِي عليه ، وركنك الذي تَسْتَنْدِ  
إليه . واعلم أنَّك إن أهملت ما وصفتُ لك عرَضْتَ تدبيرك للاختلاط .

(١) يعنى الرغبة والرَّهبة . وفي الأصل : « لموافقها » ووجهه من د .

(٢) رواه مسلم والترمذى وأحمد عن أنس ، ومسلم أيضاً عن أبى هريرة .  
الجامع الصغير ٢٧٣٢ .

(٣) التكلة من د .

(٤) فى الأصل : « أو من يظن أن » مع سقوط هذه العبارة من د ، وصوابها  
مارأيت وانظر ماسياني .

وإن آثرتَ الهوينَا واتَّكلتَ على الكفَاةِ في الأمرِ الذي لا يَجُوزُ فيه  
إلاَّ نظركَ ، وزَجَّيتَ أموركَ على رأيٍ مدخولٍ ، وأصلٍ غيرِ محكمٍ ، رجع  
ذلكَ عليكِ بما لو حُكِّمَ فيكَ عدوُّكَ كانَ ذلكَ غايةَ أمنيَّتِهِ ، وشفَاءِ غيظِهِ .

واعلم أنَّ إجرَاءكَ الأمورَ مجاريهَا ، واستعمالَكَ الأشياءِ على وجوههَا ، يجمع  
لكَ ألفَةَ القلوبِ ، فيعاملُكَ<sup>(١)</sup> كلُّ من عاملَكَ بمودَّةٍ ، أو أخذَ أو إعطاءً ،  
وهو على ثقةٍ من بَصَرِكَ بمواضعِ الإنصافِ<sup>(٢)</sup> ، وعاملَكَ بمواردِ الأمورِ .

واعلم أنَّ أثرتَكَ على غيرِ النصيحةِ والشفقةِ ، والحرمةِ والكِفايةِ ،  
يوجبُ [ لك<sup>(٣)</sup> ] المباعدةَ وقلةَ الثقةِ مِن آثرتهِ أو آثرتَ عليه .

فاعْرِفْ لأهلَ البلاءِ - ممَّنْ جرتَ بينكَ وبينه مودَّةٌ أو حرمةٌ ، مِن فوقَكَ  
أو دونَكَ أو نظرائكَ - أقدارَهُم ومنازلَهُم . ثمَّ لتكنْ أموركَ معهم على قدرِ  
البلاءِ والاستحقاقِ ، ولا تُؤثِّرْ في ذلكَ أحداً لهوى<sup>(٤)</sup> ؛ فإنَّ الأثرةَ على الهوى  
توجبُ السُّخطةَ ، وتوجبُ استصغارَ عظيمِ النِّعمةِ ، ويُحقِّقُ بها الإفضالَ ،  
وتفسدُ عليها<sup>(٥)</sup> الطائفتانِ : مَن آثرتَ ومن آثرتَ عليه .

أما من آثرتَ<sup>(٦)</sup> فإنه يعلمُ أنَّكَ لم تُؤثِّرْه باستحقاقٍ بل لهوى ، فهو

(١) في الأصل : « ويعاملُكَ » والوجه من د .

(٢) د : « بمواقع الإنصاف » .

(٣) النكلة من د .

(٤) د : « بهوى » .

(٥) في الأصل : « بها » وأثبت ما في د .

(٦) د : « آثرته » في هذا الموضع وسابقه .

مترقّب أن ينتقل هواك إلى غيره ، فتحوّل أثرُك حيث مال هواك . فهو  
مدخولُ القاب في مودّتك ، غير آمنٍ لتغيّرك .

وأما من آثرت عليه بعد الاستحقاق منه ، فقد جعلت له السبيلَ إلى  
الظّمن عليك ، وأعطيتَه الحُجّةَ على نفسك . فكلُّ من يعمل على غير ثقةٍ  
عاد ما أراد به النّفع ضرراً ، والإصلاح [ فيه <sup>(١)</sup> ] فساداً .

وربّما آثر الرجلُ المرءَ من إخوانه بالعطية السنيّة على بلاءٍ أبلاه <sup>(٢)</sup> ،  
فيعظمُ قدرُها <sup>(٣)</sup> عنده حتّى لعلّه تطيبُ نفسه ببذلِ ماله ودميه دونَه <sup>(٤)</sup> .  
فإنّ أعطى من أبلي كبلائه وكانت له مثل دالّته <sup>(٥)</sup> ، أكثر ممّا أعطاه ، انتقل  
كلُّ محمودٍ من ذلك مذموماً ، وكلُّ مستحقٍّ مستقبحاً . وكذلك الأمر في  
العقوبة ، يجرّيان مجرى واحداً .

فاجعل العدلَ والنّصفَةَ في الثّواب والعقاب كما بينك وبين إخوانك ،  
فمن قدّمتَ منهم فقدّمته على الاستحقاق ، وبصحة النّيّة في مودّته ، وخلص  
نصيحتَه لك ممّا قد بلوتَ من أخلاقه وشيمه <sup>(٦)</sup> ، وعلمتَ بتجربتك له ،  
أنّه يعلم أنّ صلاحه موصولٌ بصلاحك ، وعطبه كائن مع عطبك ، ففوّض

(١) التكلّة من د .

(٢) في الأصل : « بلا بلاء أبلاه » ، والوجه من د .

(٣) في الأصل : « قدرها » ، صوابه من د .

(٤) د : « ونفسه دونه » .

(٥) في الأصل : « دلّالته » ، صوابه في د .

(٦) في الأصل : « بمن قد بلوت في أخلاقه وشيمه » ، والوجه من د .



الأمر إليه ، وأشركه في خواصِّ أمورِك وخفيَّ أسرارِك ، ثمَّ اعرفْ له قدرَه في مجلسِك ومُحاورَتِك<sup>(١)</sup> ومعاملَتِك ، في كلِّ حالاتِك ومزاوَلاتِك في خلواتِك معه<sup>(٢)</sup> ، وبحضرةِ جُلُساتِك ؛ فإنَّ ذلك زيادة في نيته ، وداعية<sup>(٣)</sup> لمنْ دونه إلى التقرُّب إليك بمثل نصيحته .

فإن ابتليتَ في بعض الأوقات بمن يَضْرِبُ بحرمة<sup>(٤)</sup> ويمتُ بدالة ، يطلب المكافأة بأكثر ممَّا يستوجب ، فدعاك السكْرُ والحياء إلى تفضيله على من [ هو<sup>(٥)</sup> ] أحقُّ منه ، إمَّا تخوُّفاً من لسانه<sup>(٦)</sup> ، أو مداراةً لغيره ، فلا تدع الاعتذارَ إلى من فوقه من أهل البلاء ، والنَّصيحة وإظهارَ ما أردتَ من ذلك لهم ؛ فإنَّ أهلَ خاصَّتِك والمؤتمنين على أسرارِك ، هم شركاؤك في العيش ، فلا تستهينَنَّ بشيءٍ من أمورهم ؛ فإنَّ الرجلَ قد يترك الشيءَ من ذلك اتِّكالا على حسن رأي أخيه<sup>(٧)</sup> ، فلا يزال ذلك يجرح في القلب وينمو ، حتَّى يولَدَ ضِعْفاً ويحوِّلَ عداوة .

فتحفَّظْ من هذا الباب ، واحملْ إخوانك عليه بجهدك .

(١) د : « ومُحادثتك » .

(٢) في الأصل : « ومزاوَلتك » . والكلام بعد « معاملتك » إلى هنا ماقط من د .

(٣) د : « فإن ذلك زائد في نيته وداع » .

(٤) د : « يتقرب بحرمة » .

(٥) التكلة من د .

(٦) د : « تخوفاً » بدل « خوفاً » .

(٧) في الأصل : « أموراً لا على رأي أخيه » ، صوابه في د .

وستجد في من يتصل بك من يغلبه إفراط الحرص وحميًا الشره ، ولين جانبك له ، على أن ينقم العافية ، ويطلب اللحوق بمنازل من ليس هو مثله<sup>(١)</sup> ، ولا له مثل دأته ، فتأقاه لما تصنع به مستقلاً ، ولمعروفك مُستصغراً .  
وصلاح من كانت هذه حاله بخلاف ما فسد عليه أمره . فاعرف طرائقهم وشيمهم ، وداوِ كلَّ مَنْ لا بدَّ لك من معاشرته بالدواء الذي هو أنجع فيه ، إن لنا فلينا ، وإن شدة فشدّة ؛ فقد قيل في المثل :

من لا يؤدبه الجية ل في عقوبته صلاحه  
وقد قال بعض الحكماء :

« ليس بحكيم من لم يعاشر من لا يجد من معاشرته بدّاً<sup>(٢)</sup> » ، بالعدل والنصفة ، حتّى يجعل الله له من أمره فرجاً ومخرجاً<sup>(٣)</sup> .

فاحفظ هذه الأبواب التي يُوجب بعضها بعضاً ، وقد ضيّمت لك أوائلها كونَ أواخرها . فاعرفها واقتبسها ، واعلم أنّ متى كان الأول منها وجب ما بعده لا بدّ منه . فاحذر المقدمات اللاتي يعقبها المكروه<sup>(٤)</sup> ، واحرص على توطيد الأمور التي على أثرها السلامة ، وألقح في البدئ الأمور التي نتائجها العافية<sup>(٥)</sup> .

(١) د : « ويطلب اللحاق بمنازل من ليس مثله » .

(٢) د : « من لم يعاشر من لا بد من معاشرته » .

(٣) هذا ما في د . وفي الأصل : « حتّى يجعل الله له فرجاً » فقط .

(٤) د : « التي » .

(٥) البدئ : الأول . في الأصل : « وألقح في بدئ » صوابه في د . وفي د :

« أموراً نتائجها العافية » . وفي الأصل : « ونتائجها » .

فمن الأمور التي يُوجب بعضها بعضاً : المنفعة توجب المحبة ، والمضرة  
توجب البغضاء<sup>(١)</sup> ، والمُضادة توجب العداوة ، وخلاف الهوى يُوجب  
الاستئفال ، ومتابعته توجب الألفة ، والصدق يوجب الثقة ، والكذب  
يُورث التهمة<sup>(٢)</sup> ، والأمانة توجب الظمانينة ، والعدل يوجب اجتماع القلوب ،  
والجور يوجب الفرقة ، وحسن الخلق يُوجب المودة ، وسوء الخلق يوجب  
المباعدة<sup>(٣)</sup> ، والانبساط يوجب المؤانسة ، والانقباض يوجب الوحشة ،  
والتكبر<sup>(٤)</sup> يوجب المقت ، والتواضع يوجب المِقة ، والجود بالقصد يوجب  
الحمد<sup>(٥)</sup> ، والبخل يوجب المذمة ، والتواني يوجب التضييع ، والجد يوجب  
رخاء الأعمال ، والهويّا تورث الحسرة ، والحزم يورث الشّرو ، والتّغريز  
يُوجب النّدامة ، والحذر يوجب العذر ، [ وإصابة التدبير توجب بقاء النعمة<sup>(٦)</sup> ]  
والاستهانة توجب التّباغى ، والتّباغى مقدّمة الشرّ<sup>(٧)</sup> وسبب البوّار .

٢٦ ذ

ولكلّ شيء من هذا إفراط وتقصير<sup>(٨)</sup> ، وإنّما تصحّ نتائجها إذا أُقيمت  
على حدودها ، وبقدر ما يدخل من الخلل فيها يدخل فيما يتولّد منها ، لا بدّ منه

(١) د : « لبغضة » .

(٢) في الأصل : « النجاسة » ، صوابه في د .

(٣) د : « التباعد » .

(٤) د : « والكبر » .

(٥) د : « والجود والفضل يوجبان الحمد » . ولا يتساقط هذا مع سائر الأسلوب .

(٦) التكملة من د .

(٧) د : « مقدمات الشر » .

(٨) هذا ما يعبر عنه الأخلاقيون بمذهب الوسط .

ولا مَزَحَلْ عنه ، عليه عادةُ الخلق ، وبه جَرَتْ طبائِعهم ، وتَمَامُ المنفعة بها  
إصابة مواضعها :

فالإفراط في الجود يوجب التَّبْذِير ، والإفراط في التواضع يوجب  
المذلة<sup>(١)</sup> ، والإفراط في الكبر يدعو إلى مقت الخاصة<sup>(٢)</sup> ، والإفراط في  
المؤانسة يدعو لخطاء السوء<sup>(٣)</sup> ، والإفراط في الانقباض يوحش ذا النصيحة .  
وآفة الأمانة ائتمان الخانة<sup>(٤)</sup> ، وآفة الصدق تصديق الكذبة ، والإفراط في  
الحذر يدعو إلى ألاَّ يُوثَقَ بأحد ؛ وذلك ما لا سبيل إليه . [والإفراط في المضرة  
مبعثة على حربك<sup>(٥)</sup>] ، والإفراط في جرّ المنفعة غناء لمن أفرطت في نفعه عنك .  
واحذر كل الحذر أن يختدعك الشيطان عن الحزم<sup>(٦)</sup> فيمثّل لك  
التّواني في صورة التوكّل ، ويسلبك الحذر ، ويورثك الهويّنا بإحالتك على  
الأقدار ؛ فإنَّ الله إنّما أمر بالتوكّل عند انقطاع الحيل ، والتسليم للقضاء بعد  
الإعذار ، بذلك أنزل كتابه ، وأمضى سنّته فقال : ﴿ خُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾<sup>(٧)</sup> ،

(١) في الأصل : « يورث المذلة » ، وأثبت ما في د .

(٢) في الأصل : « يدعو العقب الخاصة » ، صوابه في د .

(٣) بعده في الأصل : « والإفراط في الحذر يدعو إلى أن لا يثق بأحد » ،  
وهو تكرار لما سيأتى مما اتفقت عليه النسختان .

(٤) الخانة : جمع خائن ، وفي اللسان : « والجمع خانة وخونة ، الأخيرة شاذة » .  
ونظير هذه الأخيرة في الشذوذ حائك وحوكة .

(٥) التكهلة من د .

(٦) هذا ما في د . وفي الأصل : « الحرص » .

(٧) الآية ٧١ من سورة النساء .

﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾<sup>(١)</sup> . وقول النبي صلى الله عليه وسلم :  
« اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ »<sup>(٢)</sup> . وسئل ما الحزم ؟ فقال : الحذر<sup>(٣)</sup> .

فتحفظ من هذا الباب وأحكم معرفته إن شاء الله تعالى .

واعلم أن أكثر الأمور إنما هو على العادة وما تضرى عليه النفوس ،  
ولذلك قالت الحكماء : « العادة أم لك بالأدب »

فرض نفسك على كل أمر محمود العاقبة ، وضرها بكل ما لا يذم من  
الأخلاق<sup>(٤)</sup> يصير ذلك طباعاً<sup>(٥)</sup> ، وينسب إليك منه أكثر مما أنت عليه .

واعلم أن الذي يوجب لك اسم الجود القيام بواجب الحقوق عند  
النوائب ، مع بعض التفضل على الراغبين . وإذا أوجب<sup>(٦)</sup> لك اسم الجود  
زال عنك اسم البخل .

واعلم أن تشير المال آلة للكارم ، وعون على الدين ، ومتألف للإخوان ؛  
وأن من قد فقد المال قلت الرغبة إليه ، والرغبة منه ؛ ومن لم يكن بموضع  
رغبة ولا رهبة استهان الناس بقدره<sup>(٧)</sup> .

٤٧ و

(١) الآية ١٩٥ من سورة البقرة .

(٢) رواه الترمذي عن أنس ، وهو حديث ضعيف ، الجامع الصغير ١١٩١ .  
ورواه الطبراني : « قيدها وتوكل » . أسنى المطالب لحمد بن درويش البيروني ص ٤٤ .

(٣) هذا ما في د . وفي الأصل : « قال الحذر » .

(٤) في الأصل : « الإخلاص » صوابه في د . والتضرية : التعويد ، والضراوة :  
العادة .

(٥) الطباع : الطبع والهيئة . وانظر ما سبق في حواشي ١٠٤ . د . طبعا .

(٦) د : « وجب » .

(٧) هذا ما في د . وفي الأصل : « به » .

فاجتهد الجُهد كله ألا تزال القلوب معلقة منك برغبة أو رهبة ، في دينٍ أو دنيا .

واعلم أن الشرف لا بقاء معه لكثير ، ولا تثير معه لقليل ، ولا تصلح عليه دنيا ولا دين . وتأدب بما أدب الله تعالى به نبيه<sup>(١)</sup> فقال : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾<sup>(٢)</sup> . وقالت الحكماء : « القصد أبقى للجَمَامِ »<sup>(٣)</sup> .

فداومْ حالَكَ وبقاء النعمة عليك ، بتقديرك أمورَكَ على قَدَرِ الزمان ، وبقدر الإمكان ؛ فقد قال الشاعر<sup>(٤)</sup> :

مَنْ سَابَقَ الدَّهْرَ كِبَا كِبَوَةً لَمْ يَسْتَقِلْهَا مِنْ خَطَايِ الدَّهْرِ  
فَاخْطُ مَعَ الدَّهْرِ عَلَى مَا خَطَا وَاجِرٍ مَعَ الدَّهْرِ كَمَا يَجْرِي<sup>(٥)</sup>  
واعلم أن الصمت في موضعه ربما كان أنفع من الإبلاغ بالمنطق في موضعه ، وعند إصابة فرصته . وذاك صَحَّتْكَ عند من يعلم أنك لم تصمت عنه عِيًا<sup>(٦)</sup> ولا رهبة . فليزدك في الصمت رغبة ماترى من كثرة فضائح المتكلمين في غير القِرص ، وهذِر مَنْ أطلق لسانه بغير حاجة .

(١) في الأصل : « وتأديب الله فيه ما أدب به نبيه صلى الله عليه وسلم » ، صوابه في د .

(٢) الآية ٢٩ من سورة الإسراء .

(٣) الجمام ، كسحاب : الراحة .

(٤) هو أبو العتاهية ، كما في البيان ٤ : ٢١ وملحقات ديوانه ٩٨ تملأ عن

الأغاني ٣ : ١٦٤ .

(٥) في الأصل والبيان : « إذا ما خطا » ، وأثبت ما في د وبعض أصول البيان .

(٦) العي : العجز . وفي الأصل : « عياء » ، صوابه في د .

( ٨ - رسائل الجاحظ )

واعلم أن الجبن جبنان ، والشجاعة شجاعتان ، وليست تكون الشجاعة إلا في كل أمر لا يُدرى مآقبته ، يُخاطر فيه بالأنفس والأموال . فإذا أردت الحزم في ذلك فلا تشجع نفسك على أمر أبداً إلا والذي ترجو من نفعه في العاقبة أعظم مما تبذل فيه في المستقبل ، ثم يكون الرجاء في ذلك أغاب عليك من الخوف .

وها هنا موضع يحتاج فيه إلى النظر : فإن كان ذلك أمراً واجباً في الدين ، أو خوفاً لعارٍ تُسبُّ به الأعقابُ فانت معذورٌ بالمخاطرة فيه بنفسك ومالك . وإن كان أمراً تعظم منفعته في الدنيا <sup>(١)</sup> إلا أنك لا تناله إلا بالخطار بمهجة نفسك <sup>(٢)</sup> أو بتعريض كل مالك للتلف ، فالإقدام على مثل هذا ليس بشجاعة ، ولكن حماقة بينة عند الحكماء .

٤٧ ظ

وقد قالت علماء أوائل الناس <sup>(٣)</sup> :

\* لا يرسل السَّاقَ إلا ممسكاً ساقاً <sup>(٤)</sup> \*

(١) في الأصل : « للدنيا » ، وأثبت ما في د .

(٢) الخطار : المخاطرة ، وهو أن يشقى بنفسه على خطر المهلك . وفي الأصل : « بالإخطار » والوجه ما أثبت من د . وفي د : « بالخطار بنفسك » .

(٣) د : « علماء الأوائل » فقط .

(٤) في الأصل : « ممسك » صوابه في د . وهو عجز بيت لأبي دواد الإيادي ، من أبيات رواها العسكري في الجهرة ٢١٢ . وانظر اللسان ( حرب ، سوق ) وعيون الأخبار ٣ : ١٩٢ وأمثال الميداني ١ : ٢٠٢ وديوان المعاني ١ : ٢٣٨ والمخصص ٨ : ١٠٣ . ومدره :

\* أنى أتيسح له حرباء تنضبة \*

وقالوا : « لا تُخرج الأمر كله من يدك وخذ بأحد جانبيه <sup>(١)</sup> » .  
ثم الشجاعة والجبن في ذلك بقدر الحالات والأوقات .  
واعلم أن أصل ما أنت مستظهر به على عدوك ثلاث خلال :  
أشرفها : أن تأخذ عليه بالفضل وتبتدئه بالحسنى ، فتكون عليه رحمة  
ولنفسك ناظرا ؛ فإن كثرة الأعداء تنفيس للشُرور ، وقد قال الله تبارك  
وتعالى : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ  
وَلِيٌّ حَمِيمٌ <sup>(٢)</sup> ﴾ .

فإن كان عدوك مما لا يصلح على ذلك فخص عنه أسرارك ، وعم عليه  
آثار تدبيرك <sup>(٣)</sup> ، ولا يطلعن على شيء من مكائدتك له <sup>(٤)</sup> بقول ولا فعل ،  
فياخذ حذرَه ، ويعرف مواضع عوارك ، فإن تحصين الأسرار أخذ بأزمة  
التدبير ، والإكثار من الوعيد للأعداء فشل <sup>(٥)</sup> . ولكن داج عدوك  
ما داجاك ، وأحص معايبه ما لاحاك .  
وقال الشاعر <sup>(٦)</sup> :

كلُّ يداجي على البغضاء صاحبه ز كنت منهم على مثل الذي ز كنوا <sup>(٧)</sup>

(١) د : « جوانبه » .

(٢) الآية ٣٤ من فصلت .

(٣) د : « وعم عليه تدبيرك » .

(٤) د : « مكائيدك » .

(٥) هذا ما في د . وفي الأصل : « وإكثار الوعيد للأعداء فشل » .

(٦) هو قنبر بن أم صاحب ، كما في اللسان ( زكن ) . وانظر آياتاً من قصيدة

البيت في الحماسة ( باب الهجاء ) بشرح التبريزي .

(٧) زكن بمعنى علم . وعداء بعلى لأن فيه معنى اطلعت .



واعلم أن أعظم أعوانك عليه الحجج [ ثم الفرصة <sup>(١)</sup> ] ، ثم لا تظهر  
عليه حجة ، ولا تهتبل منه غيرة ، ولا تطلبن له عثرة ، ولا تهتكن له سترًا  
[ إلا ] عند الفرصة في ذلك كله ، وفي المواضع التي يجب لك فيها العذر  
ويعظم فيها ضرره ، إن كان العفو عنه شرًا له .

وإن كان ممن يظهر لك العداوة ويكشف لك قناع المحاربة ، وكان ممن  
أعيالك استصلاحه بالحلم والأناة ، فلتكن في أمره بين حالين <sup>(٢)</sup> : استبطان  
الحذر منه ، والاستعداد له وإظهار الاستهانة [ به <sup>(٣)</sup> ] . ولست مستظهرًا عليه  
بمثل طهارتك من الأدناس ، وبراءتك من المعايب .  
فلتكن هذه سيرتك في أعدائك .

واعلم أن إشاعة الأسرار فساد في كل وجه من الوجوه ، من العدو  
والصديق <sup>(٤)</sup> . وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « استعينوا  
على الحوائج بسترها ؛ فإن كل ذي نعمة محسود <sup>(٥)</sup> » .

وإذا أفشيت سرك فجاءت الأمور على غير ما تقدّر كان ذلك منك فضلًا  
من قولك على فعلك <sup>(٦)</sup> . وقد قيل في الأمثال : « من أفشى سيرة كثير المتأمرين

(١) التكملة من م .

(٢) د : « حالتين » .

(٣) التكملة من د .

(٤) هذا ما في د . وفي الأصل : « والعدو والصديق » .

(٥) أخرجه السيوطي في الجامع الصغير ٩٨٤ وذكر أنه حديث ضعيف .

(٦) الكلام من أول الفقرة إلى هنا ساقط من د .

عليه . فلا تَضَعْ سِرَّكَ إِلَّا عِنْدَ مَنْ يَضُرُّهُ نَشْرُهُ كَمَا يَضُرُّكَ ، وَيَنْفَعُهُ سِتْرُهُ  
بِحَسَبِ مَا يَنْفَعُكَ<sup>(١)</sup> .

واعلم أنَّكَ ستصحب من الناس أجناساً متفرقةً حالاتهم ، متفاوتةً  
منازلهم ، وكلُّهم بك إليه حاجة ، وكلُّ طائفة تُسَدُّ عِنْدَكَ كثيراً من المنافع  
لا يقوم به من فوقها ، ولعلَّهم مجتمعون على نصيحتك والشفقة عليك . فمنهم  
من تُريد منه الرأي والمشورة ، [ ومنهم من تريده للحفظ والأمانة<sup>(٢)</sup> ] ، ومنهم  
من تريده للشدة والغلظة ، ومنهم من تريده للمهنة . وكلُّ يسدُّ مسدده على  
حياله . وقد قيل في الحكمة : « إِنَّ الْخِلَالَ تَنْفَعُ حَيْثُ لَا يَنْفَعُ السَّيْفُ » .

وَلَا تُخْلِنَ أَحَدًا مِنْهُمْ - عَظُمَ قَدْرُهُ أَوْ صَغُرَتْ مَنَزَلَتُهُ - مِنْ عَنَابَتِكَ  
وَتَعَهَّدِكَ بِالْجُزْءِ عَلَى الْحَسَنَةِ ، وَالْمُعَاتَبَةِ عِنْدَ الْعَثْرَةِ ؛ لِيَعْلَمُوا أَنَّكَ بِرَأْيٍ  
وَمُسَمَّعٍ . ثُمَّ لَا تَجُوزَنَّ بِأَحَدٍ مِنْهُمْ حَدَّهُ ، وَلَا تَدْخُلْهُ فِيمَا لَا يَصْلُحُ لَهُ ، تَسْتَقِمَّ  
لَكَ حَالُهُ ، وَيَتَّسِقَ لَكَ أَمْرُهُ<sup>(٣)</sup> .

واعلم أَنَّهُ سَيَمُرُّ بِكَ فِي مَعَامَلَاتِ النَّاسِ حَالَاتٌ تَحْتَاجُ فِيهَا إِلَى مَدَارَاقِ  
أَصْنَافِ النَّاسِ وَطَبَقَاتِهِمْ ، يَبْلُغُ بِكَ غَايَةَ الْفَضِيلَةِ فِيهَا ، وَكَمَالَ الْعَقْلِ وَالْأَدَبِ  
مِنْهَا ، أَنْ تُسَالِمَ أَهْلَهَا وَتَمْلِكَ نَفْسَكَ عَنْ هَوَاهَا ، وَتَكْفُفَ مِنْ جَمَاحِهَا<sup>(٤)</sup> ،  
بِالْأَمْرِ الَّذِي لَا يُخْرِجُكَ فِي دِينِكَ<sup>(٥)</sup> وَلَا عِرْضِكَ وَلَا بَدَنِكَ ، بَلْ يُفِيدَكَ  
عِزَّ الْحِلْمِ ، وَهَيْبَةَ الْوَقَارِ . وَهِيَ أُمُورٌ مُخْتَلِفَةٌ ، تَجْمَعُهَا حَالٌ وَاحِدَةٌ .

(١) فِي الْأَصْلِ : « وَيَنْفَعُهُ نَشْرُهُ » ، صَوَابُهُ فِي د . (٢) التَّكَلُّفُ مِنْ د .

(٣) يَتَّسِقُ : يَنْتَظِمُ . وَفِي الْأَصْلِ : « وَيَتَّفِقُ » ، وَأَثْبَتَ مَا فِي د .

(٤) فِي النُّسَخَتَيْنِ : « عَنْ جَمَاحِهَا » .

(٥) فِي الْأَصْلِ : « بِأَمْرِ لَا يُخْرِجُكَ فِي دِينِكَ » . صَوَابُهُ فِي د .

منها : أن تأتيَ حَفِلاً فيه جَمْعٌ من الناس ، فتجلس منه دون الموضع الذي تستحقّه حتى يكون أهله [ الذين <sup>(١)</sup> ] يرفعونك ، فتظهر جلالتك وعِظَمُ قدرك .

ومنها : أن يَفِيضَ القومُ في حديثٍ ، عندك منه مثلُ ما عندهم أو أفضلُ ، فيتنافسون في إظهار ما عندهم ، فإنْ نافستهم كنتَ واحداً منهم ، وإنْ أمسكتَ اقتضوكَ ذلك ، فصرتَ كأنك ممتنٌّ عليهم بحديثك ، وأنصتوا لك ما لم ينصتوا لغيرك .

ومنها : أن يتمازى جُلساؤك - والمِراءِ نتاجُ اللّجاجة وثمرةُ أصلها الحِميّة - فإنْ ضبطتَ نفسك كان تحاكمهم إليك ، ومعوّلهم عليك .

واعلم أن طبع النفوس - إذ كان على حسبِ العلوِّ والغلبة - أنْ في تركيبها بُغْضٌ من استغلالِ عليها . فاستدعِ محبةَ العامة بالتواضع ، ومودةَ الأخلاء بالمؤانسة والاستشارة ، والثقة والطمانينة .

واعلم أن الذي تُعامل به صديقك هو ضدُّ ما تعامل به عدوك . فالصديقُ وجهُ معاملته السالّة ، والعدوُّ وجهُ معاملته المداراة <sup>(٢)</sup> والمواربة ، هما ضدّانِ يتنافيان ، يُفسدُ هذا ما أصلح هذا <sup>(٣)</sup> ، وكلّما نقصت من أحدِ البابين زاد في صاحبه ، إنْ قليلٌ فقليلٌ ، وإنْ كثيرٌ فكثيرٌ <sup>(٤)</sup> .

(١) التكلة من د .

(٢) د : « المداراة والسالة » ، وكلة « والسالة » مقحمة .

(٣) د : « فصلاح هذا ما أفدها »

(٤) د : « إن قليلاً فقليل وإن كثيراً فكثير » .

فلا تَسْلَمْ بالمواربة صدَاقَةً ، ولا تَظْفَرْ بالعدوِّ مع الاستسلام إليه . فضع الثَّقة موضعها ، وأقم الحذرَ مقامه<sup>(١)</sup> ، وأسرعْ إلى التفهيمِ بالثَّقة ، ولا تبادرْ إلى التصديق ، ولا سيما بالحالِ من الأمور .

واعلم أنَّ كلَّ عليمٍ بغائبٍ ، كأنَّما ما كان ، إنَّما يُصاب من وجوهٍ ثلاثة لا رابعَ لها ، ولا سبيلَ لك ولا لغيرك إلى غايةِ الإحاطات ؛ لاستئثار الله بها . ولن تهتأ بعيشٍ مع شدَّةِ التحرُّزِ ، ولن يتسَّق لك أمرٌ مع التضييع<sup>(٢)</sup> . فاعرفْ أقدارَ ذلك .

فما غابَ عنك مما قد رآه غيرُك ممَّا يُدرك بالعيان ، فسبيلُ العلم به الأخبار المتواترة ، التي يحملها الوليُّ والعدوُّ ، والصَّالح والطَّالح ، المستفيضة في الناس ، فتلك لا كلفة على سامعها من العلم بتصديقها . فهذا الوجهُ يستوى فيه العالم والجاهل .

وقد يجي ، خبرٌ أخصُّ من هذا<sup>(٣)</sup> إلاَّ أنَّه لا يُعرف إلاَّ بالسُّؤال عنه ، والمفاجأة لأهله ، كقومٍ نقلوا خبراً ، ومثلُك يحيط علمه<sup>(٤)</sup> أنَّ مثلهم في تفاوت أحوالهم ، وتباعدهم من التعارف ، لا يُمكن<sup>(٥)</sup> في مثله التواطؤ وإنَّ جهل ذلك أكثر الناس . وفي مثل هذا الخبر يتمنع الكذب<sup>(٦)</sup> ، ولا يتهياً الاتفاق فيه على الباطل .

(١) د : « مكانه » .

(٢) في الأصل : « ولن يتفق » ، ووجهه من د .

(٣) في الأصل : « أصح من هذا » ، صوابه في د .

(٤) د : « وعلمك محيط » ، فقط .

(٥) د : « لا يكون » .

(٦) د : « يشنع الكذب » .

وقد يحىء خبرٌ أخصُّ من هذا ، يحمله الرجلُ والرجلانِ ممن يجوز أن يصدقَ ويجوز أن يكذب ، فصدقَ هذا الخبرِ في قلبك إنما هو بحسن الظنِّ بالخبر ، والثقة بعدالته . ولن يقومَ هذا [ الخبر<sup>(١)</sup> ] من قلبك ولا قلب غيرك مقامَ الخبرين الأولين [ أبداً<sup>(٢)</sup> ] . ولو كان ذلك كذلك بطل التصنع بالدين<sup>(٣)</sup> واستوى الظاهر والباطن من العالمين .

ولما أن كان موجوداً في العقول أنه قد يفتش بعضُ الأمتاء عن خيانة<sup>(٤)</sup> ، وبعضُ الصادقين عن كذب ، وأن مثل<sup>(٥)</sup> الخبرين الأولين لم يتعمق الناس في مثاهما كذباً قط ، عليم أن الخبر إذا جاء من مثلهما جاء بحىء اليقين ، وأن ما علم من خبر الواحدٍ فإنما هو بحسن الظنِّ والاثمان<sup>(٥)</sup> .  
فهذه<sup>(٦)</sup> الأخبار عن الأمور التي تدركها الأبصار .

فأمَّا العلم بما غابَ مما لا يدركه أحدٌ بعيان ، مثلُ سرائر القلوب

(١) التكملة من د .

(٢) أى والتصنع بالدين كائن لا محالة بين طائفة من الناس ، لا يخلو منه عصر .  
والتصنع : تكاف حسن السموت وإظهاره والتزين به والباطل مدخول . اللسان :  
( صنع ٧٩ ) .

(٣) أى تظهر خيانتهم بعد تفتيشهم .

(٤) فى الأصل : « أو مثل » ، صوابه من د .

(٥) د : « فإذا علم » .

(٦) فى الأصل : « بهذه » ، وفى د : « هذه » . وصواب الأول ووجه الثانى ما أثبت .

وما أشبهها ، فإنما يدرك علمها بآثار أفعالها وبالفأل<sup>(١)</sup> من أمورها ، على غير إحاطة كإحاطة الله بها .

وأول العلم بكل غائب الظنون ، والظنون إنما تقع في القلوب بالدلائل ، فكلما زاد الدليل قوى الظن حتى ينتهي إلى غاية نزول معها الشكوك عن القلوب ؛ وذلك لكثرة الدلائل ، [ ولترادفها .

فهذا غاية علم العباد بالأمور الغائبة<sup>(٢)</sup> ] .

فمن عرف ما طبع عليه الخلق وجرت به عاداتهم ، وعرف أسباب اتصالهم واتصاله بهم ، وتقصى عيال ذلك ، كان خليقاً - إن لم يحط بعلم ما في قلوبهم - أن يقع من الإحاطة قريباً .

واعلم أن المقادير ربما جرت بخلاف ما تقدّر الحكماء ، فقال [ بها<sup>(٣)</sup> ] الجاهل في نفسه ، المختلط في تدبيره ، ما لا ينال الحازم الأريب الحذر . فلا يدعونك ما ترى من ذلك إلى التضييع والاتسكال على مثل تلك الحال ؛ فإن الحكماء قد أجمعت أن من أخذ بالحزم وقدم الحذر ، نجأت المقادير بخلاف ما قدّر ، كان عندهم أحمد رأياً وأوجب عذراً ، ممن عمل بالتفريط وإن اتفقت له الأمور على ما أراد .

(١) في الأصل : « وبالفأل » ، صوابه في د .

(٢) التكملة من د . والكلام بعده إلى « والله يوفقك » في ص ١٢٣ انتقل في الأصل إلى ما يلي « والمواظبة عليه » في ظهر الورقة ٥١ من الأصل . وقد أجريت ترتيب العبارة من د .

(٣) التكملة من د .

ولعمري ما يكاد ذلك نجىء إلا في أقل الأمور ، [ وما كثر مجيء  
السلامات إلا لمن أتى الأمور ]<sup>(١)</sup> من وجوهها وإنما الأشياء بموأمها<sup>(٢)</sup> . فلا تكون  
لشيء مما في يدك أشد ضئنا ، ولا عليه أشد حدباً ، منك بالأخ الذي قد بلوته في  
السراء والضراء ، [ فعرفت مذاهبه ]<sup>(٣)</sup> وخبرت شيمه ، وصح لك غيبه ، وسلمت  
لك ناحيته ؛ فإنما هو شقيق روحك<sup>(٤)</sup> وباب الروح إلى حياتك ، ومستمد  
رأبك وتوأم عقلك<sup>(٥)</sup> . ولست منتفعاً بعيش مع الوحدة . ولا بد من المؤانسة ،  
وكثرة الاستبدال تهجم بصاحبه على المكروه . فإذا صفا لك أخ فكن به  
أشد ضئنا منك بنفائس أموالك ، ثم لا يزهّدنك فيه أن ترى منه خلقاً أو خلقين  
تكرهما ؛ فإن نفسك التي هي أخصّ النفوس بك لا تعطيك المقادة في كل  
ما تريد ، فكيف بنفس غيرك !

وبحسبك أن يكون لك من أخيك أكثره ، وقد قالت الحكماء : « من  
لك بأخيك كله »<sup>(٦)</sup> ، و « أي الرجال المهذب »<sup>(٧)</sup> .

ثم لا يمتنعك ذلك من الاستكثار من الأصدقاء<sup>(٨)</sup> فإنهم جند معدّون

(١) التسكلة من د

(٢) يعني أن العبرة في الأحكام بالأعم الغالب

(٣) التسكلة من د

(٤) د : « شق روحك » . ه : « ويوم غفلتك » ، تحريف .

(٦) لأكرم بن صيفي . العمريين ١٢

(٧) من قول النابغة الذبياني في ديوانه ١٤ :

ولست بمستبق أخا لآله على شعث أي الرجال المهذب

(٨) د : « الصديق » .

[لك<sup>(١)</sup>] ينشرون محاسنك ، ويحاجون عنك . ولا يحملنك استطرافُ  
صديق ثانٍ<sup>(٢)</sup> على ملالةٍ للصديق الأول ؛ فإن ذلك سبيلُ أهل الجهالة ، مع  
ما فيها من الدناءة وسوء التدبير ، وزهد الأصدقاء<sup>(٣)</sup> جميعاً في إخائك .  
والله يوفقك<sup>(٤)</sup> .

وستجد في الناس من قد جرّبتَهُ الرّجالُ قبلك ، ومَحَضَهُ اختبارهم لك .  
فمن كان معروفًا بالوفاء في أوقات الشّدّة وحالات الضرورة ، فنافس فيه  
واسبق<sup>(٥)</sup> إليه ؛ فإنّ اعتقاده أنفُسُ العقْدِ<sup>(٥)</sup> . ومن بلاه غيرك فكشف عن  
كُفر النّعمة ، والغدر عند الشّدّة ، فقد حذرَكَ نفسه وإنْ آنسك<sup>(٦)</sup> وكما غدر  
بغيرك يَغْدِرُ بك ؛ فإنّ مَنْ شيمته الوفاءُ يفي للصديق والعدوّ ، ومَنْ طبيعته  
الغدرُ لا يفي لأحد<sup>(٧)</sup> ، وإنما يميل مع الرّجحان : يذلُّ عند الحاجة<sup>(٨)</sup> ويشمخ  
مع الاستغناء .

فاحذر ذلك أشدَّ الحذر . واعلم أنّ الحكماء لم تدم شيئاً ذمّها  
أربع خلال :

(١) التكلّة من د .

(٢) في الأصل : « الصديق » فقط ، صوابه من د .

(٣) في الأصل : « الصديقين » ، وأثبت ما في د .

(٤) د : « موفقك » .

(٥) أراد أنفُس ما يقتنى . وأصل العقدة الضيعة يقتنيها الرجل .

(٦) في الأصل : « وأنسك » وأثبت ما في د .

(٧) في الأصل : « لا يدوم » ، وأثبت ما في د .

(٨) د : « في وقت الحاجة » مع إسقاط كلمة « يذل » .



الكذب فإنه جماع كل شر . وقد قالوا : لم يكذب أحد قط إلا لصغر قدر نفسه عنده .

والغضب فإنه لؤم وسوء مقدرة ؛ وذلك أن الغضب ثمرة خلاف ما تهوى النفس<sup>(١)</sup> ، فإن جاء الإنسان خلاف ما يهوى ممن فوقه أغضى وسى ذلك حزناً ، وإن جاء ذلك ممن دونه حملة لؤم النفس وسوء الطباع على الاستطالة بالغضب ، والمقدرة والبسطة على البطش<sup>(٢)</sup> .

والجزع عند المصيبة التي لا ارتجاع لها ؛ فإنهم لم يجعلوا لصاحب الجزع في مثل هذا عذراً ، لما يتعجل من غم الجزع مع علمه بفوت الجزوع عليه . وزعموا أن ذلك من إفراط الشره ، وأن أصل الشره والحسد واحد وإن اختلف فرعاهما .

وذموا الحسد كذمهم الجزع ، لما يتعجل صاحبه من ثقل الاغتمام ، وكلفة مقاساة الاهتمام ، من غير أن يجدى عليه شيئاً<sup>(٣)</sup> . فالحسد اغتمام ، والغدر لؤم . وقال بعض الحكماء : « الحسد خلق دنيء ، ومن دناءته أنه يبدأ بالأقرب فالأقرب » . وزعموا أنه لم يقدر غادر قط إلا لصغر همته عن الوفاء ، وخول قدره عن احتمال المكاره في جنب نيل المكارم .

(١) د : « النفوس » .

(٢) في الأصل : « والمقدر والبسطة » . وفي د : « والمقدرة بالبطش » ، وصوبت العبارة وأكملتها بما تتلاءم به مع ما قبلها .

(٣) هذا ما في د . وفي الأصل : « من غير أن يكون عليه في ذلك شيء » ، تحريف .

وبقدر ما دمت الحكماء هذه الأخلاق الأربعة<sup>(١)</sup> ، فكذلك حدث  
أضدادها من الأخلاق ، فأكثر في تفضيلها الأقاليل ، وضربت فيها  
الأمثال ، وزعت أنها أصل لكل كريم ، وجماع لكل خير ، وأن بها تنال  
جسام الأمور في الدنيا والدين<sup>(٢)</sup> .

٥٠ فاجعل هذه الأخلاق إماماً لك ، ومثلاً بين عينيك ، ورُضْ عليها  
نفسك ، وحكمها في أمرك ، تقز بالراحة في العاجل<sup>(٣)</sup> ، والكرامة في الآجل .  
والصبر صبران : فأعلاهما أن تصبر على ما ترجو فيه الغنى في العاقبة .  
والحلم حلمان : فأشرفهما حلمك عن هو دُونك . والصدق صدقان :  
أعظمهما صدقك فيما يضرُّك . والوفاء وفاءان : أسناهما وفاؤك لمن لا ترجوه  
ولا تخافه . فإن من عرف بالصدق صار الناس له أتباعاً ، ومن أسب إلى الحلم  
ألبس ثوب الوقار والهيبة وأبهة الجلالة ، ومن عرف بالوفاء استقامت بالثقة به  
الجماعات<sup>(٤)</sup> ومن استعز بالصبر<sup>(٥)</sup> نال جسيمات الأمور .

ولعمري ما غلظت الحكماء حين سمّتها أركان الدين والدنيا .  
فالصدق والوفاء توأمان ، والصبر والحلم توأمان<sup>(٦)</sup> ، فهن<sup>(٧)</sup> تمام كل

(١) في الأصل : « من هذه الأخلاق الثلاثة » ، والوجه من د .

(٢) د : « في الدين والدنيا » .

(٣) هذا ما في د . وفي الأصل : « في العاجل والآجل » .

(٤) يقال استنام إليه ، إذا أنس به واطمأن إليه وسكن . في الأصل :

« واستقامت بالثقة به الجماعة » ، صوابه في د . وانظر ص ١٢٩ .

(٥) د : « استعان بالصبر » .

(٦) يقال هما توأمان أيضاً . في الأصل : « توأم » في الموضعين ، وأثبت ما في د .

(٧) في الأصل : « فهن » ، وفي د : « هنهن » ، والوجه ما أثبت .

دين ، وصلاخ كل دنيا . وأضدادهن سبب كل فرقة ، وأصل كل فساد .  
واحذر خصلة رأيت الناس قد استهانوا بها ، وضيعوا النظر فيها ، مع  
اشتغالها على الفساد ، وقدحها البغضاء في القلوب ، والعداوة بين الأوداء :  
المفاخرة بالأنساب ؛ فإنه لم يغلط فيها عاقل قط ، مع اجتماع الإنس جميعاً على  
الصورة<sup>(١)</sup> وإقرارهم جميعاً بتفرق الأمور المحمودة والمذمومة من الجمال والدمامة ،  
والأؤم والكرم ، والجن والشجاعة ، في كل حين ، وانتقالها من أمة إلى أمة ،  
ووجود كل محمود ومذموم في أهل كل جنس من آدميين . وهذا غير مدفوع  
عند الجميع .

فلا تجعلن له من عقلك نصيباً ، ولا من لسانك حظاً ، تسلم بذلك على  
الناس أجمعين ، مع السلامة في الدين .

واعلم أنك موسومٌ بسياً من قارنت ، ومنسوبٌ إليك أفاعيلٌ من  
صاحبت . فتحرّز من دُخلاء السوء ، ومجالسة أهل الرّيب<sup>(٢)</sup> ، وقد جرت  
لك في ذلك الأمثال ، وسطّرت لك فيه الأقاويل ، فقالوا : « المرء حيث يجعل  
نفسه<sup>(٣)</sup> » ، وقالوا : « يُظنُّ بالمرء ما ظنَّ بقرينه » ، وقالوا : « المرء بشكله ،  
والمرء باليفه » .

٥٠ ظ

ولن تقدر على التحرّز من جماعة الناس<sup>(٤)</sup> ، ولكن أقلّ الموانسة

(١) أي اتفاهم جميعاً في الصورة الإنسانية .

(٢) د : « وأظهر مجانبه أهل الريب » .

(٣) ومنه قول منقر بن فروة ، أنشده الجاحظ في البيان ١٠٣ : ٢ و ٢٢٨ :

وما المرء إلا حيث يجعل نفسه ففي صالح الأخلاق نفسك فاجعل

(٤) د : « جماعات الناس » .

إِلَّا بِأَهْلِ الْبِرَاءَةِ مِنْ كُلِّ دَنَسٍ . وَاعْلَمْ أَنَّ الْمَرْءَ بِقَدْرِ مَا يَسْبِقُ إِلَيْهِ يُعْرِفُ ،  
وَبِالْمُسْتَفِيزِ مِنْ أَعْمَالِهِ يُوصَفُ ، وَإِنْ كَانَ بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرٌ مِنْ أَعْمَالِهِ <sup>(١)</sup> الْفَاءُ  
النَّاسِ وَحَكَمُوا عَلَيْهِ بِالْغَالِبِ مِنْ أَمْرِهِ .

فَاجْهَدُ أَنْ يَكُونَ أَغَابَ الْأَشْيَاءِ عَلَى أَفَاعِيلِكَ كُلِّ مَا تَحْمَدُهُ الْعَوَامُّ <sup>(٢)</sup>  
وَلَا تَذُمَّ الْجَمَاعَاتِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَعْنِي عَلَى كُلِّ خَلٍّ إِنْ كَانَ .  
فَبَادِرْ أَلْسِنَةَ النَّاسِ فَاشْفَعْ لَهَا بِمَحَاسِنِكَ ، فَإِنَّهُمْ إِلَى كُلِّ سَيِّئٍ سِرَاعٌ <sup>(٣)</sup> ،  
وَاسْتَظْهِرْ عَلَى مَنْ دُونَكَ بِالتَّفَضُّلِ ، [ وَعَلَى نَظَائِكَ <sup>(٤)</sup> ] بِالْإِنْصَافِ ، وَعَلَى مَنْ  
فَوْقَكَ بِالْإِجْلَالِ . تَأْخُذْ بِوَثَائِقِ الْأُمُورِ ، وَأَزِمَّةِ التَّدْبِيرِ .

وَاعْلَمْ أَنَّ كَثْرَةَ الْعِتَابِ سَبَبٌ لِلْقَطِيعَةِ ، وَاطْرَاحَهُ كُلُّهُ دَلِيلٌ عَلَى قَلَّةِ  
الْاِكْتِرَافِ لِأَمْرِ الصَّدِيقِ <sup>(٥)</sup> . فَكُنْ فِيهِ بَيْنَ أَمْرَيْنِ : عَاتِبُهُ فِيمَا تَشْتَرِكُانِ فِي  
نَفْعِهِ وَضَرَرِهِ وَذَلِكَ فِي الْهَيِّنَاتِ <sup>(٦)</sup> ، وَتَحَافَ لَهُ عَنْ بَعْضِ غَفَلَاتِهِ تَسْلُمُ لَكَ  
نَاحِيَتُهُ . وَبِحَسَبِ ذَلِكَ فَكُنْ فِي زِيَارَتِهِ ، فَإِنَّ الْإِلْحَاحَ فِي الزِّيَارَةِ يَذْهَبُ  
بِالْبُهَاءِ ، وَرَبَّمَا أَوْرَثَ الْمَلَالَةَ ؛ وَطَوَّلَ الْهِجْرَانَ يُعْقِبُ الْجَفْوَةَ ، وَيَحُلُّ عَقْدَةَ

(١) فِي الْأَصْلِ : « خَلَّافُهُ » . وَوَجْهُهُ مِنْ د .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « عَلَيْكَ أَفَاعِيلُكَ » صَوَابُهُ فِي د . وَفِي دَإْيَضًا : « مَا تَحْمَدُهُ  
الْعَوَامُّ » .

(٣) فِي النُّسخَتَيْنِ : « إِلَى كُلِّ شَيْءٍ » وَالْوَجْهُ مَا أَثْبَت . وَفِي م : « إِلَى كُلِّ شَرٍّ » .

(٤) التَّكْمِلَةُ مِنْ د ، م .

(٥) فِي الْأَصْلِ : « الْأَمْنُ » وَفِي د : « بِأَمْرٍ » وَهَذِهِ الْأَخِيرَةُ صَحِيحَةٌ ، يَقَالُ  
مَا أَكْثَرَتْ بِهِ وَمَا أَكْثَرَتْ لَهُ ، أَيْ مَا بَالِي بِهِ . وَأَثْبَتَ الْوَجْهَ الَّذِي يَقْتَضِيهِ الْجَمْعُ  
بَيْنَهُمَا .

(٦) د : « الْهِنَاتِ » ، وَكِلَاهُمَا مُتَجَه .

الإخاء ، ويجعل صاحبه مدرجة للقطيعة<sup>(١)</sup> وقد قال الشاعر<sup>(٢)</sup> :

إذا ما شئت أن تسلي حبيباً فأكثر دونه عدد الأيسالي  
فما يسلي حبيبك مثل ناي ولا يسلي جديداً كابتدال<sup>(٣)</sup>  
[ وزر غيباً إذا أحببت خيلاً فتعظى بالوداد مع اتصال<sup>(٤)</sup> ]

واقصد في مزاحك ؛ فإن الإفراط فيه يذهب بالبهاء ، ويجرئ عليك  
أهل الدناءة . وإن التقصير فيه يقبض عنك المؤانسين . فإن مزحت فلا تمزح  
بالذي يسوء معاشرتك .

وأنا أوصيك بخلق قل من رأيت يتخلق به ، وذلك أن تحمله شديد ،  
ومرتقاه صعب ، وبسبب ذلك يورث الشرف وحيد الذكر : ألا يحدث لك  
انحطاط من حط الدنيا من إخوانك استهانة به ، ولا لحقه إضاعة ، ولما  
كنت تعلم من قدره استصغاراً ؛ بل إن زرتة قليلاً كان أشرف لك ،  
وأعطف للقلوب عليك . ولا يحدث لك ارتفاع من رفعت الدنيا منهم تذلاً  
وإثارة له على نظرائه في الحفظ والإكرام ؛ بل لو انقبضت عنه كان مادحك  
أكثر من دامت لك ، وكان هو أولى بالتعطف عليك ، إلا أن يكون مستطافاً  
تخاف شذاه ومعرته<sup>(٥)</sup> ، وترجو عنده جر منفعة لصديق ، أو دفع مضرته

(١) هذا مافى د . وفي الأصل : « درجة للقطيعة » .

(٢) البيتان التاليان من أبيات الحماسة . انظر شرح الرزوقي ١٣٠٠ وشروح

سقط الزند ١٢٢ ، ٦٥٣ ، ٦٩٠ .

(٣) هذا البيت ساقط من د .

(٤) التكملة من د .

(٥) الشذا : الأذى والشر . د : « شذاته » ؛ والشذاة : الحدة . والعرة :

الأذى .

عنه ، أو كبتاً لعدوّ وإنزال هوانٍ به ؛ فإنَّ السُّلطان وخِلاءه وزهوه يُحتمل فيه ما لا يجوز في غيره ، ويُعذر فيه ما لا يُعذر في سواه<sup>(١)</sup> .

واعلم أنَّ نشرَ محاسنك لا يليق بك ، ولا يُقبل منك<sup>(٢)</sup> ، إلا إذا كان القول لها على ألسن أهل المروءات ، وذوى الصّدق والوفاء ، ومن ينجع قوله في القلوب ممَّن يُستنم إلى قوله ، ويصدّق خبره ، ومن إن قال صدق ، أو مدح اقتصد ، يُدني بقدر البلاء ، فإنَّ إشراف<sup>(٣)</sup> الثناء على قدر النعمة يولّد في القلوب التكذيب ، ويدلّ على طلب المزايد .

فإنَّ ثناء المادحين لك في وجهك ، فإنَّما تلك أسواق أقاموها للأرباح ، وساهلوك في المباينة ، ولم يكن في الثناء عليهم شُكفة ، لكساد أقاويلهم عند الناس . أولئك الصادّون عن طرق المكارم ، والمثبّطون عن ابتناء المعالي .

فارتدّ لِنِعَمِكَ مَغْرِبًا تنمو فيه فروعها ، وتزكو ثمرتها ، لا تذهب نفقتك ضياعا ، إمَّا لمَاجِلٍ تقدّمه ، أو لآجِلٍ ثناء تنفع به<sup>(٤)</sup> .

ولن تَعْدَمَ أَنْ يَفْجَأَكَ فِي بَعْضِ أَحْوَالِكَ حَقُوقٌ تَبْهُطُكَ ، وَأَحْوَالٌ تَفْدَحُكَ ، وَأُمُورٌ كُلُّهَا تَتَقَسَّمُ عَنَابَتَكَ ، وَفِي التَّثَبُّتِ فِي مِثْلِهَا تُعْرِفُ فَضِيلَتَكَ ،

(١) الكلام بعده إلى كلمة « تنفع به » في س ١٢ ساقط من د .

(٢) في الأصل : « فيك » .

(٣) الإشراف : العلو ، يقال أشرف عليه ، أى علا . والمراد الزيادة . وفي الأصل : « إشراف » .

(٤) انظر ماسبق في التنبيه الأول .

فلا تستقبلها بالتضجّع وتفتير الرأي<sup>(١)</sup> ، وابدأ منها بأعظمها منفعة ، وأشدّها خوف ضرر . وكل ما أعجزك إلى الكفاة ، واعتذر من تقصير إن كان ؛ فإن الاعتذار يكسر حياء اللائمة<sup>(٢)</sup> ، ويردع شدة الشرّة .

ثمّ تلاف بعد انكشاف ذلك عنك ما فاتك<sup>(٣)</sup> ، واجهد الجهد كله أن تكون مخارج الحقوق اللازمة لك من عندك سهلة ، موصولة لأصحابها<sup>(٤)</sup> بيشرك وطلاقة وجهك ؛ فقد زعمت الحكماء أن القليل مع طلاقة الوجه أوقع بقلوب ذوي المروءات من الكثير مع الثبوس والانقباض<sup>(٥)</sup> .

٥١ ظ

وقد قال بعض الحكماء : « غاية الأحرار أن يلقوا ما يحبون ويحرموا ، أحب إليهم من أن يلقوا ما يكرهون ويعطوا » .  
[ وما أبعدوا عن الحق<sup>(٦)</sup> ] .

ولا يدعونك كفر كافر لبعض نعمك<sup>(٧)</sup> ممن آثر هواه على دينه

(١) التضجّع ، يقال تضجّع في الأمر ، إذا تفعد ولم يقم به . وفي د : « وتفتير الرأي » .

(٢) الحيا : السورة والتدة والحدة ، وأصله من كسر حيا الشراب بمزجه بالماء . في الأصل : « حيا اللائمة » ، ووجهه في د .

(٣) في الأصل « الانكشاف » وفي د : « انكسار » ، والوجه ما أثبت .  
وكلمة « ما فاتك » ساقطة من د .

(٤) د : « لأصحابك » .

(٥) الكلام بعده إلى كلمة « ويعطوا » في س ٩ ساقطة من د .

(٦) التكملة من د .

(٧) د : « نعمتك » .

ومروءته ، أو غَدْرُهُ غادرٍ تصَنَعَ لك وخَتَلَك عن مَالِكَ ، أن تَزْهَدَ في الإِنْعَام<sup>(١)</sup> ، وتَسِيءَ بثِقَاتِكَ الظُّنُون ؛ فإن هذا موضع يجد الشيطان في مثله الذَّرِيعَةَ إلى استفساد الصَّنَائِع<sup>(٢)</sup> ، وتعطيل المكارم .

واعلم أن استصْفَارَكَ نِعَمَكَ يكْبُرُهَا عند ذوى العقول ، وسترك لها نَشْرُهَا عندهم ؛ فانْشَرُّهَا بَسْتَرُهَا ، وكَبُرُهَا باستصْفَارِهَا .

واعلم أن من الفِعْلِ<sup>(٣)</sup> أفاعيل وإن عظمت منافعها ، ومنافع أضدادها فلا يثارها فضيلة على كلِّ حال . فاجْعَلْ صِمَّتَكَ أَكْثَرَ من كلامِكَ ؛ فإنه أدلُّ على حكمتِكَ . واجْعَلْ عَفْوَكَ أَكْثَرَ من عقوبتِكَ ؛ فإن ذلك أدلُّ على كريمِكَ . ولا تُفَرِّطَنَّ فيه كل الإفراط حتَّى تَطْرِحَ الكلامَ في موضعه ، والتأديبَ في أوانه .

واعلم أن لكلِّ امرئٍ سَيِّدًا من عمله ، قد ساهلته فيه نَفْسُهُ وسَلِسَ له فيه هواه ، فتحفَظْ ذلك من نفسك ، وتقاضِها الزيادةَ فيه ، ورُضْها على تشميره والمواظبةِ عليه<sup>(٤)</sup> .

واحذر الحذرَ كُلَّهُ الاغترار بأمور ثلاثة ؛ فإنَّ من عَطِبَ بها كثير ، وتلافيتها صعبٌ شديد :

(١) في الأصل : « الاعاض » ، وأثبت ما في د .

(٢) الصنائع : جمع صنعة ، وهو ما أعطيته وأسدبته من معروف أويد إلى إنسان تصطنعه بها . وفي الأصل : « الطبايع » ، صوابه في د .

(٣) د : « الأفاعيل » .

(٤) انظر ما سبق من التنبيه في ص ١٢١ .



أخذها : أَلَّا تَوَلَّى جَسَائِمَ تَصَرُّفِكَ وَتَقْلَدَ مُهِمَّ أُمُورِكَ<sup>(١)</sup> وَوَنَائِقَ تَدْبِيرِكَ  
إِلَّا اسْرَأْ صِلَاحُهُ مَوْصُولٌ بِصِلَاحِكَ ، وَبِقَاءِ النِّعْمَةِ عَلَيْكَ هُوَ بَقَاءُ  
النِّعْمَةِ عَلَيْهِ .

أو أن تأنس أو تغتر<sup>(٢)</sup> بمن تعلم أن بصلاحك فسادَه ، وبارتفاعك  
انحطاطَه ، وبسلامتك عطبه ؛ فإن من كان هكذا فأنت مَلَكُ مَوْتِهِ<sup>(٣)</sup> .  
فِيَحْسَبُ ذَلِكَ فليكن عندك .

أو أن تجعل مالك كله في عُقْدَةٍ وَاحِدَةٍ ، أو حِيزٍ وَاحِدٍ ، [أو وجهٍ  
مفرد<sup>(٤)</sup>] ، إن اجتاحتَه جَائِحَةٌ أو نَابَتْهُ نَائِبَةٌ بَقِيَتْ حَسِيرًا . وقد قال بعض  
الحُكَمَاءِ : « فَرِّقُوا النِّتَةَ » ، و « اطلبوا الأربَاحَ بكلِّ شَيْءٍ » .

واعلم أنه ليس من الأخلاق التي ذمَّها الحكماء خُلُقٌ إِلَّا وَقَدْ يَنْفَعُ  
فِي بَعْضِ الْحَالَاتِ ، وَيُرَدُّ بِهِ شَكْلُهُ ، وَيَقَامُ بِإِزَاءِ مِثْلِهِ ، وَيُدَافَعُ بِهِ نَظِيرُهُ<sup>(٥)</sup> .  
إِنَّكَ سَتَمَنَى بِصُحْبَةِ السُّلْطَانِ الْحَازِمِ الْعَادِلِ ، وَبِصُحْبَةِ السُّلْطَانِ الْأَخْرَقِ  
الْجَهُولِ الْغَشُومِ . فَالْحَازِمُ الْعَادِلُ يَسُوسُهُ لَكَ الْأَدَبُ وَالنُّصْحُ ، وَالْأَخْرَقُ  
تَسُوسُهُ لَكَ الْحِيلَةُ وَالرُّفْقُ . الْعَادِلُ يَعْضُدُّكَ مِنْهُ ثَلَاثٌ ، وَتَصْبِرُ نَفْسُهُ لَكَ  
عَلَى ثَلَاثٍ :

(١) في الأصل : « وتقليد هم أمورك » ، صوابه في د .

(٢) في الأصل : « وأن لا تأنس وتغتر » ، صوابه في د .

(٣) د : « مالك . موته » ، والوجه ما أثبت من الأصل .

(٤) التكملة من د .

(٥) الكلام بعده إلى كلمة « النصحاء » في ص ١٣٣ ساقط من د .

فاللواتى بعضدتك : تسليط العدل وإنفاذ الحكومة - وفي ذلك صلاح  
الرعيّة - وإثابة الحسنيين الذين إثابتهم تحصين البيضة والسبل ، والعفو ما بلغ به  
الاستصلاح ، واكتفى به من البسط . واللواتى تصبر نفسه لك عليهن : الهوى  
إلى ما وافق الرأى ، وأمضى الرأى الآ بعد التثبت حتى تعاونه عليه  
النصحاء. <sup>(١)</sup> .

ولكنى أوصيك برياضة نفسك حتى تذللها على الأمور المحمودة ؛ فإن  
كل <sup>(٢)</sup> أمر ممدوح هو ممّا تستنقل النفوس . [ ومما تسرّ به وتنقلب إليه  
الأخلاق المذمومة <sup>(٣)</sup> ] . فإن أهملتها وإثابها غلبت عليك ، لأنها فيها طبيعة  
[ مركبة <sup>(٤)</sup> ] ، وجبلة مفطورة .

فلتكن المساهلة فى أخلاقك أغلب عليك من المعاصرة ، والحلم أولى بك  
من العجلة ، والصبر الحاكم عليك دون الجزع ، والعفو أسبق إليك من  
المجازاة بالذنوب ، والمكافاة بالسوء .

[ وكذلك سائر الأخلاق المحمودة والمذمومة ، فلتكن محموداتها غالبية  
على أفعالك ، محكّمة فى أمورك <sup>(٥)</sup> ] . فإنك إن ضبطت [ ذلك ، وقومت  
عليه <sup>(٦)</sup> ] نفسك ، عشت رخيّ البال ، قليل الهموم ، كثير الصديق قليل

(١) كذا . ولعله : « وإمضاء الرأى بعد التثبت حتى تعاونه عليه معاونة

النصحاء » . وهذا نهاية مقطع د الذى نهت عليه فى ص ١٣٢ .

(٢) فى الأصل : « وإن كان » صوابه فى د .

(٣) التكملة من د .

العدو ، [ سليم الدين ، نقيّ العرض ، محمود الفِعال <sup>(١)</sup> ] ، جميل الأحداث  
في حياتك وبعد وفاتك ، وكنت بموضع الرجاء أن يصل الله لك السلامة  
الآجلة بالنعمة العاجلة ، [ إن شاء الله عز وجل <sup>(٢)</sup> ] .

و ٥٣ أسأل الله المبتدئ بكلِّ نعمة ، والمتولّي لكلِّ إحسان ، أن يصلّي على محمد  
خيرته من خلقه ، وصفوته من بريته ، وأن يتم <sup>(٣)</sup> عليك نعمته ، ويشفع  
لك ماخولك من نعمته بالنعمة التي يؤمن معها الزوال ، في جواره ومرافقة  
أنبيائه . والسلام عليك ورحمة الله .

\* \* \*

تمت الرسالة في الأخلاق الحمودة والمذمومة بعون الله ومَنه . والله الموفق  
للصواب ، والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه وسلامه .  
يتلو هذه الرسالة :

كتاب كتمان السر وحفظ اللسان من كلام أبي عثمان عمرو بن بحر  
الجاحظ أيضاً . والله سبحانه المستعان على ذلك برحمته <sup>(٤)</sup> .

(١) التكملة من د .

(٢) التكملة من د .

(٣) في الأصل : « يتم » ، وأثبت ما في د .

(٤) وفي د : « تمت الرسالة في كتمان السر وحفظ اللسان من كلام أبي عثمان

عمرو بن بحر الجاحظ رحمه الله ، والله الحمود على ذلك كثيراً برحمته . يتلو  
هذه الرسالة إن شاء الله تعالى كتاب نحر السودان على البيضان من تأليفه أيضاً .  
والله الموفق للصواب ، والحمد لله أولاً وآخراً . وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه  
الطيبين الطاهرين وسلامه » .

٣

كِتَابُ

كَيْفَ تَحْفَظُ اللِّسَانَ

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وهذه هي الرسالة الثالثة من رسائل الجاحظ ، وعنوانها :

« كتمان السرّ وحفظ اللسان »

ومن هذه الرسالة نسختان :

١ — نسخة الأصل ، وهي نسخة مكتبة داماد ، في ضمن مجموع رسائل الجاحظ .

٢ — نسخة بول كراوس وطمه الحاجري ، وهي مقابلة على نسخة داماد وعلى كتاب المختار من كلام الجاحظ ، لمجهول . ورمزها « ط » . وقد وقع في هذه الأخيرة بعض السهو في إيراد النص على وجهه ؛ فنهت على ذلك في الحواشي ، والعصمة لله وحده .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أما بعد فإني قد تصفحت أخلاقك ، وتدبرت أعراقك ، وتأملت شيمك ، ووزنتك فعرفت مقدارك ، وقومتك فعلت قيمتك ، فوجدتك قد ناهزت السكال ، وأوفيت على التمام ، وتوقلت في درج الفضائل<sup>(١)</sup> ، وكدت تكون منقطع القرين ، وقاربت أن تثنى عديم النظير ، لا يطعم فاضل أن يفوتك ، ولا يأنف شريف أن يقصر دونك ، ولا يخشع عالم أن يأخذ عنك .

ووجدتك في خلال ذلك على سبيل تضييع وإهمال لأمرين هما القطب الذي عليه مدار الفضائل ، فكنت أحق بالمذل ، وأقن بالتأنيب ممن لم يسبق شأوك ، ولم ينسّم ربتك ؛ لأنه ليس ملوماً على تضييع القليل من قد أضاع الكثير ، ولا يُسام<sup>(٢)</sup> إصلاح يومه وتقويم ساعته من قد استحوذ الفساد على دهره ، ولا يُحاسب على الزلة الواحدة من لا يعدم منه الزلل والعثار ، ولا يُنكر المنكر على من ليس من أهل المعروف ؛ لأن المنكر إذا كثر صار معروفاً ، وإذا صار المنكر معروفاً صار المعروف منكراً .

وكيف يُعجب ممن أمره كله عجب ، وإنما الإنكار والتعجب ممن خرج عن مجرى العادة ، وفارق السنة والسجية ، كما قال الأول : « خالف تذكر » .

(١) التوقل : الصعود ، والإسراع فيه .

(٢) سامه التوى : كلفه إياه وجشمه . وفي الأصل : « ولا يسم » . وفي ط :

« لا يهتم بإصلاح يومه » . وما أثبت أوفق بسياق النص .

وقيل : « الكامل من عُدَّت سَقَطَاتِه » ، وقيل : « من استوى يومه فهو مغبون ، ومن كان يومه خيراً من غده فهو مفتون ، ومن كان غده خيراً من يومه فذلك السعيدُ المغبوط » . وفي هذا المعنى قال الشاعر :

رَأَيْتَكَ أَمْسٍ خَيْرَ بَنِي مَعَدٍّ وَأَنْتَ الْيَوْمَ خَيْرٌ مِنْكَ أَمْسٍ  
وَأَنْتَ غَدًا تَزِيدُ الضَّعْفَ خَيْرًا كَذَاكَ تَزِيدُ سَادَةَ عَبْدِ شَمْسٍ  
وقال آخر في معنى (١) :

أَنْتَ امْرُؤٌ هُمَّكَ الْمَعَالِي وَدَلَّوْا مَعْرُوفَكَ الرِّبَيعُ  
وَأَنْتَ مِنْ وَائِلٍ صَمِيمٍ كَالْقَلْبِ تُحْنِي لَهُ الضُّلُوعُ (٢)  
فِي كُلِّ عَامٍ تَزِيدُ خَيْرًا يُشِيعُهُ عَنْكَ مِنْ يُشِيعُ  
وَالْأَمْرَانِ اللَّذَانِ نَقَمْتُهُمَا عَلَيْكَ (٣) : وَضَعُ الْقَوْلِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ ،  
وَإِضَاعَةُ السَّرِّ بِإِذَاعَتِهِ .

وليس الخطرُ فيما أسومك وأحاولُ حملك عليه بسهلٍ ولا يسير . وكيف  
وأنا لا أعرف في دهرى - على كثيرٍ عددٍ أهله - رجلاً واحداً ممن ينتحل  
الخاصة ، ويُنسب إلى العلية ، ويطلبُ الرياسة ويخطبُ السيادة ، ويتحلى

(١) معن بن زائدة الشيباني ، كان مضرب اللث في الجود والشجاعة ،  
وكان محدحاً مقصوداً . وكان من ولادة بني أمية ، وغضب عليه بنو العباس في أوائل  
دولتهم ، ثم أبلى بلاءً حسناً مع المنصور ، فأكرمه وقدمه وصار من خواصه .  
وقتل سنة ١٥١ ، أو ١٥٢ وقيل سنة ١٥٨ . وفيات الأعيان وتاريخ بغداد ١٣ :  
٢٣٥ - ٢٤٤ .

(٢) في الأصل : « تحي به » ، والوجه ما أثبت .

(٣) يقال نغم ينغم كضرب يضرب ، ونغم ينغم كفرح يفرح .

بالأدب ويديم الثَّخانة والزَّمانة<sup>(١)</sup> ، والحلمَ والفَخامة ، أَرْضَى ضَبْطَهُ لِسَانَهُ ،  
وَأَحَدُ حَيَاطَتِهِ لِسَرِّهِ . وذلك أَنَّهُ لَا شَيْءَ أَصْعَبُ مِنْ مَكَايِدَةِ الطَّبَائِعِ<sup>(٢)</sup> ،  
ومُغَالِبَةِ الْأَهْوَاءِ ؛ فَإِنَّ الدَّوْلَةَ لَمْ تَزَلْ لِلْهَوَى عَلَى الرَّأْيِ طُولَ الدَّهْرِ . وَالْهَوَى  
هُوَ الدَّاعِيَةُ إِلَى إِذَاعَةِ السَّرِّ ، وَإِطْلَاقِ اللِّسَانِ بِفَضْلِ الْقَوْلِ .

وإِنَّمَا سَمَّى الْعَقْلَ عَقْلاً وَحِجْرًا ، قَالَ تَعَالَى - ﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي  
حِجْرٍ<sup>(٣)</sup> ﴾ - لِأَنَّهُ يَزِمُّ اللِّسَانَ وَيَخْطِمُهُ ، وَيَشْكُلُهُ وَيَرْبُثُهُ<sup>(٤)</sup> ، وَيَقَيِّدُ الْفَضْلَ وَيَعْقِلُهُ  
عَنْ أَنْ يَمْغِيَ فُرْطًا فِي سَبِيلِ الْجَهْلِ وَالْخَطَا وَالْمُضَرَّةِ ، كَمَا يُعْقِلُ الْبَعِيرَ ، وَيُحْجِرُ  
عَلَى الْيَتِيمِ .

وإِنَّمَا اللِّسَانُ تَرْجُمَانُ الْقَلْبِ ، وَالْقَلْبُ خَزَانَةُ مُسْتَحْفَظَةِ الْخَوَاطِرِ  
وَالْأَسْرَارِ ، وَكُلٌّ مَا بَعِيهِ [ مِنْ<sup>(٥)</sup> ] ذَلِكَ عَنِ الْخَوَاسِّ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ،  
وَمَا تَوْلَدُهُ الشَّهَوَاتُ وَالْأَهْوَاءُ ، وَتَنْتَجِعُ الْحِكْمَةُ وَالْعِلْمُ .

وَمِنْ شَأْنِ الصِّدْرِ - عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ وَعَاءٌ لِلْأَجْرَامِ ، وَإِنَّمَا بَعِي بِقُدْرَةِ  
[ مِنْ<sup>(٥)</sup> ] اللَّهِ لَا يَعْرِفُ الْعِبَادُ كَيْفَ هِيَ - أَنْ يَضِيقَ بِمَا فِيهِ ، وَيَسْتَثْقِلَ مَا حَمَلَ

(١) الثَّخَانَةُ ، مِنْ قَوْلِهِمْ رَجُلٌ ثَخِينٌ ، أَيْ رَزِينٌ ثَقِيلٌ فِي مَجْلِسِهِ .

(٢) مَكَايِدَةُ الْأُمُورِ : مُعَانَاةُ مُشَقَّتِهِ ، وَمُقَاسَاةُ شِدَّتِهِ . وَوَقَعَ فِي ط : « مَكَايِدَةُ »  
خِلَافًا لِمَا فِي الْأَصْلِ .

(٣) الْآيَةُ ٥ سُورَةِ الْفَجْرِ .

(٤) يَشْكُلُهُ ، مِنْ شَكْلِ الدَّابَّةِ : شَدَّ قَوَائِمَهَا بِحَبْلِ ، وَاسْمُ ذَلِكَ الْحَبْلِ الشَّكَالُ  
كَكِتَابِ . الرِّبْثُ : الْحَبْسُ . وَفِي الْأَصْلِ : « وَيَرْبِثُهُ » ، وَالْوَجْهَ مَا أَثْبَتَ . وَانْظُرْ  
الْحَيَوَانَ ٥ : ٢٦٣ .

(٥) تَسْكُلُهُ ضَرْوَرِيَّةٌ .



منه ، فيستريح إلى نبيه ، ويلتذّ بالقائه على اللسان . ثم لا يكاد أن يشفيه أن يخاطب به نفسه في خلواته حتى يفضى به إلى غيره ممن لا يرعاه ولا يحوطه . كل ذلك ما دام الهوى مستولياً على اللسان ، واستعمل فضول النظر فدعت إلى فضول القول .

فإذا قهر رأى الهوى فاستولى على اللسان ، منعه من تلك العادة ، وردّه عن تلك الدّربة ، وجشّمه مؤونة الصّبر على ستر الحلم والحكمة .

ولا شيء أعجب من أن المنطق أحد مواهب الله العظام ، ونعيمه الجسام ، وأن صاحبها مسؤول عنها ، ومحاسب على ماخول منها ، أوجب الله عليه استعمالها في ذكره وطاعته ، والقيام بقسطه وحجته ، ووضعها مواضع النّفع في الدين والدنيا ، والإنفاق منها بالمعروف لفظة لفظة ، وصرّفها عن أضدادها . فلم يرض الإنسان أن عطّلها عما خلقت له مما ينفعه حتى استعملها في ضدّ ذلك مما يضرّه ، فاجتمع عليه الإيمان اللذان اجتماعاً على صاحب المال الذي كنزّه ومنعه من حقّه ، فوجب عليه إثم المنع وإن كان لم يصرفه في معصية ، ثم صرفه في أبواب الباطل والفسق فوجب عليه إثم الإنفاق فيها<sup>(١)</sup> . وهذه غاية القبن والخسران . نعوذ بالله منها .

فاللسان أداة مستعملة ، لا حمد له ولا ذمّ عليه ، وإنما الحمد للحلم واللوم على الجهل . فالعلم هو الاسم الجامع لكلّ فضل ، وهو سلطان العقل القامع للهوى . فليس قمع الغضب وتسكين قوة الشرّة ، وإسقاط طائر الخرق بأحقّ بهذا الاسم ، ولا أولى بهذا الرسم ، من<sup>(٢)</sup> قمع فرط الرضا وغلبة الشهوات ،

(١) في الأصل : « منها » . والمراد به في أبواب الباطل .

(٢) في الأصل : « مع » ، صوابه من ط .

والمنع من سوء الفرح والبطر ، ومن سوء الجزع والهلع ، وسرعة الحمد والذم ، وسوء الطبع والجشع ، وسوء مناهزة الفرصة ، وفرط الحرص على الطلبة ، وشدة الحنين والرقّة ، وكثرة الشكوى والأسف ، وقرب وقت الرضا من وقت الشخط ، ووقت الشخط من وقت الرضا ؛ ومن اتفاق حركات اللسان والبدن على غير وزن معلوم ولا تقدير موصوف ، وفي غير نفع ولا جدوى<sup>(١)</sup> .

واعلم يقيناً أن الصمت سَرْمداً أبداً ، أسهل مَرَاماً - على مافيه من المشقة - من إطلاق اللسان بالقول على جهة التحصيل والتمييز ، والقصد للصواب ، لما قد مازكره من علة مجاذبة الطباع ؛ ولأن من طبع الإنسان محبة الإخبار والاستخبار . وبهذه الجبلة التي جبل عليها الناس نقلت الأخبار عن الماضين إلى الباقين ، عن الغائب إلى الشاهد<sup>(٢)</sup> ، وأحب الناس أن ينقل عنهم<sup>(٣)</sup> ، ونقشوا خواطرهم في الصُخور ، واحتالوا لنشر كلامهم بصنوف الحيل . وبذلك ثبتت حجة الله على من لم يشاهد مخارج الأنبياء ، ولم يحضر آيات الرُّسل ، وقام بحجى الأخبار عن غير تشاعر<sup>(٤)</sup> ولا تواطؤ مقام العيان ؛ وعرفت البلدان والأقطار والأمم والتجارات والتديرات والعلامات ؛

(١) الجدوى : الجدوى والغناء والنفع . يكتب بالآلف والياء ، ويقال بالمد أيضاً

« الجداء » ، ومنه قوله :

لقلّ جداءً على مالك إذا الحرب شبت بأجذالها

(٢) الشاهد : الحاضر ، والمراد به الباقي المعاصر .

(٣) في الأصل : « أن يعقل عنهم » ، صوابه من ط .

(٤) المراد بالتشاعر المخالطة والملابسة والمعاشرة . انظر العثمانية ص ٣ س ١٥

و ٢٦٣ س ٢ . وأساس البلاغة ( شعر ) ولسان العرب ( شعر ٨١ ) .

وصار ما ينقله الناس بعضهم عن بعض ذريعة إلى قبول الإخبار عن الرسل ،  
وسلماً إلى التصديق ، وعوناً على الرضا بالتقليد .

ولولا حلاوة الإخبار والاستخبار عند الناس لما انتقلت الأخبار وحلت  
هذا المحل . ولكن الله عز وجل حبَّبها إليهم لهذا السبب ، كما جعل عشق النساء  
داعية للجماع ، ولذة الجماع سبيلاً للنسل ، والرقعة على الولد عوناً على التربية  
والحضانة - وبهما كان النشوء والنماء - وحُبَّ الطعام والشراب سبباً للغذاء ،  
والغذاء سبباً للبقاء وعمارة الدنيا .

ففسر على الإنسان الكتمان لإيثار هذه الشهوة ، والالتقياد لهذه الطبيعة ؛  
وكانت مزاولة الجبال الراسيات عن قواعدها أسهل من مجاذبة الطباع .  
فاعترأه الكرب لكتمان السر ، وغشيته لذلك سقم وكمد يحسُّ به في سُويداء  
قلبه بمثل ديب النمل ، وحِكَّة الجرب ، ومثل لسع الدَّبَر ووخز الأَشَافِي<sup>(١)</sup> ،  
على قدر اختلاف مقادير الخلوم والرَّزَانة والخفَّة . فإذا باح بسرّه فكأنه  
أُنْشِطَ من عِقَال<sup>(٢)</sup> . ولذلك قيل : « الصَّدْر إذا نفث برأ » مثلاً مضروباً  
لهذه الحال . وقيل :

\* ولا بدَّ من من شكوى إذا لم يكن صبر<sup>(٣)</sup> \*

(١) الدَّبَر جماعة النحل . والأَشَافِي : جمع الإشفي ، وهو المثقب يخرز به .

(٢) أى حل من عقال ، والعقال : الرباط الذى يعقل به .

(٣) لالك بن حذيفة كما فى حماسة البهترى ١٩٧ . وأنشد هذا العجز فى الحيوان

١ : ٣٠٢ . وصدره كما فى البيان ٣ : ٢٢٠ و ٤ : ٦٣ :

\* وما كثرة الشكوى بأمر حزامه \*

ويرى : « بعد حزامه » . ويروى : « لعمر ك ما الشكوى بأمر حزامه » .

وليس قولنا « طبع الإنسان على حب الإخبار والاستخبار » حجة له على الله ، لأنه طبع على حب النساء ومُنِعَ الزَّنى ، وحُبِّبَ إليه الطعامُ ومُنِعَ من الحرام . وكذلك حُبِّبَ إليه أن يُخْبِرَ بالحق النافع ويستخبر عنه ، وجُعِلَت فيه استطاعةُ هذا وذاك ، فاختار الهوى على الرأى .

٥٦ ظ

ومما يؤكد هذا المعنى فى كَرَبِ السكتان وصُعوبته على العقلاء فضلاً عن غيرهم ، ما رَوَاهُ <sup>(١)</sup> عن بعض فقهاءهم أنه كان يحمل أخباراً مستورة لا يحتملها العوام ، فضايق صدره بها ، فكان يبرز إلى العراء <sup>(٢)</sup> فيحتفر بها حفيرةً يُودِعُها دناءً ، ثم ينكبُّ على ذلك الدن فيحدثه بما سمع ، فيروِّحُ عن قلبه ، ويرى أن قد نقل سرَّه من وعاء إلى وعاء .

وكان الأعمش <sup>(٣)</sup> سيئ الخلق غليظاً ، وكان أصحاب الحديث يُضجرونه ويُسومونه نشر ما يحبُّ طيِّبه عنهم ، وتكرار ما يحدثهم به ، ويتعنَّونه ، فيحلف لا يحدثهم الشهر والأكثر والأقل ، فإذا فعل ذلك ضاق صدره بما فيه ، وتطلَّعت الأخبار إلى الخروج منه ، فيقبل على شاةٍ كانت له <sup>(٤)</sup> فيحدثها بالأخبار والفقهِ ، حتى كان بعض أصحاب الحديث يقول : « ليت أنى كنت شاة الأعمش » .

(١) فى الأصل : « رَوَاهُ » .

(٢) العراء : الأرض الواسعة المستوية المصحرة ، وأنت الضمير بعدها لعناها .

وفى الأصل : « العرى » ، تحريف كتابى .

(٣) هو سليمان بن مهران الأعمش ، المحدث المعروف . ولد سنة ٦١ يوم عاشوراء ،

وهو يوم مقتل الحسين ، وتوفى سنة ١٨٨ .

(٤) فى ثمار القلوب للثعالبي ١٣٤ أنها عرز . والشاة : الواحدة من النعم ،

وقيل الشاة تكون من الضأن والمز والظباء والبقر والنعام وحر الوحش .

( ١٠ - رسائل الجاحظ )

وشكا هشامُ بن عبد الملك ما يجدُ من فقد الأنيس المأمونِ على سرِّه فقال :  
أكلت الحامضَ والحلوَ حتَّى ما أجدُ لهما طعما ، وأتيتُ النساءَ حتَّى ما أبالي امرأةً  
لقيتُ أم حائطاً ، فما بقيت لي لذةٌ إلّا وجود أَيْح أضع بيني وبينه  
مؤونة التحفُّظ .

وقال معاوية لعمر بن العاص : ما اللذة ؟ قال : تأمر شبابَ قريش أن  
يخرجوا عنا . ففعل ، فقال : اللذةُ طرح المروءة .  
وقد صدقَ عمرو ، ما تكون الزَّمانة والوقار إلّا بحملٍ على النفس شديد ،  
ورياضة مُتعبة .

وقال بعض الشعراء<sup>(١)</sup> :

ألم ترَ أنَّ وُشاةَ الرجا لٍ لا يتركون أديماً صحيحاً  
فلا تفسِ سِرِّكَ إلّا إليك فإنَّ لكلَّ نصيحٍ نصيحاً

والسرُّ - أبقاك الله - إذا تجاوز صدرَ صاحبه وأفلتَ من لسانه إلى أذنٍ  
واحدةٍ فليس حينئذٍ بسرٌّ ، بل ذاك أولى بالإذاعة ، ومفتاحُ النُّشر<sup>(٢)</sup> والشُّهرة .  
وإنما بينه وبين أن يشيع ويستطير أن يُدفع إلى أذنٍ ثانية . وهو مع قلة  
المأمونين عليه ، وكُرب الكتمان ، حَرِيٌّ بالانتقال إليها في طرفة عين .

٥٧ و

(١) هو أنس بن أسيد ، كما في أدب الدنيا والدين ٢٧٩ . وفي السكامل ٤٢٤ :  
« وأحسن ما سمع في هذا ما يعزى إلى علي بن أبي طالب ، فقائل يقول : هو له ،  
ويقول آخرون : قاله متحلاً . ولم يختلف في أنه كان يكثر إنشاده » . وانظر الحيوان  
: ١٨١ وما في حواشيه من تخريج .

(٢) في ط : « الشر » ، خلافاً لما هو واضح في الأصل .

وصدّر صاحب الأذن الثانية أضيّق ، وهو إلى إفشائه أسرع ، وبه أسخى  
وفي الحديث به أعذر ، والحجّة عنه أدحض .

ثم هكذا منزلة الثالث من الثاني ، والرابع من الثالث أبداً إلى حيث  
انتهى .

هذا أيضاً إذا استعهد المحدث واستكتم ، وكان عاقلاً حليماً ، وناصحاً  
وإذاً ، فكيف إذا أخبر ولم يؤمر بالكتمان ، وكان ممن يمشى بالنمائم ويحب  
إفشاء المعاييب ، وكان ممن ينطوى على غشٍّ أو شحناء ، أو كان له في إظهاره  
اجتلابٌ نفعٍ أو دفع ضرر .

فاللوم إذ ذاك على صاحب السرّ أوجب ، وعمن أفضى به إليه أنزل<sup>(١)</sup> ؛  
لأنه كان مالِكاً لسرّه فأطلق عقاله ، وفتح أقفاله ، وسرّحه فأفلت من قيده  
ووثاقه ، وصار هو العبد القين المملوك لمن ائتمنه على سرّه ، وملكه رقّ رقبته ؛  
فإن شاء أحسن مملكته لحفظ ذلك السرّ فجزّ ناصيته ، وجعله رهينة ليوم عتبه  
عليه . وقلّ من يُحسن المَلَكَة ، ويحرس الحرّيّة أو يضبط نفسه ؛ فإنه ربّما  
لم يخرج غشّاً فأخرجه سُخفاً وضغفاً . وإن أساء المَلَكَة وختر الأمانة<sup>(٢)</sup>  
فأطلق السرّ واسترعاه من هو أشدُّ له إضاعة ، فسفك الدم وأزال النعم وكشف  
العورة وقرّق بين الجميع ، وإن كان المضيع لسرّه ألوم<sup>(٣)</sup> . قال الشاعر :

(١) أى أقل . وفي الأصل : « أدل » ، ولا وجه له .

(٢) الختر : شبيه بالفدر والحديعة . يقال ختره فهو ختار ؛ والمراد : خانها .

(٣) في الأصل : « اليوم » .

إذا ضاق صدرُ المرءِ عن سرِّ نفسه

فصدر الذي يستودع السرَّ أضيقُ<sup>(١)</sup>

فَمَنْ أسوأ حالا ، وأخسر مكاناً ، وأبعد من الحزم ، ممن كان حرّاً  
مالكاً لنفسه فصير نفسه عبداً مملوكاً لغيره ، مختاراً للرّق ، من غير أسرٍ  
ولا قسر ! والعبيد لم يصبروا على الرّق إلا بذلّ الأسر والسّباء .

ومن كان سرّه مصوناً في قلبه يُطلب إليه في الحديث به فأخرجه عن  
يده ، صار<sup>(٢)</sup> هو الطالبُ الراغب إلى من لا يوجب له طاعة ، ولا يفكر له  
في عاقبة ، ولا يتحرّز له من مُصيبة<sup>(٣)</sup> . وكلّما كانت إذاعته لأسراره أكثر  
كان عدد مواليه أكثر ، وشقاؤه بخدعتهم أذوم . فإذا كان أصل السرّ معلوماً  
عند عدّة أو أقلّ من العدّة ، فما أعسر استتاره . غير أنّه لا لومَ على صاحب  
الخيانة فيه إذا كان ليس هو الذي أفشاه ، ولا من قبله عِلْم .

٥٧ ظ

ولو أن أوزنَ الناسَ حِلماً ملكَ لسانه وحصنَ سرّه وقللَ لفظه ، ما قدر  
على أن يملكَ لحظَ عينيه ، وسحنةَ وجهه ، وتغيّرونه ، وتبشّمه أو قطوبه ، عند  
ما يجري بلبّه<sup>(٤)</sup> من ذكر ذلك السرّ ، أو يخطر<sup>(٥)</sup> بباله منه ، فيبدو في وجهه

(١) البيت من أبيات ستة رواها البرد في الكامل ٤٢٥ .

(٢) في الأصل : « و صار » .

(٣) في الأصل : « ولا يتحرز له بمصيبة » .

(٤) في الأصل : « به » .

(٥) في الأصل : « خطر » .

ومخايله إذا عرّض بذكره<sup>(١)</sup> ، أو سَنَحَ له نظير<sup>(٢)</sup> أو مثيل<sup>(٣)</sup> ، أو حَضَرَ مَنْ له فيه سببٌ - إِلَّا بعد التصنّع الشديد ، والتحفُّظ المُفرط .

فإذا كان يُعرف من هذه الجهات وما أشبهها ، ويُطلع عليه بتظننٍ المرجمين<sup>(٤)</sup> ، والمتعقبين للأفعال والأقوال ، والنظر في مصادر التدبير ومخايل الأمور ، فيفشو من هذه الجهات أكثر مما تفشيه السُن المذاييع البذر<sup>(٥)</sup> . فكيف إذا أُطلق به اللسان ، وعود إذاعته القلب . والعادة أملك بالأدب .

وربّما أدركه الخدس ، وقَيَّضه الظن<sup>(٥)</sup> ، فنالت صاحبه فيه خُدعة ، بأن يُذكر له طرف منه ، ويُوهم أنه قد فشا وشاع ، فيصدّق الظن فيجعله يقيناً ، ويفسّر الجملة فيصيرها تفصيلاً ، فيهلك نفسه ويوبقها .

وربّ كلام قد ملأ بطون الطوامير<sup>(٦)</sup> قد عُرف جملته وما فيه الضررُ

(١) ط : « عرض ذكره » خلافاً لما في الأصل .

(٢) في الأصل : « مثل » ، وأثبت ما تقتضيه لغة الجاحظ .

(٣) الرجم : القول بالظن والحدس . ومنه قوله تعالى : « رجماً بالغيب » . والترجم تفعيل منه .

(٤) البذر : جمع بنور ، كصبور وصبر . وفي حديث علي في صفة الأولياء : « ليسوا بالمذاييع البذر » . والمذاييع : جمع مذياع ، وهو من يذيع السرويفشية . انظر اللسان ( بذر ، ذيع ) . وفي الأصل : « البذر » ، صوابه ما أثبت .

(٥) قيضه : هياه وسببه من حيث لا يحتسب . وفي الحديث : « ما أكرم شاب شيخاً لسنه إلا قيض الله له من يكرمه عند سنه » .

(٦) جمع طومار ، وهو الصحيفة ، عربي أو دخيل .



منه ، بسحاة<sup>(١)</sup> أو طابع<sup>(٢)</sup> ، أو لحظة مطلع في الكتاب ، أو حرف تبين من ظهره .

فاستيقظ عند هذه الأحوال ، واستعمل سوء الظن بجميع الأنام ؛ فإنه روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الحزم سوء الظن » . وقيل لتخفيف : بم بلغتم ما بلغتم من الشرف والسودد ؟ قالوا : بسوء الظن . فلا تعتمد على رجل في سرّك تحمد عقله دون أن تحمد ودّه ونصحه ؛ فإن الأمر في ذلك كما قال الشاعر<sup>(٣)</sup> :

وما كلّ ذى لبٍّ بمؤتيك نصحه ولا كلّ مؤتٍ نصحه بليبٍ

ولقد استحسن الناس من بعض رجال العراق أنّه دخل على عبد الملك ابن مروان فأوقع بالحجاج عنده وسبّه ، فلما خرج من عنده خبر بما كان منه لبعض أصحابه ، فلامه وأنبه وقال : ما يؤمنك أن يُخبر أمير المؤمنين عبدُ الملك الحجاج بما قلتَ فيه - ومرجعتك إلى العراق - فيضمنه عليك ؟ قال : كلا ، والله إني ما رطلتُ بيدي قطّ أحداً أرزن منه<sup>(٤)</sup> .

٥٨ و

وهذا والله - أبقاك الله - الفاظ البين ، والعذر الملقق<sup>(٥)</sup> ، وتحسين فارط

(١) سحاة القرطاس : ما انتشر منه .

(٢) الطابع ، بفتح الباء وكسر ها : الخاتم الذي يختم به الكتاب . وفي الأصل : « طائر » ، صوابه في ط .

(٣) هو أبو الأسود الدؤلي . الأغاني ١١ : ١٠٥ ونوادير المخطوطات ١ : ١٦٧ .

(٤) رطل الشيء يرطله رطلا : رازه يده ليعرف وزنه ، كما في اللسان . وأرزن من الرزاة ، وأصل الرزاة الثقل .

(٥) في الأصل : « والعذر المصلق » ، تحريف .

الخطأ ؛ لأنه ليس كل راجع وعامل بناصح لصاحب السر ، ولو كان أخوه كذلك كان أمره إليه أهم ، وشأنه أولى . والأعلى من الناس لا يكلف الأدنى هذه المؤونة ، وإنما يفعلها الأدنى بالأعلى رغبة ورهبا ، وتحسنا عندهم بحاجتهم إليهم .

وأكثر ما يذيع أسرار الناس أهلهم وعبيدُهم ، وحاشيتهم وصبيانهم ، و [ من <sup>(١)</sup> ] لهم عليهم اليد والسلطان . فالسر الذي يودعه خليفة في عامل له يلحقه زينه وشينه ، أخرى ألا يكتمه . وهذا سبيل كل سر يستودعه الجلة والعظماء ، ومن لا تبلغه العقوبة ولا تلحقه اللأمة .

وقال سليمان بن داود في حكمته : ليكن أصدقاؤك كثيراً ، وصاحب سرّك واحداً من ألف .

وليس معنى الحديث أن تعدّ ممن تعرف ألفاً وتفضي إلى واحد بسرّك <sup>(٢)</sup> إن لم يكن ذلك الواحد موضعاً للأمانة في السر . لكنه قيل : رجل يساوي ألف رجل ، ورجل لا يساوي رجلاً . وكقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الناس كإبل مائة لا يوجد فيها راحلة <sup>(٣)</sup> » .

فكل ذلك يراد به أن الفضل قليل والنقص قليل لا على نسب ما يتلقاه الاجتماع من هذه الأعداد ؛ لأننا قد نجد الرجل يُوزن بالأمة ، ونجد الأمة لا تساوي قلامة ظفر ذلك الرجل .

(١) ليست في الأصل .

(٢) ط : « سر » خلافاً للأصل .

(٣) ويروى : « تجدون الناس بعدى كإبل مائة ليس فيها راحلة » . الراحلة : البعير القوى على الأسفار . أراد أن الكامل الزاهد في الدنيا قليل كما أن الراحلة النجيبة نادرة في الإبل الكثيرة . رواه ابن ماجه ٣٩٩٠ بإسناد صحيح .

فإذا كان مَنْ تقع عليه الشَّريطة معدوماً - سيما من يُوثق بحلمه وعقله ،  
وأمانته ونُصحه ، ومن لا ضررَ عليه ولا نفعَ له في السِّرِّ الذي يُضمر ولا يجرِّم  
عليه كتمانهُ ، ومن قد وأى على نفسه بالسِّرِّ والحفظ<sup>(١)</sup> ؛ فإنه ليس كلُّ من  
ضمَّن فلم يضمن ضامناً ، ولا من استودع فلم يقبل مستحفظاً ، ولا من  
استُخلف فلم يخلف خائناً ، وإنما ياحقه الحمدُ والذمُّ ؛ والأجرُ والإثم إذا ضمَّن  
الأمانة ثم خترها<sup>(٢)</sup> - فكانَ القوم قالوا : لا تودعنَّ سرَّك أحداً . وإلا فتي  
تجد رجلاً فيه الصفة التي وصف بها مسكينُ الدَّارمي نفسه حيث يقول :

٥٨ ظ

إني امرؤ مني الحياء الذي ترى      أنوه بأخلاقٍ قليل خداعها<sup>(٣)</sup>  
أواخي رجالاً لست أطلعُ بعضهم      على سرٍّ بعض غير أني جماعها<sup>(٤)</sup>  
يظنون شئى في البلاد وسرهم      إلى صخرة أعياء الرجال انصداعها<sup>(٥)</sup>

وقيل لرجلي : كيف كتمانك للسِّر ؟ قال : أجعلُ قلبي له قبراً أدفنه فيه  
إلى يوم النُّشور .

(١) وأى على نفسه : أى جعل عليها وعداً . وفي حديث وهب : « قرأت في  
الحكمة أن الله تعالى يقول : قد وأيت على نفسي أن أذكر من ذكرني » . عداه بعلى  
لأنه أعطاه معنى جعلت على نفسي .

(٢) أى خانها . وانظر ما سبق في ص ١٤٧ .

(٣) المقطوعة في حماسة أبي تمام في أول باب الأدب . انظر شرح المروزقي  
١١١٥ - ١١١٦ والحيوان ٥ : ١٨٢ وعيون الأخبار ١ : ٣٩ والسكامل ٤٢٥  
وأمالى القالى ٣ : ٦٢ والمرضى ١ : ٣٩٩ .

(٤) الجماع : اسم لما يجمع به الشيء ، كما أن النظام اسم لما ينظم به الشيء .

(٥) أى أن يصدعوها فتصدع . ويروى : « أعياء الجبال اتضاعها » .

وقال الآخر<sup>(١)</sup> :

\* وَأَكْتَمُ السِّرَّ فِيهِ ضَرْبَةُ الْعُنُقِ<sup>(٢)</sup> \*

وهذه صفات موجودة بالأقوال ، معدومة بالأفعال . والمغرور من اغتر بما يعدّه الواعد منها دون أن يبُلُو الخبر .

والذى جرّبناه ووجدناه : أن من يَفْضَى إليه بالشئ ، يَبْلُغ من إذاعته ونشره ما لا يبلغه الرسول المستحفظ المعنى بتبليغ الرسالة ، الحمود المجازى على أدائها ؛ حتّى ربّما كان يبلغ<sup>(٣)</sup> في الإذاعة لمن أرادها أن يقصد للبلاغة من الرجال<sup>(٤)</sup> ، المعروف بالنّميّة والتّقيت<sup>(٥)</sup> ، فيوممه أنه قد استحفظه السرّ ، فيشيع على لسانه كما يشيع الضوء في الظّلمة .

وهذا فعلُ عمر بن الخطّاب رضى الله عنه حين أحبّ أن يُشيع إسلامه فقال : مَنْ أَنْتُمْ أَهْلُ مَكَّة ؟ قيل له : جميل بن النّخيت . فأتاه فأخبره بإسلامه وسأله أن يكتمه عليه ، فلم يُمسِ وبمكّة أحدٌ لم يعلم بإسلام عمر ، رضى الله عنه .

(١) هو أبو محجن الثقفي . ديوانه ٦ والحيوان ٥ : ١٨٢ والأغاني ٢ : ١٤٢ .

(٢) صدره في ديوانه :

\* وَأَكْشَفُ الْمَأْزِقِ الْمَكْرُوبِ غَمْتَهُ \*

وفي الحيوان :

\* وَقَدْ أَجُودُ وَمَا مَالِي بِذِي فَنَعِ \*

وفي الأغاني :

\* وَأَطْمِنُ الطَّعْنَةَ النَّجْلَاءَ عَنْ عَرَضِ \*

(٣) في الأصل : « لا يبلغ » وكلمة « لا » مقحمة .

(٤) البلاغة : الكثير التبليغ ، عني بذلك وإن لم يكن مذكوراً في المعاجم المتداولة .

(٥) التّقيت : مبالغة من الفت ، وهو النّميّة .

نم يكون من أكثر الأعوان على إظهار السر الاستعداد له ، والتَّحذِير من نَشْرِهِ ؛ فَإِنَّ النَّهْيَ أَغْرَى ؛ لِأَنَّهُ تَكْلِيفٌ مُشَقَّةٌ ، وَالصَّبْرُ عَلَى التَّكْلِيفِ شَدِيدٌ ، وَهُوَ حَظَرٌ ، وَالنَّفْسُ طَيَّارَةٌ مُتَقَلِّبَةٌ ، تَعَشَّقُ الْإِبَاحَةَ وَتُفْرِمُ بِالْإِطْلَاقِ . وَلَعَلَّ رَجُلًا لَوْ قِيلَ لَهُ : لَا تَمْسَحْ يَدَكَ بِهَذَا الْجِدَارِ - وَهُوَ لَمْ يَمَسَّحْهَا بِهِ قَطُّ - غَرَى بِأَنْ يَفْعَلَ .<sup>(١)</sup>

وَكَذَلِكَ مَا حَدَّثَ بِهِ مِنَ السَّرِّ فَلَمْ يُوَمِّرْ بَسْتَرَهُ ، لَعَلَّهُ أَلَّا يَخْطُرَ بِيَالِهِ ؛ لِأَنَّهُ مُوجُودٌ فِي طِبَائِعِ النَّاسِ الْوَلُوعُ بِكُلِّ مَمْنُوعٍ ، وَالضَّجَرُ بِكُلِّ مُحْصُولٍ . ٥٩ و

فَتَرِيدٌ أَنْ نَعْلَمَ : لَمْ صَارَ الْإِنْسَانُ عَلَى مَا مَنَعَ - وَإِنْ كَانَ لَا يَنْفَعُهُ - أَحْرَصَ مِنْهُ عَلَى مَا أُبِيحَ مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ وَلَا سَبَبٍ إِلَّا أَمْتَهَانَ مَا كَثُرَ عَلَيْهِ<sup>(٢)</sup> ، وَاسْتَطْرَافَ مَا قَلَّ عَنْده ؛ وَلَمْ أَقْبَلَ عَلَى مَنْ وَلَّى عَنْهُ وَوَلَّى عَنْهُ أَقْبَلَ عَلَيْهِ ؟ وَلَمْ قَالُوا : إِذَا جَدَّتْ الْمَسْأَلَةُ جَدَّ الْمَنَعِ ؟ وَقَالَ الشَّاعِرُ<sup>(٣)</sup> :

الْحَرُّ بِأَحَى وَالْمَصَا لِلْعَبْدِ      وَلَيْسَ لِلْمُلْجِفِ مِثْلُ الرَّدِّ  
وَلَمْ صَارَ يَتَمَنَّى الشَّيْءَ وَيَنْذُرُ فِيهِ التَّنْذُورَ ، وَيَتَقَطَّعُ إِلَيْهِ شَوْقًا ، فَإِذَا ظَفِرَ بِهِ صَدَّ عَنْهُ وَأَخْلَقَ عَنْده ؟ وَلَمْ زَهْدُ الْمُلُوكِ فِيمَا فِي أَيْدِيهِمْ وَرَغِبُوا فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ ؟

فَنَقُولُ : إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى جَعَلَ لِكُلِّ نَفْسٍ مَبْلَغًا مِنَ الْوُسْعِ لَا يُمْكِنُهَا تَجَاوُزُهُ ، وَلَا تَنْسَعُ لِأَكْثَرِ مِنْهُ . فَكَانَ مَعَهَا فِيمَا دُونَ الْوُسْعِ الْفَقْرُ

(١) غَرَى بِالشَّيْءِ غَرًّا وَغَرَاءً : أُولِعَ بِهِ وَأَغْرَى .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « وَلَا أَمْتَهَانَ بِمَا كَثُرَ عَلَيْهِ » ، صَوَابُهُ فِي ط .

(٣) هُوَ بَشَارُ بْنُ بَرْدٍ . الْبَيَانُ ٣ : ٣٧ .

وخوف الإخوان ، وفيما تجاوزه عزُّ الغنى وأمنُ العدم . وبهذا وبمثله من البخل والحرص استخفَّت من احتاج إليها ، وأعظمت من استغنى عنها . وجعلها توافقة مشتاقة ، متطرِّفة ملالة<sup>(١)</sup> ، كثيرة النزاع والتقلب ، تستحكم عليها الفتنة<sup>(٢)</sup> ، ويُبلى خيرها [ من شرِّها<sup>(٣)</sup> ] وصبرها من جزئها . ولولا هذه الخلال سقطت الميخنة ، فهي تعظم القليل بالضرورة إليه إن كان من أقواتها ، أو لشدة النزاع والشوق إن كان من طُرَف شهواتها ؛ فإنَّ صنوف الشهوات كثيرة ، ولكلِّ صنف منها أهل لا يحفلون بما سواه . وتتمجَّب من الغريب النادر ، ويضحكها البديع الطارئ . إلا أنَّه إذا كثُر الغريب صار قريباً ، وإذا تجاوز المطلوب مقدارَ وسعها وحاجتها فصار ظهيراً وفضلاً استخفَّت به وقلَّ في أعينها كثره . وأعظم الأشياء عندها قدراً ما اشتدَّ إليه الفقر والحاجة وإن قلَّ قدره<sup>(٤)</sup> ، وأهونها عليها ما استغنى عنه وإن عظم خطره . وجعل لما تتوق إليه وتشتاقه مكاناً من قواها ، له<sup>(٥)</sup> . فإذا امتلأ ذلك المكان سروراً ، وقضى ذلك الأرب وطراً مما كان طمَّح إليه ، وروى مما كان ظامناً إليه ، انصرف عنه وقلَّاه ، وحالَ عشقه بُغضاً ، وشوقه ملالاً .

والعلة في ذلك : أن الدنيا دارُ زوالٍ وملال ، ليس في كيانها أن تثبت ٥٩ ظ

(١) التطرف والاستطرف : الذي لا يثبت على أمر . وفي الأصل : « مطرقة » .  
واللالة : الكثيرة اللل .

(٢) في الأصل : « تستحكم عليها الفتنة » .

(٣) ليست في الأصل .

(٤) في الأصل : « ضرره » .

(٥) أى مكاناً له من قواها .

هى ولا شئ؛ مما فيها على حالٍ واحدة ، وإنما الثبوت الدائم لدارِ القرار .  
فالسامة تلحقها فى محبوبها ، كما يصيب المنتهى من الطعام والشراب والباء ،  
فإنه ليس شئ أبغضَ إلى من يتناهى فيه إلى غايته ، من النَّظر إلى ناحيته ،  
فضلاً عن ملابسته ، إلى وقت عَودة السبب الأول .

فإذا كانت الطبائع تتشابه ، ولكل حاسة قوة ، فإذا امتلأت تلك  
القوة من محسوسها لم تجد لها وراءه طعمًا ولا ريحًا ، وعاد عليها الضرر . فبعضُ  
النَّظر يعمى ، والصَّوت الشديد يُصم ، والرائحة المُنقنة تبطل المَشم ،  
والأطعمة الحارة المُحرقة تبطل حاسة اللسان .

وتتطَرَّف كلُّ واحدةٍ منها ؛ فبين الطَّيب عند مَنْ بُدَّ عهده [ به ] ،  
والجماع والسماع ، وبين من هو مغموسٌ فيه بونٌ بعيدٌ جدًّا ، فى الحلاوة  
وحسن الموقع . كل ذلك ما لم يأت المال والعلم ؛ فإنه كلما كثر كان أشهى  
وأعجب ؛ لأنَّ قَصْد الناس له ليس لطلب مقدار الحاجة وسدَّ الخلة كما يُريده  
أهل القناعة والزَّهادة ، وإنما يراد لقمع الحرص ، والحرص لا حدَّ له  
ولا نهاية ؛ لأنه سعى لا حاجة ، وإيضاع لا بُغية .

وهكذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو أن لابن آدمَ واديين  
من ذهبٍ لا يتغنى إليهما ثالثاً . ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب <sup>(١)</sup> » .

وقال بعض الحكماء :

من كان لا يتغنى بما يغنيه فكلُّ ما فى الأرض لا يغنيه

---

(١) حديث صحيح ، أخرجه فى الجامع الصغير ٧٤٧٦ بلفظ : « لو كان لابن آدم واد من مال لا يتغنى إليه ثانياً ، ولو كان له واديان لا يتغنى لهما ثالثاً » .

قال الله عز وجل : ﴿ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾<sup>(١)</sup> . وقال : ﴿ وَإِنَّهُ لَحَبُّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾<sup>(٢)</sup> . وقال الشاعر :

والناسُ إن شِيعَتْ بطونهمُ فعيونهم في ذاك لا تشبع

فأما الحديث الذي جاء : « لا يشبع أربع من أربعة : أرض من مطر ، وعين من نظر ، وأنتى من ذكر ، وعالم من علم »<sup>(٣)</sup> . فإن العين لا تشبع في الجملة كما لا يشبع الخبشوم من الاستنشاق . فأما من صنف مما يراه دون صنف ، فإنه يشبع ويروى ، وبصد وبصدف إلى غيره .

وأما العلم فإنه أوسع من أن يحاط به ، فمن طلبه لشرفه وتغره فإنه لا حد له ولا نهاية ، ولم يزد له طلباً إلا ازداد فيه رغبة . ومن طلب منه مقدار كفايته وحاجته كفاه منه اليسير . على أنه لا يملك من كثر علمه أن يرى فيه الفنى والكبرياء أيضاً . وقد يمل كما يمل كل شئ . وتمل العين أيضاً منه ومن المال .

وقيل : اثنان منهومان : طالب علم وطالب دُنيا . وهذه القضية<sup>(٤)</sup> تدل على الخروج عن العقل ؛ لأن النهم تجاوز القدر .

(١) الآية ٣٠ من سورة الفجر .

(٢) الآية ٨ من سورة العاديات .

(٣) حديث ضعيف ، أخرجه السيوطى فى الجامع الصغير ٩٢٢ بلفظ : « أربع لا يشبعن من أربع » .

(٤) فى الأصل : « القصة » والقضية : الحكم .



وأما<sup>(١)</sup> الحرص على المنوع الذي لا ينتفع به ، والعجب مما يتعجب من مثله ، فليس من أخلاق العقلاء . وما لم يكن في أخلاقهم فلا نظر فيه ولا قياس عليه ، وإنما ذلك فعل من استوحش من الحجّة ، وشرّد عن علم الملل والأسباب .

وإفشاء السرّ إنما يوكل بالخبر الرائع ، والخطب الجليل ، والدفين المغمور ، والأشنع الأبلق ، مثل سرّ الأديان<sup>(٢)</sup> لغلبة الهوى عليها ، وتضاغن أهلها بالاختلاف والتضادّ ، والولاية والعداوة . ومثل سرّ الملوك في كيد أعدائهم ومكنون شهواتهم ومستور تدبيراتهم ، ثم من يليهم من العظماء والجلة ؛ لنفاسة العوام على الملوك<sup>(٣)</sup> ، وأنهم سماء مظلة عليهم ، أعينهم إليها سامية ، وقلوبهم بها مقلقة ، ورغباتهم ورهباتهم إليها مصروفة . ثم عداوات الإخوان ؛ فإنما صارت العداوة بعد المودة أشدّ لاطلاع الصديق على سرّ صديقه ، وإحصائه معايبه ، وربّما كان في حال الصداقة يجمع عليه السقطات ويحصي العيوب ، ويحتفظ بالرقاع ؛ إرصاداً ليوم النوبة ، وإعداداً لحال الصّريّة .

وقد شكّا بعض الملوك تنقيب<sup>(٤)</sup> العوام عن أسرار الملوك فقال :

ما يريد الناس منا ما ينام الناس عنا

٦٠ ظ

(١) في الأصل : « وإنما » .

(٢) في الأصل : « الأديان » ، صوابه في ط .

(٣) النفاسة : الحسد ، يقال نفس عليه بنفس نفساً ، بالتحريك ، ونفاسة كسعاية .

(٤) في الأصل : « تنقب » .

لو سَكَنَّا باطنَ الأرَضِ لكانوا حيثُ كُنَّا  
إنما همُّهم أنْ يَنْشُرُوا ما قد دَفَنَّا

ولم نرى حُبَّ الطعن على الملوك<sup>(١)</sup> ، والتجشُّس على أخبارهم ، وعشق  
نشرِ المغايب ، واستحلال الغيبة ، ظاهراً في طباع الناس لا يكاد ينجو منه  
أحدٌ منهم إلا من رجح حلمه وعظمت مروءته ، وظهر سُودده ، واشتدَّ  
ورعُه ، حتى قال بعضهم : « الغيبةُ فاكهةُ النَّسَاك » .

ورَوَوْا عن بعضهم أنه قال : « الفاسقُ لا غيبةَ له » .

وقال آخر : « أترعون من ذكر الفاسق<sup>(٢)</sup> ؟ اذكروه يعرفه الناس » .

ولم نر الله جلَّ ثناؤه رخص في اغتياب مؤمن ، بل ضربَ المثلَ في الغيبةِ  
بأكره ما تكرهه النفوس ، وما تختار منه الموت على الحياة ، فقال :  
﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ  
مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾<sup>(٣)</sup> .

واغتياب الناس جميعاً خُطَّةٌ جَورٍ في الحُكْم ، وسقوطٌ في الهمة ، وسخافة  
في الرأي ، ودناءةٌ<sup>(٤)</sup> في القيمة ، وكلفة عريضة ، وحسد ونفاسة ، قد

(١) في الأصل : « ولم نوجب الطعن على الملوك » وفي ط : « ولم نرحب  
الطعن على الملوك » والوجه ما أثبت . انظر لتأييد هذا الأسلوب ما سبق في  
ص ١٥٤ س ٨ وما بعده .

(٢) يقال ورع من الشيء برع بكسر الراء فيهما ويورع ، كيوجل ، أي تخرج  
وتأثم . وفي ط عن نسخة المختار : « أترعون » .

(٣) الآية ١٢ من سورة الحجرات .

(٤) في الأصل : « ودناء » .

استحوذت على هذا العالم وغلبت على طبائعهم ، وتوكدت لسوء العادة عندهم ، ولعلو الشر على الخير ، وكثرة الدغل والنغل والحسد في القلوب . فلست ترى منها ناجياً . إما ناظر بعين عدل وإنصاف ، فهو يرى ما ينكر فيبدو في وجهه ولسانه . وإما ناظر بعين البغضاء والعداوة فهو كثيراً ما يجد من العيوب في عدوه ما يعينه على التخرص عليه<sup>(١)</sup> فيقويها ويزيد فيها . وإن عديم الحق تقول وقبح الحسن ، وزاد في قبح القبيح .

والحديث كله - إلا ما لا بال به - ذكر الناس ، ولفو وخطل ، وهجر وهذاء ، وغيبة وهمز ولز .

وقال بعض الحكماء لابنه : يا بُنى ، إنما الإنسان حديث ، فإن استطعت أن تكون حديثاً حسناً فافعل .

وكل سر في الأرض إنما هو خبر عن إنسان ، أو طي عن إنسان ، فله في الغيبة أكثر الخطأ ، وجُلُّها كلفة لا ضرورة ، يرى صاحبها أنه قد أهمل محاسبة نفسه ، وغفر ذنوبها وألفى عيوبها ، وقصد قصد غيره ، فتشاغل عما يعنيه بما لا يعنيه ، فأنكر أقواله وأفعاله ، وهجر تدبيره ، وتعجب من مقابحه ، وجهد نفسه في تفقد أموره . ليس ذلك عن عناية بصلاحه ، ولا محبة لتقويمه وتهذيبه ، ولا أنه مسيطر عليه ولا محمود عنده على ما عني به من شأنه ، بل هو عنده عين المذموم .

وهذا جُلُّ حديث البشر وشغلهم في الليل والنهار .

(١) في الأصل : « عن التخرص » تحريف . والتخرص : القول والكذب .

قال بعض الحكماء : فضول النظر تدعو إلى فضل القول ، وفضول الخواطر تبهث على اللهو والخطل .

ولو كان الرجل لا يتكلم إلا بما يعنيه ، ولا يتكلف ما قد كُفِيَهِ ، قل كلامه . ولو حكم العدل<sup>(١)</sup> في أموره ، وفيما بينه وبين خالقه ، وبينه وبين إخوانه ومعامله ، لطاب عيشه وخفت مؤنته والمؤونة عليه ؛ فإن الله تبارك وتعالى لم يخلق مذاقاً أحلى من العدل ، ولا أروحاً على القلوب من الإنصاف ، ولا أمراً من الظلم ، ولا أبشع من الجور .

وقال بعض المتقدمين : « إنما يعرف الظلم من حكم به عليه » . ومن استعمل العدل دلّه على أن الناس يجدون من طعمه وطعم الظلم إذا فعله بهم مثل الذي يجد إذا ظلم ، فكره لهم ما كره لنفسه ، فأنصف ولم يظلم .

ويتظالم الناس فيما بينهم بالشرّ والحرص المركب في أخلاقهم ، فلذلك احتاجوا إلى الحكماء - وقد أطلق لهم تصريح أخلاقهم وأماناتهم<sup>(٢)</sup> - التي ردت إليهم بالأحكام فيها<sup>(٣)</sup> ، ماجنيتهم عليهم أكثر مما يطالبهم به الخصوم<sup>(٤)</sup> .

(١) في الأصل : « العدى » .

(٢) في الأصل : « تصريحها وأخلاقهم وأماناتهم » .

(٣) في الأصل : « الأحكام فيها » .

(٤) للراد بالجنابة جزاء الجنابة ، كما في قوله تعالى : « يلق أئاما » أى يلق جزاء الأئام ، وهو الإثم . وكما في قول بشر بن أبي خازم :

وكلف مقامنا ندعو عليهم بأبطح ذى المجاز له أئام

وقال بعض الحكماء : إنَّ من أصعب الأعمال إنصافك في نفسك ،  
ومواساتك أخاك في مالك ، وذكرَ الله . أما إني لا أعنى قول سبحانه الله ،  
والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر - وإنَّ ذلك لمن ذكر الله - ولكنَّ  
ذكره عند ما يعرض من الأمور ، فإن كان طاعةً لله فعلته ، وإن كان معصيةً  
لله اجتنبتَه .

٦١ ظ

وروى عن بعضهم أنه قال : « ثلاثة في ظلِّ عرش الله يوم لا ظلَّ إلا ظله :  
رجلٌ لم يعب أخاه بعيبٍ فيه مثله حتى يصلحَ ذلك العيبَ من نفسه ؛ فإنه  
لا يصلحه حتى يهجمَ على آخر<sup>(١)</sup> ، فتشغله عيوبُه عن عيوب الناس . ورجلٌ  
لم يقدِّم يداً ولا رجلاً حتى يعلم : أفي طاعة الله هو أم في معصيته ؟ ورجلٌ  
لم يلتبس من الناس إلا مثلاً ما يعطيهم من نفسه . أما تحبُّون أن تُنصِّفوا » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رحم الله عبداً أنفقَ الفضلَ من  
ماله وأمسكَ الفضلَ من قوله ، وشغله عيبُه عن عيوب الناس » .

وقال عيسى بن مريم<sup>(٢)</sup> : « يا بني إسرائيل أيرى أحدكم القذاة في عين أخيه  
وبغى عن الجذع المعرض في عينه » .

وقيل لعيسى بن مريم : ما أفضل أعمالك ؟ قال : تركي ما لا يعنيني .

وقال عمرو بن عبيدٍ : أعيتني ثلاثُ خلال : تركي ما لا يعنيني ، ودرهمٌ  
من حِلِّه ، وأخ إذا احتجت إلى ما في يديه بذله لي .

(١) أى على عيب آخر في نفسه .

(٢) انظر إنجيل متى ٧ : ٣ - ٤ .

وما أَحَقَّ من أُحْصِيَتْ أَلْفَاظُهُ وَلَيْسَ مِنْ قَوْلٍ يَبْدُرُ مِنْهُ إِلَّا لَهُ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ، وَمَنْ أُحْصِيَتْ عَلَيْهِ مَثَاقِيلُ الذَّرِّ وَاسْتُشْهِدَ عَلَيْهِ جَلْدُهُ وَجَوَارِحُهُ - أَنْ يَضْبِطَ لِسَانَهُ .

وقد جاء في بعض الآثار : مَنْ عَدَّ كَلَامَهُ مِنْ عَمَلِهِ قَلَّ كَلَامُهُ إِلَّا فِيمَا لَا يَعْنِيهِ .

وكلُّ امرئٍ فحسبُ نفسه ، غير مأخوذ بغيره ، وهو الوحيد دون الأهل والولد والقرابة . وقال الله جل ثناؤه - وقوله الحق - ﴿ كُلُّ أَمْرٍ بِيَّامَا كَسَبَ رَهِينٌ <sup>(١)</sup> ﴾ . وقال : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ <sup>(٢)</sup> ﴾ .

وليس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا مع السيف والسوط .

وقال بعض الحكماء : شيطان لا صلاح لأحدهما إلا بالآخر : اللسان والسيف .

وأنت إذا تأملت أكثر ما يبتناجى به المتحدثون وجدت أكثر السائلين يسأل عما لا يعنيه ، ويكثر لما لا يكرهه ، ويعنى بما لا ينفعه ولا يضره ؛ وأكثر المجيبين يُجيب ولم يُسأل ، ويتكلف ما لا يعلم ، ولو قال له قائل : من سألك لافتضح ، ولو حاجه فيما ادعى ووقفه لا تقطع . قال الله عز وجل : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ <sup>(٣)</sup> ﴾ .

(١) الآية ٢١ من سورة الطور .

(٢) الآية ١٠٥ من سورة البقرة .

(٣) الآية ٨٦ من سورة ص .

ومرّ هشامُ بن عبد الملك ببعض أهل السكفة والفضول ، وعليه حُلّة ذِيَالَة<sup>(١)</sup> يسحبها في التراب ، فقال له المتكلف : يا هذا ، إنك قد أفسدت ثوبك . قال : وما يضرُّك من ذلك ؟ قال : ليتك أقيمتَ في النار . قال : وما ينفعُك من ذلك ؟ فأخذه غاية الإخام .

ولو تهيناً للمتكلفين في كل وقتٍ مثل صرامة هشام لآزدرج من به حياة منهم ، ولقلت الفضول والكلف والغيبة .

قالوا : وليس من أحد أذلّ من مغتاب ؛ لأنه يُخفى شخصه ، ويُطامن حسّه ، ويغض من صوته ؛ ولا يَزِيدُ<sup>(٢)</sup> بما يناله من ذلك إلا بأن يرفع من قدر خصمه ويعظم من شأنه .

قال معاوية : أتدرى من النبيل ؟ هو الذي إذا رأيتَه هبتَه ، وإذا غابَ عنك اغتبتَه .

وهي لعمري سبيلُ العطاء عند العوام ، والملك عند الرعيّة ، والسّادة عند العبيد .

فلم يأخذ المغتاب ممن اغتابه شيئاً بعضيته إِيَّاهُ<sup>(٣)</sup> إلا والذي أعطى من الهيبة عند حضوره أكثر منه .

ولو كان المغتاب لا يستتر من الغيبة إلا بمن يخاف سطوته ، كان أعذر . ولكن اللّؤم التمكن منه يحمله على اغتياب عبده وأمتِه ، فضلاً عن كفته ونظيره .

(١) الذِيَالَة : الطويلة الذيل .

(٢) في الأصل : « ولا يزيد » .

(٣) المضية : الإفك والبهتان والكذب .

ويفتاب الرجل عند عدوه والمُشاحِن له ، مساعدة له بالشفخف ، وتقرباً إليه بالهانة والضعف ، من غير أن يكون له عايه طُول ، أو يلمس منه على ما تقرب به إليه جزاء أو شكورا .

ثم لعله ينكفي إلى الذي اغتابه وقصَّبه<sup>(١)</sup> من ساعته ويومه ، فيعطيه في عدوه الذي اغتابه عنده أيضاً مثل ذلك وأكثر منه ، لا لعله أيضاً ولا مرفق ولا ربح أكثر من الدَّلة التي يجدها في نفسه ، والضعف في مُنته ، كما يعظم الغنى بغير ثمن ، ويحتقر الفقير بغير سبب ، فتى كوشف أو عُوتب لبسنته ذلة أخرى من الكِظة بالمعاذير الكاذبة ، والاعتصام بالآيمان الفاجرة . ومن كانت هذه دُرْبته فهو حرى أن يُطْلَعَ على دِخْلة أمره ، فلا يُقبَل منه عذر ، ولا يُصدَّق في قول ولا حلف ، وقد تسربل الدَّلة ، وتدرَّع الخضوع .

٦٢ ظ

وليس من سُوس النفس الكريمة الشَّمة<sup>(٢)</sup> ، أن تلقى الناس بخلاف ما يتخافون به<sup>(٣)</sup> ما لم تأت ضرورة يحتاج فيها إلى كيد وغيلة ، أو مكر وحيلة ، ويثار بالغيبة فيها الرأي الأصيل من مكانه ، فيفعل ذلك العاقلُ فيما يحلُّ له ويحسن به ، بعد أن تُعييه الحيلة في استصلاح ذلك العدو بالرفق والملاينة .

وإنما قيل : « قلَّ من اعتذر إلا كذب » ، لكثرة النَّطف في الناس<sup>(٤)</sup> ،

(١) قصبه قصبا : شتمه وعابه ووقع فيه .

(٢) السوس : الطبع ، والخلق ، والسجية .

(٣) في الأصل : « يخلفون به » .

(٤) النطف ، بالتحريك : التلطف بالعيب .



وضعف أنفسهم على الإقرار بالذنب ، فلا ذلة الضعف الثاني في الاعتذار  
نهت عن كلفة الضعف الأول في الاغتياب ، ولا كلفة الضعف الأول صانت  
عن ذلة الضعف الثاني .

وعلى أن أكثر من يعتذر إليه ليس بقابل للعذر على حقيقة وإن أظهر  
القبول ، لما جرّب من سخاء الناس<sup>(١)</sup> بالأيمان ، وبعدهم من الإقرار بالذنب  
ما لم تأت حجة واضحة ، ودليل شاهد عدل .

وإذا كانت هذه سبيل المعتذر إليه فيحق على المعتذر - إن كانت في نفسه  
قيمة - أن لا يعتذر إلا إلى من يحب أن يجد له عذرا ، ولا يعجل إلى التين<sup>(٢)</sup>  
وهو لا يجد للحجة مكانا .

وأكثر من يعتذر إليه إنما يفعل ذلك به خوفاً من سقطته ،  
وابقاء لسلطانه .

والمتفقون يتأولون في الأيمان السلطانية ما يلحق بها عند السلطان التهمة ،  
ويُلزِمهم الظنة ، سيما<sup>(٣)</sup> في الأمور التي في الإقرار بها إباحة الدّم والمال ،  
وهتك السّتر .

ولا حسم لهذا الداء إلا باطراح الفضول ، وسلامة اللسان من أن يبلغ  
في الأعراض<sup>(٤)</sup> ، ويستسرّ بالعصية والبهت .

(١) في الأصل : « النفس » .

(٢) اللين : الكذب ، مان يمين . وفي الأصل : « الهين » .

(٣) أصل الولوغ شرب الماء أو الدم . ومنه ولغ السبع . وفي أساس البلاغة :  
« ومن المجاز : فلان يأكل لحوم الناس ويبلغ في دماهم » . والفعل من باب نفع ،  
ووعد ، وورث ، ووجل . وفي الأصل : « يبلغ » .

(٤) كذا وردت بدون « لا » وأجازه بعض النحاة .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده »<sup>(١)</sup> . ومن لم يسلم الناس منه فليس سالماً من نفسه .

وقال القائل : احرس أخاك إلا من نفسه .

وقالوا : مقتل المرء بين فكَّيه .

وكتب على بعض أبواب المَدَن بالسُّنْد<sup>(٢)</sup> : احفظ رأسك .

وقال الأول : قد تصل النِّصال إلى الإخوان فتُستخرج ، وأمثال النِّصال

من القول إذا وصلت إلى القلب لم تُستخرج أبداً .

وقال بهرام<sup>(٣)</sup> ، وسمِع في اللَّيل صوتَ طائر فتحدَّاهُ بِهِم وهو لا يراه ،

إلا أَنَّهُ تَتَّبَعَ الصَّوتَ فصرَّعه ، فلما صار بين يديه قال : والطَّير أيضاً لو سكَّتْ

كان خيراً له !

وقيل : ماشى ، أحقَّ بطول سَجْنٍ من لسان<sup>(٤)</sup> .

وقيل : يسأل اللسانُ الأعضاء في كلِّ يوم فيقول : كيف أنتنَّ ؟ فيقلن :

بخير إن تركتنا !

(١) حديث صحيح . أخرجه السيوطي في الجامع الصغير ٩٢٠٦ ، ٩٢٠٧ ،

٩٢٠٨ . وانظر الترغيب والترهيب ٥ : ١٦٠ .

(٢) في ط رواية عن كتاب المختار : « بالسند » ، أي بالخط المسند ، وهو خط

حمير باليمن .

(٣) بهرام : اسم لعدة ملوك من الفرس ، أشهرهم بهرام جور بن يزدجرد ،

ملك ثلاثاً وعشرين سنة ، ونشأ عند ملوك الحيرة وبني له الخورنق . قال للمسعودي

في التنبيه والإشراف ٨٨ : « وكان فصيحاً بالعربية ، وله بها شعر صالح » . وذكره

الجاحظ في الحيوان ١ : ١٤٠ .

(٤) حديث موقوف رواه الطبراني من كلام عبد الله بن مسعود . الترغيب

والترهيب ٥ : ١٦٣ .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعماد بن جبل : « وهل يكب الناس على مناخرهم في النار إلا حصائدُ السنتهم <sup>(١)</sup> » .

وقال عيسى عليه السلام <sup>(٢)</sup> : « أعمال البر ثلاثة : المنطق ، والنظر ، والصمت . فمن كان منطقاً في غير ذكر الله فقد لغا ، ومن كان نظره في غير اعتبارٍ فقد سها ، ومن كان صمته في غير تفكير فقد لها » .

فانظر بأيّ الأمرين قطعتَ عمرك ؟ أبالحكمة أم باللغو ؟ وانظر كيف وصف الله تعالى من أثنى عليه بخير من عباده فقال : ﴿ والذين هم عن اللغو مُعْرِضُونَ <sup>(٣)</sup> ﴾ ، وقال : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ <sup>(٤)</sup> ﴾ ، وقال : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا <sup>(٥)</sup> ﴾ . وصان عنه أسمع أهل الجنة وألسنتهم فقال : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا . إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا <sup>(٦)</sup> ﴾ .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « العبادة عشرة أجزاء ، تسعة منها في الصمت » .

وقال علي بن أبي طالب : « أفضل العبادة الصبر وانتظار الفرج <sup>(٧)</sup> » .

(١) في اللسان ( حصد ) : « أى ما قالته الألسنة ، وهو ما يقطعونه من الكلام الذي لاخير فيه ، واحدها حصيدة ، تشبها بما يحصد من الزرع إذا جذ » . وتكلم عليه في الترغيب والترهيب ٥ : ١٦٥ - ١٦٦ .

(٢) انظر البيان ١ : ٢٩٧ .

(٣) الآية ٣ من سورة المؤمنون .

(٤) الآية ٥٥ من سورة القصص .

(٥) الآية ٨٢ من سورة الفرقان .

(٦) الآية ٢٥ ، ٢٦ من سورة الواقعة .

(٧) انظر البيان ١ : ٢٩٧ .

وقال بعض الحكماء : لو لم يكن للصّامت في صمته إلا الكفاية لأن يتكلم بكلام ويحكى عنه محرّفاً فيضطرّ إلى أن يقول : ليس هكذا قلتُ ، إنما قلتُ كذا وكذا . فيكون إنكاره إقراراً ، واعترافه بما حكى عنه شاهداً لمن وشى به ، وادّعاء لتحريف غير مقبول منه إلا أن يأتي ببينة له<sup>(١)</sup> .  
لكان ذلك من أكثر فضائل الصّمت .

وربّما ذكر رجل الله تبارك وتعالى ، فكان ذلك الذّكر إثمًا له ، لأنه قد يدخله في باب تفخيم الذنب الحقير والإغراء والتّحريض ، فيسفك الدّم الحرام ، أو يعظّم الجرح الصغير . بل ربّما ضحكك وتبسّم ، فأغرى وحرّض ، وأثم وأوبق . قال بعض الشعراء<sup>(٢)</sup> :

فإن شئت أدلى فيكما غير واحدٍ      مجاهرةً أو قال عندي في سرٍّ

٦٣ ظ

فإن أنا لم أمر ولم أنه عنكما      ضحكتُ له حتى يبلج ويستشري

وقالت العرب<sup>(٣)</sup> : « من كُنِيَ شرّاً لقلقه وذبدبه وقبّبه فقد كُنِيَ

الشرّ » .

وهذا بابٌ لولا أن نشغل القارئ لهذا الكتاب بغير ما قصدنا إليه وعزمنا عليه لأتينا عليه . وهو كثير موجود لمن طلبه ، وجملة واحدة فيها

(١) في الأصل : « بها » .

(٢) هو عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود . الحيوان ١ : ١٤ - ١٥ ومجالس ثعلب ١٧ - ١٨ وأما إلى الرضى ١ : ٣٩٨ والأغاني ٨ : ٩١ و١٣ : ١٠ وجمع الجواهر ٣ والمحرر ٢٩٧ - ٢٩٨ .

(٣) هو حديث ضعيف ، أخرجه السيوطي في الجامع الصغير ٩٠٧٣ . وانظر

البيان ٣ : ٢٧٢ ومجالس ثعلب ٥٤٠ .

كفاية ؛ فإنما تختلف الألفاظ التي تُجَعَلُ كسوةً لتلك المعاني . وإلاّ فإنّك إذا نظرتَ إلى جميعِ شُرورِ الدُّنيا وجدتَ أوّلَها كلمةَ غارتَ فجنتَ حرباً عواناً<sup>(١)</sup> ، كحربِ بكرٍ وتغلبِ ابْنَيْ وائلٍ ، وعَبَسِ وذِيانِ ابْنَيْ بَغِيضٍ ، والأوسِ والخزرجِ ابْنَيْ قَيْلَةٍ ، والفِجارِ الأوّلِ والثاني ، وعامةَ حروبِ العربِ والعجمِ . وإذا تأملتَ أخبارَ الماضينَ لم تُحصِ عددَ من قتلَهُ لسانُهُ وكانَ هلاكُهُ في كلمةٍ بدرتَ منه .

وليس العجبُ ممن أفضى بسرّه إلى من ليس له بموضعٍ ، ممّن تقدّمت معرفته وزالت الشُّكوكُ عنه في أمره ؛ ولكنّ العجبَ عينَ العجبِ ممن استناب بسرّه إلى من لم تقدّم معرفته ومن أنس إليه عن اللّقاء واللّقاءتين<sup>(٢)</sup> ، دونَ معرفةِ العينِ والاسمِ ، والسَّبَبِ والنَّسَبِ ، فانخدعَ في أوّلِ وهلةٍ وغُيِبَ عقله قبل أن يُغَيَّبَ دينه وماله ، وتضاعفت عليه البليّةُ بطولِ الحسرةِ ؛ فإنّ البلاءَ عارضٌ ومكتسبٌ ، فكانَ العارضُ السّماوى وما خوّلتَه الأقدارُ سرّاً بعدَ اجتهدِ صاحبه رأيَه ، وحيلته في طلبِ الخيرِ . وصوابُ تدييره فيه أسهلُ وأيسرُ على العاقلِ المعتادِ للصوابِ ، وإن كان كلُّ مكروهٍ مرّاً بشيئاً . وإنّما الكربُ اللازمُ والداءُ العيّا ما اجتمع على صاحبه مع الفجّية والحاجة ، والنّقصُ والدّلّةُ ، غمُّ النّدامةِ والأسفُ على ما فرط منه ؛ إذ كان الجاني على نفسه بيده .

(١) الحربِ العوانِ : التي قوتلَ فيها مرةً بعدَ مرةٍ . غارتَ : أفلتتَ وذُهِبتَ على وجهها . « غارت » ، تصعيفٌ .

(٢) في الأصل : « اللّقاء واللّقاءتين » . وفي ط : « عن اللّقاء واللّقاءتين » ، والوجه ما أثبت . وانظرَ لكلمةَ « اللّقاء » شرح الرضی للشافية ١ : ١٨٧ - ١٧٩ .

ولهذا الكلام نظرٌ نكره التطويل به ، والمعنى واحدٌ ، وإنما نحتاج من هذا ومثله - مما قدّمنا ذكره في الكتاب - إلى حفظ السرّ ووزن القول - وإلى هذا أجربنا ، وله قصدنا .

ولو اقتصرنا في هذا الكتاب على حرفٍ مما فيه ، لكان بإذن الله كافياً لمن له لبٌّ وعقل ، لكنّ الاحتجاج أوكد ، والإيضاح أبلغ ، والحظّ في هذا القول كلّهُ لمن عقله والآخِذ به ، أوفرُ [ منه <sup>(١)</sup> ] لمن قاله ولم يعمل بقوله ؛ لأنّه إنما يجتنى ثمرة الصواب ، ويختلِف برّاقه <sup>(٢)</sup> من صدّق قوله بفعله ؛ فإنّ الحكمة قول وعمل ، وإنما حظُّ القائل ما لم يستعمل علمه وقوله حظُّ الواصفين ؛ وحُسْن الصّفة يزول بزوالها ، وينقطع بانقطاعها ؛ ومدّتها - إلى أن يملّها القائل والسامع - يسيرة .

والأفعال الحمودة متّصلة النفع والشرف والفضيلة في الحياة وبعد الوفاة ، ومذخور <sup>(٣)</sup> للأعقاب ، وحديثٌ جميلٌ ، ونشرٌ باقٍ على مرّ الجديدين . وأكثر من ذلك كلّهُ توفيقُ الله وتسديده ؛ فإنّ القلوبَ في يده ، والخيراتِ مقسوماتٌ من عنده . وحسبنا الله ونعم الوكيل .

\* \* \*

(١) ليست في الأصل .

(٢) الاختلاف : الاستقاء . والرفق ، بالتحريك : الماء القصير الرشاء السهل المطلب .

(٣) ط : « ومذخورة » ، خلافاً لما في الأصل

تم كتاب كتمان السر من كلام أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، بعون الله  
وتأييده ، ومشيتته وتوفيقه . والله الموفق للصواب برحمته .

والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله الطيبين  
الطاهرين وسلامه .

---

٤

كِتَابُ

فَخْرُ السُّودَانِ عَلَى الْبِيضَانِ



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وهذه هي الرسالة الرابعة من رسائل الجاحظ ، وعنوانها :

« كتاب نحر السودان على البيضان »

ومن هذه الرسالة نسخ :

١ — نسخة الأصل ، وهي نسخة مكتبة داماد ، في ضمن مجموعة رسائل الجاحظ .

٢ — نسخة ثان فلوطن المنشورة في لندن ١٩٠٣ ، ورمزها « ن » .

٣ — نسخة الساسي ، ورمزها « س » .

وقد سبق التنبيه على أن هذه الرسالة في الأصل هي الرسالة الخامسة ، ولكن تكرار الرسالة الثانية بجعلها الرابعة في الأصل كافٍ سبباً في تغيير أرقام الرسائل بالنقص ، كما اضطررنا إلى أن نتخطى أرقام الأصل في الرسالة المكررة ، وثبتت الأرقام التي بعدها على جوانب النسخة ، فتبدأ هذه الرسالة بصفحة ( ٧٨ ظ ) .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٧٨ ظ

تولاك الله وحفظك ، وأسعدك بطاعته ، وجعلك من الفائزين برحمته .

ذكرت - أعاذك الله من الغش - أنك قرأت كتابي في مُحاجة<sup>(١)</sup> الشرحاء للهجّناء ، وردّ الهجّناء ، وجواب أحوال الهجّناء ، وأنّي لم أذكر فيه شيئاً من مفاخر السودان<sup>(٢)</sup> . فاعلم حفظك الله أنّي إنّما أخّرت ذلك متعمّداً .

وذكرت أنّك أحببت أن أكتب لك مفاخر السودان ، فقد كتبتُ لك ما حضرنى من مفاخرهم .

قال الأصمعيّ : قال الفِرَزُّ عبدُ فزارة<sup>(٣)</sup> وكانت في أذنه خُرْبة<sup>(٤)</sup> :  
إنّ الوثام<sup>(٥)</sup> يتترّع في جميع الطّمش<sup>(٦)</sup> : لا يقرب العنز الضّان ما وجدت

(١) في ن ، س : « محاكمة » .

(٢) الكلام بعده إلى كلمة « السودان » التالية ساقط من ن ، س .

(٣) النص في الحيوان ٢ : ٢٤٠ - ٣٤١ محرّفاً . وفيه « الفرير عبد بني فزارة » .

(٤) الخربة بالباء : ثقب شحمة الأذن؛ يقال عبد أخرب وأمة خرباء . وفي قول

ذى الرمة :

كأنه حبشى يتغى أثراً أو من معاشر في آذانها الحرب

وفي ن ، س : « خرّبة » ، والخرّبة بالناء تكون في الحديد من الفأس والإبرة .

وانظر ما سيأتى في ص ١٩٨ .

(٥) في جميع الأصول : « الأوام » ، صوابه ما أثبت . وانظر ما سيأتى

من الكلام على الرجز التالى . والوثام : الوفاق .

(٦) الطمش : الناس ، يقال ما أدرى أى الطمش هو ، أى الناس . وقد =

الماعز<sup>(١)</sup> ، وتنفر الشاء من المِخْطَب ولا تأنس بالخُفَّ<sup>(٢)</sup> .

وأنشد أبو زيد النحوي :

\* لولا الوثائم هلك الإنسان<sup>(٣)</sup> \*

وقال شَذَادُ الحارثي<sup>(٤)</sup> - وكان خطيباً عالماً - : قلتُ لأمةِ سوداء بالبادية : لمن أنتِ يا سوداء ؟ قالت : لسيّد الحَضَر يا أصلع . قال : قلت : أو لستِ سوداء ؟ قالت : أو لست أصلع ؟ قلت : ما أغضبكِ مِنَ الحق . قالت : الحقُّ أغضبكِ ، لا تشتمُّ حتى تُرهبَ<sup>(٥)</sup> ، ولأن تتركه أمثلُ .

وقال شَذَاد : لقد كلمتها وأنا أظنُّ أني أفِي بأهل نجد<sup>(٦)</sup> ، وما تَزَعَت عني إلا وأنا عند نفسي لا أفِي بأمتي .

وقال الأصمعيّ : قال عيسى بن عمر : قال ذو الرِّمّة : قاتل الله أمة آلِ فلانِ السوداء ، ما كان أفصحها وأبلغها ! سألتها كيف كان المطر عندكم ؟ قالت : غشنا ما شئنا<sup>(٧)</sup> .

= عني بالطمش هاهنا الخلق من إنسي ووحشي . والتترع : التسرع . وفي الحيوان : « يسرع » وفي ن ، س : « يتزع » .

(١) في الأصل : « ماوجيت » ، صوابه من الحيوان ، وبذلك صححت في س ، ن .

(٢) في الحيوان : « ولا تأنس » .

(٣) في الأصل : « الأوام » تحريف . صوابه في التخصص ١٢ : ١٥١ والقريب

المصنف ٣٨٨ . وانظر للمثل أساس البلاغة ( وأم ) وأمثال الميداني ٢ : ١١١ .

(٤) في الأصل : « وكان » ، صوابه في البيان ٢ : ٧١ حيث الخبر .

(٥) في البيان : « لا تسبب » ، من السبب .

(٦) أي في الفصاحة ، ويقال وفي به ، أي عادله ووازنه .

(٧) البيان ٢ : ٧١ ومجالس ثعلب ٣٤٨ .

## مناقب السودان

أَنَّ لِقَانَ الْحَكِيمِ مِنْهُمْ ، وَهُوَ الَّذِي يَقُولُ : ثَلَاثَةٌ لَا تَعْرِفُهُمْ إِلَّا عِنْدَ ثَلَاثَةٍ : الْحَلِيمُ عِنْدَ الْغَضَبِ ، وَالشُّجَاعُ عِنْدَ الْخُوفِ ، وَالْأَخُ عِنْدَ حَاجَتِكَ .  
وَقَالَ لِابْنِهِ : إِذَا أُرِدْتَ أَنْ تَخَالَطَ رَجُلًا فَأَغْضِبْهُ قَبْلَ ذَلِكَ ، فَإِنْ أَنْصَفَكَ وَإِلَّا فَاحْذَرِهِ .

وَلَمْ يَرَوْا ذَلِكَ عَنْهُ إِلَّا وَلَهُ أَشْيَاءُ كَثِيرَةٌ<sup>(١)</sup> . وَأَكْثَرُ مِنْ هَذَا مَدْحُ اللَّهِ إِيَّاهُ وَتَسْمِيَةُ الْحَكِيمِ ، وَمَا أَوْصَى بِهِ ابْنَهُ .

وَمِنْهُمْ : سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ<sup>(٢)</sup> ، قَتَلَهُ الْحِجَّاجُ قَبْلَ مَوْتِهِ بِسِتَّةِ أَشْهُرٍ وَهُوَ ابْنُ تِسْعٍ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً ، وَمَاتَ الْحِجَّاجُ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثٍ وَخَمْسِينَ سَنَةً . وَكَانَ سَعِيدٌ أَوْرَعَ الْخَلْقِ وَأَتْقَاهُمْ ، وَكَانَ أَعْظَمَ أَصْحَابِ ابْنِ عَبَّاسٍ . وَأَصْحَابُ الْحَدِيثِ يَطْعَنُونَ فِي الَّذِي يُجْبَى مِنْ قِبَلِ أَصْحَابِ ابْنِ عَبَّاسٍ حَتَّى يُجْبَى [ مِنْ<sup>(٣)</sup> ] سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ . وَأَبُوهُ مَوْلَى بَنِي أَسَدٍ ، وَهُوَ مَوْلَى بَنِي أُمَيَّةٍ ، وَقُتِلَ يَوْمَ قُتِلَ وَالنَّاسُ يَقُولُونَ : كُلُّنَا مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ .

وَمِنْهُمْ : بِلَالُ الْحَبَشِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، الَّذِي يَقُولُ فِيهِ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ

---

(١) انظر أقواله بتتبع فهارس البيان ، والحيوان ، وعيون الأخبار ، والتمثيل والمحاضرة وغيرها .

(٢) كان من موالى والبة ، وهم بطن من أسد بن خزيمه ، ولذا يقال في نسبه : الأسدى الوالى ، وهى نسبة ولأ . قتل الحجاج صبرا سنة ٩٥ . تهذيب التهذيب .

(٣) ليست فى الأصل .

رضى الله عنه : إن أبا بكرٍ سَيِّدُنَا وَأَعْتَقَى سَيِّدَنَا<sup>(١)</sup> ، وهو ثلث الإسلام .  
 ومنهم : مِهْجَع<sup>(٢)</sup> ، وهو أَوَّلُ قَتِيلٍ قُتِلَ بَيْنَ الصَّفَّيْنِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .  
 ومنهم : المَقْدَاد<sup>(٣)</sup> ، وهو أَوَّلُ مَنْ عَدَا بِهِ فَرَسُهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .  
 ومنهم : وَحْشَى<sup>(٤)</sup> قَاتِلُ مُسَيْلَمَةَ الْكَذَّابِ . وكان يقول : قَتَلْتُ خَيْرَ  
 النَّاسِ - يَعْنِي حَمْزَةَ بْنَ عَبْدِ الْمَطْلَبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَقَتَلْتُ شَرَّ النَّاسِ - يَعْنِي  
 مُسَيْلَمَةَ الْكَذَّابِ .

ومنهم : مَكْحُولُ الْفَقِيهِ<sup>(٥)</sup> .

ومنهم : الْحَيْقُطَانُ الشَّاعِرُ<sup>(٦)</sup> ، الَّذِي كَانَ يَفْضُلُ فِي رَأْيِهِ وَعَقْلِهِ وَهَمَّتِهِ .  
 وَهُوَ الَّذِي يَقُولُ فِي الْإِخْوَانِ : لَا تَعْرِفُ الْأَخَّ حَتَّى تَرِافِقَهُ فِي الْحَضَرِ ، وَتُزَامِلَهُ  
 فِي السَّفَرِ .

(١) العثمانية للجاحظ ٣٢ ، ١٨٠ .

(٢) في الأصل : « عهجع » ، صوابه في السيرة ٤٩٠ والإصابة ٨٢٥٥ ومحاضرة  
 الأوائل للسيوطي ٤٨ . وهو مولى عمر ، قال ابن هشام : « وكان أول قتيل من  
 المسلمين بين الصفين يوم بدر » .

(٣) المقداد بن الأسود الكندي ، كان أبوه عمرو بن ثعلبة حليفاً لكندة  
 فتزوج منهم امرأة فولدت له المقداد ، فلما كبر للمقداد وقع شريينه وبين أبي شمر  
 الكندي فضرب رجله بالسيف وهرب إلى مكة فخالف الأسود بن عبد يغوث  
 الزهري ، وتبناه الأسود فعرف به أولاً ، فلما نزلت « ادعواهم لأبائهم » رجع إلى  
 نسبه ف قيل المقداد بن عمرو . توفي في خلافة عثمان سنة ٣٣ . الإصابة ٨١٧٩ .

(٤) وحشى بن حرب الحبشى ، مولى بني نوفل .

(٥) يبدو أنه من سودان النوبة ، ففي تهذيب التهذيب أنه كان لرجل من هذيل  
 من أهل مصر فأعتقه . ويقال كان من الفرس ، واسم أبيه سهراب . توفي سنة ١١٢ .

(٦) ذكره في البيان ١ : ١٣٠ ، ٣٢٨ . قال الجاحظ : « وكان خطيباً  
 لا يبارى » . وأصل معنى الحيقطان طائر الدراج ، أو الذكر منه .

ومنهم : جُلَيْبِبٌ<sup>(١)</sup> الذي تحدّثت الرّواة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج في غزاة فقال لأصحابه : هل تفقدون من أحد ؟ قالوا : نفقد فلاناً وفلاناً . ثم خرج فقال : هل تفقدون من أحد ؟ قالوا : نفقد فلاناً وفلاناً . ثم خرج فقال : هل تفقدون من أحد ؟ قالوا في الثالثة : لا . قال : لكنّي أقد جُلَيْبِبًا ، اطلبوه . فطلبوه فوجدوه بين سبعة قد قتلهم ثم قُتِل . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « قتل سبعة ثم قتلوه . هذا منّي وأنا منه » . قال : ثمّ حمّله على ساعديه حتّى حفروا له ، ماله سريرٌ غير ساعديّ رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : ولم يذكرُوا غُسلًا .

ومنهم : فرجُ الحَجَّامِ<sup>(٢)</sup> وكان من أهل المدّالة ، والمقدّمين في الشّهادة . اعتقه جعفر بن سليمان ؛ وذلك أنّه خدمه دهرًا يصلح شاربه ولحيته ويهيئته ، فلم يره أخطأ في قول ولا عمل ، فقال : والله لأمتحنّه ، فإن كان ما أرى منه عن تدبير وقصدٍ لأعتقنه ولأزوّجنه ولأغنيّه . وإن كان على غير ذلك عرفتُ الصُّنعَ فيه . فقال له ذات يوم وهو يحجمه : يا غلام ، أتمتجم ؟ قال : نعم . قال : ومتى ؟ قال : عند الحاجة . قال : وتعرف ذلك ؟ قال : أعرف أكثره وربّما غلِطت . قال : فأى شيء تأكل ؟ قال : أمّا في الشتاء

(١) تصغير جلباب . ذكر ابن حجر في الإصابة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم زوجه أنصارية ، ونزل في قصته قوله تعالى : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم » . الأحزاب ٣٦ . وكانت أمها أبت أن زوجها من جليبيب بعد خطبة الرسول إليها جليبيب . تفسير ابن كثير ٣ : ٤٨٩ — ٤٩٠ .

(٢) الخبر في الحيوان ٧ : ٢٦١ — ٢٦٢ .

فدا كبراه<sup>(١)</sup> خاترة حلوة . وأما في الصَّيف فسِكْبَاجَةٌ حامضة عذبة<sup>(٢)</sup> . فبلغ به جعفر بن سليمان ما قال . وهو الذي يقول فيه أبو فرعون<sup>(٣)</sup> :

خَلُّوا الطَّرِيقَ زَوْجَتِي أُمَامِي أَنَا حَمِيمُ فَرِجِ الْحَبَّةِ سَامِ<sup>(٤)</sup>

قال : وبلغ من عدالته ونبله في نفسه وتوقيه وورعه ، أن مواليه من ولد جعفر وكبار أهل المربد ، كانوا لا يطعمون أن يشهدوه إلا على أمر صحيح لا اختلاف فيه .

وأما الحَيْقُطَانُ فقال قصيدةً تحتجُّ بها اليمانية على قُريش ومضر ، ويحتجُّ بها المعجم والحُبش على العرب ، وكان جريرُ رآه يومَ عيدٍ في قيص أبيص وهو أسود ، فقال :

(١) كذا . وفي الحيوان : « فديجبرجة » . وفي كتاب الطبخ للبغدادى ١٢ « ديكريكة » . قال : « وصنعها أن يقطع اللحم وسطاً ، ويترك في القدر ، ويلقى عليه يسير ملح وكف حمص مقشور ، وكسفرة يابسة ورطبة ، وبصل مقطع ، وكراث ، ويطرح عليه غمره ماء ويغلى ، ثم تؤخذ رغوته ويلقى عليه خل خمر ومرى ، ويلقى فيه فلفل مسحوق ناعماً ويطبخ حتى يبين طعمه . ومن الناس من يحليه بقليل سكر » . وقال محققه داود الجلبى أن اسمه مأخوذ من الآرامية ومعناه الديك المبارك .

(٢) السكباج ، ويقال له الخلية ، والمخللة ، والصفصافة ، وهو لحم يعالج بالخل والتوابل ونحوها ويضاف إليه أحياناً الزعفران والسذاب . انظر صنعة في كتاب الطبخ للبغدادى ص ٩ — ١٠ ومحاضرات الراغب ١ : ٢٩٢ .

(٣) ذكره الجاحظ أيضاً في الحيوان ٦ : ٧٨ . وذكره ابن النديم في الفهرست ٢٣٣ في جماعة من الشعراء المقلين وقال « أبو فرعون الشاشي . ثلاثون ورقة » . يعنى أن شعره في ثلاثين ورقة . وانظر بعض أخباره وشعره في طبقات الشعراء لابن المعتز ٣٧٦ — ٣٧٩ .

(٤) في الأصل : « أنا حمام » . صوابه في الحيوان ٧ : ٢٦٢ .

كانه لما بدا للناس أير حمار لُف في قرطاس<sup>(١)</sup>  
فلما سمع بذلك الحيقطان وكان باليمامة ، دخل الى منزله فقال هذا الشعر :

لئن كنت جعد الرأس والجلد فاحم  
فإني لَسَبُط الكف والمرض أزهر<sup>(٢)</sup>

وإن سواد اللون ليس بضأري  
إذا كنت يوم الرّوع بالسيف أخطر  
فإن كنت تبغى الفخر في غير كنهه  
فرهط النجاشي منك في الناس أنخر<sup>(٣)</sup>

و ٨٠

تأبى الجندى وابن كرى وحارث  
ومـودة القبطى والشيخ قيصر  
وفاز بها دون الملوك سعادة  
فدام له الملك المنيع الموفر  
ولقمان منهم وابنه وابن أمه  
وأبرهة الملك الذى ليس ينكر  
غزاكم أبو بكـوم في أم داركم  
وأشم كقبص الرمل أو هو أكثر<sup>(٤)</sup>

(١) لم يرد البيت في ديوان جرير .

(٢) أزهر : أبيض نقى . (٣) كنه الشيء : حقيقته .

(٤) القبص : العدد الكثير ، يقال : إنهم لفي قبص الحصى . وقال الكهيت :

لکم مسجدا الله الزوران والحصى لكم قبصه من بين أترى وأقرا

وفي الأصل : « فيض » ، تحريف .



وَأَنْتُمْ كَطَيْرِ الْمَاءِ لَمَّا هَوَى لَهَا      بِيَأْقَمِي ، حُجْنُ الْمُخَالِبِ أَكْدَرُ<sup>(١)</sup>  
فَلَوْ كَانَ غَيْرُ اللَّهِ رَامَ دَفَاعِهِ      عَلِمْتَ وَذَوَالْتَجَرِيبِ بِالنَّاسِ أَخْبَرُ<sup>(٢)</sup>  
وَمَا الْفَخْرُ إِلَّا أَنْ تَبَيَّنُوا إِزَاءَهُ      وَأَنْتُمْ قَرِيبٌ نَارَكُمْ تَنْسَعَرُ  
وَيَدْلُفُ مِنْكُمْ قَائِدُ ذُو حَفِيزَةِ      نُكَاحُهُ طَوْرًا وَطَوْرًا يَدْبَرُ  
فَأَمَّا الَّتِي قُلْتُمْ فَتِلْكَ نَبِوَةٌ      وَلَيْسَ بِكُمْ صَوْنُ الْحَرَامِ الْمَسْرُ<sup>(٣)</sup>  
وَقُلْتُمْ لَقَاحٌ لَا تُؤْدِي إِيَّانَاوَةً      فإِعْطَاهُ أَرْيَانٌ مِنَ الْفَرِّ أَيْسَرُ<sup>(٤)</sup>  
وَلَوْ كَانَ فِيهَا رَغْبَةٌ لَتَوَجَّجَ      إِذَا لَأَتَبَهَا بِالْمَقَاوِلِ حَمِيرُ<sup>(٥)</sup>  
وَلَيْسَ بِهَا مَشْيٌ وَلَا مَتَصِفٌ      وَلَا كَجَوْثَانًا مَاوَهَا يَتَفَجَّرُ<sup>(٦)</sup>

(١) حُجْنُ الْمُخَالِبِ ، أى حُجْنُ مَخَالِبِهِ . و«أَل» بدل من الضمير والحُجْنُ : جمع أحجَن ، وهو المعوج . وفي الأصل : « حَجَر » تحريف .  
(٢) أى هم قوم لا يستطيع أحد دفع غرهم ومجدهم . فأنت لو حاولت هذا الدفاع علمت عاقبة ذلك .

(٣) أى صِينُ الْبَيْتِ الْحَرَامِ ذُو السُّتُورِ . وصون : لغة فى صِين ، وهى لغة بنى قُصْعٍ وَبَنَى دِير ، كما فى قوله :

\* لَيْتَ شَبَابًا بَوَّعَ فَاشْتَرَيْتَ \*

وَقُلْتُمْ ، لَعَلَّهَا « نَلْمُ » .

(٤) اللَّقَاحُ ، كَسْعَاب : الْقَوْمُ لَمْ يَدِينُوا لِلْمُلُوكِ وَلَمْ يَصْبِهِمْ فِي الْجَاهِلِيَةِ مَبَاءٌ .  
وَالْأَرْيَانُ ، بِالْفَتْحِ : الْخَرَجُ وَالْإِيَّانَاوَةُ . كَمَا فِي اللِّسَانِ (أَرَى) . وَفِي ن ، س :  
« أَرْيَانٌ » بِالْبَاءِ ، وَلَيْسَ بِشَيْءٍ ، فَإِنَّهُ يَمَعْنَى الْعَرَبِيُونَ . وَأَرَادَ : أَيْسَرُ مِنَ الْفَرِّ .

(٥) فِي الْأَصْلِ « لَانْهَا » بِهَذَا الْإِهْمَالِ . وَالْمَقَاوِلُ : جَمْعُ مَقُولٍ ، بِالْكَسْرِ ،  
وَهُوَ الْقِيلُ لِلْمَلِكِ مِنْ مَلُوكِ حَمِيرٍ .

(٦) جَوْثَانًا ، وَيُقَالُ جَوْثَانًا أَيْضًا : حَصْنٌ لِعَبْدِ الْقَيْسِ بِالْبَحْرَيْنِ .

ولا مرتع للعين أو متقنص ولكن تجرأ ، والتجارة تُحقر  
ألت كليليئا وأمك نعمة لكم في سمان الضان عار ومفخر  
أما قوله :

تأبى الجندى وابن كسرى وحارث  
وهوذة والقبطى والشيخ قيصر

فإنه يقول : كتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى بنى الجندى<sup>(١)</sup> فلم يؤمنوا  
وكذلك كسرى ، وكذلك الحارث بن أبى شمر ، وكذلك هوذة بن على الحنفى ،  
وكذلك المقوقس عظيم القبط صاحب الإسكندرية ، وكذلك قيصر ملك الروم .  
على أن بنى الجندى قد أسلموا من بعد ذلك الكتاب ، ولكن النجاشى  
أسلم قبل الفتح ، فدام له ملكه ونزع الله من هؤلاء النعمة . وقيصر إن كان  
قد بقى من ملكه شئ فقد أخرجوه من كل مكان يبلغه ظلف أو حافر ،  
وصار لا يتمنع إلا بالخليج وبالعباب والحصون<sup>(٢)</sup> وبالشتاء والثلوج والأمطار .  
ونغر بلقان وابنه .

وأما قوله :

غزاكم أبو يكسوم فى أم داركم  
وأتم كقيص الرمل أو هو أكثر<sup>(٣)</sup>

(١) وكذا ورد فى أصول الحيوان ١ : ٩٨ ، والمعروف أنهما ابنا الجندى ،  
فى السيرة ٩٧١ : « وبعث عمرو بن العاص السهمى إلى جيفر وعياد ، ابني الجندى  
الأزددين ملكى عمان . ومثله فى الإصابة ١٣٠٥ .

(٢) العباب : جمع عقبة وهى الجبل الطويل يعرض للطريق فيأخذ فيه .

(٣) فى الأصل : « كقيص الرمل » . وانظر ما سبق فى حواشى ١٨٣ .

فإنه يعني صاحب الفيل حين أتى مكة ليهدم الكعبة . يقول : كنتم في عدد الرمل ، فلم فررتم منه ولم يلقه أحدٌ منكم حتى أفضى إلى مكة ، ومكة أم القرى ، ودارُ العرب ، هي جزيرة العرب ، ومكة قرية من قراها ، ولكن لما كانت أقدمها قدما ، وأعظمها خطرا ، جعلت لها أمنا . ولذلك قيل لفتح مكة : فتتح الفتوح . وعلى منهل ذلك سُميت فاتحة الكتاب : أم الكتاب .

والعرب قد تجعل الشيء أمَّ ما لم يَلِدْ . من ذلك قوهم : ضربته على أمَّ رأسه ، وكذلك أمَّ الهاوية<sup>(١)</sup> . والضيف يسمى ربة منزله أمَّ مثنوى . وقال أعرابيٌّ وقد أصابته براغيثُ عند امرأةٍ كان نزل بها<sup>(٢)</sup> :

يا أمَّ مثنوى عِدِمْتُ وجهك      أنقذني ربُّ العَلا من مصركِ  
ولذِج بُرغوثٍ أراه مُهاكي      أبيتُ ليلي دائبَ التحكك<sup>(٣)</sup>  
\* تحكك الأجرع عند المبرك \*

وقد أبان الله تعالى مكة والبيت حين قال : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِمَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴾<sup>(٤)</sup> .

(١) كذا . وفي الكتاب العزيز : « فأمه هاوية » . وهاوية والهاوية اسم من أسماء جهنم . وقيل معنى فأمه هاوية ، أي أم رأسه نهوى في النار ، قل ابن بري : لو كانت هاوية اسماعلا للنار لم ينصرف .

(٢) الرجز التالي في الحيوان ٥ : ٣٩١ .

(٣) في الحيوان : « دأب التحكك » .

(٤) الآية ٩٦ من سورة آل عمران .

يقول : فإذا غزيت - وهي أم القرى وفيها البيت الحرام الذي هو شرفكم - فقد غزى جميعكم<sup>(١)</sup> .

وأما قوله :

وأما التي قُلتُم فقلتم نبوةً وليس بكم صون الحرام المستر  
[ وقلم لقاح لا تؤدى إتاوة فإعطاء أربان من الفرأيسر<sup>(٢)</sup> ]  
فالقاح : البلد الذي لا يؤدى إلى الملوك الأربان<sup>(٣)</sup> . والأربان : هو الخراج ، وهو الإتاوة . وفي ذلك يقول عبيد بن الأبرص :

أبوا دين الملوك فم لقاح إذا نديوا إلى حرب أجابوا

قال : فقلتم إنا لقاح ولنا تؤدى الخراج والأربان .

٨١ و

قال : فإعطاء الخراج أهون من الفرار وإسلام الدار وأتم مثل عدد من جاءكم المرار الكثيرة .

وأما قوله :

وليس بها مشى ولا متصيف ولا كجؤاثا ماؤها يتفجر

يقول : ليس في الغلبة على مكة رغبة ، ولولا ذلك لغزاها أهل اليمن وغيرهم . وليس بها مشى ولا متصيف ؛ لأنهم يتبرّدون بالطائف ويتدفّون بجدة . وجؤاثا : عين بالبحرين . وليس بمكة شيء يدانى ذلك .

(١) في الأصل : « غزا جميعكم » .

(٢) لم يرد هذا البيت في الأصل ، والكلام الثاني يتعلق به .

(٣) انظر ما سبق في الحاشية الرابعة من ص ١٨٤ . والكلمة واضحة في الأصل بالياء المثناة .

وقال :

ولا مرتعٌ للعين أو متقنٌ ولكن تجراً والتجارة تُحقرُ  
يقول : ليس بها منزّهات ، وصيدها حرام ، وإنما بها تجار والتجار  
يُحقرُون . يقول : هم عند الناس في حدّ الضعف ولا يستجيز ملكٌ أخذَ الذي  
به يتعيشون ، ولا يكون ما يؤخذ منهم يقوم بنواثب الملوك<sup>(١)</sup> ، وهم قوم<sup>(٢)</sup>  
ليس عندهم امتناعٌ . ولذلك يقول الشاعر معاوية بن أوس ، وهو جاهليٌّ :  
وزِقٌ سبأتُ لَدَى مَتَجَرٍ أَسْيُودَ كَالرَّجُلِ الْأَسْحَمِ<sup>(٣)</sup>  
ضربتُ بِفِيهِ عَلَى نَحْرِهِ وَقَامَهُ كَكَيْدِ الْأَجْدَمِ  
إِلَى التَّاجِرِ الْعَرَبِيِّ الشَّحِيحِ أَوْ خَرِيذِي النَّطْفِ الطَّمْطِمِ<sup>(٤)</sup>  
أراد بهذا كله قريشاً<sup>(٥)</sup> . يقول : هم تجار وقد اعتصموا بالبيت ، وإذا  
خَرَجُوا عَلَّقُوا عَلَيْهِمُ الْمَقْلَ وَلَحَاءَ الشَّجَرِ<sup>(٦)</sup> حَتَّى يُعْرِفُوا فَلَا يَقْتُلُهُمْ أَحَدٌ .

(١) يعني حاجاتهم وتفقائهم . وأصل الناثبة ما ينوب الإنسان أي ينزل به من  
المهمات والحوادث .

(٢) هو معاوية بن أوس بن خلف التميمي ، وهو ابن أبي حارثة المري . ترجم  
له الرزباني في معجمه ٣٩٢ وذكر له أياتاً أخرى من هذه القصيدة .

(٣) وقع في ن ، س : « ورزق » ، تحريف . والرزق : السقاء ، وهو أيضاً  
ما تنقل فيه الحمر . وسبأ الحمر : اشتراها ، أو حملها من بلد إلى آخر .

(٤) الشحيح : البخيل ، يعني أنه يغالي في ثمن الحمر . والنطف ، بالتحريك : جمع  
نطفة ، وهي القرط . قال الأعشى :

يسعى بها ذو زجاجات له نطف مقلص أسفل السربال معتمل  
والطمطم : الأعجمي الذي لا يفصح .

(٥) في الأصل ، ون ، س : « قريش » .

(٦) أشير في الأصل إلى أنها في نسخة « السمر » . هذا وليس في نص الشعر  
التقدم ما يقتضي هذا التفسير من تعليق القل ولحاء الشجر .

وأما قوله :

أَلَسْتُ كَلَيْبِيًّا وَأَمُّكَ نَعْجَةٌ لَكُمْ فِي سِمَانِ الضَّانِ عَارٌ وَمَفْخَرٌ  
فَإِنَّ بَنِي كَلَيْبٍ يُرْمَوْنَ بِإِتْيَانِ الضَّانِ ، وَكَذَلِكَ بَنُو الْأَعْرَجِ ، وَسَلِيمٌ .  
وَأَشْجَعُ تَرْمَى بِإِتْيَانِ الْمَغَزِ .

وقال النّجاشي :

وَلَوْ شَتَمْتَنِي مِنْ قُرَيْشٍ قَبِيلَةٌ سِوَى نَاكَةِ الْمِعْزَى سُلَيْمٌ وَأَشْجَعُ  
وقال الفرزدق :

وَلَسْتُ مَضْحَكِيًّا مَادَمْتُ حَيًّا بَشَاةٍ مِنْ حَلَوِيَّةٍ أَعْرَجِيٌّ<sup>(١)</sup>  
فَمَا أَدْرَى إِذَا أَنْفَقْتُ مَالِي لَعَلَّ الشَّاةَ تُبْقِرُ عَنْ صَبِيٍّ<sup>(٢)</sup>  
وقال الآخر :

إِذَا أَحْبَبْتَ أَنْ تُفْلِي أُنَانًا فَذُلُّ الدَّارِمِيِّ عَلَى شِرَاهَا  
يُقْبَلُ ظَهْرَهَا وَيَسْكَادُ لَوْلَا قُحُولُ الظَّهْرِ يَدْنُو مِنْ قَفَاهَا  
وَوَدَّ الدَّارِمِيُّ لَوْ أَنَّ فَاهُ إِذَا نَالَ الْحَمَارَةَ نَالَ فَاهَا<sup>(٣)</sup>  
وقال عبد بن رشيد :

قَبِيلَةُ سَوْدٍ خَيْرٌ مِنْهُمْ مِثْلُ شَرِّهِمْ تَرَى مِنْهُمْ لِلضَّانِ خَلًّا وَرَاعِيَا  
إِذَا جُلِيتْ فِيهِمْ عُرُوسٌ لِبَعْلَاهَا تَرَى النَّعْجَةَ الْبَقْعَاءُ أَبْكَى الْبَوَاكِيا<sup>(٤)</sup>

(١) البيتان مما لم يرو في ديوان الفرزدق .

(٢) تبقر : يشق بطنها . وفي الأصل : « تبعر » .

(٣) في الأصل ، س « الحمار ينال » . وفي ن : « تنال فاهها » ، والوجه ما أثبت .

(٤) في الأصل : « عروسا » .

ولذلك قال الأخطل :

فانتق بضائك ياجريرُ فإنما منتك نفسك في الخلاء ضالا<sup>(١)</sup>

ولذلك قال الحيقطان :

أست كليبيا وأمك نعمة لها في سمان الضان عار ومفخر

أما العار فالذى شاع عليهم من ذكر النعاج . وأما المفخر يقول : إذا  
فخروا فخروا بالشاء ، ولا يبلغون إلى حد الإبل .

ومن مفاخر السودان والزنج والحبش مع ما ذكرنا من قصيدة الحيقطان ،  
أن جرير بن الخطفي لما هجا بني تغلب<sup>(٢)</sup> قال :

لا تطلبن خولة في تغلب فالزنج أكرم منهم أخوالا<sup>(٣)</sup>  
غضب سنيح بن رباح<sup>(٤)</sup> شار<sup>(٥)</sup> ، فهجا جريرا ، ونخر عليه بالزنج فقال :  
ما بال كلب من كليب سبنا أن لم يوازن حاجبا وعقالا<sup>(٦)</sup>

(١) ديوان الأخطل ٥٠ وابن سلام ٤٢٩ واللسان (نعق) . وفي الأصل  
« فانه » ، تحريف .

(٢) ليست في الأصل .

(٣) ديوان جرير ٤٥٣ والبيان ٤ : ٨٢ والكامل ٥١٤ .

(٤) في الكامل ٥١٤ : « رباح بن سنيح الزنجي مولى بني ناجية » . ويقال أيضا  
رباح بن سبيح ، وسبيح بن رباح ، كما في اللسان (طول) . وقال ابن الأثير في الكامل  
٤ : ١٦١ في ذكر فتنة الزنج أيام مصعب بن الزبير : « وجعلوا عليهم رجلا اسمه  
رباح ، ويلقب شيرزنجي ، يعني أسد الزنج » .

(٥) في الأصل « سار » ، وإعجابه مما سيأتي . وفي الحيوان ١ : ٢٧٠ :

« السارنجي » . وفي ٧ : ٢٠٥ : « السارزنجي » .

(٦) في الأصل : « توازن » ، صوابه في الكامل واللسان . يعني جريرا =

إِنَّ امْرَأً جَعَلَ المِرَاغَةَ وابْنَهَا  
وَالزَّيْجُ لَوْ لَاقَيْتَهُمْ فِي صَفِّهِمْ  
فَسَلِ ابْنَ عَمْرٍو حِينَ رَامَ رِمَاحَهُمْ  
فَجَعُوا زِيَاداً بَابِنِهِ وَتَسَارَلُوا  
وَمُرَبِّطِينَ خِيُولَهُمْ بِفِنَائِهِمْ  
كَانَ ابْنُ نَدْبَةَ فِيكُمْ مِنْ نَجْلَانَا  
وَابْنَا زُبَيْبَةَ : عَنَّا وَهَرَاسَةَ  
سَلِ ابْنَ جَيْفَرٍ حِينَ رَامَ بِلَادَنَا  
وَسُلَيْكَ اللَّيْثُ الْهَزْبَرُ إِذَا عَدَا  
هَذَا ابْنُ خَازِمٍ ابْنُ عَجَلَى مِنْهُمْ  
أَبْنَاءُ كُلِّ نَجِيمةٍ لَنَجِيمةٍ  
فَلَنَحْنُ أَنْجَبُ مِنْ كَلِيبِ خُوُولَةٍ  
وَبَنُو الْحُبَابِ مَطَاعِنُ وَمَطَاعِمُ

مِثْلَ الْفَرَزْدَقِ جَائِزٌ قَدْ قَالَ<sup>(١)</sup>  
لَاقَيْتَ نَمَّ جَعَّاجَةً أَبْطَالَا  
أَرَأَى رِمَاحَ الزَّيْجِ نَمَّ طَوَالَا  
لَمَّا دَعُوا النَّزَالَ نَمَّ نَزَالَا<sup>(٢)</sup>  
وَرَبَّطْتَ حَوْلَكَ شَيْئًا وَسِغَالَا<sup>(٣)</sup>  
وَحُفَافُ الْمُتَحَمِّلُ الْأَثَالَا  
مَا إِنْ نَرَى فِيكُمْ لَكُمْ أَمْثَالَا  
فَرَأَى بَغْزَوْتَهُمْ عَلَيْهِ خَبَالَا  
وَالْقَرْمُ عَبَّاسٌ عَلَوْكَ فَعَالَا  
غَابَ الْقِبَائِلُ نَجْدَةً وَنَوَالَا  
أَسَدٌ تَرْبَّبَ عِنْدَهَا الْأَشْبَالَا  
وَلَأَنْتَ الْأُمُّ مِنْهُمْ أَخْوَالَا  
عِنْدَ الشَّاءِ إِذَا تَهَبَّ شَمَالَا<sup>(٤)</sup>

= وجاء في قول الأخطل (ديوانه ٥٠ وابن سلام ٤٢٩) مخاطباً لجرير :

منتك نفسك أن تكون كدارم أو أن توازن حاجباً وعقالا

وحاجب هو حاجب بن زرارة بن عدس بن زيد بن عبد الله بن دارم ، من  
رهط الفرزدق ، وكثيراً ما افتخر به . وأما عقال فهو جد الفرزدق ، فإن اسمه همام  
ابن غالب بن صعصعة بن ناجية بن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع بن دارم .

(١) المِرَاغَةُ : الأتان ، وهو لقب لقبها به الفرزدق ، كما في القاموس . قال ،  
بالفاء : أخطأ رأييه وضعف . وفي الأصل : « قالا » تصحيف .

(٢) زياد ، هو والد حفص بن زياد بن عمرو .

(٣) الشيه ، كسيد : جمع شاة . وفي الأصل : « اشأ » تحريف .

(٤) في الأصل : « الحنات » ، ولكن تعقيب الجاحظ فيها بعد ، يعين أنه

« الحباب » .



أما ابن عمرو الذي ذَكَرَ ، فهو حفص بن زياد بن عمرو العتكي ،  
كان خليفة أبيه على شرطة الحجاج ، فقلب رباح شار الزنجي<sup>(١)</sup>  
على الفُرات ، فتوجّه إليه حفص بن زياد فقتله رباح وقتل أصحابه  
واستباح عسكره .

وأما ابن جيفر فهو النعمان بن جيفر بن عباد بن جيفر بن الجُلندي .  
كان غزا بلاد الزنج فقتلوه وغنموا عسكره .

ثم ذكر أبناء الزنجيات حين نزعوا إلى الزنج في البسالة والأنفة<sup>(٢)</sup> .  
فذكر خُفاف بن ندبة ، وعبّاس بن مردّاس ، وابني شداد : عنبرة الفوارس  
وأخاه هراسة ، وسُليك بن الشلكة . فهؤلاء أسدُّ الرجال ، وأشدُّهم قلوباً  
وأشجعهم بأساً ، وبهم يضرب المثل .

ومنهم : عبدالله بن خازيم السُلّمي ، وبنو الحباب : عمير بن الحباب وإخوته<sup>(٣)</sup> .  
وكان أيضاً منهم : الججّاف بن حكيم<sup>(٤)</sup> .

٨٢ ظ

وهم أيضاً يفخرون برّباح أخى بلال وحاله وصلاحيه .  
ويفخرون بعامر بن فهيرة<sup>(٥)</sup> ، بدرى استشهد يوم بئر معونة ، فرآه  
الناسُ قد رفعه الله بين السماء والأرض ، فليس له في الأرض قبر .

(١) انظر ما سبق في حواشي ص ١٩٠ .

(٢) في الأصل : « في الأصالة والأنفس » ، والوجه ما أثبت .

(٣) انظر الاشتقاق ٣٠٨ ، ٣٣٩ ، وجمهرة ابن حزم ٣٦٤ ، ٣٠٥ .

(٤) الاشتقاق ٣٠٨ ، وجمهرة ابن حزم ٢٦٤ .

(٥) كان مولى لأبي بكر الصديق ، ولذا جاء في نسبه التيمى . انظر الإصابة

٤٤٠٨ ، وقال ابن هشام : عامر بن فهيرة مولى من موالى الأسد ، أسود ، اشتراه

أبو بكر رضى الله عنه منهم . السيرة ١٦٤ . فكأنه أزدي وتيمى .

ومنهم : آل ياسر<sup>(١)</sup> .

قالوا : ومنا الغداف صاحب عبيد الله بن الحر . لم يكن في الأرض  
أشد منه : كان يقطع على القافلة وحده بما فيها من الحماة والخفراء .  
وكمبويه صاحب المغيرة بن الفزr ، كان مثلاً في الشجاعة .

ويقولون : ومنا مرّج الأشرم ، غلام أبي بحر القائد ، الذي كان قديم  
من الشام أيام قتيبة بن مسلم ، وكان لا يرّام لقاءه ، وأمره مشهور .

قالوا : ومنا المغول وبنوه ، وهم من الخول ، ليس في الأرض أعرف<sup>(٢)</sup>  
ولا أثقف ولا أعلم بالبادية منهم .

قالوا : ومنا أفاح ، الذي قطع على القوافل بخراسان وحده عشرين سنة .  
قالوا : وإنما قتله مالك بن الرّيب ، لأنّه وطئه في جوف الليل وهو سكران  
خائر<sup>(٣)</sup> . والشاهد على قولنا قول ابنه :

أمالكُ لولا الشكر أيقنت أنّه

أخو الورد أو يُربي على الأسد الورد<sup>(٤)</sup>

قالوا : ونحن قد ملكنا بلاد العرب من لدن الحبشة إلى مكة ،

(١) كان منهم عمار بن ياسر حليف بني مخزوم . وكانت أم عمار مولاة لهم  
يقال لها سمية . الإصابة ٥٦٩٩ .

(٢) في الأصل : « أشرف » .

(٣) يقال هو خائر النفس ، أى ثقيلها غير طيب ولا نشيط ، وذلك من أثر  
الحمار . في الأصل وسائر النسخ : « حاسر » والوجه ما أثبت .

(٤) الورد : مالونه الوردية بالضم ، وهى حمرة تضرب إلى صفرة حسنة .

( ١٣ - رسائل الجاحظ )

وَجَرَتْ<sup>(١)</sup> أَحْكَامُنَا فِي ذَلِكَ أَجْمَع . وَهَزَمْنَا ذَا نُوَيْسَ ، وَقَتَّلْنَا أَقْيَالَ حَمِير .  
وَأَنْتُمْ لَمْ تَمْلِكُوا بِلَادَنَا . وَقَدْ قَالَ شَاعِرُكُمْ :

وَحَرَّبَ غَمْدَانًا وَهَدَّمَ سَقْفَهُ

رِبَاطًا بِأَجْنَادٍ وَصَوْلَتْهُ هَضْرُ<sup>(٢)</sup>

أَطَافَتْ بِهِ الْأَحْبُوشُ لَيْلًا فَقَوَّضُوا

بِنَا شَدَّةَ الْأَقْيَالِ فِي سَالِفِ الدَّهْرِ<sup>(٣)</sup>

يَجْمَعُ مِنَ الْيَكْسُومِ سُودَ كَانْتَهُم

أَسُودُ الشَّرَى اجْتَابَتْ جُلُودًا مِنَ النَّمْرِ<sup>(٤)</sup>

قَالُوا : وَمَنَا كَبَاجِلًا ، لَمْ يَصْعَدْ نَهْرُ سَلِيمَانَ وَلَا قَاتَلَ فِي الْخَارِجَاتِ<sup>(٥)</sup> أَحَدٌ

قَطُّ يَشْبَهُهُ .

(١) ن ، س : « ومرت » .

(٢) رباط ، يعني به أرباط الحبشى . وفي السيرة ٢٦ : « وبينون وسلحين  
وغمدان من حصون اليمن التي هدم أرباط ، ولم يكن في الناس مثلها » . وانظر الإكليل  
للهمداني ٨ : ٣٩٥ . وفي الأصل وسائر النسخ : « رباط » ، تحريف . وفي البيت  
إقواء ظاهر .

(٣) الأحبوش : الحبش . والبنا : مقصور البناء . وفي ن ، س : « بنا شدة »  
تحريف .

(٤) اليكسوم ، أراد بهم الحبشة . والأصل في ذلك كنية أبرهة الأشرم ، إذ  
كان يكنى أبا يكسوم ، ويكسوم اسم ابنه كما في التنبيه والإشراف ص ٢٢٦ والسيرة  
٤٢ . وفي ذلك يقول لبيد ، وهو يعني أبرهة ، كما في اللسان ( كسم ) :  
لو كان حي في الحياة مخدا في الدهر ألفاء أبو يكسوم

(٥) يعني بها البارزات ، وهو أن يخرج كل من الفارسيين لصاحبه فيبارزه .

قالوا : ومِنَّا الأربعمون الذين خَرَجُوا بِالْفُرَاتِ أَيَّامَ سَوَّارِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْقَاضِي ، فَأَجَلَوْا أَهْلَ الْفُرَاتِ عَنْ مَنَازِلِهِمْ ، وَقَتَلُوا مِنْ أَهْلِ الْأُبُلَّةِ مَقْتَلَةً عَظِيمَةً . ٨٣ و  
قالوا : وَمِنَّا الَّذِي ضَرَبَ عُنُقَ عِيسَى بْنِ جَعْفَرِ بُعْمَانَ ، بِمَنْجَلٍ بِحِرَائِي<sup>(١)</sup> ،  
بَعْدَ أَنْ لَمْ يَجْسُرْ عَلَيْهِ أَحَدٌ .

قالوا : وَالنَّاسُ مُجْمِعُونَ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْأَرْضِ أُمَّةٌ السَّخَاءُ فِيهَا أَعْمُ ،  
وَعَالِيهَا أَغْلَبُ مِنَ الزَّيْنِجِ . وَهَاتَانِ الْخَلَّتَانِ لَمْ تَوْجِدا قَطُّ إِلَّا فِي كَرِيمٍ .  
وَهِيَ أَطْبَعُ انْخَلَقَ عَلَى الرَّقْصِ الْمَوْقِعِ الْمَوْزُونِ ، وَالضَّرْبِ بِالطَّبْلِ عَلَى  
الْإِبْقَاعِ الْمَوْزُونِ ، مِنْ غَيْرِ تَأْدِيبٍ وَلَا تَعْلِيمٍ .

وَلَيْسَ فِي الْأَرْضِ أَحْسَنُ خُلُقًا مِنْهُمْ . وَلَيْسَ فِي الْأَرْضِ لُغَةٌ أَخْفُ عَلَى  
الْأَسَانِ مِنْ لِقَتِهِمْ ، وَلَا فِي الْأَرْضِ قَوْمٌ أَذْرَبُ أَلْسِنَةً ، وَلَا أَقَلُّ تَمْطِيطًا مِنْهُمْ .  
وَلَيْسَ فِي الْأَرْضِ قَوْمٌ إِلَّا وَأَنْتَ تَصِيبُ فِيهِمُ الْأَرْتَ وَالْفَأْفَاءَ وَالسَّيَّ<sup>(٢)</sup> ،  
وَمَنْ فِي لِسَانِهِ حُبْسَةٌ ، غَيْرُهُمْ .

وَالرَّجُلُ مِنْهُمْ يُخْطَبُ عِنْدَ الْمَلِكِ بِالزَّيْنِجِ مِنْ لَدُنْ طُلُوعِ الشَّمْسِ إِلَى  
غُرُوبِهَا ، فَلَا يَسْتَعِينُ بِالتَّفَاتَةِ وَلَا بِالسَّكْتَةِ حَتَّى يَفْرَغَ مِنْ كَلَامِهِ .

وَلَيْسَ فِي الْأَرْضِ أُمَّةٌ فِي شِدَّةِ الْأَبْدَانِ وَقُوَّةِ الْأَسْرِ أَعْمُ مِنْهُمْ فِيهِمَا<sup>(٣)</sup> .  
وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَرْفَعُ الْحَجَرَ الثَّقِيلَ الَّذِي تَعَجَّزُ عَنْهُ الْجَمَاعَةُ مِنَ الْأَعْرَابِ وَغَيْرِهِمْ .  
وَهُمْ شَجْعَاءُ أَشْدَّاءِ الْأَبْدَانِ أَسْخِيَاءُ . وَهَذِهِ هِيَ خِصَالُ الشَّرَفِ .

(١) البحرائي : نسبة إلى البحرين .

(٢) الأرت : الذي في لسانه عقدة وحبسة ، يعجل في كلامه فلا يطاوعه لسانه .

(٣) في الأصل : « فيها » .

[ والزنجي<sup>(١)</sup> ] مع حسن الخلق وقلة الأذى ، لا تراه أبداً إلا طيب النفس ، ضحك السن ، حسن الظن . وهذا هو الشرف .  
وقد قال ناسٌ : إنهم صاروا أسخياء لضعف عقولهم ، ولتقصير روياتهم ، ولجلهم بالعواقب .

فقلنا لهم : بئس ما أثبتتم على السخاء والأثرة ، وينبغي في هذا القياس أن يكون أوفر الناس عقلاً وأكثر الناس علماً أبخل الناس بُحلاً وأقلهم خيراً .  
وقد رأينا الصقالبة أبخل من الرُّوم ، والرُّوم أبعد رويةً وأشدَّ عقولاً .  
وعلى قياس قولكم أن قد كان ينبغي أن تكون الصقالبة أسخى أنفساً وأسمح أكفأ منهم .

وقد رأينا النساء أضعف من الرجال عقولاً ، والصبيان أضعف عقولاً منهم ، وهم أبخل من النساء ، والنساء أضعف عقولاً من الرجال . ولو كان العقل كلما كان أشدَّ كان صاحبه أبخل ، كان ينبغي أن يكون الصبيُّ أكرم الناس خصالاً<sup>(٢)</sup> . ولا نعلم في الأرض شراً من صبي<sup>(٣)</sup> : هو أكذب الناس وأنمُّ الناس ، وأشرُّ الناس وأبخل الناس ، وأقلُّ الناس خيراً وأقسى الناس قسوة .

وإنما يخرج الصبيُّ من هذه الخلال أولاً فأولاً ، على قدر ما يزداد من العقل فيزداد من الأفعال الجميلة .

(١) ليست في الأصل .

(٢) ن : « خصلاً » خلافاً لما في الأصل .

(٣) انظر البيان ١ : ٢٤٧ والحيوان ٣ : ٤٧١ .

فكيف صار قلة العقل هو سبب سخاء الزَّنج ، وقد أقررتهم لهم بالسَّخَاءِ  
نم ادَّعَيْتُمْ مَا لَا يَعْرِف . وقد وَقَّفْنَاكُمْ عَلَى إِدْحَاضِ حُجَّتِكُمْ فِي ذَلِكَ بِالْقِيَاسِ  
الصَّحِيحِ !

وهذا القول يوجب أن يكون الجبانُ أَعْقَلَ من الشُّجَاعِ ، والغادرُ أَعْقَلَ  
من الوَفِيِّ . وينبغي أن يكونَ الجَزُوعُ أَعْقَلَ من الصَّبُورِ . فهذا مَا لَا حُجَّةَ فِيهِ  
لَكُمْ ، بَلْ ذَلِكَ هِبَةٌ فِي النَّاسِ مِنْ اللَّهِ . والعقلُ هِبَةٌ ، وحسنُ الخلقِ هِبَةٌ ،  
والسَّخَاءُ والشُّجَاعَةُ كَذَلِكَ .

وقد قالت الزَّنج للعرب : من جهلكم أنكم رأيتُمونا لكم أكفاء  
فِي الْجَاهِلِيَّةِ فِي نَائِسِكُمْ ، فَلَمَّا جَاءَ عَدْلُ الْإِسْلَامِ رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَاسِدًا ، وَ [مَا<sup>(١)</sup>]  
بَنَّا الرِّغْبَةَ عَنْكُمْ<sup>(٢)</sup> . مع أَنَّ الْبَادِيَةَ مَنَّا مَا لَيْ<sup>(٣)</sup> ثُمَّ قَدْ تَزَوَّجَ وَرَأْسُ وَسَادَ ،  
وَمَنَعَ الذَّمَّارَ ، وَكَتَفَكُمْ مِنَ الْعَدُوِّ .

قال : وقد ضَرَبْتُمْ بَنِي الْأَمْثَالِ وَعَظَّمْتُمْ أَمْرَ مَلُوكِنَا ، وَقَدْ مَتَمَّوْهُمُ فِي كَثِيرٍ  
مِنَ الْمَوَاضِعِ عَلَى مَلُوكِكُمْ . وَلَوْ لَمْ تَزَوُّوا الْفَضْلَ لَنَا فِي ذَلِكَ عَلَيْكُمْ لَمَّا فَعَلْتُمْ .  
وقال النُّنْمَرُ بْنُ تَوَلْبٍ :

أَتَى مَلِكُهُ مَا أَتَى مُتَبَعًا      وَأَبْرَهْمَةَ الْمَلِكِ الْأَعْظَمِ<sup>(٤)</sup>  
فَرَقَّه عَلَى مَلُوكِ قَوْمِهِ .

(١) ليست في الأصل .

(٢) في ن : « وَبَنَّا الرِّغْبَةَ عَنْكُمْ » ، وفي س : « وَبَنَتِ الرِّغْبَةُ عَنَا »

(٣) في الأصل وَ ن : « مَلَا » ، وَالْوَجْهُ مَا أُثْبِتَ مُطَابَقًا لِتَصْرِفِ نَاشِرِ س .

(٤) العيني ١ : ٥٧٥ وشرح شواهد المعنى للسيوطي ٧٦ والخزانة ٤ : ٤٣٨ .  
وَيُرْوَى : « فَأَدْرَكَه » .

وقال ليبد بن ربيعة :

لو كان حيًّا في الحياة مخلدًا في الدهر أدركه أبو بكسوم<sup>(١)</sup>  
وهذا شيء من وصف الفضل لم يوصف أحد بمثله .

قالوا : وما<sup>(٢)</sup> قدّمتم به ملوكنا على ملوككم قوله<sup>(٣)</sup> :

غاب الليالي خلف آلٍ مُحَرَّقٍ      وكما فعلنَ بَقْبَعٍ وبَهْرَقِلِ  
وغابنَ أبرهة الذي أَلْفَيْتُهُ      قد كان خُلدَ فوق غُرْفَةِ مَوْكِلِ<sup>(٤)</sup>  
فقدّم أبرهة وأراد التَّسْوِيَةَ<sup>(٥)</sup> .

قالوا : ومن الحَبَشَةِ عُكَيْمُ الحَبَشِيِّ<sup>(٦)</sup> ، وكان أفصح من العَجَّاجِ . وكان  
علماء أهل الشام يأخذون عنه كما أخذَ علماء أهل العراق من المنتجع بن نبهان .  
وكان المنتجع سِنْدِيًّا في أذنه خُرْبَةٌ<sup>(٧)</sup> ، وقع إلى البادية وهو صبيٌّ ، فخرَجَ  
أفصح من رُوْبَةٍ .

(١) أبو بكسوم : كنية أبرهة الأشرم الحبشي . انظر ماسبق في حواشي ص  
١٩٤ ديوان ليبد ٨٣ . أدركه أي أدرك التخليد .

(٢) في الأصل : « وما » .

(٣) يعني قول ليبد . انظر ديوانه والإكليل ٨ : ١٠٨ ، ٢١٦ ، والتيجان ٧٦ .  
وفي الأصل : « قولكم » ، تحريف

(٤) موكل ، كمرحب : موضع باليمن ، كما في معجم البلدان . وانظر صفته في  
الإكليل ٨ : ١٠٦ .

(٥) يعني التسوية بين العرب والعجم . وبعد البيت :

والخارث الحراب أمسى قطنًا      دارا أقام بها ولم يتعاجل

(٦) انظر القاموس ( عكم ) .

(٧) انظر ماسبق في ص ١٧٧

ولما<sup>(١)</sup> قال حَكِيم بن عَيَّاش السكلي<sup>(٢)</sup> :  
 لا تَفْخَرَنَّ بِخَالٍ مِنْ بَنِي أَسَدٍ فَإِنَّ أَكْرَمَ مِنْهَا الزَّيْجُ وَالثَّوْبُ  
 اعْتَرَضَ عَلَيْهِ<sup>(٣)</sup> عُكَيْمُ الْحَبَشِيِّ ، فَقَالَ :  
 وَيَوْمَ عُتْدَانَ كُنَّا الْأَسَدَ قَدْ عَلِمُوا  
 وَيَوْمَ يَثْرِبَ كُنَّا فِخْـلَةَ الْعَرَبِ  
 وَلِـلْـلَّـةِ الْفِيلِ إِذْ طَارَتْ قُلُوبُهُمْ  
 وَكَلَّمَهُمْ هَارِبٌ مُـوْـفٍ عَلَى قَتَبِ  
 مَنَا النَّجَاشِيِّ وَذُو الْعَقَصَيْنِ صَهْرَكُمُ  
 وَجَدُّ أَرْهَةَ الْحَامِي أَبِي طَلَبٍ<sup>(٤)</sup>  
 هَبْنِي غَفَرْتُ لِعَدْنَانَ تَهْكُمَهُمْ  
 قَمَا لِحَمِيرٍ وَالْمَقْوَالِ فِي النَّسَبِ  
 حَمَارَةٌ أُجْمِعَتْ مِنْ كُلِّ مَحْمَرِيَّةٍ  
 جَمَعَ الشُّبَيْكَةَ نُونُ الزَّاخِرِ اللَّجَبِ<sup>(٥)</sup>

(١) في الأصل : « فلما » .

(٢) ترجم له ياقوت في معجمه ١٠ : ٢٤٧ وذكر أنه كان بينه وبين السكيت ابن زيد الأسدي مفاخرة .

(٣) اعترض عليه ، أي دخل معه في الشعر متعاضدا .

(٤) ذو العقصين ، يعني به الإسكندر المقدوني الملقب بذي القرنين ، كان له في رأسه شبه قرنين ، أي عقصتين . والعقص : ضرب من ضرر الشعر . وكان الروم أصهارا للعرب .

(٥) سيأتي في تفسير الجاحظ أن حمير كانت حمارة ، ومحربة ، كذا وردت في الأصل ، ومثاني في ص ٢٠٢ برسم « محزوة » والنون : السمك ، واحده نونة . وهو الحوت أيضا



عُمدان : حصنٌ كان ينزله الملكُ الذي يكون على اليمين ، وكان عَجَمِيًّا ،  
فلما ملكت الحبشةُ اليمينَ أخربتَه إِلَّا بقايا هدمها عثمان بنُ عفَّانَ رضى الله عنه  
في الإسلام . وقال : « ينبغي لما أثر الجاهليَّة أن تُمَحَّى » . وكان في الحصن  
مَصْنَعَةٌ عليها قُبَّةٌ من طَلق ، وفيها يقول خلفُ الأحمر :

ومَصْنَعَةُ الطَّلِقِ أودَى بها عَوادِي الأَحَاشِيشِ بالصَّيْدِ<sup>(١)</sup>

وفيها يقول قُدَّامَةُ حَكِيمُ المَشْرِقِ<sup>(٢)</sup> ، وكان صاحبَ كيمياء :

فأوقدَ فيها نارَه ولو أنَّها أقامت كعمر الدهر لم تتصرَّم

لأنَّ الطَّلِقَ لو أوقِدَ عليه ألفَ عامٍ لم يسخن . وبه يتطَلَّى التَّفَّاطُونُ إذا  
أرادوا الدُّخُولَ في النار .

٨٤ ظ

وقال لبید :

أصاح تَرى بُرِّقًا هَبَّ وهنا كِصْبَاحُ الثَّعْمِيلَةِ في الذُّبَالِ

أَرِقْتُ له وأنجَدَ بَمَدِّ هَدَى وأحسابي على شُعْبِ الرُّحَالِ

يُضَى رَبَابُهُ في المَرْزِ حُبْشًا قِيامًا بِالْحَرَابِ والإِلَالِ<sup>(٣)</sup>

(١) المصنعة : شبه صهريج يتخذ للماء . والطلق ، بالكسر وبالفتح : حجر  
براق يتشظى صفائح إذا دق . والصيدن : الملك . قال رؤبة :

إني إذا استغلق باب الصيدن لم أنه إذ قلت يوما وصنى

(٢) في الأصل وصائر النسخ : « قدامة بن حكيم المشرق » ، وأثبت ما في الحيوان  
٥ : ٩٥ . وقد يكون قدامة هذا قدامة بن جعفر بن قدامة .

(٣) في الأصل : « رباوة » تحريف ، صوابه في ديوان لبید ١٢٤ . والرباب :

السحاب الذي تراه كأنه متدل ، كأنه أعناق النعام . والإلال : جمع ألة ، وهى  
الحرابة . وفي الأصل : « وباللآلى » ، صوابه في الديو

وقال ذلك ليبدّ لأنهم إذا أقبلوا بحرابهم ورماحهم وقسيّهم وسيوفهم ،  
وراياتهم ، وخيولهم وفيولهم ، مع سواد ألوانهم وضخّم أبدانهم - رأيت هولا  
لم تر مثله ولم تسمع به ، ولم تتوهّمه .  
وأما قوله :

\* ويوم يثرب كنّا فحلة العرب \*

فإنّ مسرف بن عقبة المرّي<sup>(١)</sup> ، حين كان أباح المدينة ، زعموا أنّه قد كان  
هناك أمراً قبيحاً من السودان والجند ، وفي ذلك يقول شاعر من شعراء مضر :  
فائل مسرف المرّي عنكم غداة أباح للجند المذارى<sup>(٢)</sup>  
فأزجكم على حنق زنوجٍ وفزّ الشأم كالأسد الضوّارى<sup>(٣)</sup>  
ودافع وهرز والفرس عنكم ورأس الحبش يحكم في دمار<sup>(٤)</sup>  
فأفقد نسلكم بسواد لونٍ وأير مثل غرمول الحمار

(١) مسرف لقب له ، لقب به لما كان من إسرائه في سفك الدماء وانتهاك حرمة  
المدينة وانتهاها في وقعة الحرة سنة ٦٣ حين بعثه بجيش إلى المدينة يزيد بن معاوية  
وأمره بهتك حرمتها . واسمه مسلم بن عقبة ، وبهذه الصورة ورد في البيان ٢ : ١٣١ .  
وانظر الطبري ٧ : ٥ - ١٢ والنجوم الزاهرة ١ : ١٦٠ - ١٦٢ . توفي مسرف  
أو مسلم سنة ٦٤ . وذكر الذهبي أنّه أدرك النبي صلى الله عليه وسلم .

(٢) في النجوم الزاهرة أنّه قد انتقض في وقعة الحرة ألف عذراء . والمذارى  
بكسر الراء ، كما يقتضيه الشعر ، وهى لغة في جمع عذراء ، ومثلها العذارى  
بفتح الراء .

(٣) فز الرجل يفز فزاة وفزوزة : توقد .

(٤) وهرز : قائد فارسي أرسله كسرى أنو شروان مع سيف بن ذي يزن الحميري ،  
منجدا له على الحبشة حين غلبت على اليمن . وذمار ، كقطام وسعاب : بلد باليمن  
على مرحلتين من صنعاء .

فذكر إباحة الحبش لليمن كما ذكر إباحة مسرف للمدينة .

وأما قوله :

خَمَارَةٌ جُمِعَتْ مِنْ كُلِّ مُحَزَّوَةٍ جَمْعُ الشُّبَيْكَةِ نُونُ الزَّاهِرِ اللَّجْبِ<sup>(١)</sup>

فإنه ذهب إلى ما تقول الرواة أن حَيْرَ كانت خَمَارَةً .

وأما الشُّبَيْكَةُ فأراد الشبكة .

وقال السودان : فهذا الفضلُ فينا ، ولم يصلِّ النبيُّ صلى الله عليه وسلم قطُّ إِلَّا على جِنَازَةٍ أو قَبْرٍ ، إِلَّا النَّجَاشِيَّ فَإِنَّهُ صَلَّى عَلَيْهِ وهو بالمدينة وقبرُ النَّجَاشِيَّ بالحبشة .

قالوا : والنجاشيُّ هو كان زَوْجَ أُمِّ حَبِيبَةَ بنتِ أَبِي سَفْيَانَ من النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، ودعا خَالِدَ بْنَ سَعِيدٍ<sup>(٢)</sup> فجعله وَلِيَّهَا ، وأصدقَ عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أربعمائة دينار<sup>(٣)</sup> .

٨٥ و

قالوا : وثلاثة أشياء جاءتكم من قِبَلِنَا . منها الغاليةُ ، وهي أَطْيَبُ الطَّيْبِ وَأَنْخَرُهُ وَأَكْرَمُهُ . ومنها النَّعْشُ وهو أَسَرُّ النِّسَاءِ وَأَصْنَوْنُ الْحُرَمِ . ومنها المصحف ، وهو أَوْقَى مَا فِيهِ وَأَحْصَنُ لَهُ ، وَأَبْهَى وَأَهْيَأُ .

(١) في الأصل : « خَمَارَةٌ » : وكذا في التفسير بعمده . و انظر ما سبق في ص ١٩٩ .

(٢) هو خالد بن سعيد بن العاصي ، رابع المسلمين أو خامسهم ، بعثه رسول الله إلى ملك الحبشة في رهط من قريش . السيرة ٢٠٩ والإصابة ٢١٦٣ .

(٣) كانت أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب - واسمها رملة - زوجاً لعبيد الله ابن جعش ، ولدت منه حبيبة وهاجرت معه إلى الحبشة ، فتنصر زوجها عبيد الله =

قالوا : ونحن أهول في الصدور وأملا للعيون ، كما أن المسودة أهول في العيون وأملا للصدور من المبيضة<sup>(١)</sup> ، وكما أن الليل أهول من النهار .  
قالوا : والسواد أبداً أهول . وإن العرب لتصف الإبل فتقول : الصهب سرع ، والخمر غزر ، والشود بغي<sup>(٢)</sup> . فهذا في الإبل .  
قالوا : ودُم الخيل أبهى وأقوى ، والبقر الشود أحسن وأبهى ، وجلودها أتمن وأنفع وأبقى . والخمر الشود أتمن وأحسن وأقوى . وشود الشاء أدسم ألباناً وأكثر زبداً ، والدبس أغزر من الخمر<sup>(٣)</sup> .  
وكل جبل وكل حجر إذا كان أسود كان أصاب صلابة وأشد يبوسة . والأسد الأسود لا يقوم له شيء .  
وليس من الثمر شيء أحلى حلاوة من الأسود ، ولا أعم منفعة ولا أبقى على الدهر . والنخيل أقوى ما تكون إذا كانت سود الجدوع .

---

= وارتد عن الإسلام . فبعث فيها رسول الله إلى النجاشي عمرو بن أمية الضمري فخطبها عليه النجاشي . الإصابة ٤٣٢ من قسم النساء والسيرة ١٤٤ ، ٨٨٣ .

(١) كان السواد شعار العباسيين السياسي ، وقد بدأ التوسيد في سنة ١٣٩ أي قبل قيام الدولة العباسية بثلاث سنوات . الطبري ٩ : ٨٢ . وفي سنة ٢٠٢ جعل المأمون على بن موسى بن جعفر ولي عهده وأمر جنده وأصحابه بطرح السواد ولبس الخضرة في الأتية والقلائس والأعلام . الطبري ١٠ : ٢٤٣ . وكان هذا الأمر من أسباب الثورة على المأمون والانقسام في طوائف الموالين للعباسيين . وفي تلك السنة أيضاً وثب أخو أبي السرايا بالكوفة فيض ، فبهم البيضة . الطبري ١٠ : ٢٤٥ . ومن المبيضة أيضاً أصحاب القنقري الكندي انظر صحاح الجوهري ( بيض ) .

(٢) انظر مثيل هذا القول لحنيفة الحاتم . وكان من آبل الناس أي أحذقهم برعية الإبل . في اللسان ( بها ١٠٧ ) .

(٣) الدبس : جمع أدبس ودبساء . وهو مالونه الدبسة : حمرة مشربة سوادا .

وجاء : « عليكم بالسواد الأعظم <sup>(١)</sup> » . وقال الأنصاري :

أدين وما دني على بمفـرـم

ولكن على الشم الطوال القـرـاوح <sup>(٢)</sup>

على كل خـوار كأن جذوعها

طـلـين بـقـار أو بدم ذبايح <sup>(٣)</sup>

قالوا : وأحسن <sup>(٤)</sup> الخضرة ما ضارع السواد . قال الله جل وعلا :

﴿ ومن ذونهما جنتان <sup>(٥)</sup> ﴾ ، ثم قال لما وصفهما وشوق إليهما :

﴿ مدهامتان <sup>(٦)</sup> ﴾ قال ابن عباس : خضراوان من الرتي سوداوان .

وليس في الأرض عود أحسن خشباً ولا أغلى ثمنًا ، ولا أثقل وزناً

ولا أسلم من القوادح <sup>(٧)</sup> ، ولا أجدر أن ينشأ فيه الخط من الآبنوس <sup>(٨)</sup> .

ولقد بلغ من اكتنازه والتثامه وملوسته وشدة تداخله ، أنه يرسب في الماء

(١) في اللسان ( سود ٢١١ ) . « وفي الحديث : إذا رأيتم الاختلاف فعليكم

بالسواد الأعظم » .

(٢) وكذا في اللسان ( خور ) : وهو سويد بن الصامت الصحابي الجليل .

انظر الآتي ٣٦١ والاقتضاب ٣٧٥ واللسان ( قرح ) والإصابة ٣٥٩٢ .

(٣) الشم : العاليات ، يعني النخل . والقراوح : جمع قرواح ، وهو الأجرد

الذي قد شذب كربه .

(٤) في اللسان : « ونحلة حوارة : غزيرة الحل » . ويروى : « أو بحمأة

مائع » .

(٥) في الأصل : « وحسن » .

(٦) الآية ٦٢ من سورة الرحمن . (٧) الآية ٦٤ من سورة الرحمن .

(٨) جمع قادح ، وهو أكال يقع في الشجرة أو تصدع .

(٩) الآبنوس ، بضم الباء وكسر ها : شجر ينبت في الحبشة والهند ، خشبه

أسود صلب . دخیل انظر المعجم الوسيط .

دونَ جميعِ المِيدانِ والخشبِ . وتقد غلبَ بذلكَ بعضَ الحجارة ؛ إذ صار  
يرسُب وذلك الحجرُ لا يرسُب .

والإنسانُ أحسنُ ما يكون في العينِ مادام أسودَ الشعرِ . وكذلك  
شعورُهم في الجنة .

٨٥ ظ

وأكرمُ ما في الإنسانِ حدّته ؛ وهما سوداوان . وأكرم الأكلِ  
الإميد ، وهو أسود . ولذلك جاء أن الله يُدخل جميعَ المؤمنين الجنة جُردًا  
مُردًا مكحّلين .

وأفنع ما في الإنسان له كبذه التي بها تصلح مِعِدته ، وينهضم طعامه ،  
وبصلاح ذلك قامَ بدنه ؛ والكبدُ سوداء .

وأنفسُ ما في الإنسان وأعزّه سويداه قلبه ، وهي عُلقة سوداء تكون  
في جوف قَواده ، تقوم في القلب مقامَ الدماغ من الرأس .

ومن أطيب ما في المرأة وأشبه شَفَتَها للتقبيل ، وأحسن ما يكونان  
إذا ضارعتا السّواد .

وقال ذو الرّمة :

لَمِياه في شَفَتِها حُوءٌ أَمَسٌ وفي اللّثاتِ وفي أنيابها شَنَبٌ<sup>(١)</sup>

وأطيبُ الظّلِّ وأبردُه ما كانَ أسود . وقال الراجز :

\* سود غرايب كأظلالِ الحجر \*  
\_\_\_\_\_

(١) ديوان ذي الرمة ه واللسان ( شنب ) .

وقال حميد بن ثور<sup>(١)</sup> :

ظَلَلْنَا إِلَى كَهْفٍ وَظَلَّتْ رَكَبُنَا  
إِلَى مُسْتَكِفَاتٍ لَمَنْ غُرُوبُ  
إِلَى شَجَرٍ أَلَى الظَّلَالِ كَأَنَّهُ  
رَوَاهِبُ أَحْرَمَنِ الشَّرَابِ عُذُوبُ<sup>(٢)</sup>

وجعل الله الليل سكناً وجماماً ، والنهار للكسب والسكدة .  
والذي يدل على أن السواد في وجه آخر مقرون بالشدة والصرامة ،  
والهيج والحركة ، انتشار الحيات والعقارب وشدة نومها بالليل ، وهيج  
السباع واستكلابها بالليل . وتحرك الأوجاع وظهور الفيلان ، هذه  
كلها بالليل .

قال : وأشبهنا الليل من هذا الوجه .

قالوا : وأبلغ ما تكون القائلة وأشفاه للنفس ، وأسرع لمجيئها إذا  
أردتها ، وأبطأ لذهابها إذا كرهتها ، ما كان منها في الظلمة ، عند إسبال  
الستور وإغلاق الأبواب .

قالوا : وليس لونٌ أرسخ في جوهره وأثبت في حسنه من سواد .  
وقد جرى المثل في تباعد الشيء : « لا ترى ذلك حتى يبيض القار » ،  
وحتى يشيب الغراب<sup>(٣)</sup> .

(١) في ديوانه ٥٧ واللسان ( كف ، حرم ، لما ) والحيوان ٥ : ٥٩٤ .

(٢) عذوب : جمع عاذب ، وهو الذي لا يأكل ولا يشرب .

(٣) الحيوان ٥ : ٥٢٨ .

وهو القرض الملا<sup>(١)</sup> عند الحكماء .

وأكرمُ العطر المسك والقنبر ، وهما أسودان .

وأصابُ الأحجار سودها . وقال أبو دَهِبٍ الجعفي يمدح الأزرق<sup>٨٦</sup> و  
الخنزومي ، وهو عبد الله بن عبد شمس بن المغيرة<sup>(٢)</sup> :

فإنَّ شكركَ عندي لا انقضاء له مادامَ بالجزع من لبنانَ جلودُ  
أنت الممدَّحُ والمُعَلَّى به ثمنًا إذ لا يعبأب صغرُ الجندلِ السود<sup>(٣)</sup>

والعرب تفخر بسواد اللون . فإن قال : فعلامَ ذلك وهي تقول : فلان  
هيجانٌ ، وأزهرٌ وأبيض ، وأغرُّ ؟ قلنا : ليس تريد بهذا بياضَ الجلد ، إنما تريد  
به كرمَ الجوهر ونقاؤه . وقد نغرت خضر محارب بأنها سود ، والشود عند  
العرب الأخضر<sup>(٤)</sup> . وقال الشماخ بن ضرار :

وراحت رَوَّاحًا من زَرُودَ فَنازَعَتْ

زُبالةَ جِلْبَابًا من اللَّيْلِ أخضرًا<sup>(٥)</sup>

(١) في الأصل : « للملاء » . صوابه من تصحيح ن ، س .

(٢) في جمهرة ابن حزم ١٤٨ — ١٤٩ أنه عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله  
ابن الوليد بن عبد شمس بن المغيرة . ونحوه في الشعراء ٥٩٦ . وسما في الأغاني ٦ : ١٥٧  
« ابن الأزرق » ، وهو عنده عبد الله بن عبد الرحمن بن الوليد بن عبد شمس بن المغيرة .

(٣) كذا . وفي الأغاني ٦ : ١٥٨ : « إذ لا تمدح صم الجندل » .

(٤) الحيوان ٣ : ٢٤٧ .

(٥) ديوان الشماخ ٣١ والحيوان ٣ : ٢٤٦



وقال الراجز :

حَتَّى انتَضَانِي الصُّبْحُ مِنْ لَيْلِ خَضِرٍ  
مَثَلُ انتِضَاءِ الْبَطْلِ السَّيْفِ الَّذِي كَرَّ (١)  
وَمِنْ يَسْمُونِ الْحَدِيدَ أَخْضَرَ لِأَنَّهُ صُلْبٌ (٢) ؛ لِأَنَّ الْأَخْضَرَ أَسْوَدُ (٣) .  
وقال الحارث بن حِزَّازة :

إِذْ رَفَعْنَا الْجَمَالَ مِنْ سَعَفِ الْبَحْرِ رَيْنَ سِيرًا حَتَّى نَهَاها الْحِصَاءُ  
فَهَزَمْنَا جَمْعَ ابْنِ أُمِّ قَطَامٍ وَلَهُ فَارَسِيَّةٌ خَضِرَاءُ (٤)  
وقال المُحَارِبِيُّ وهو يفخر بأنه من الْخَضِرِ :  
فِي خُضْرٍ قَيْسٍ نَمَانِي كُلَّ ذِي فَخْزٍ

صَمْبِ الْمَقْسَادَةِ أَبِي الضَّمِّ شَعَشَاعٍ  
وبنو المغيرة خُضْرُ بْنُ مَخْزُومٍ . قال عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة  
المخزومي - ويقال إنها للفضل بن العباس اللّهمي (٥) :

وَأَنَا الْأَخْضَرُ مَنْ يَعْرِفُنِي أَخْضَرُ الْجِلْدَةِ فِي بَيْتِ الْعَرَبِ  
مَنْ يَسَاجِلُنِي يُسَاجِلُ مَا جَدًّا يَمْلَأُ الدَّلْوَ إِلَى عَقْدِ الْكَرْبِ

(١) في الحيوان ٣ : ٢٤٦ : « حتى انتضاه » .

(٢) وجه الكلام « مع أنه صلب » . وفي الحيوان ٣ : ٢٤٦ « وأصل الخضرة إنما هولون الريحان والبقول ، ثم جعلوا بعدد الحديد أخضر والسماء خضراء » .

(٣) في الأصل : « لأنه » . والوجه ما أثبت .

(٤) في الأصل : « ابن أم قضاع » . وانظر العلقات ٤٩٦ بشرح ابن الأثير .  
وابن أم قطام هو حجر بن الحارث والد امرئ القيس

(٥) انظر الحيوان ٣ : ٢٤٧ .

وخضر غسان بنو جفنة الملوك : قال الغساني :

٨٦ ظ إن الخضارمة أخضر الذين ودوا أهل البريص ثمانى منهم الحكم<sup>(١)</sup>

وقد ذكر حسان أو غيره أخضر من بنى عكيم<sup>(٢)</sup> حين قال :

ولست من بنى هاشم في بيت مكرمة

ولا بنى نصح أخضر الجلاء عـ<sup>(٣)</sup>

قالوا : وكان ولد عبد المطاب القشرة السادة دُلَمَّا<sup>(٤)</sup> ضُخْمًا<sup>(٥)</sup> ، نظر إليهم

عامر بن الطفيل بطوفون كأنهم جمال جون ، فقال : بهؤلاء تمنع السدانة .

وكان عبد الله بن عباس أدلم ضخمًا . وآل أبي طالب أشرف الخلق ، وهم

سود وأدم ودلم .

(١) الخضارمة : جمع خضرم ، بكسر الخاء والراء ، وهو السيد المحول  
وفي الحيوان : « الذين غدوا » . والبريص : اسم نهر دمشق حيث ملك القساسنة .  
وفي الحيوان : « ثمان » .

(٢) في القاموس ( عكم ) : « وكزير : اسم » .

(٣) البيت من أبيات في ديوان حسان ١٢٣ - ١٣٧ يهجو بهامسافع بن عياض  
التيمنى ، أولها :

لو كنت من هاشم أو من بنى أدم أو عبد شمس أو أصحاب اللوا الصيد  
وصدره فيه :

\* أو في السرارة من تيم رضيت بهم \*

(٤) الدلم : جمع أدم ، وهو الشديد السواد .

(٥) الضخم : جمع الأضخم . وفي اللسان : « قال ابن سيده : وأما قول أهل  
اللغة أضخم ، فالذي أنصروه في ذلك أنهم لم يشعروا بالمفاضلة في هذا البيت فجعلوه  
من باب أحمر . قال : ويدلك على المفاضلة أنهم لم يجيشوا به في بيت ولا مثل مجرداً  
من اللام ، فيما علمناه من مشهور أشعارهم على أن الذي حكاه أهل اللغة لا يتمتع » .

قالوا : وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « بُعِثَتْ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ » .

وقد علمت أنه لا يُقال للزَّنج والحَبْشة والنُّوبة بِيَضٍ ولا أَحْمَرٍ ، وليس لهم اسمٌ إِلَّا السُّود .

وقد علمنا أن الله عزَّ وجل بعث نبيَّه [ إلى الناس <sup>(١)</sup> ] كافة ، وإلى العرب والعجم جميعًا . فإذا قال : « بُعِثَتْ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ » ولسنا عنده حُمْرٌ ولا بِيضٌ ، فقد بُعِثَ إلينا ؛ فإنما معنا <sup>(٢)</sup> بقوله « الأسود » . ولا يخرج الناسُ من هذين الاسمين ، فإن كانت العرب من الأحمر ، فقد دخلت في عِدَادِ الرُّوم والصَّقَالِبَةِ ، وفارسَ وخُرَاسَانَ . وإن كانت من السُّود ، فقد اشْتَقَّ لها هذا الاسم من اسمنا . وإنما قيل لهم وهم آدم وسمرٌ سودٌ ، حين دخلوا معنا في جملتنا ، كما يجعل العربُ الإناثَ من الذكور ذكورًا .

وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم أن الزَّنج والحَبْشة والنُّوبة ليسوا بحُمْرٍ ولا بِيضٍ ، وأنهم سُودٌ ، وقد بعثه الله تعالى إلى الأسود والأحمر ، فقد جَعَلْنَا والعربَ سواءً ، ونكونُ نحن السُّودَ دونهم . فإن كان اسمُ أسودَ وقع علينا فنحن السُّودان المُخْلِصُ ، والعربُ أشباهُ المُخْلِصِ . فنحن المتقدمون في الدَّعوة . وإذا كان اسمُهم محمولًا على اسمنا ؛ إذ كنَّا وحدنا يقال لنا سُودٌ ، ولا يقال لهم سُودٌ إِلَّا أن يكونوا معنا .

قالوا : وأنتم ترون كثرةَ العدد مجددًا ، ونحن أكثرُ الناس عددًا وولداً .

(١) . وضع التكملة بياض في الأصل .

(٢) في الأصل : « عنا » . ووجه ما أثبت من ن ، س .

قالوا : ونحن صِنْفان : النَّمْل والكِلَاب<sup>(١)</sup> .

٨٧ قالوا : ولو عدّتم بالنَّمْل العرب كلّها لأرَبْتْ عليها ، فكيف إذا قرنت إليها الكِلَاب ؟ ثم كيف إذا ضمّتم إليها الحبشة والثُوبَة وفَزَّان ومرو وزُغاوة<sup>(٢)</sup> وغير ذلك من أنواع الشُّودان ؟

وليست قَحْطَانُ من عدنانَ في شيء . ونحن بالحبشة أشبهه ، وأرحامنا بهم أمسُّ من عدنانَ بقحطان . وإن ذكرتم اختلاف اللغات ؛ فإن لغة عَجُز هوازن<sup>(٣)</sup> ، وقد تختلف اللغات والأصل واحد ، وقد تتفق والنَّجْر مختلف . ومَن دَخَلَ أوائل خراسان وأواخرها ، وأوائل الجبال وفارس وأواخرها ، عِلِمَ أنَّ اللغات قد تختلف لاختلاف طبائع البلدان والأصل واحد .

قالوا : وأنتم لم تَرَوْا الزَّيْجَ الذين هم الزَّيْجُ قَطْ ، وإنما رأيتمُ السَّيَّيْجَ من سواحل قبلة<sup>(٤)</sup> وغياضها وأوديتها ، ومن مهنتنا وسَفَلَتْنَا وعبيدنا ، وليس لأهل قبلة جمالٌ ولا عقول . وقبلة : اسمُ الموضع الذي تُرْفُونَ منه سَفَنَكُمْ إلى ساحله . لأنَّ الزَّيْجَ ضربان : قبلة ولنَجْوية<sup>(٥)</sup> ، كما أنَّ العرب ضربان :

(١) انظر الحيوان ٤ : ٣٥ والبيان ٣ : ٥١ .

(٢) في القاموس : « وزغاوة ، بالضم : جنس من السودان » . وانظر التنبية والإشراف ١٩١ .

(٣) في الكلام نقص ، ولعل تمته : « على خلاف لغة فصحاء الحجاز » . وانظر ما سبق في مناقب الترك ص ١٠ .

(٤) في التنبية والإشراف ٥١ : « ويقرب من جبل القمر هذا كثير من أحواز الزَّيْج ومساكنهم ، إلى أن يتصل ذلك ببلاد سفالة الزَّيْج وجزيرة قبلا ، وأهلها مسلمون » .

(٥) انظر البيان ٣ : ٥١ .

فَحَطَّانٌ وَعَدْنَانٌ . وَأَنْتُمْ لَمْ تَرَوْا مِنْ أَهْلِ لَنْجَوِيَّةٍ أَحَدًا قَطُّ ، لَا مِنْ السَّوَاهِلِ وَلَا مِنْ أَهْلِ الْخُوفِ<sup>(١)</sup> ، وَلَوْ رَأَيْتُمُوهُمْ نَسِيتُمْ الْجَمَالَ وَالْكَمَالَ .

فَإِنْ قُلْتُمْ : وَكَيْفَ وَنَحْنُ لَمْ نَرِ زَنْجِيًّا قَطُّ لَهُ عَقْلٌ صَبِيٌّ أَوْ امْرَأَةٌ ؟

قُلْنَا لَكُمْ : وَمَتَى رَأَيْتُمْ مِنْ سَبْيِ السُّنْدِ وَالْهِنْدِ قَوْمًا لَهُمْ عُقُولٌ وَعِلْمٌ وَأَدَبٌ وَأَخْلَاقٌ حَتَّى تَطْلُبُوا ذَلِكَ فِيمَا سَقَطَ إِلَيْكُمْ مِنَ الزَّيْجِ . وَقَدْ تَعْلَمُونَ مَا فِي الْهِنْدِ مِنَ الْحِسَابِ وَعِلْمِ النُّجُومِ وَأَسْرَارِ الطَّبِّ ، وَالْخُرُطِ وَالنَّجَرِ ، وَالتَّصَاوِيرِ وَالصَّنَاعَاتِ الْكَثِيرَةِ الْعَجِيبَةِ ، فَكَيْفَ لَمْ يَتَّفِقْ لَكُمْ مَعَ كَثَرَةِ مَا سَبَيْتُمْ مِنْهُمْ وَاحِدٌ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ ، أَوْ يُعْشِرُ هَذِهِ الصِّفَةَ ؟

فَإِنْ قُلْتُمْ : أَهْلُ الشَّرَفِ وَالْعَقْلِ وَالْعِلْمِ إِنَّمَا يَنْزِلُونَ الْوَاسِطَةَ ، وَبِقَرَبِ دَارِ الْمَلِكِ ، وَهَؤُلَاءِ حَاشِيَةٌ<sup>(٢)</sup> وَأَعْلَاجٌ وَأُكْرَةٌ ، وَنَزَالِ السَّوَاهِلِ وَالْآجَامِ وَالْفَيُوضِ<sup>(٣)</sup> وَالْجَزَائِرِ ، مِنْ أَكْثَرِ وَمِنْ صَيَادِ .

قُلْنَا : وَذَلِكَ مَنْ رَأَيْتُمْ وَمَنْ لَمْ<sup>(٤)</sup> تَرَوْا مِنَّا . وَجَوَابُنَا هُوَ جَوَابُكُمْ لَنَا .

قَالُوا : وَلَوْ أَنَّ الزَّنْجِيَّ وَالزَّنْجِيَّةَ إِذَا تَنَاحَا بَقِيَتْ أَوْلَادُهُمَا بَعْدَ الْحَيْضِ وَالْإِحْتِلَامِ بِبِلَادِ الْعِرَاقِ ، كَانُوا قَدْ غَلَبُوا عَلَى الدَّارِ بِالْعَدَدِ وَالْجَلْدِ ، وَالْعِلْمِ وَالتَّدْبِيرِ ، وَلَكِنْ وَلَدَ الْهِنْدِيُّ وَالْهِنْدِيَّةُ ، وَالرُّومِيُّ وَالرُّومِيَّةُ ، وَالْخُرَاسَانِيُّ وَالْخُرَاسَانِيَّةُ ، يَبْقَوْنَ فِيكُمْ فِي بِلَادِكُمْ كِبَاءَ آبَائِهِمْ وَأُمَّهَاتِهِمْ ، وَلَا يَبْقَى وَلَدُ

٨٧ ظ

(١) فِي الْأَصْلِ : « الْخُوف » ، صَوَابُهُ بِالْجِيمِ كَمَا صَحَّحَ فِي ن ، س .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « حَاشِيَتُهُ » .

(٣) فِي الْأَصْلِ : « وَالْفَيُوض » .

(٤) فِي الْأَصْلِ : « وَمَالٌ » .

الزنجيين بعد الحيض والاحتلام . على أن لا نصيب في عشرة آلاف ، واحد يبلغ ما ذكرنا ، إلا أن يضرب الزنجي في غير الزنجيات ، والزنجية في غير الزنج . ولولا أن الزنجي والزنجية قليلا ما يريدان <sup>(١)</sup> من الغرائب والغرائب ، لكننا على حال <sup>(٢)</sup> سنرى لرجال الزنج نساء كثيرا . ولكن الزنجية لا تكاد تنشط لغير الزنجي .

قالوا : وكذلك البيضاء منكم ، لا يكادون ينشطون لطلب النسل من الزنجيات . والزنجية أيضا من الزنجي <sup>(٣)</sup> أسرع إقاعا منها من الأبيض . قالوا : وأنتم لا تكادون تعدون ممن ولد له من صلبه مائة ولد إلا أن يكون خليفة <sup>(٤)</sup> ، فيكون ذلك لكثرة الطروقة <sup>(٥)</sup> ، ولا تجدون ذلك في سائركم . والزنج لا تستكثر هذا ولا تستعظمه ؛ لكثرتة في بلادهم ، لأن الزنجية تلد نحوًا من خمسين بطنًا في نحو من خمسين عاما ، في كل بطن اثنين ، فيكون ذلك أكثر من تسعين . لأنه يقال إن النساء لا يلدن إذا باغفن الستين إلا ما يحكي عن نساء قریش خاصة . والزنج أحرص من خلق الله على نسايتهم ، ونساؤهم لهم كذلك ، وهم أطيب من غيرهم .

قالوا : فتأملوا قولنا واحتجنا ؛ فإننا قد رويناه الأخبار وقلنا الأشعار ، وعرفناكم وعرفنا الأم .

(١) حورت في ن ، س إلى « يلدان » .

(٢) ن ، س : « على كل حال » .

(٣) في الأصل وسائر النسخ : « من الزنج » .

(٤) انظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم ٤٠ ٩٨٠ .

(٥) طروقة الفعل : انتهاء . والطروقة : الزوجة أيضا .

وقد كان الفرزدق أعلم الناس بالنساء ، وكان قد جرب الأجناس كلها فلم يجد مثلهن ، ولذلك تزوج أم مكينة الزنجية وأقام عليها ، وترك النساء ، للذي وجد عندها . وفي ذلك يقول :

يأربَّ خَوْدٍ من بنات الزَّنجِ تَمْشِي بِثُورٍ شَدِيدِ الْوَهْجِ  
\* أَخْتَمَ مِثْلَ الْقَدَحِ الْخَلَنَجِ \*

وكانت دنائيرُ بنت كعبوية الزنجي عند أعشى سليم ، وكانت شديدة السَّواد ، فرآها يوماً وقد خضبت يديها بالحناء ، واكتحلت بالإند ، فقال :

تَخْضِبُ كَفًّا بَتَكَتْ من زَنْدِهَا فَتَخْضِبُ الْحَنَاءَ من مَسْوَدِّهَا<sup>(١)</sup>  
كَأَنَّهَا وَالْكُحْلُ في مِرْوَدِّهَا<sup>(٢)</sup> تَكْحُلُ عَيْنِيهَا بِبَعْضِ جِلْدِهَا  
فلما سمعت ذلك قالت :

و ٨٨

وَأَقْبَحُ من لَوْنِي سَوَادُ عَجَانِي عَلَى بَشَرٍ كَالْقَلْبِ أَوْ هُوَ أَنْصَعُ<sup>(٣)</sup>  
فَسَمَّوهُ أَسْوَدَ ، وَصَاحَ بِهِ الصَّبِيَّانُ فطَلَّقَهَا . وقد كان صبيحة عرسها قال :

\* إِنَّ الدَّنَائِيرَ تَكُونُ سُودًا<sup>(٤)</sup> \*

(١) ديوانه ١٤٣ والأغاني ١٩ : ٢١ .

(٢) نسب هذا الرجز في الأغاني ١٨ : ٣٦ إلى دعبيل الخزاعي . وفي الأغاني : « قطعت » بدل « بتكت » . وكلاهما بمعنى .

(٣) المروء ، بتشديد الدال لا شعر هو المروء الذي يكتحل به . وانظر لأمثال هذا التشديد مجالس ثعلب ٦٠٢ - ٦٠٤ .

(٤) البشر : جمع بشرة ، وهو ظاهر الجلد . والقلب ، بالفتح : جمار السخلة .

(٥) في ن ، س : « سوداء » ، ولكن هكذا ضبطت « سودا » في الأصل بضم السين وبدون الهمزة ، وهو مشطر من الأرجاز .

فقلت :

بياض الرأس أقبح من سوادى وشيب الحاجبين هو الفضوح  
فأمسك عنها حيناً ثم عاودها ، فلما فضحت طلقها .

قالوا : وإن نظر البيضان إلى نساء السودان بغير عين الشهوة فكذلك  
السودان في نساء البيضان . على أن الشهوات عادات وأكثرها تقليد . من  
ذلك أن أهل البصرة أشهى النساء عندهم الهنديات وبنات الهنديات والأغوار .  
واليمن أشهى النساء عندهم الحبشيات وبنات الحبشيات . وأهل الشام أشهى  
النساء عندهم الروميات وبنات الروميات . وكل قوم فإنما يشتهون جلبهم  
وسببهم . إلا الشاذ ، وليس على الشاذ قياس .

قالوا : وأطيب<sup>(١)</sup> الأفواه نكهة ، وأشدّها عذوبة ، وأكثرها ريقاً ،  
أفواه الزنج . والكلاب من بين السباع أطيب أفواهاً منها<sup>(٢)</sup> .

قالوا : والسواد مُلاومٌ للعين<sup>(٣)</sup> ، وإذا اعتلت نخيف عليها لم يكن لها  
دواء خيرٌ من القعود في الظلّة وفي يد صاحبها خرقة سوداء . فالسواد للإبصار ،  
وخير ما في الإنسان البصر .

وقالوا : والسودان أكثر من البيضان ، لأن أكثر ما يعذّب البيضان  
فارس والجمال وخراسان ، والرّوم والصّقالبة وفرنجية<sup>(٤)</sup> والأبر ، وشيثاً

(١) سقطت الواو في كل من ن ، س ، خلافاً لما في الأصل .

(٢) انظر الحيوان ٢ : ١٥٤ ، ١٧٦٠ و ٥ : ٢٢٧ .

(٣) كذا في أصل ون ، س . ويبدو أنه من اللغة المولدة التي شاعت قديماً .

وفي اللسان : « ومنه قولهم هذا طعام لا يلائمني ، ولا تقل يلاومني » .

(٤) انظر مروج الذهب ٢ : ٢٤ والفهرست ٣٠ ، ٣٤ والقاموس (فرنج) .



بعد ذلك قليلاً غير كثير . والشودان يُعدُّون الزنج والحبشة ، وفزان وبربر ،  
والقبط والثوبة ، وزغاوة ومرزو ، والسند والهند ، والقمار<sup>(١)</sup> والدَّيْلَا<sup>(٢)</sup> ،  
والصِّين وماصين . والبحر أكثر من البر ، وجزائر البحر ما بين الصِّين  
والزنج مملوءة سُرداناً ، كسرنديب ، وكَلَه<sup>(٣)</sup> ، وأمل ، وزابج<sup>(٤)</sup> وجزائرها  
إلى الهند إلى الصين إلى كابل وتلك السواحل .

٨٨ ظ

قالوا : وكان الأعمى الاشتيام<sup>(٥)</sup> يقول : الشودان أكثر من البيضان ،  
والصَّخر أكثر من الوحل ، والرَّمْل أكثر من التراب ، والماء المالح أكثر  
من العذب .

قالوا : ومنا العرب لا من البيضان ؛ لقرب ألوانهم من ألواننا . والهند  
أسفر ألواناً من العرب ، وهم من الشودان . ولأن النبي صلى الله عليه وسلم قال :  
« بُعثت إلى الأحمر والأسود » . وقد علم الناس أن العرب ليست بحمر كما  
ذكرنا قبل هذا<sup>(٦)</sup> .

- 
- (١) قمار بفتح القاف وكسر ها : موضع بالهند ينسب إليه العود القماري .  
(٢) الذي في ياقوت « ديبيل » بفتح الدال وضم الباء ، وقال : « مدينة مشهورة  
على ساحل بحر الهند » . وانظر التنبية والإشراف للسعودي ٢٩ ، ٣٠ ، ٤٩ .  
(٣) في الأصل ون ، س : « سودان » .  
(٤) في معجم البلدان : « كله : فرضة بالهند ، وهي منتصف الطريق بين عمان  
والصين ، وموقعها من العمورة في طرف خط الاستواء » .  
(٥) زابج قال فيها ياقوت : « وقيل هي بلاد الزنج ، وبها سكان شبه الآدميين  
إلا أن أخلاقهم بالوحش أشبه » . وفي الأصل : « وترج » . وانظر ماسياني .  
وبالاء تفتح وتكسر .

(٦) الاشتيام : رئيس الركاب ، كما في اللسان ( شتم ) .

(٧) انظر ص ٢١٠ .

قال : فهذا المَفْخَرُ لنا وللعربِ على جميعِ البيضان إنْ أَحَبَّتْ ذلك العربُ ؛ وإنْ كَرِهَتْه فَإِنَّ المَفْخَرُ لنا بالذي ذكرنا على الجميع .

قالوا : ولو لم نَكْثُرْكم إِلَّا بالزايج وحدها لَفَضَّلْنَاكم بهم فضلاً مَبِيناً ؛ وذلك أنْ ملكَ الزايج إنْ غَضِبَ على أهلِ مملكة ولم يَتَّقَوْه بالخراج بعث ألفَ سُنْبُوقَةٍ<sup>(١)</sup> في كلِّ سُنْبُوقَةٍ ألفُ رجلٍ على أنْ [ لا<sup>(٢)</sup> ] يجلدونهم ولا يقاتلونهم ، ولكن بأمرهم أن يقيموا أبداً فيهم حتَّى يَتَّقَوْهم بالخراج ، فيكون ما يأكلون ويشربون ويُفَذَّون ويلبسون ، أضراً عليهم من مقدار الخراج المرار الكثيرة . فإن اتَّقَوْهم بالخراج وإلَّا أرسل إليهم ألفَ سُنْبُوقَةٍ أخرى ، فلا يجد ذلك الملكُ بداً من أن يَتَّقِيَهُ بكلِّ ما طالب ، ولا يأمن أن يغضبَ فَيَأْتِيَ عليه وعلى أهلِ مملكته .

قالوا : ولقد نزل ملكُ الزايج على خليجٍ مرَّةً . والخليجُ فراسخٌ في فراسخ ، فيبنا هو على مائدته وفي سُرَادِقِهِ على شاطئِ الخليج ، إذ سمع صارخةً فقال : ما هذا ؟ وقطع الأكل<sup>(٣)</sup> . قالوا : امرأةٌ سقط ابنُها في هذا الخليج فأكله التمساح . قال : وفي مكانٍ أنا فيه شيءٌ يشاركني في قتل النَّاسِ ! ثم وثب فإذا هو في الخليج . فلما رآوه النَّاسُ سقطوا عن آخِرم ، فحَضَضُوهُ<sup>(٤)</sup> وهو فراسخ في فراسخ ، حتَّى أخذوا كلَّ تمساحٍ فيه أخذَ يدي .

(١) الذي في القاموس « السُّبُوق » ، وقال : « السُّبُوق كصَفُور :

زورق صغير » .

(٢) تسكَّلة يستقيم بها الكلام .

(٣) في الأصل : « وقع الأكل » .

(٤) حَضَضَ الماء ونحوه : حركه . وفي الأصل : « حَضَضُوهُ » .

فيقال : إن أهل الزابج وأغابها<sup>(١)</sup> أكثر من شطر أهل الأرض .

قالوا : وآخر العمران كله سودان<sup>(٢)</sup> ، وما استدار من أقاصي العمران  
أكثر من أهل الواسطة ، كطوق الرّحى الذي يلي الهواء ، الذي هو أوسع  
وأكثر ذرعاً مما قصر عنه من فلك الرّحى<sup>(٣)</sup> ولنعبر ذلك بالجنح المطيف ،  
لا يرى أحد ذرعاً مع قلة عرضه ، ونجده أكثر ذرعاً من نفس الدار .

وليس خلف الزابج بيضان<sup>(٤)</sup> ، وكذلك جميع بلاد السودان الساكنة  
في الأطراف وفي آخر أطواق العمران .

قالوا : فهذا دليل على أنا أكثر ، وإذا كنّا أكثر كنّا أغر . وقد  
قال شاعركم<sup>(٥)</sup> :

ولست بالأكثر منه حصي وإنما العزة للكاثر<sup>(٦)</sup>  
قالوا : والقبط جنس من السودان وقد طلب منهم خليل الرحمن  
[ الولد<sup>(٧)</sup> ] فولد له منهم نبيّ عظيم الشأن ، وهو أبو العرب إسماعيل عليه  
السلام . وطاب النبيّ صلى الله عليه وسلم منهم الولد ، وولد له إبراهيم ،  
وكنّاه به جبريل .

(١) الكلمة مبهمة النقط في الأصل . والأغاب : جمع غب ، بالضم . وهو  
الغاض من الأرض قل :

كأها في الغب ذي القيطان ذئاب دجن دائم النهران

(٢) فلك الرّحى . مدارها وفي الأصل ون . س : « ذلك الرّحى » .

(٣) هو الأعنى ، ديوانه ١٠٦ .

(٤) يخاطب علقمة بن علاثة ، فضلاً عما مرّ من الطويل عليه . والرواية المشهورة :

« منهم حصي » .

(٥) ليست بالأصل . والكلام يقتضيه .

قالوا : والحجر الأسود من الجنة . والنحاس إذا اشتد سواده كان أتمن وأجود . فمن استنكر لون السواد فما في فِرْنِجَة<sup>(١)</sup> والرُّوم والصَّقَالِبَة من إفراط سُبُوطَة الشعر والرَّقَّة والعُشُوبَة ، والحُمرة في شعر الرأس واللحية ، وبياض الحواجب والأشعار ، أقبح وأسمج . وليس في الشَّودان مُغْرَب<sup>(٢)</sup> ، ليس المُغْرَب إلاَّ فيكم . ولا سواد من لم تنضجه الأرحام وما جازت به حدَّ التمام .

قالوا : ولنا بعدُ معرفة بالتفلسف<sup>(٣)</sup> والنَّظَر ، ونحن أثقُفُ النَّاس . ولنا في الأسرار حجة . ونحن نقول : إنَّ الله تعالى لم يجعلنا سودًا تشويهاً بحاقنا ، ولكنَّ البلدَ فعل ذلك بنا . والحجَّة في ذلك أنَّ في العرب قبائل سودًا كبنى سُلَيْم بن منصور . وكلُّ مَنْ نزل الحرَّة من غير بنى سُلَيْم كلَّهم سود . وإنَّهم ليتخذون المالك للرعى والسقاء ، والمهنة والخدمة ، من الأشباتيين<sup>(٤)</sup> ومن الرُّوم نساءهم ، فما يتوالدون ثلاثة أبطن حتى تنقلهم الحرَّة إلى ألوان بنى سُلَيْم<sup>(٥)</sup> . ولقد بلغ من أمر تلك الحرَّة أنَّ ظبائها ونعامها ، وهوامها وذبابها ، وثمانبها وشاءها وحميرها ، وخيائها ، وطيرها كلها سود . والسَّواد والبياض إنَّما هما من قبَل خلقه البلدة ، وما طبع الله عليه الماء .

(١) انظر ما سبق في ص ٢١٥

(٢) المُغْرَب . بفتح الراء : الأبيض أشعار العينين .

(٣) لعل هذا من أقدم النصوص التي ورد فيها لفظ التفلسف . وفي اللسان : « الفلسفة . الحكمة ، أعجمي . وهو الفيلسوف ، وقد تقلب » .

(٤) في الأصل : « الاشباتيين » بهذا الإهمال .

(٥) انظر الحيوان ٤ : ٧١ و ٥ : ٣٧٠ .

٨٩ ظ والثربة ، ومن قَبْلُ قُرْبِ الشَّمْسِ وبعدها ، وشدة حرّها ولينها . وليس ذلك من قبل مسخٍ ولا عقوبة ، ولا تشويه ولا تقصير <sup>(١)</sup> .

على أن بلاد بنى سليم تجرى تجرى بلاد الترك . ومن رأى إبلهم ودوابهم وكل شيء لهم تركى رآه شيئاً واحداً . وكل شيء لهم تركى المنظر . وربما رأى الغزاة دون العواصم أخلاط غنم الرّوم فلا يخفى عليهم غنم الرّوم من غنم الشام ، للرّوميّة التي يرونها فيها .

وقد نرى الناس أبناء الأعراب والأعرابيات الذين وقعوا إلى خراسان فلا نشك أنهم علوج القرى . وهذا موجود في كل شيء . وقد نرى جرّاد <sup>(٢)</sup> البقل والريحان وديدانتهما خضراً <sup>(٣)</sup> ، ونرى قمل رأس الشاب سوداً ، ونراها إذا ابيضّ رأسه بيضاً ، ونراها إذا خضبت حمراً .

فليس سوادنا ، معشر الزّنج ، إلاّ كسواد بنى سليم ومن عددنا عليكم من قبائل العرب في صدر هذا الكلام .

وما إفراط سواد من اسودّ من الناس إلاّ <sup>(٤)</sup> كإفراط بياض من ابيضّ من الناس . وكذلك الشّجرة المتولّدة من بينهما ، وكذلك الزّيّ والهيئات ، وكذلك الصّناعات ، وكذلك المطاعم والشّهوات .

(١) في جميع النسخ : « ولا تفضيل » .

(٢) في الأصل : « جزاز » ، صوابه في الحيوان ٤ : ٧١ . وقد صحح بذلك في نوس .

(٣) في الأصل : « خضر » .

(٤) في الأصل : « ولا » .

وقد ذكر الشاعر ، حين مدح أسيلم بن الأحنف الأسدي ، سواد  
البيانية فقال <sup>(١)</sup> :

أسيلمُ ذاكم لا خفا بمكانه  
لعين تداحي أو لأذن تسمع <sup>(٢)</sup>  
من النفر الشمُّ الذين إذا انتموا  
وهاب الرجال حلقه الباب فقموا  
جلا الأذفر الأحمى من المك فرقه  
وطيب الدهان رأسه وهو أنزع <sup>(٣)</sup>  
إذا النفر السود اليمانون حاولوا  
له حوك بزدية أرقوا وأوسوا  
وقد عاب بعض البيضاء عبد بن جعدة بلونه ، فقال :  
قد عاب لوني أقوامٌ فقلتُ لم  
ماعاب لوني إلا منفرط الخُمق  
إن كان لوني فيه دُعةٌ كلف  
حزن الإهاب فإني أبيض الخلق

(١) الآيات في الحيوان ٤٨٦ : ٣ والبيان ٣٩٦ : ١ و ٣٠٥ : ٣ والبخلاء .

٢١٣ والعقد : ٣٤٣ .

(٢) في معظم المراجع : « لعين ترجى » .

(٣) في الأصل : « جرى الأذفر . . . فوقه » ، صوابه من البيان والحيوان  
والبخلاء . والأذفر : الشديد مطوَّح الرائحة . والأنزع : الذي انحسر الشعر عن  
جاني بهنه .

أَرْضِي الصَّدِيقَ وَأُحْيِي الظَّمْنَ مَعْتَرِضًا

صَدَرَ الْقَنَاءِ وَأَكْنَى كَنَّهُ السَّرَقِ<sup>(١)</sup>

وكانت امرأة عمرو بن شاس تجفو عِرَارًا<sup>(٢)</sup> بن عمرو ، وكان ابن

سوداء ، فقال عمرو بن شاس في ذلك ، وفي صفة أبناء الحبشيات والزنجيات :

أَلَمْ يَأْتِهَا أَنِّي مَحْسُوتٌ وَأَنَّنِي

تَحَشَّعْتُ حَتَّى مَا أَعَارِمُ مِنْ عَرَمٍ

وَأَطْرِقُ إِطْرَاقَ الشُّجَاعِ ، وَلَوْ يَرَى

مَسَاغًا لِنَايِبِهِ الشُّجَاعُ لَقَدْ أَرَمَ<sup>(٣)</sup>

أَرَادَتْ عِرَارًا بِالْهَوَانِ وَمَنْ يُرْدُ

عِرَارًا لَعَمْرِي بِالْهَوَانِ فَقَدْ ظَلَمَ

وإِنْ عِرَارًا إِنْ يَكُنْ غَيْرَ وَاضِحٍ

فَأَنْيَ أَحَبُّ الْجَوْنِ ذَا الْمَنَكِبِ الْقَمَمِ<sup>(٤)</sup>

فَإِنْ كُنْتَ مَنَّى أَوْ تُحَبِّينَ شِمْتِي

فَكُونِي لَهُ كَالسَّمَنِ رُبَّتْ لَهُ الْأَدَمُ<sup>(٥)</sup>

(١) كذا ورد عجز هذا البيت .

(٢) في الأصل : « عزار » أو « غراز » . صوابه من الحامسة ٢٨٠ - ٢٨٢

بنرج المرزوقي ومأثرت في حواشها من المراجع ، والأغاني ١٠ - ٥٩ - ٦٠ .

(٣) أزم : عض شديداً . وفي الأصل : « أرم » ، صوابه في الأغاني .

(٤) في الأصل : « لم يكن » ، صوابه من المراجع المقدمة ، والعم : الطويل

الناس من كل شيء .

(٥) في الأصل : « كالشمس » تحريف . قال المرزوقي : والسمن إذا رُب نحيه

لم يتغير . يريد فلا تتغيري أنت أيضاً . والأدم : جمع أديم ، وهو الجلد .

وإلا فينبى مثل ما مان راكب

تزود خمسا ليس في سيره أتم<sup>(١)</sup>

وأما الهند فوجدناهم يقدّمون في النجوم والحساب ، ولم يخطئ الهندي خاصة ، ويقدّمون في الطب ، ولم أسرار الطب وعلاج فاحش الأدوية خاصة . ولم يخطئ التماثيل ونحت الصور بالأصباغ تتخذ في الحارب<sup>(٢)</sup> وأشباه ذلك . ولم يخطئ ، وهي أشرف لعبة وأكثرها تديراً وفطنة . ولم الشيوف القلعية<sup>(٣)</sup> ، وهم ألب الناس بها وأحذقهم<sup>(٤)</sup> ضرباً بها . ولم الرثى النافذة في السموم وفي الأوجاع . ولم غناء معجب . ولم الكنكلة<sup>(٥)</sup> ، وهي وتر واحد يمد<sup>(٦)</sup> على قرعة فيقوم مقام أوتار العود والصنج . ولم ضروب الرقص والخفة ، ولم الثقافة عند الثفاف خاصة ، ولم معرفة المناصفة ، ولم السحر والتدخين والدمازكية<sup>(٧)</sup> . ولم خط جامع<sup>(٨)</sup> لحروف اللغات ، وخطوط أيضاً كثيرة ، ولم شعر كثير وخطب طوال ، وطب في الفلسفة

(١) الأتم : الإبطاء .

(٢) في الأصل : « مجد من الحارب » .

(٣) القلعية : نسبة إلى القلعة ، وهي قلعة عظيمة ببلدة تسمى « كله » ، وهي أول بلاد الهند من جهة الصين ، وفيها تضرب السيوف القلعية . انظر معجم البلدان والحيوان ٣ : ١٤٣ .

(٤) ن ، س : « وأحذقها » .

(٥) انظر نوادر المخطوطات ٢ : ٣٢٤ .

(٦) في الأصل ون ، س : « يمر » ، سواه ما أثبت .

(٧) كذا . ولعله « الترمازكية » ، وهو ضرب من اللعوق الطبي ، كما في

معجم استنجاس ١٣٩٥ .



والأدب . وعندهم أخذ كتاب كليله ودمنة . ولهم رأى ونجدة ، وليس لأحد من أهل الصبر ما لهم . ولهم من الزئ<sup>(١)</sup> الحسن والأخلاق الحمودة مثل الأخلة والقرن والسواك ، والاحتباء ، والفرق والحضاب . وفيهم جمال وملخ<sup>(٢)</sup> واعتدال وطيب عرق . وإلى نساءهم يضرب الأمثال . ومن عندهم جاءوا الملوك بالعود الهندي الذي لا يمدله عود . ومن عندهم خرج علم الفكر ، وما إذا تكلم به على الستم لم يضر . وأصل حساب النجوم من عندهم أخذه الناس خاصة . وآدم عليه السلام إنما هبط من الجنة فصار ببلادهم<sup>(٣)</sup> .

٩٠ ظ

قالوا : ومن مفاخر الزنج حسن الخلق ، وجودة الصوت . وإنك لتجد ذلك في القيان إذا كنن من بنات السند .

وخصلة أخرى : أنه لا يوجد في العبيد أطبخ من السندي ، هو أطبع على طيب الطبخ كله<sup>(٤)</sup> .

ومن مفاخرهم أن الصيارفة لا يولون أكيستهم وبيوت صروفهم إلا السند وأولاد السند ؛ لأنهم وجدوهم أنفذ في أمور الصرف ، وأحفظ وآمن . ولا يكاد أحد أن يجد صاحب كيس صيرفي ومفاتيحه ابن رومي ولا ابن خراساني

(١) في الأصل : « الرأي » .

(٢) الملح ، بالكسر : الملاحه .

(٣) في تفسير أبي حيان ١ : ١٦٣ عند الكلام على هبوط آدم : « وآدم بالهند ،

وقيل بسرنديب بحبل يقال له واسم » .

(٤) في الأصل : « هو أطبخ على طيب الطبخ كله » .

ولقد بلغ من تبرُّك التجار بهم أن صيارفة البصرة وبنادرة البربهارات<sup>(١)</sup> ،  
ثم رأوا ما كسب فرج أبو رَوح السَّندى لمولاه<sup>(٢)</sup> من المال والأرضين  
اشتري كلُّ امرئ منهم غلاماً سندياً ، طمئناً فيما كسب أبو رَوح لمولاه .

قال : وكان عبد الملك بن مروان يقول : « الأدغم سيّد أهل المشرق »<sup>(٣)</sup>  
يعنى عبّيد الله بن أبي بَكْرَة . وكان أشدَّ السُّودان سواداً . وإياه يعنى  
عبدُ الله بن خازم<sup>(٤)</sup> حيث يقول :

\* حَبَشِيٌّ حَبَشْتُهُ حَبَشَةٌ \*

فهذا جملة ما حَضَرنا من مفاخر السُّودان . وقد قلنا قبل هذا في مفاخر  
قحطان ، وسنقول في نخر عدنان على قحطان في كثير مما قالوا إن شاء الله .

\* \* \*

(١) البنادرة : جمع بَنَدَار ، بضم الباء ، وهم التجار الذين يلزمون العادن ،  
أو الذين يخزنون البضائع للغلاء . والبربهار : الأدوية التي تجلب من الهند من الحشيش  
والعقاقير ، والقلوس وغيرها ، يقول البحرية وأهل البصرة لها : البربهار . أنساب  
السماعى ٧١ . وقال الأب أنستاس ماري : المراد بها توابع بر الهند . حواشى  
الحيوان ٣ : ٤٣٥ .

(٢) اسم مولاه محمد بن السكن ، كما فى الحيوان ٣ : ٤٣٥ .

(٣) فى المعارف ١٢٦ : « سيد أهل المشرق » . وفيه : ويقال الأدغم الدابة  
الديزج ، شبه به .

(٤) هو عبد الله بن خازم بن أسماء السلمي البصري ، أمير خراسان . ولى امرئها  
بنى أمية ، فلما ظهر ابن الزبير كتب إليه ابن خازم بطاعته فأقره على خراسان ، ثم  
ثار به أهل خراسان فقتلوه وأرسلوا رأسه إلى عبد الملك سنة ٧٢ . انظر الطبرى  
فى حوادث هذه السنة ، وتهذيب التهذيب والإصابة ٤٦٣٢ .

## تم كتاب نحر السودان على البيضان

من تأليف أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، بعون الله تعالى وتوفيقه ،  
ومشيئته وتأيدته . يتلوه إن شاء تعالى رسالة له أيضاً إلى محمد بن عبد الملك  
في الجد والهزل . والله الموفق للصواب .  
والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه الطيبين  
الطاهرين وسلامه .

---

٥

## رِسَالَةٌ

# فِي الْحَبْدِ وَالْهَزْلِ

من تصنيف أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

إلى محمد بن عبد الملك الزيات



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وهذه هي الرسالة الخامسة من رسائل الجاحظ ، وعنوانها :

« رسالة في الجد والهزل »

من تصنيف أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ إلى محمد بن عبد الملك الزيات

ومن هذه الرسالة نسخ :

- ١ — نسخة الأصل ، وهي نسخة مكتبة داماد ، في ضمن مجموعة رسائل الجاحظ .
- ٢ — مختارات فصول الجاحظ ، وهي نسخة المتحف البريطاني المودعة صورتها في مكتبة جامعة القاهرة ، ورمزها « م » .
- ٣ — نسخة بول كراوس وطه الحاجري ، وهي مقابلة على نسخة داماد ، والمتحف البريطاني ، ورمزها « ط » .



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جُعِلَتْ فِدَاكَ . ليس من أجل<sup>(١)</sup> اختياري النَّخْلَ على الزَّرْعِ<sup>(٢)</sup> ٩٢ ظ  
أَقْصَيْتَنِي ، ولا على ميل إلى الصَّدَقَةِ دون إعطائي الخراج عاقبتني ، ولا لُبْغِي  
دفعَ الإتاوة والرضا بالجزية حَرَمَتْنِي .

ولست أدري لم كرهتُ قُرْبِي وهَوَيْتُ بُعْدِي ، واستثقلتُ رُوحِي ونَفْسِي  
واستطلتُ عُمُرِي وأَيَّامَ مُقَامِي . ولمَ سَرَّتْكَ سَيِّئَتِي ومَصِيبَتِي وسَاءَتُكَ حَسَنَتِي  
وسَلَامَتِي ، حتَّى سَاءَكَ تَجَمُّلِي بقدر ما سَرَّكَ جَزَعِي وتَضَجُّرِي ، وحتَّى تَمَنَّيْتَ  
أَنْ أَخْطِيْ عَلَيْكَ فتَجْمَلَ خَطِيئِي حِجَّةً لَكَ فِي إِبْعَادِي ، وكَرِهْتَ صَوَابِي فِيكَ  
خَوْفًا مِنْ أَنْ تَجْعَلَ ذَرِيعَةً لَكَ إِلَى تَقَرُّبِي .

[ فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ هُوَ الَّذِي أَغْضَبَكَ ، وَكَانَ هُوَ السَّبَبُ لَوْجِدْتِكَ<sup>(٣)</sup> ] فَلَيْسَ  
- جُعِلَتْ فِدَاكَ - هَذَا الْحَقْدُ فِي طَبَقَةِ هَذَا الذَّنْبِ ، وَلَا هَذِهِ الْمَطَالِبَةُ مِنْ شَكْلِ  
هَذِهِ الْجَرِيْمَةِ .

(١) هذه الكلمة ساقطة من م

(٢) ألف الجاحظ كتاب : ( الزرع والنخل ) لإبراهيم بن العباس الصولي  
المتوفى سنة ٢٤٣ . فمنحه خمسة آلاف دينار ، كما ألف كتاب : ( الحيوان )  
لمحمد بن عبد الملك الزيات فمنحه مثلها ، وكتاب : ( البيان ) للقاضي أحمد بن أبي دواد  
فمنحه كذلك . معجم الأدباء ١٦ : ١٠٦ . وجاء في الحيوان ١ : ٤ نظير هذا النص  
موجها إلى محمد بن عبد الملك الزيات : « وعبثني بكتاب الزرع والنخل والزيتون  
والأعناب » .

(٣) الكلمة من م .



ولو كان إذ لم يكن في وزنه وقع قريباً ، وإذ لم يكن عدله وقع مُشبهاً  
كان أهون في موضع الضرر ، وأسهل في مخرج السماع .

فأى شيء بقيت للمعدو المكاشف والمنافق<sup>(١)</sup> الملائف ، وللمعتمد المصير<sup>(٢)</sup>  
وللقادر المدل .

ومن عاقب على الصَّغير بعقوبة الكبير ، وعلى الهفوة بعقوبة الإصرار ،  
وعلى الخطأ بعقوبة العمد ، وعلى معصية المتستر<sup>(٣)</sup> بعقوبة معصية المعان<sup>(٤)</sup> ،  
ومن لم يفرق بين الأعلى والأسفل ، وبين الأقاصى والأداني ، عاقب على الزنى  
بعقوبة السرقة<sup>(٥)</sup> ، وعلى القتل بعقوبة القذف . ومن خرج إلى ذلك في باب  
العقاب خرج إلى مثله في باب الثواب . ومن خرج من جميع الأوزان وخالف  
جميع التعديل ، كان بغاية العقاب أحق ، وبه أولى<sup>(٦)</sup> .

والدليل على شدة غيظك وغلَيان صدرك قُوَّة حركتك وإبطاء فترتك ،  
وبُعد الغاية في احتيالك . ومن البرهان على ثبات الغضب ، وعلى كظم الذنب<sup>(٦)</sup>  
تَمَكُّن الحقد ورسوخ الغيظ ، وبُعد الوثبة وشدة الصَّولة .

وهذا البرهان صحيح ما صحَّ النظم ، وقام التعديل ، واستوت الأسباب .  
ولا أعلم ناراً أبلغ في إحراق أهلها من نار الغيظ ، ولا حركة أنقض

(١) م : « وللموافق » .

(٢) في الأصل : « المستتر » ، وأثبت ما في م . وفي ط نقلا عن ب : « السر » .

(٣) في الأصل : « المعاند » صوابه في م ، ب .

(٤) السرقة كسبب وكتف : السرقة . وفي م . « السرقة » .

(٥) في الأصل : « أحق به وأولى » ، وما أثبت من م أشبه بأسلوب الجاحظ .

(٦) م : « عظم الذنب » .

لقوة الأبدان من طلب الطوائل<sup>(١)</sup> مع قلة الهدوء والجهل بمنافع الجمّام<sup>(٢)</sup> ، وإعطاء الحالات أقسامها من التدبير .

و ٩٣

ولا أعلم تجارة أكثر خسراناً ولا أخف ميزاناً من عداوة العاقل [العالم]<sup>(٣)</sup> ، وإطلاق لسان الجائس المداخل ، والشعار دون الدثار<sup>(٤)</sup> ، والخاصّ دون العام .

والطالب - جعلتُ فداك - بمرّض ظفّر مالم يخرج المطلوب ، وإليه الخيار مالم تقع المنازلة . ومن الحزم ألاّ تخرج إلى العدو إلاّ ومعك من القوى ما يغمّر<sup>(٥)</sup> الفضلة التي بنتجها له الإخراج . ولا بدّ أيضاً من حزم يحذرك مصارع البغي ، ويخوّفك ناصر المطلوب<sup>(٦)</sup> .

وبعد - أبقاك الله - فأنت على يقين من موضع ألم الغيظ من نفسك ، والغیظ عذاب . ولربّما زاد التشنّ في الغيظ ولم ينقص منه . ولستُ على يقين من نفوذ سهمك في صيّدك<sup>(٧)</sup> [ كما أيقنت بموضع الغيظ من صدرك ] .

(١) الطوائل : جمع طائلة ، وهي الور والذحل ، يقال : طلب بني فلان بطائلة ، أي بوتر كان له فيهم .

(٢) الجمّام ، كسحاب : الراحة : م « الحمام » تصعيف .

(٣) التسكّلة من م .

(٤) الشعار : ما ولى شعر جسد الإنسان دون ما سواه من الثياب . والدثار : ما كان من الثياب فوق الشعار . وفي المثل : « هم الشعار دون الدثار » ، يفهم بالودة والقرب . وفي حديث الأنصار : « أنتم الشعار والناس الدثار » .

(٥) في الأصل : « مالا يغمّر » ، صوابه من م .

(٦) أي من تطلبه . وفي الأصل : « ويحرك ناصر المظلوم » ، صوابه في م .

(٧) في الأصل : « صدك » ، صوابه من ط رواية عن ب والتسكّلة بعده من ب .

والخازم لا يلتبس شفاء غيظه باجتلاب ضِعْفِهِ ، ولا يطنى نارَ غضبه تأخراً  
عقوبة من أغضبه ، ولا يسدّد سهمه إلّا والغرضُ ممكن ، والغاية قريبة ،  
ولا يهرب إلّا والمهرب معجزة .

إنَّ سلطان الغيظ غشوم ، وإنَّ حكم الغضب جائر ، وأضعف ما يكون  
العزم عن التصرف أضعف ما يكون الحزم . والغضب في طباع شيطان ،  
والهوى يتصوّر في صورة امرأة ، فلا يبصر مساقط العيب ومواقع الشرف  
إلّا كلّ معتدل الطباع ، ومعتدل الأخلاق مستوى الأسباب .

والله لقد كنت أكره لك سرف الرضا مخافة جواذبه إلى سرف الهوى .  
فما ظنّك بسرف الغضب ، وبغلبة الغيظ ، ولا سيما ممّن قد تعودَ إهمال النفس  
ولم يعودها الصبر ، ولم يعرفها موضع الحظّ في تجرّع مرارة العفو ، وأن المراد  
من الأمور عواقبها لا عوالمها<sup>(١)</sup> .

ولقد كنت أشفق عليك من إفراط الشرور فما ظنّك بإفراط الغيظ .  
وقد قال بعض الناس : لا خير في طول الرّاحة إذا كان يُورث الفلة ،  
ولا في الكفاية إذا كان يؤدّي إلى المعجزة ، ولا في كثرة الغنى إذا كان  
يخرج إلى البلدة<sup>(٢)</sup> .

جعلتُ فداك . إنَّ داء الحزن وإن كان قاتلاً فإنه داءٌ مُمّا طل ، وسقمه  
سقم مُطاوّل ، ومعه من التمثّل بقدر قسطه من أناة المِرّة السوداء . وداء

(١) في الأصل : « عوالمها » ، صوابه في م .

(٢) في الأصل : « كثرة العى » ، صوابه في م . والبلدة ، بالفتح وبالضم أيضاً :  
البلادة ، ضد النفاذ والذكاء ، والمضاء في الأمور .

الفيظ سفيه طيَّاش ، وعَجولٌ فحَّاش ، يُعجلُ عن التوبة ، ويقطع دون الوصية ، ومعه من الخُرْق بقدر قسطه من التهاب الميرة الحمراء . [ والعجول يخطئ وإن ظفر ، فكيف به إذا أخفق . على أن إخفاقه يزيد في حقيقة خطئه كما أن ظفره لا ينتقص من مقدار زلله<sup>(١)</sup> ] . وأنت روحٌ كما أنت وحشيٌّ من قرنك إلى قدمك . وعمل الآفة في الدِّقاق والعناق أسرع ، وحدثها عن الغلاظ الجفأة أكلٌ ؛ فلذلك اشتدَّ جزعى لك من سلطان الفيظ وغلبته .

والله لو كنتُ ابتلعتُ مزار بابك ، وأبطلتُ سمر الباطل<sup>(٢)</sup> ، ووردت<sup>(٣)</sup> الفظائع كلها ، ونقضتُ الشروط بأسرها ، وأفسدتُ نتائجك ، وقتلتُ كلَّ شِطر نجيٍّ لك ، ورفعتُ من الدنيا فراهة الخيل ، وجعلتُ المروجَ كلها حمى ، وكنتُ صدق المرادين<sup>(٤)</sup> ، وبرسام الأولاد ، ومسختُ جميع الجوارى في صورة أبي رملة<sup>(٥)</sup> ورددتُ شِطاط خَلْقك إلى جُمودة أبي حثة<sup>(٦)</sup> وكنتُ أول من سنَّ بيع الرجال في النخاسين ، وفتحَ باب الظلم لأصحاب المظالم ، وحوّلتُ إليك عقل أبي دينار ، وطُبعتُ على بيان ما نويه ، وأعنتُ على موت المعتصم ، وغضبتُ لمصرع الأفشين<sup>(٧)</sup> ، واستجبتُ للديك الأبيض

(١) التكملة من ب .

(٢) كذا وردت العبارة .

(٣) في الأصل : « ورددت » .

(٤) كذا . وجعلت في ط : « جذم للردان » .

(٥) لم أجد له ذكرًا في كتب الجاحظ ، كما لم أجد ذلك لأبي حثة التالي .

(٦) الشطاط ، كسحاب وكتاب : الطول وحسن القوام . والجمودة : القصر .

(٧) الأفشين ، بفتح الهمزة وكسرهما ، كافي وفيات الأعيان ٢ : ٦٥ . واسمه =

الأفرق<sup>(١)</sup> وأحببت صالح بن حنين<sup>(٢)</sup> ، وأحوجتك إلى حاتم الرِّيش<sup>(٣)</sup> ،  
وكان أبو الشَّماخ صديقي ، والفارسيُّ من شيعتي - لكان ما تركبني به سرفاً ،  
ولكنت في هذا العتاب<sup>(٤)</sup> متعدّياً .

جعلتُ فداك ، لا تتعرض لعداوة عقلاء الرُّواة ، ولضعيفة حُفَاطِ  
المثالب ، وللسان من قد عُرف بالصدِّق والتَّوْحَى ، وبقله الخطل والتَّنَكُّب<sup>(٥)</sup> ،  
ما وجدت عن ذلك مندوحة ، ووجدت المذهب عنه واسعاً . ولا تعاقب  
واذاً وإن اضطرَّك الواد ، ولا تجعل طول الصُّحبة سبباً للتضجُّر ، واصبر  
على خلقه فإنَّ خلقه خيرٌ من جديد غيره . وصداقة المتطرِّف غرور<sup>(٦)</sup> ،

= خيذر بن كلوس ، وكان مقدم قواد المعتصم ، ثم غضب عليه المعتصم فصلبه هو  
وبابك ومازريار في سنة ٢٢٦ .

(١) الأفرق : المفروق العرف . وفي الأصل : « للدين » صوابه في ب كما في  
حواشي ط . وكلمة « الأبيض » ساقطة من ب كما أن كلمة « الأفرق » ساقطة من  
الأصل وثابتة في ت . وكان العامة في زمن الجاحظ يتركون بالديك الأبيض الأفرق  
يزعمون أنه يطرد الشيطان من البيت . الحيوان ٢ : ٣٠٧ ، ٣٥٩ ولكنهم أيضاً  
كانوا يقضون على من كان في داره ديك أبيض أفرق بالزندقة . الحيوان ٢ : ٣٠٧ .

(٢) يبدو أنه كان أحد البغضاء الثغلاء ، ذكره أيضاً في البغلاء ٦ . قال الجاحظ :  
« ولو ولد نادرة حارة في نفسها مليحة في معناها ، ثم أضافها إلى صالح بن حنين  
وإلى ابن النواء وإلى بعض البغضاء ، لعادت باردة ، ولصارت فآرة » .

(٣) كان حاتم هذا من ندماء صالح بن هارون الرشيد ، قرينا لأبي الواسع ،  
وقنينة ، وحسين بن الضحاك . الأغاني ٦ : ١٠٤ . وسماه أبو الفرج في ٦ : ١٩٥  
« حاتم الريش الضراط » .

(٤) ط : « العقاب » خلافاً لما في الأصل .

(٥) التنكب ، أراد به العدول عن الصواب والحق . وفي الأصل : « التكب »

(٦) جعلت في ط : « غرر » بمعنى الخطر .

وملاة الصديق أفن ، والعلم بأقدار<sup>(١)</sup> الذنوب غامض ، وحدودُ الذنوب في العقاب خفية . ولن يعرف العقاب من يجهل قدر الذنب . والأجرام كثيرة الأشكال ، ومتفاوتة في الأقدار<sup>(٢)</sup> . وإذا أردت أن تعرف مقدار الذنب إليك من مقدار عقابك عليه فانظر في علته وسببه ، وإلى معدنه الذي منه نجم ، وعُشه الذي منه درج ، ومغرسه الذي منه نبت ، وإلى جهة صاحبه في التتابع والتترع<sup>(٣)</sup> ، وفي النزوع والثبات ، وإلى قبحته عند التقريع ، وإلى حياته عند التعريض ، وإلى فطنته عند الرشق والتورية<sup>(٤)</sup> ؛ فإن فضل الفطنة ربما دل على فرط الاكتراث ، وعلى قدر الاكتراث يكون الإقدام والإحجام . فكل ذنب كان سببه الدالة وضيق صدر وغلظ طباع وحدة مِرار ، من جهة تأويل أو من جهة غلط في المقادير ، أو من طريق [ فرط<sup>(٥)</sup> ] الأنفة وغلبة طباع الحمية من بعض الجفوة أو لبعض الأثرة ، أو من جهة استحقاقه عند نفسه وفيما زين له من عمله ، وأنه مقصّر به مؤخر عن مرتبته ، أو كان مبلغاً عنه أو مكذوباً عليه ، وكان ذلك جائزاً عليه غير ممتنع فيه -

(١) في الأصل : « ماقرار » .

(٢) في الأصل : « الأقدام » .

(٣) التابع في الشيء : التهافت فيه والإسراع إليه . والتترع : التسرع إلى الشيء .

وفي الأصل : « التابع والتبرع » والوجه ما أثبت .

(٤) المراد بالرشق الإصابة بالقليل من الكلام . والتورية : الكناية التي

لا يفهمها إلا الفطن . ومنه التورية البلاغية التي يراد باللفظ فيها غير المتبادر من معناه .

وفي الحديث : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد سفراً ورى بغيره ، أي ستره

وكنى عنه وأوهم أنه يريد غيره . وفي الأصل : « التودية » تحريف .

(٥) النكالة من ب .

فإذا كانت ذنوبه من هذا الشكل وعلى هذه الأسباب ، وفي هذه المجارى ،  
فليس يقف عليها كريم ، [ ولا يلتفت لها حليم <sup>(١)</sup> ] .

ولست أسميه بكثرة معروفه كريماً حتى يكون عقله غامراً لعلمه ، وعلمه  
غالباً لطبعه ، وحتى يكون عالماً بما ترك ، وعارفاً بما أخذ . واسم الحليم جامع  
للكظم ، والقدرة ، والفهم .

فإذا وجدت الذنب بعد ذلك لا سبب له إلا البغضة فلو لم ترض لصاحبه  
بعقاب دون قعر جهنم لعذرك كثير من العقلاء ، ولصوب رأيك عالم  
من الأشراف .

ومتى كانت علته طبيعة البذاء <sup>(٢)</sup> ، وخلقه الشرارة والتسرّع <sup>(٣)</sup> ، فاقتله  
قتل العقارب ، وادمغه دماغ رؤوس الحيات .

وإذا كان ممن لا يسيء فيك القول ، ولا يرصدك بالمكروه إلا لتعطيه  
على الخوف ، وتمنع عرضك من جهة التقية فامنعه جميل رفدك ، واحتل  
في منعه من قبل غيرك ؛ فإنك إن أعطيته على هذه الشريطة ، وأعظمته  
من هذه الحكومة فقد شاركته في سب نفسك ، واستدعيت الألسنة  
البذية إلى عرضك ، وكنت عوناً لهم عليك .

وكيف تعاقبه على ذنب لك شطره ، وأنت فيه قسيمه <sup>(٤)</sup> ، إلا أن عليك  
غُرمه ولك غُمنه .

---

(١) التكهلة من ب .

(٢) في الأصل : « البذا » ، والوجه ما أثبت . وقد قرئت في ط :  
« الداء » خطأ .

(٣) الشرارة : مصدر شر يشتر شرارة ، بضم شين المضارع وكسر ها .

(٤) في الأصل : « قسمه » .

ومن العدل المحض والإنصاف الصحيح أن تحطَّ عن الحدود نصفَ عقابه ، وأن تقتصر على [ بعض<sup>(١)</sup> ] مقداره ، لأنَّ ألم حسدِه لك قد كفَّاكَ مؤونة شَطَر غيظك عليه .

وأما الوادُّ فلا تعرِّضْ له البتة ، [ ولا تلتفتْ لِفَتَه<sup>(٢)</sup> ] ، ولو أتى على الحرث والنسل ، وحتى على الرُّوح والقلب . ولا تغتر بقوله إنِّي وادُّ ، ولا تحكم له بدعواه بأنِّي جدّ وامق . وانظر أنت في حديثه وإلى مخارج لفظه ، وإلى لحن قوله ، وإلى طريقته وطبيعته ، وإلى خلقه وخايقته ، وإلى تصرفه وتصميمه<sup>(٣)</sup> وإلى توقُّفه وتهوُّره . وتأملْ مقدارَ جزعه من قلة اكترائه ، وانظر إلى غضبه فيك ولك ، وإلى انصرافه عن انصرفِ عنك وميله إلى من مال إليك ، وإلى تسلمه من الشر وتعرُّضه له ، وإلى مُداهنته وكشف قناعه . بل لا تقضِ<sup>(٤)</sup> له بجماع ذلك ما كان ذلك في أيام دولتك ومع إقبال من أمرك ، وإن طالت الأيام وكثرت الشهور ، حتى تنتظم الحالات ، وتستوى فيه الأزمان .

نعم ، ثمَّ لا تحكم له بذلك حتى تكون حاله مقصورة على محبَّتكَ ، ومحنوَّة على نصيحتك ، بالعلل التي توجب الأفعال . والأسباب التي تسخر القلوب للمودَّات ، كالعلل الثابتة في الصنعة ، والأسباب الموجودة مع مولى

---

(١) ليست في الأصل .

(٢) التكلفة من ب .

(٣) التصميم : المضي في الأمر بعد إرادته . وفي الأصل : « تصميمه » .

(٤) في الأصل : « لا يقضى » .



العَتَاة ؛ فَإِنَّ عِلْمَهُمَا خِلَافُ عِلْمِ مَوْلَى الْكَلَالَةِ<sup>(١)</sup> ، وَخِلَافُ عِلْمِ الصَّدِيقِ  
الَّذِي لَمْ يَزَلْ يَرَى أَنَّهُ مِثْلُكَ ، وَأَنَّهُ يَسْتَوْجِبُ مِنْكَ اسْتِجَابَكَ ، وَلَا سِيَّما إِذَا  
كَانَتِ الصَّنِيعَةُ أَنْتَ ابْتَدَأْتَهَا ، وَأَنْتَ أَبُو عُذْرَتِهَا .

فَإِنَّ أَنْتَ لَمْ تَحْكَمْ لَهُ بِالْغَايَةِ مَعَ اجْتِمَاعِ هَذِهِ الْعِلَلِ فِيهِ ، وَمَعَ تَوَافُقِهَا إِلَيْهِ ،  
وَلَمْ تَقْضِ لَهُ بِأَقْصَى الْغَايَةِ مَعَ تَرَادُفِ هَذِهِ الْأَسْبَابِ وَتَكَامُلِ هَذِهِ الدَّلَائِلِ ،  
وَتَعَاوُنِ هَذِهِ الْبَرَهَانَاتِ ، فَكُلُّ خَيْرٍ بَيْنَهُ زُورٌ ، وَكُلُّ دَلَالَةٍ فَاسِدَةٌ . وَقَدْ  
قَالَ الْأَوَّلُ : « دَلَائِلُ الْأُمُورِ أَشَدُّ تَثْبِيْتًا مِنْ شَهَادَاتِ الرِّجَالِ » . إِلَّا أَنْ يَكُونَ  
فِي الْخَبَرِ دَلِيلٌ ، وَمَعَ الشَّهَادَةِ بَرَهَانٌ ؛ لِأَنَّ الدَّلِيلَ لَا يَكْذِبُ وَلَا يَنْفَاقُ  
وَلَا يَزِيدُ وَلَا يَبْذُلُ ، وَشَهَادَةُ الْإِنْسَانِ لَا تَمْتَنِعُ مِنْ ذَلِكَ ، وَلَيْسَ مَعَهَا أَمَانٌ  
مِنْ فُسَادٍ مَا كَانَ الْإِمْكَانُ قَائِمًا .

وَبَعْدَ مَتَى صَارَ اخْتِيَارُ النَّخْلِ عَلَى الزَّرْعِ يُحَقِّدُ الْإِخْوَانَ ، وَمَتَى صَارَ  
تَفْضِيلُ الْحَبِّ وَتَقْرِيبُ الشَّرِّ يورِثُ الْهَجْرَانَ ، وَمَتَى تَمَيَّزُوا هَذَا التَّمَيُّزَ<sup>(٢)</sup>  
وَتَهَالَكُوا هَذَا التَّهَالُكُ ؟ وَمَتَى صَارَ تَقْدِيمُ النَّخْلَةِ مَلَّةً ، وَتَفْضِيلُ السَّنْبِلَةِ  
نِخْلَةً<sup>(٣)</sup> ؟ وَمَتَى صَارَ الْحُكْمُ لِلنَّعْجَةِ نِسْبًا وَلِلْكَرْمَةِ صِهْرًا ، وَمَتَى<sup>(٤)</sup> تَكُونُ  
فِيهَا دِيَانَةٌ وَتَسْتَحْكَمُ فِيهَا بَصِيرَةٌ ، وَيَحْدُثُ عَنْهَا حِجَّةٌ .

(١) الْكَلَالَةُ مِنَ الْقَرَابَةِ : مَا خِلَا الْوَالِدِ وَالْوَلَدِ .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « التَّمَيُّزُ » .

(٣) فِي الْأَصْلِ : « مَنَعَةٌ » .

(٤) فِي الْأَصْلِ : « وَحَقٌّ » .

وقد كننا نَعْجَب من حرب البسوس في نَرْع ناب<sup>(١)</sup> ، ومن حرب  
بُعَاث في مَحْرَف تَمْر<sup>(٢)</sup> ، ومن حرب غَطَفَان في سَبَق دَابَّة<sup>(٣)</sup> . فحُتِنَّا أَنْتَ  
بنوع من العَجَب أَبْطَلَ كُلَّ عَجَب ، وآتَسْنَا بِكُلِّ غَرِيب ، وَحَسَّنْ عِنْدَنَا  
كُلَّ قَبِيح ، وَقَرَّبْ عِنْدَنَا كُلَّ بَعِيد .  
فَإِنْ جَهِلْتُ - أَعَزَّكَ اللَّهُ - غَضَبُكَ فَمِثْلِي جَهْلٌ مَالَعَلَّةَ لَهُ ، وَإِنْ عَجَزْتُ  
عَنْ اِحْتِمَالِ عِقَابِكَ فَمِثْلِي ضَجٌّ مِمَّا لَا يَطِيقُ حَمْلَهُ . وَلَا عَارَ عَلَى جَارِعٍ إِلَّا فِيمَا يُمْكِنُ  
فِي مِثْلِهِ الصَّبْرُ ، وَلَا لَوْمَ عَلَى جَاهِلٍ فِيمَا لَا يَنْجِيهِ فِي مِثْلِهِ الْفَكْرُ .  
وَلَيْسَ هَذَا أَوَّلَ شَرِّكَ نَصَبْتَهُ ، وَلَا أَوَّلَ كَيْدٍ أَرَعْتَهُ ، وَلَا هِيَ بَأُولِ  
رُؤْيَا غَطِيَّتِهَا وَسَتَرَتِهَا ، وَحِيلَةٍ أَكْمَنَتْهَا وَرَبَّصَتْهَا .  
وَقَدْ كَانَتْ التَّقِيَّةَ وَالْاِقْتِصَادَ أَسْلَمَ ، بَلْ كَانَتْ الْعَفْوَ أَرْحَمَ ،  
وَالْتِفَافِلَ أَكْرَمَ .

(١) كانت للبسوس بنت منقذ التميمية ، خالة جساس بن مرة ، ناقة يقال لها  
«سراب» ، فرمى كليب ضرع تلك الناقة بسهم وقد رآها غريبة في إبله ، فاستغاثت  
البسوس بخالها جساس ، فطعن جساس كليباً فقتل ، فوقع الشر بينهم لذلك . العقد  
٢١٣ : ٥ وما بعدها .

(٢) المحرف بكسر الميم : زيل صغير يحترف فيه أطايب الرطب . وفتحها :  
الحائط من النخل . وانظر لحرب بعث الأغاني ١٥ : ١٥٤ - ١٥٨ وكامل  
ابن الأثير ١ : ٢١٧ ووفاء الوفاء ١ : ٢١٥ حيث تضع لك إشارة الجاحظ إلى  
المحرف بفتح الميم وكسرهما معا .

(٣) السبق ، بالتحريك : الذي يوضع بين أهل السباق ، فمن سبق أخذه .  
يشير بذلك إلى حرب داحس والغبراء ، حين صد أتباع حمل بن بدر صاحب الفرس  
التي تسمى الغبراء ، فرس قيس بن زهير وكان يسمى «داحسا» . فثارت الحرب  
بين عيس وذبيان ابني بغيض بن ريث بن غطفان أربعين سنة . العقد ٥ : ١٥٠ =

ولا خير في عقوبة تشمت العدو المتقادم<sup>(١)</sup> ، ويُنَادِي بها العدو الحادث .  
والأناة أبلغ في الحزم ، وأبعد من الذم ، وأحمد مَعْتَبَةً وأبعد من خُرق العَجَلَة .  
وقد قال الأول : « عليك بالأناة ؛ فإنك على إيقاع ما أنت مُوقِعُهُ أقدر منك  
على ردِّ ما قد أوقعته » . فقد أخطأ من قال<sup>(٢)</sup> :

قد يدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزللُ

بل لو قال : والمتأني يدرك حاجاته أحق ، والمستعجل بفوت حاجاته  
أخلق ، لكان قد وُفِيَ المعنى حقّه ، وأعطى اللَّفْظَ حَظَّهُ ، و [ إن<sup>(٣)</sup> ] كان  
القول الأوّل موزوناً والثاني منشوراً<sup>(٤)</sup> . ولولا أنه اشتقَّ المستعجل من  
العجلة لما قرّنه بالتأني . وينبغي أن يكون الذي غلّطه قولهم : « ربَّ  
عَجَلَة تَهَب ريثاً » . فجعل الكلام الذي خرج جواباً عند ما يعرض من  
السبب ، كالكلام الذي خرج ارتجالاً ، وجعله صاحبه مثلاً عاماً .  
فإذا سُمِّيَتِ العمل عَجَلَةً وريثاً فاقضي على الريث بكثرة الفوت ، وبقدر ذلك من  
العجز ، وعلى العجلة بقلّة النّجح ، وبقدر ذلك من الخرق .

والريثُ والأناة في بلوغ الأمل وإدراك النعمة كاستهاز الفرصة واهتبال

= والأغاني ٧ : ٣٤٣ وكامل ابن الأثير ١ : ٣٤٣ ، وجمهرة أنساب العرب  
٢٥٠ ، ٢٥١ .

(١) في الأصل : « القادم » . والمتقادم : القديم .

(٢) هو القطامي . ديوانه ص ٢ ونوادر المخطوطات ١ : ١٦٧ . وانظر مجالس

تعلب ٤٣٧ والمحاسن للبيهقي ٢ : ١٣٣ .

(٣) ليست في الأصل .

(٤) في الأصل : « مبتورا » .

الفِرَّة . والأناة وإن طالت [ فليست من جنس الريث <sup>(١)</sup> ] ، وانتهاز الفرصة وإن كان في غاية الشريعة فليس من جنس العجلة .

وربت كلمة لا توضع إلا على معناها الذي جُمِلَتْ حَظَّهُ ، وصارت هي حَقُّه والدالَّة عليه دون غيره ، كالخزم والعلم ، والحلم والرفق ، والأناة والمداراة ، والقصد والعدل والاهتبال ، وكاليأس والأمل <sup>(٢)</sup> ، وكانخرق والمعجلة ، والمداهنة والتسرُّع ، والغلو والتقصير .

وربت كلمة تدور مع خُلَّتْها ، وتتقَاب مع جاراتها <sup>(٣)</sup> ، وإزاء صاحبها <sup>(٤)</sup> ، وعلى قدر ما تقابل من الحالات ، وتُلاقِي من الأسباب ، كالحبِّ والبغض ، والفضب والرُّضا ، والعزم والإرادة ، والإقبال والإدبار ، والجِدَّة والفتور <sup>(٥)</sup> ؛ لأن هذا الباب الأخير يكون في الخير والشر ، ويكون محموداً ويكون مذموماً .

وصاحب المعجلة - أعزَّكَ اللهُ - صاحب تفرير ومخاطرة ، إن ظفر لم يحمله عالمٌ ، وإن لم يظفر قطعته لللاوم . والريث أخو المعجزة ، ومقرون بالحسرة ، وعلى مدرجة اللائمة . وصاحب الأناة إن ظفر نفع غيره بالفنم ، ونفع نفسه بشمرة العلم ، وأطاب ذكره دوام شكره <sup>(٦)</sup> ، وحفظ فيه ولده . وإن حُرِم

(١) هذه التكلة مساوقة لأسلوب الجاحظ ، وهي من مقترحات ناشر ط .

(٢) في الأصل : « اليأس والأمن » . وفي م : « اليأس والأمن » .

(٣) في الأصل : « جاراتها » ، وأثبت ما في م .

(٤) في الأصل و م : « وإرادة صاحبها » . وما أثبت أشبه بأسلوب الجاحظ .

(٥) في الأصل : « والفتوة » ، صوابه في م .

(٦) م : « وطاب ذكره ، ودوام شكره » .

فبِسُوطِ عَذْرِهِ ، وَمَصُوبِ رَأْيِهِ مَعَ انْتِفَاعِهِ بِعِلْمِهِ وَمَا يَجِدُ مِنْ عَزِّ حَزْمِهِ وَنَبْلِ صَوَابِهِ<sup>(١)</sup> ، وَمَعَ عِلْمِهِ بِالَّذِي لَهُ عِنْدَ الْعُقَلَاءِ ، وَبِعَذْرِهِ عِنْدَ الْأَوْلِيَاءِ وَالْأَعْدَاءِ .

وَمَا عِنْدِي لَكَ إِلَّا مَا قَالَ الدَّهْقَانُ<sup>(٢)</sup> لِأَسَدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ<sup>(٣)</sup> وَهُوَ عَلَى خِرَاسَانَ ، حِينَ مَرَّ بِهِ وَهُوَ يُدْهَقُ فِي حَبْسِهِ<sup>(٤)</sup> :

إِنْ كُنْتَ تَعْطِي مَنْ تَرْحِمُ فَارْحَمِ مَنْ تَظْلِمُ<sup>(٥)</sup> . إِنْ السَّمَوَاتُ تَنْفَرُجُ  
لِدَعْوَةِ الْمَظْلُومِ ، فَاحْذَرِ مَنْ لَيْسَ لَهُ نَاصِرٌ إِلَّا اللَّهُ ، وَلَا جُنَّةٌ إِلَّا الثِّقَةُ بِنَزُولِ  
الْفَيْرِ<sup>(٦)</sup> ، وَلَا سِلَاحٌ إِلَّا الْإِبْتِهَالُ إِلَى مَوْلَى لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ .

يَا أَسَدُ ، إِنْ الْبَغْيَ بَصَرَ عَ أَهْلَهُ ، وَإِنَّ الظُّلْمَ مَرْتَعَةً وَخِيمٌ ، فَلَا تَغْتَرَّ بِإِبْطَاءِ  
الْعِقَابِ<sup>(٧)</sup> مِنْ نَاصِرٍ مَتَى شَاءَ أَنْ يَفِيثَ أَغَاثٌ . وَقَدْ أَمَلَى لِقَوْمٍ كِي يَزْدَادُوا

(١) فِي الْأَصْلِ : « وَقَبْلَ صَوَابِهِ » ، صَوَابُهُ فِي م .

(٢) الدَّهْقَانُ ، بِالْكَسْرِ : زَعِيمُ فَلَاحِي الْعَجَمِ ، فَارِسِي مَعْرَب .

(٣) هُوَ أَسَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيُّ ، أَخُو خَالِدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، كَانَ خَالِدًا عَلَى  
الْعِرَاقِ وَمَا يَلِيهِ مِنَ الْأَهْوَازِ وَفَارِسٍ وَالْجِبَالِ ، وَأَخُوهُ أَسَدٌ عَلَى خِرَاسَانَ . وَكَانَ بَدَأَ  
وَلَايَتَهُمَا فِي سَنَةِ ١٠٦ وَعَزَلَا سَنَةَ ١٢٠ . تَارِيخُ الطَّبَرِيِّ .

(٤) الدَّهْقُ : التَّعْذِيبُ بِالدَّهْقِ ، وَهُوَ بِالتَّحْرِيكِ : خَشْبَتَانِ يَغْمِزُ بِهِمَا السَّاقُ ،  
وَهُوَ بِالْفَارْسِيَةِ « أَشْكَنْجَه » . وَفِي الْأَصْلِ : « فِي جَبِهِ » تَحْرِيفٌ . وَفِي الْعَقْدِ  
٢ : ١٦١ : « وَمرَّ أَسَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيُّ ، وَهُوَ إِلَى خِرَاسَانَ ، بِدَارٍ مِنْ  
دُورِ الاسْتِخْرَاجِ ، وَدَّهْقَانٌ يَعْذِبُ فِي حَبْسِهِ ، وَحَوْلَ أَسَدٍ مَسَاكِينٌ يَسْتَجِدُّونَهُ ،  
فَأَمَرَ لَهُمْ بِدِرَاهِمٍ تَقْسِمُ فِيهِمْ ، فَقَالَ الدَّهْقَانُ ... » .

(٥) فِي الْعَقْدِ : « إِنْ كُنْتَ تَعْطِي مَنْ يَرْحِمُ فَارْحَمِ مَنْ يَظْلِمُ » الْفِعْلَانِ « يَرْحِمُ » ،  
و « يَظْلِمُ » بِالْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ .

(٦) الْفَيْرُ : اسْمٌ بِمَعْنَى تَغْيِيرِ الْحَالِ . وَفِي الْأَصْلِ : « التَّغْيِيرُ » .

(٧) فِي الْعَقْدِ : « الْفَيْثَاتُ » .

إثماً<sup>(١)</sup> . وجميع أهل السعادة إمّا سالم من ذنب ، وإما تارك لإصرار<sup>(٢)</sup> .  
ومن رغب عن التماذى فقد نال أحد الفئمين ، ومن خرج من السعادة فلا غاية  
له إلا دار الندوة<sup>(٣)</sup> . وسواك - جعلت فداك - ظلمت بالبطش والفشم ،  
أو ظلمت بالدّاحس والدّاس<sup>(٤)</sup> . فشاؤز نَبَك ، وناظر حزمك ، وقِفْ قبل  
الوُثْبَة ، واحذر زَلَّة العالم .

٩٦ وقد قال صاحبكم : من استشار الملالة وقلد طبيعته الاستطراف ، وجعل  
الخطرة ذنباً<sup>(٥)</sup> ، والذنب ذنباً ، ومقدار الطّرفة إصراراً ، والصّغير كبيراً ،  
والقليل كثيراً ، عاقب<sup>(٦)</sup> على المتروك الذي لا يُعْبَأ به ، وبلغ بالبطش إلى حيث  
لا بقيّة معه<sup>(٧)</sup> ، ورأى أن القطيعة التي لا صلة معها ، والتخليج الذي لا تجمل  
معه ، الحزمُ الحمود ؛ وأنّ الاعتزام في كلّ موضع هو الرأى الأصيل .

وقال أيضاً : من كانت طبيعته مأمونة عليه عند نفسه ، وكان هواه رائده  
الذي لا يكذبه ، والتأثر عليه دون عقله ، ولم يتوكل لما لا يهواه على

---

(١) إلى هنا ينتهي نص المقد . وفيه : « وقد أملى لقوم ليزدادوا إثماً .  
فأمر أسد بالكف عنه » .

(٢) في الأصل : « الإصرار » .

(٣) كذا في الأصل ، وجعلت في ط : « الشقوة » .

(٤) الداحس : التدمير للأمور تسببها وتطلبها أخفى ما تقدر عليه .

(٥) الخطرة : ما يقع بالبال والوهم .

(٦) في الأصل : « وعاقب » ، والواو مقحمة .

(٧) البقية : الإبقاء وعدم المبالغة في الإفاد .

ما يهواه<sup>(١)</sup> ، ولم ينصر تالدة الإخوان على الطارف ، ولم ينصف المملول المبعّد من المستطرف المقرّب ، ولم يخف أن تجتذبه العادة ، وتتحكم عليه الطبيعة ، فليرسم حُجَجَهُما ، ويصوّر صورهما ، في كتاب مفرد أو لفظ مسموع ، ثم يمرضهما على جهاذة المعاني وأطباء أدواء العقول ، على ألا يختار إلا من لا يدرى أيّ النوعين يبني ، وعلى أيّهما يحامي ، وأيّهما دواؤه وأيّهما دأؤه . فإن لم يستعمل ذلك بما فضل له من سكر سوء العادة ، لم يزل متورطاً في الخطاء مغموراً بالذم<sup>(٢)</sup> .

سمعتك وأنت تريدني وكأنك تريد غيري ، وكأنك تشير عليّ من غير أن تنصني . وتقول : إني لأعجب ممن ترك دفاتر علمه متفرقة مبعثرة ، وكراريس درسه غير مجموعة ولا منظومة ، كيف يمرضها للتجرّم<sup>(٣)</sup> ، وكيف لا يمنعا من التفرّق<sup>(٤)</sup> . وعلى أن الدفتر إذا انقطعت حزامته<sup>(٥)</sup> ، وانحلّ شيداده ، وتخرمت رُبُطه ، ولم يكن دونه وقاية ولا جُنّة ، تفرّق ورقه ؛ وإذا تفرّق ورقه اشتدّ جمعه ، وعسر نظمه ، وامتنع تأليفه ، وربّما ضاع أكثره . والدفتان أجمع ، وضمّ الجلود إليها أضواء ، والحزم<sup>(٦)</sup> لها أصلح . وينبغي للأشكال أن تُنظم وللأشباه أن تؤاّف ؛ فإن التأليف يزيد الأجزاء الحسنة حسناً ، والاجتماع

(١) في الأصل : « ولم يتوكل لما يهواه » فقط ، وأثبت نص م .

(٢) م : « بالذنب » .

(٣) التجرم ، من الجرم وهو القطع . وفي م : « للتخرم » من الحرم .

(٤) م : « التخرق » .

(٥) الحزامه والحزام : اسم لما شد به .

(٦) الأصل : « والحرز » ، صوابه من م .

يحدث للمساوي<sup>(١)</sup> في الضعف قوة . فإذا فعلت ذلك صرت متى وجدت بعضها فقد وجدت كلها ، ومتى رأيت أدناها فقد رأيت أقصاها ؛ فإن نشطت لقراءة جميعها مضيت فيها .

وإذا كانت منظومة ، ومعروفة المواضع معلومة ، لم تحتج إلى تقليب القماطر على كثرتها ، ولا تفتيش الصناديق مع تفاوت مواضعها ، وخفت عليك مؤوتها وقلت فكرتك فيها ، وصرفت تلك العناية إلى بعض أمرك ، وادخرت تلك القوة لنوابغ غدك .

وعلى أن ذلك أدل على حبك للعلم ، واصطناعك للكتب ، وعلى حسن السياسة ، والتقدم في إحكام الصناعة .

وقلت : لأمر ما جمعوا أسباع القرآن<sup>(٢)</sup> وسوره في مصحف ، ولم يدعوا ما فيه مفرقا في الصدور ، ولا مبدآ في الدفاتر ، ومفرقا في القماطر . على ذلك أجمع المسلمون ، والسابقون الأولون ، والأئمة الرشيدة ، والجماعة المحمودة ، فتوارثه خلف عن سلف ، وتابع عن سابق ، وصغير عن كبير ، وحديث عن قديم .

ولم أشك في أنها نصيحة حازم ، ومشورة واثق ، أو رأي حضر أو حكمة

(١) في الأصل : « للمساوي » ، وأثبت ما في م .

(٢) تكفل أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب قديما في أماليه ٦٣ — ٧٠ ببيان نسخ القرآن وأثلاثه وأرباعه وأخماسه وأسداسه وأسباعه وأثمانه وأتساعه وأعشاره . رواية عن حميد الأعرج . وكذا فعل السجستاني بعده في الصاحف ١٢٥ — ١٣٠ . رواية عن حميد أيضا .



نبغت ، أو صدر جاش فلم يملك ، أو علم فاض فلم يرد ، استعماله من استعماله ، وتركه من تركه .

فلما أخذت بقولك ، وصرت إلى مشورتك وأكثرت حمد الله على إفادتك من العلم وحظ عنايةك من النقل<sup>(١)</sup> ، وجمعت البعض إلى البعض<sup>(٢)</sup> ، والشكل إلى الشكل ، وتقدمت في استجادة الجلود ، وفي تمييز الصناعات ، وفي تحييز البياعات<sup>(٣)</sup> ، وغرمت المال ، وشغلت البال ، وجعلتها مصحفاً مصحفاً ، وأجملتها صنفاً صنفاً ؛ ورأيت أنني قد أحكت شأني ، وجمعت إلى أقطاري ، رأيت أن أنظر فيها وأنا مستاق ولا أنظر فيها وأنا منتصب ، استظهاراً على تعب البدن ؛ إذ كانت الأسافل مثقلة بالأعلى ، وإذا كان الانتصاب يسرع في إدخال الوهن على الأصلاب ؛ ولأن ذلك أبقى على نور البصر ، وأصلح لقوة الناظر ؛ إذ كل واحد من هذه المصاحف قد أعجز يدي بشقل جرمه ، وضيق صدري بحفاء حجمه . وإذا ثقل أنسكا الصدر ، وأوهن العظم .

(١) في الأصل : « وحط عناية » .

(٢) هذا من شواهد استعمال « بعض » مقرونة بأل في قديم الآثار . وإن كان الأصمعي قد أنكره أشد الإنكار حين مثل عن قول ابن القفح : « العلم كثير ولكن أخذ البعض خير من ترك الكل » . وأنكره أبو حاتم أيضاً ، قال : « ولا تقول العرب الكل ولا البعض ، وقد استعماله الناس حق سيويه والأخفش في كتبهما لقلة علمهما بهذا النعوى ، فاجتنب ذلك فإنه ليس من كلام العرب » . وقال الأزهري : « النحويون أجازوا الألف واللام في بعض وكل وإن أباه الأصمعي » . اللسان ( بعض ) .

(٣) في الأصل : « الساعات » ، وليس لها وجه ، والوجه ما أثبت . والبياعات : الأشياء التي يقايح بها في التجارة . وانظر الحيوان ٤ : ٣٦٩ . وفي اللسان : « والبياعة : السلعة » .

وإذا أنا نظرت فيها وأنا جالسٌ سِدِرَتُ عَيْنِي<sup>(١)</sup> ، وتقوَّسَ ظَهْرِي ،  
واجتمع الدمُّ في وجهي ، وأكْرَهْتُ بَصْرِي على غير جهته ، وأجريت شعاع  
ناظري في غير مجراه .

٩٧ و

وقد علمتَ - أبقاك الله - مع خِبرتك بمقايح الأمور ، ومواقع المنافع  
والمضارِّ ، ثم بمصالح العباد والبلاد ، أنَّ من كان على مَقَطْعِ جَبَلٍ ، أو على  
شُرُفَاتِ قَصْرِ ، فأراد رؤية السماء على بُعْدِهَا ، وجدَّ ذلك على العين سهلاً  
خفيفاً ، وإنَّ أراد أن يرى الأرضَ على قُرْبِهَا ، وجدَّ ذلك على العين عِثْناً  
ثَقِيلاً . فإن بدا لي أن يُقابل عيني به العبدُ ، أو تُواجهني به الأمة ، كلَّفتُ  
أخرقَ النَّاسِ كُفّاً ، وأقلَّهم وَقْفاً<sup>(٢)</sup> ، وأكثرهم التفاتاً ، وأحضرهم نعاساً ،  
وأقلَّهم على حالٍ واحدة ثباتاً ، وأجهلهم بمقدار الموافقة ، ولمقادير المقابلة ،  
ويحطُّ اليد ورفمها ، وإمالتها ونصبها . ثم رأيتُ في تضجُّرهم وتكرُّههم  
وفِرارهم منه ، ما صيَّرَ تَجَشُّمِي لثَقَلِ وزنه ، ومُقاساتِي لجفاء حُجْمِهِ ، أهونَ على  
بدني ، وأخفَّ على قلبي . فإن تعاطيته عند ذلك بنفسِي فشقاءٌ حاضر ،  
وإن ألزمتُه غيري ففيضٌ قاتل . وحتىَّ صارت أحوالُها داعيةً إلى ترك دَرَسِها  
والمعاودة لقراءتها ، مع ما كان فيها من الفائدة الحسنة ، والمنافع الجامعة ، ومن  
شَحَذِ الطبيعة ، وتمكين حُسن العادة .

ولو لم يكن في ذلك إلا الشُّغْلُ عن خَوْضِ الخائضين ، والبُعدُ عن هُوِ  
اللاهين ، ومن الغيبة للناس والتمنَّى لما في أيديهم ، لقد كان نفعُ ذلك كثيراً ،  
وموقعه من الدين والفرض عظيماً .

(١) سدر بصره سدرأ : نحيير قلم يكسد يبصر . (٢) الوقف : بالفتح : المواقفة .

ومتى ثقلُ الدرسُ تشاقلت النفسُ ، وتقاعست الطبيعة . ومتى دام الاستئقالُ أحدثَ الهجرانُ . وإذا تطاولَ الكدَ رَسَخَ الزُّهدُ . وفي تركِ النَّظرِ عَمَى البَصَرُ ، وفي إهمالِ الطبيعة كلال حدِّ الطبيعة . وعلى قدر الحاجات تكون الخواطرُ ، كما أنَّه على قدر غريزة العقل تصحُّ الجوانح<sup>(١)</sup> وتسقمُ ، وعلى قدر كثرة الحاجة تتحرَّك الجارحة ويتصرَّف اللسانُ ، ومع قلة الحركة وبُعد المهد بالتصرُّف يحدثُ العجزُ ويُبْطِئُ الخاطرُ . ومع ذهاب البيان<sup>(٢)</sup> يفسد البرهانُ ، وفي فساد البرهان هلاكُ الدُّنيا وفساد الدين .

٩٧ ظ

فقد بلغت ما أردتَ ، ونلتَ ما حاولتَ . فحسبك الآن من شج من بأسوك ، ومن قتل من يُقتل فيك .

جُعِلت فداك . إنَّه ليس يومى منك بواجد ، وأنا على عقابك أوجد . وليس يُنجيني منك مَعْقِلٌ وَعِلٌ ، ولا مَفَاذَةٌ سَبْعٌ ، ولا قَعْرٌ بِحْرٌ ، ولا رَأْسٌ طَوْدٌ ، ولا دَغَلٌ ولا دَخْلٌ<sup>(٣)</sup> ، ولا نَفَقٌ ولا مَفَارَةٌ ولا مَطْمُورَةٌ . وليس ينجيني منك إِلَّا مَفَاذَةُ الْمَهْلَبِ<sup>(٤)</sup> . فإن أعرتنى قلبه وعلمتنى حيلته ، وأمكنتنى من سِكِّينِهِ . وإلَّا فأنا أول من ابتلعتَه تلك الحَيَّةُ . ولا والله إنْ بى

(١) فى الأصل : « الجوانح » . والجوانح : الضلوع ، أو القصار منها . والوجه  
أثبت . وانظر ما قبله وما بعده .

(٢) بهذا صحتها ناشر ط . وفى الأصل : « البرهان » .

(٣) الدغل بالتحريك : الشجر الكثير اللثف . والدخل ، بالفتح : هوة تكون  
فى الأرض وفى أسافل الأودية يكون فى رأسها ضيق ثم يتسع أسفلها . وفى الأصل :  
« دخل » تصحيف .

(٤) كذا فى الأصل .

قوة على الثعبان<sup>(١)</sup> ، فكيف الثنين . أعفني من حية المهلب ثم اقتلني أي قتلة شئت .

إن احترست منك ألفت لنفسي كدًا شديدًا ، وغمًا طويلاً ، وطال اغترابي وافتراقُ الآفي ، وتعرّضت للعدو ، وتحرّشت بالسباع . فإن استرسلت إليك لم تر أن تقتلني إلا شرّ قتلة وآلها ، ولم تعذبني إلا بأشدّ النقم وأطولها . ولو أردت ذبحي لاخترت الكليل على المرفف ، والتطويل على التدفيف<sup>(٢)</sup> ، حتى كأني علمت عليك : « شاه مات<sup>(٣)</sup> » ، أو أكلت سبعة وأطعمتكَ واحدة .

ولقد تقدّمت في المكر واستظهرت على في الكيد ، حتى توليت ذلك في صفار كتبي وفيما لا تحفل به من دوام أمرى ، وعلمت أن الدرس لليل وأن الا . . . . .<sup>(٤)</sup> للنهار ، وأن الكتاب لا يقرأ إلا ليلاً والنيران زاهرة ، والمصاييح مُقرّبة . وعلمت أن كل من ضعف بصره وكلّ نظره ، فإنه أبداً أقرب مصباحاً وأعظم ناراً . وأن<sup>(٥)</sup> المحرور المحترق ، والممرور الملهب ، والبائس المتهافت ، إذا كان صاحب كتب ودرس ، أنه لا يجد

(١) أي ما بي قوة عليه .

(٢) التدفيف بالذال المعجمة : الإسراع في القتل .

(٣) أي لحقك من الفيظ ما يلحق اللاعب بالشرطي من قول صاحبه له : « شاه مات » .

(٤) يياض في الأصل . وإزاءه في هامش النسخة « حراوبه » .

(٥) في الأصل : « فإن » .

بدأ من الصبر على ما يُحرقه ويُعميه ، أو الترك للقراءة فيها والتعرض لها .  
فخترتني بين العمى والجهل . وما فيهما حظٌ لختار .

وقلت : إذا سَخُنُ <sup>(٢)</sup> بدنه سُجِنَ بوله ، وإذا سُجِنَ بوله جَرَحَ مثانته  
وأحرق كَلْبِيته ، وطَبَخَ فضول غِذائِهِ ، وَجَفَفَ ما فضل عن استمرائه فأحاله  
حَصَى قاتلاً وصخرأ جامداً ، وهو دَقِيقُ القضيب ضَيِّقُ الإحليل ، فإذا  
حصاه بورثه الأُسْرُ <sup>(٣)</sup> ، وفي ذلك الأُسْرُ تافُ النفس أو غاية التعذيب .

وقلت : فإن ابتليت بطول عمره أقام فينا مشغولاً بنفسه ، وإن ذهب  
عنا فقد كفانا مؤونة الحيلة في أمره .

٩٨ و

جُعِلْتُ فِدَاكَ ، ما هذا الاستقصاء وما هذا البلاء ؟ ! وما هذا التثبُّع  
لغوامض المسألة ، والتعرض لدقائق المكروه ؟ ! وما هذا التغافل في كل  
شيء يُحْمَلُ ذكرى ؟ ! وما هذا الترقى إلى كل ما يحطُّ من قدرى ؟ !

وما عليك أن تكون كتبي كلها من الورق الصَّيْنِيِّ ، ومن الكاغد  
الخُرَّاسَانِيِّ ؟ !

قل لي : لِمَ زَيَّنْتَ النَّسَخَ في الجلود ، ولمَ حَثَّنِي على الأَدَمَ ، وأنت  
تعلم أنَّ الجلودَ جافية الحِجَمِ ، ثقيلة الوزن ، إن أصابها الماء بَطَلَتْ ، وإن كان  
يَوْمٌ لَثَقِي استرخت . ولو لم يكن فيها إلَّا أنَّها تبغض إلى أربابها نزولَ الغيث ،  
وتكرهه إلى مالكيها الحَيَا ، لكان في ذلك ما كفى ومنع منها .

(١) في الأصل : « سجن » .

(٢) الأُسْرُ : بالضم : احتباس البول . في الأصل : « فارى حصاء » .

قد علمت أن الوراق لا يخط في تلك الأيام سطرا ، ولا يقطع فيها  
جلدا . وإن ندرت - فضلا على أن تمطر ، وفضلا على أن تفرق - استرسلت  
فامتدت . ومتى جفت لم تعد إلى حالها إلا مع تقبض شديد ، وتشنج قبيح .  
وهي أنتن ريحا وأكثر ثمنا ، وأحمل للفش : بفش الكوفي بالواسطي ،  
والواسطي بالبصري ، وتعتق لكي يذهب ريحها وينجاب شعرها<sup>(١)</sup> . وهي  
أكثر عقداً وعجراً ، وأكثر خباطاً وأسقاطاً ، والصفرة إليها أسرع ،  
وسرعة انسحاق الخط فيها أعم . ولو أراد صاحب علم أن يحمل منها قدر  
ما يكفيه في سفره لما كفاه حمل بعير . ولو أراد مثل ذلك من القطني<sup>(٢)</sup>  
لكفاه ما يحمل مع زاده .

وقلت لي : عليك بها فإنها أحمل للحك والتغير ، وأبقى<sup>(٣)</sup> على تعاور  
العارية وعلى تقلب الأيدي ، ولترديدها ثمن ، ولطرسها مرجوع ، والمعاد  
منها ينوب عن الجدد . وليس لدفاتر القطني أثمان في السوق وإن كان  
فيها كل حديث طريف ، ولطف مريح ، وعلم نفيس . ولو عرضت عليهم  
عدها في عدد الورق جلوداً ثم كان فيها كل شعر بارد وكل حديث غث ،  
لكانت أثمان ، وكانوا عليها أسرع .

وقلت : وعلى الجلود يعتمد في حساب الدواوين ، وفي الصكك  
والعهود ، وفي الشروط وصور العقارات . وفيها تكون نماذج النقوش ،

(١) في الأصل : « شعره » .

(٢) أي المصنوع من القطن .

(٣) في الأصل : « وأبقاه » .

ومنها تكون خرائط البرد<sup>(١)</sup> . وهنّ أصلح للجرب ولعفاص الجرّة وسداد القارورة . وزعمت أنّ الأرضة إلى الكاغد أسرع ، وأنكرت أن تكون الفأرة إلى الجلود أسرع ، بل زعمت أنها إلى الكاغد أسرع وله أفسد ، فكنت سبب المضرة في اتّخاذ الجلود والاستبدال بالكاغد ، وكنت سبب البلية في تحويل الدفاتر الخفاف في المحمل ، إلى المصاحف التي تُثقل الأيدي وتحطم الصدور ، وتقوّس الظهور ، وتعمى الأبصار .

وقد كان في الواجب أن يدع الناس اسم المصحف للشئ الذي جمع القرآن دون كل مجلد<sup>(٢)</sup> ، وألّا يروموا جمع شئ من أبواب التعلّم بين الدفتين ، فيلحقوا بما جعله السلف للقرآن غير ذلك من العلوم .

دع عنك كلّ شئ . ما كان عليك أن يكون لي ولد يُحبي ذكري ويحمي ميراثي ، ولا أخرج من الدنيا بحسرتي ، ولا يأكله مُراء يرصّدي ، وابن عمّ يحسّدي ، ولا يرتع فيه المعدّلون في زمان السوء<sup>(٣)</sup> ، ولا تُصطنع فيه الرجال ، ويقضى به الدّمام . فقد رأيت صنيعهم في مال المفقود والمناسخة<sup>(٤)</sup> والوارث الضعيف ، ومن مات بغير وصية .

(١) الخريطة : هنة مثل الكيس تكون من الخرق أو الأدم تشرح على مافها . والبرد : جمع برید .

(٢) الجاحظ امتعمل كلمة « المصحف » للدلالة على المجلد في نهاية كل جزء من أجزاء الحيوان . انظر مقدمة الحيوان ص ٢٨ .

(٣) المعدلون : الذين يقيمون الأحكام .

(٤) التماسخ والمناسخة في الميراث : موت ورثة بعد ورثة وأصل الميراث قائم لم يقسم .

جُعِلَتْ فداك ، إن النفوس لا تجود لمولى الكلالة<sup>(١)</sup> بما تجود به لأولاد  
الأصلاب وما مسَّ تلك الأصلاب ؛ لأنَّ الرحم المسَّاة والقراية الملتصقة ،  
واللحمة الملتحمة ، وإن أمَّلت التركة ونازعت إلى المورث ، فعما ما يَطرُها  
ويَنفِها ، ويَحْزنها ويبيكها ، ويحرك دمها ويستغزر دمعها . وقد يشفع للولد إلى  
أبيه حال أبتة كانت من أبيه .

وابن العم الذي ليس بالبعيد فيحُتَّك من جسده ، وليس بالقريب المحنَّو  
على رَحِمه ، وسببه الجاذب<sup>(٢)</sup> له إلى تمَّنى مماتى أمتن من سببه إلى تمَّنى بقائى ،  
وهو إلى الحال الموجبة للقسوة والغلظة أقرب منه إلى الحال الموجبة للرفقة  
والعطف . وليس بنصرِكَ إذا نصرَكَ ولا يحامى عليك لقرايته منك ، ولكن  
لعله بأنَّه متى خذلك حلَّ به ضعفك ، واجترأ بعد ضعفك عليه عدوؤه . فهو  
يريد بنصره من لا يجب عليه شكره ، ويقوى ضعف غيره بدفع الضعف  
عن نفسه .

جعلتُ فداك . ما كان عليك من بُنى صغير يكون لى ، ولا سيمًا ولست  
عندك ممن يُدرِّك كسبه أو تُبلِّغ نصرته ، أو يُعاين بره أو يؤمِّل إمتاعه .  
وما كان عليك مع كبر سنى وضعف ركنى ، أن يكون لى ريحانة أشمها  
وثمره أضمها ، وأن أجد إلى الأمانى به سببًا ، وإلى التاهي سَلَمًا ، وأن تكثر  
لى من جنس سرور الحالم ، وبقدر ما يمتَّع به راجى السَّراب اللامع ، حتَّى  
حبَّبتَ قِصر عمرى إلى وليِّى ، وشوَّقته إلى ابن عمِّى ؛ وحتَّى زدتَ فيما عنده

(١) الكلالة من القراية : ما عدا الوالد والولد .

(٢) فى الأصل : « وسبب الجاذب » .



مع كثرة ما عنده ، وحتى صيرني حبه لموتى إلى حبّ موته ، وتأميل مالى  
[ إلى <sup>(١)</sup> ] تأميل فقره ؛ وحتى شغلتنى عمن كان يشغل عدوى عنى .

وسواء أعيت على ألا يكون لى ولد قبل أن يكون ، أو عبت على  
ألا يكون بعد أن كان . وإنما يعذب الله على النية والقصد ، وعلى  
التوختى والعمد .

وكما أنه سواء أن تحتال فى ألا يكون لى مال قبل أن أملكه ، أو احتلت  
فى ألا يكون بعد أن ملكته .

وكنت لا أدرى ما كان وجه حبك لإعنائى ، والتشديد بذكر ترائى ،  
والتنويه باسمى ، ولا لم زهدتنى فى طلب الولد ، ورغبتنى فى سيرة الرهبان .

فإذا أنت لم ترفع ذكرى فى الأغنياء إلا لتعرض ذنبى للفقراء ، ولم تسكّر  
مالى إلا لتقوى العلة فى قتلى ، فيها مكيدة ما أبعد غورها ، وبها خفرة  
ما أبعد قعرها . لقد جمع هذا التدبير لطافة الشخص ودقة المسلك ،  
وبعد الناية .

والله لو دبرها الإسكندر على دارا بن دارا ، أو استخرجها المهلب على  
سفيان بن الأبرد ، وفُتحت على هرثمة فى مكيدة خازم بن خزيمة ، ولو دبرها  
لقيم بن لقمان على لقمان بن عاد <sup>(٢)</sup> ، ولو أراغها <sup>(٣)</sup> قيس بن زهير على حصن  
ابن حذيفة ، ولو توجّهت لكثان بنى أسد على دهاة قريش - لقد كان ذلك

(١) ليست فى الأصل .

(٢) انظر البيان ١ : ١٨٤ - ١٨٥ .

(٣) أراغها : أرادها وطلبها . وفى الأصل : « أذاغها » ، تحريف .

من تديرهم نادراً [ بديعاً<sup>(١)</sup> ] ، ولكان في مكايدهم شاذاً غريباً . وإنها لترفع عن قصير في كيد الزبّاء ، وعن جذيمة في مشاورة قصير . وما إخالها إلا ستدق على ابن العاص ، وتقمض على ابن هند<sup>(٢)</sup> ، ويكل عنها أخو ثقيف<sup>(٣)</sup> ، ويستلم لها ابن شميّة<sup>(٤)</sup> .

هذا والله التدير لا تخاريق العرّاف ، وتزاييق الكاهن ، وتهاويل الحاوي<sup>(٥)</sup> ، ولا ما ينتحلها صاحب الرئي<sup>(٦)</sup> ؛ بل تضل فيها رقي الهند ، وتقرؤها بها سحرة بابل .

فلو كنت إذ أردت ما أردت ، وحاولت ما حاولت ، رفعت قبل كل شيء اللؤاسة ، ثم أبيت المواكلة ، ثم قطعت البر<sup>(٧)</sup> ، ثم أذنت مع العامة ، ثم أعملت الحرمان ، ثم صرّحت بالجفوة ، ثم أمرت بالحجاب ، ثم صرمت الجبل ، ثم عاديت واقتصدت ، ثم من بعد ذلك كله أسرفت واعتديت ، لكنت

(١) الكلمة من ب .

(٢) هو عمرو بن هند .

(٣) يعني الحجاج بن يوسف .

(٤) يعني زياد بن أبيه .

(٥) انظر الحيوان ٤ : ٣٧٠ .

(٦) الرئي : جنى يتعرض للرجل يريه كهانة وطبا . يقال مع فلان رئي . وقد أراى الرجل ، إذا صار له رئي من الجن . في الأصل : « صاحب الرى » وفي ب : « ينتجها صاحب الدين » ، والصواب ما أثبت . انظر الحيوان ٤ : ٣٧٠ . ٢٠٣ : ٦ .

(٧) في الأصل : « الستر » .

واحداً مَن يصبر أو يجزع ، فلمَلَى كُنتَ أعيش بالرفق<sup>(١)</sup> ، وأتبلغ بحُشاشة النفس ، وأعلل نفسي بالطمع الكاذب . ولكن فجاءت الحوادث وبَغَتَات البلاء لا يَقُوم لها الحجر القاسى ، ولا الجبل الراسى . فلم تدع غايةً فى صرف ما بين طبقات التعذيب إلَّا أتيت عابها ، ولا فضول ما بين قواصم الظهر إلَّا بلغتها . فقد مِتَ الآن فَمَنْ تَعِيش ؟ [ بل قد قتلتنى فَمَنْ الآن تعاشر<sup>(٢)</sup> ! ] ، كما قال ديوست المغنى لكسرى حين أمر بقتله لِقَتْلِهِ تلميذه بلهيد<sup>(٣)</sup> : قتلْتُ أنا بلهيد ، وتقتانى ، فَمَنْ يُطْرُبُكَ ؟ قال : خلُّوا سبيلَه ؛ فإن الذى بقى من عمره هو الذى أنطقه بهذه الحجة .

ولكننى أقول : قد قتلتنى فَمَنْ تَعِيش ؟ أَمَعَ الشَّطْرُنجِيُّين ؟ ! فقد قال جالينوس : إِيَّاكَ والاستمتاع بشيء لا يعمُ نفعه<sup>(٤)</sup> .

إنَّ الكلامَ إنما صار أفضل من الصَّمْت ؛ لأنَّ نفع الصمت لا يكاد يعدو الصَّامَت ، ونفع الكلام يعمُّ القائل والسامع ، والغائب والشاهد ، والراهن والغابر .

وقالوا : ومما يدلُّ من فضل الكلام على الصمت ، أنَّك بالكلام تحبر عن الصَّمْت وفضله ، ولا تحبر بالصَّمْت عن فضل الكلام . ولو كان

(١) الرفق ، بالتحريك : قلة المال . ولعل صوابها « الرمق » .

(٢) التكملة من ب .

(٣) فى الأصل « بلهيد » فى هذا الموضع وتاليه .

(٤) الكلام بعده إلى قوله « من سلم » يبدو أنه دخل من رسالة أخرى ، كما تنبه لذلك ناشر ط .

الصمتُ أفضلُ لكانت الرسالة صمتًا ، ولـ كان عدمُ القرآن أفضلَ من القرآن .

وقد فرّق بينهما رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وفَصَّلَ وميَّزَ وحَصَّلَ ، حيث قال : « رحم الله امرأً قال خيراً ففهم ، أو سكتَ ففهم » . فجعل حظَّ السكوت السلامةَ وحدها ، وجعل حظَّ القول الجمعَ بين الفنيمة والسلامة . وقد يسلم من لا يفهم ، ولا يفهم إلا من سلم .

فأمّا الدوابُّ فمن يضع المركبَ الكريم إلى الصّاحب الكريم ؟ ومن يعدل إمتاع بهيمة بإمتاع أديب .

قالت ابنة الثّمان : لم نر فيما جرّبنا من جميع الأصناف أبلغَ في خير وشرٍّ من صاحب .

ولمّا عزمَ ابن زياد على الحُقنة بعد أن كان تَفَحَّشَها قال له حارثةُ بن بدر : ما أجِدُ أولى بتولّي ذلك من الطيب . قال عُبيد الله : كَلّا ، فأين الصاحب . والله أن لو تُتَجَتَ في كُلِّ عام ألفَ شَبدِيز<sup>(١)</sup> ، وأُحِلَّت<sup>(٢)</sup> في كل ليلة أربعة آلاف ربرب ، وصار لك كُلُّ نهر المبارك<sup>(٣)</sup> بدلًا من بعض بابك<sup>(٤)</sup> .

(١) الشبديز : ضرب من الخيل قاتم اللون أصداً ، ولفظه فارسي . معجم استينجاس ٧٣١ . وفي الأصل : « سبدین » ، صوابه في ب .

(٢) في الأصل : « وقمرت » وأثبت ما في ب .

(٣) اسم نهر بالبصرة احتفروه خالد بن عبد الله القسري هشام بن عبد الملك . وفي الأصل : « المبارك » .

(٤) بابك ، بفتح الباء الثانية : نهر في بغداد منسوب إلى بابك بن بهرام بن بابك . معجم البلدان ( نهر الطابق ) .

وأكلت رأس الجنيد بن حاق الأشيم<sup>(١)</sup>، وأخبلت ابن الغز<sup>(٢)</sup> من إفراط الشبق، لما كان ينبغي لك أن تعاملنا بهذه المعاملة، ولا كان ينبغي أن تقتلنا هذه القتلة، ولو اقتصرت من العقوبة على شيء دون شيء لكان أعدل، ولو عفوت البتة لكان أمثل.

إنَّ الاعتزام على قليل العقاب يدعو إلى كثيره، ومبتدئ العقاب بعرض لجأج. وليس يُعاقب إلا غضبان.

والغضب يغلب العزم على قدر ما مكن، ويحير اللب بقدر ما سلط.

والغضب بصور لصاحبه مثل ما يصور الشكر لأهله.

والغضبان يشعله الغضب، ويغلي به الغيظ، وتستفرغه الحركة، ويمتلي بدنه رعدة، وتزایل أخلاطه، وتحل عُقده، ولا يعتريه من الخواطر إلا ما يزيد في دانه، ولا يسمع من جليسه إلا ما يكون مادة لفساده. وعلى أنه ربما استفرغ حتى لا يسمع، واحترق حتى لا يفهم.

ولولا أن الشيطان يريد ألا يخلو من عمله، ولا يقصر في عادته، لما وسوس إلى الغضبان ولا زين له، ولما أغراه ولا فتح عليه؛ إذ كان قد كفاه، وبلغ أقصى مناه.

وليس يُصارع الغضب أيام شبابه وغرب نابه شيء؛ إلا صرعه، ولا يُنازعه قبل انتهائه وإدباره شيء؛ إلا قهره. وإنما يُحتال له قبل هيجه،

(١) كذا ورد هذا العلم.

(٢) ابن الغز: رجل من إباد يزعمون أنه كان أعظم الناس عضواً وأندم نكاحاً. ثمار القلوب ١١١ - ١١٢ وأمثال الميداني ٢: ٢٧٣ في قولهم (أنكح من ابن الغز) واللسان (لغز). وفي الأصل: «واحتلت بين الغر»، صوابه في ب.

ويُتوثَّق منه قبل حركته ، ويُتقدَّم في حَسْم أسبابه وفي قطع علله . فإِذَا  
تَمَكَّن واستفحل ، وأذكى ناره واشتعل ، ثم لاقى ذلك من صاحبه قُدرة ،  
ومن أعوانه سَمْعًا وطاعة ، فلو سَقَطَتْه بالتوراة ، ووجَّرتَه بالإنجيل ، ولدَدَتْه  
بالزَّبُور<sup>(١)</sup> ، وأفرغت على رأسه القرآن إفراغا ، وأتيتَه بآدم عليه السلام شَفِيعًا  
لما قَصَّرَ دون أقصى قُوَّتِهِ ، ولمَتَّيْ أن يُعارَ أضعاف قدرته .

وقد جاء في الأثر : أن أقرب ما يكون العبدُ من غضب الله إذا غضب . ١٠٠ ظ  
قال قتادة : ليس يُسكن الغضبَ إلا ذكر غضب الرحمن عز وجل .  
وقال عمرو بن عبَّيد : ذكر غضب الرب يمنع من الغضب . إلا أن يريد  
الذكر باللسان<sup>(٢)</sup> .

ويستى المتوجَّد غضبان ، والدَّكُور حقودا .  
فلا تقف - حفظك الله - بعد مضيك في عقابي التماسًا للعفو عني ،  
ولا تقصِّر عن إفراطك من طريق الرحمة لي ؛ ولكن قِفْ وقفة من يتهم  
الغضبَ على عقابه ، والشيطانَ على دينه ، ويعلم أن للعقل خصومًا ،  
وللكرم أعداء .

وإن من النِّصف أن تنتصف لعقلك من خصمه ، وتنتصف لكرمك من  
عدوه ، وتمسك إمساكًا من لا يبرئ نفسه من الهوى ، ولا يبرئ الهوى  
من الخطأ .

(١) سعطه الدواء : أدخله في أنفه بالمسعط . وأوجره الدواء : أدخله في فمه  
بالميجر . ولده بالدود : صبه بالمسعط في أحد شقي الفم  
(٢) أى إن ذكر غضب الرحمن باللسان لا يصنع شيئاً ، وإنما مراده ذكر الغضب  
بالقلب والفكر .

ولا تُنكر لنفسِكَ أن تزل ، ولعقلك أن يهفو ؛ فقد زل آدم عليه السلام وهفاً ، وعصى ربّه وغوى ، وغرّه عدوّه وخدعه خصمه ، وعيب باختلال عزمه وسكون قلبه إلى خلاف ثقته<sup>(١)</sup> . هذا وقد خلقه الله بيده ، وأسكنه في دار آمنه ، وأسجد له ملائكته ، ورفع فوق العالمين درجته ، وعلمه جميع الأسماء بجميع المعاني . ولا يجوز أن يعلمه الاسم ويدع المعنى ، ويعلمه الدلالة ولا يضع له المدلول عليه . والاسم بلا معنى لغوٌ ، كالظرف الخالي . والأسماء<sup>(٢)</sup> في معنى الأبدان والمعاني في معنى الأرواح . اللفظ للمعنى بدنٌ ، والمعنى لللفظ روح . ولو أعطاه الأسماء بلا معاني لكان كمن وهب شيئاً جامداً لا حركة له ، وشيئاً لا حسّ فيه ، وشيئاً لا منفعة عنده .

ولا يكون اللفظ اسماً إلا وهو مضمّن بمعنى ، وقد يكون المعنى ولا اسم له ، ولا يكون اسم إلا وله معنى .

في قوله جلّ ذكره : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾<sup>(٣)</sup> ، إخبارٌ أنّه قد علمه المعاني كلّها . ولسنا نعى معاني تراكيب الألوان والطعوم والأرايح ، وتضاعيف الأعداد التي لا تنتهى ولا تنهاى . وليس لما فضل عن مقدار الصلحة ونهاية الرسم اسمٌ إلا أن تدخله في باب العلم فتقول : شيء ، ومعنى .

الأسماء التي تدور بين الناس إنما وُضعت علاماتٍ لخصائص الحالات ،

(١) في الأصل : « نغته » ، وأثبت ما في ب .

(٢) في الأصل : « والاسم » .

(٣) الآية ٣١ من سورة البقرة .

لا لتأنيج التركيبات . وكذلك خاص الخاص لا اسم له إلا أن تجعل الإشارة المقرونة باللفظ اسماً .

وإنما تقع الأسماء على العلوم المقصورة ، ولعمري إنها لتُحيط بها وتشتمل .  
فأما العلوم المبسوطة فإنها تبلغ مبالغ الحاجات ثم تنتهي .

١٠١ و

فإذا زعمت أن الله تبارك وتعالى علم آدم الأسماء كلها بمعانيها ، فإنما تعني نهاية الصلحة لا غير ذلك . هذا وآدم هو الشجرة وأنت ثمرة ، وهو سماوي وأنت أرضي ، وهو الأصل وأنت الفرع ، والأصل أحق بالقوة والفرع أولى بالضعف .

فلست أسالك أن تمسك إلا ربما تسكن إليك نفسك ، ويرتد إليك ذهنك ، وحتى توازن بين شفاء الغيظ والانتفاع بثواب الغفو ، وترى الحلم وما يجلب من السلامة وطيب الأحذوث ، وترى تضرثم الغضب<sup>(١)</sup> وما يقضي لأهله من فضل القوة .

على أن العقل إذا تخلّص من سكر الغضب أصابه ما يُصيب الخمر إذا خرج من سكر شرابه ، والمنهزم إذا عاد إلى أهله ، والمبرسم إذا أفاق من برسامه<sup>(٢)</sup> .

وما أشك أن العقل حين يُطلق من إسهاره كالمقيد حين يفك من قيوده ؛ يمشي كالنزيف ، ويحجل كالغراب . فإذا وجب عليك أن تحذر على عقلك تخامرة داء الغضب بعد تخلّصه ، وأن تتعمّده بالعلاج بعد مباينته له وتخلّصه

(١) في الأصل : « الغرض » .

(٢) البرسام : ذات الجنب ، وهو النهاب في الضياء المحيط بالرئة . المعجم الوسيط .



من يده ، فما ظنك به وهو أسيرٌ في ملكه ، وصريع تحت كلِّكه ، وقد غطَّه في بحره ، وغمره بفضل قوَّته .

وقد زعموا أنَّ الحَسَنَ حضرَ أميراً قد أفرطَ في عقوبة بعض المذنبين ، فـكَلَّمَهُ فلم يَحْفَلْ بكلامه ، وخَوَّفَهُ فلم يَتَعَطَّ بزجره ، فقال : إِنَّكَ إِنَّمَا تَضْرِبُ نَفْسَكَ ، فَإِنْ شِئْتَ الْآنَ فَأَقِلَّ ، وَإِنْ شِئْتَ فَأَكْثِرْ .

ومَعَاذَ اللَّهِ أَنْ أَقُولَ لَكَ كَمَا قَالَ الْحَسَنُ لِذَلِكَ الظَّالِمِ الْمُعْتَدِي ، وَالْمُصَمِّمِ الْقَاسِي ، وَلَكِنِّي أَقُولُ : اعْلَمْ أَنَّكَ تَضْرِبُ مَنْ قَدْ جَعَلَكَ مِنْ قَتْلِهِ فِي حِلٍّ . وَإِنْ كَانَ الْقَتْلُ يَحِلُّ بِإِحْلَالِ الْمُقْتُولِ ، وَيَسْقُطُ عَنْهُ عِقَابُهُ بِهَيْبَةِ الْمَظْلُومِ ؛ وَلَوْ أُمِكنَ فِي الدِّينِ تَوَاهُبُ قِصَاصِ الْآخِرَةِ فِي الدُّنْيَا ؛ وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ مِمَّا تَجُودُ بِهِ النَّفْسُ يَوْمَ الْحَاجَةِ إِلَى الثَّوَابِ وَإِلَى رَفْعِ الْعِقَابِ ، وَكَانَ الْوَفَاءُ مَضمُونًا - لَكُنْتُ أَوَّلَ مَنْ أَسَمَحْتُ بِذَلِكَ <sup>(١)</sup> نَفْسُهُ ، وَانْشَرَحَ بِهِ صَدْرُهُ .

١٠١ ظ

جُعِلَتْ فِدَاكَ ، إِنِّي قَدْ أَحْصَيْتُ جَمِيعَ أَسْبَابِ التَّعَادِي ، وَحَصَلَتْ جَمِيعُ عِلَلِ التَّضَاغُنِ ، إِلَّا عِلَّةَ عِدَاوَةِ الشَّيْطَانِ لِلْإِنْسَانِ ؛ فَإِنِّي لَا أَعْرِفُ إِلَّا بِجَازِهَا فِي الْجُمْلَةِ وَلَا أَحَقَّ خَاصَّتِهَا عَلَى التَّحْصِيلِ . وَعَلَى حَالٍ <sup>(٢)</sup> فَقَدْ عَرَفْتُهَا مِنْ طَرِيقِ الْجُمْلَةِ وَإِنْ جَهِلْتُهَا مِنْ طَرِيقِ التَّفْصِيلِ . فَأَمَّا هَذَا التَّجَنِّي فَلَمْ أَعْرِفْهُ فِي خَاصٍّ وَلَا عَامٍّ .

فَمِنْ أَسْبَابِ الْعِدَاوَاتِ تَنَافُسُ الْجِيرَانِ وَالْقَرَابَاتِ ، وَتَحَاسُدُ الْأَشْكَالِ فِي الصَّنَاعَاتِ . وَمِنْ أَمْتِنِ أَسْبَابِهِمْ إِلَى الشَّرِّ وَأَسْرَعُهَا إِلَى الْمُرُوءَةِ وَالْعَقْلِ ،

(١) فِي الْأَصْلِ : « ذَلِكَ » . أَسَمَحْتُ : أَطَاعْتُ وَانْقَادْتُ .

(٢) كَذَا فِي الْأَصْلِ وَب . وَإِخْطَئَهَا مِنْ لُغَةِ الْجَاحِظِ ، وَلَيْسَ مَا يَدْعُو إِلَى أَنْ تَجْعَلَ

« وَعَلَى كُلِّ حَالٍ » .

وأقدها في العرض وأحطها على الدين<sup>(١)</sup>، التشاح على المواريث، والتنازع في تخوم الأرضين. فإن اتفق أن يكون بين المنشاكين في القرابة كان السبب أقوى، والداء أدوى. وعلى حساب ذلك إن جمعت هذه الخصومة مع الجوار والقرابة واستواء الخط في الصناعة. ولذلك كتب عمر رضى الله عنه إلى قضاته: أن ردوا القرابات عن حرّ القضاء<sup>(٢)</sup>، فإن ذلك يورث التضامن. ولم أعجب من دوام ظلمك، وثباتك على غضبك، وغلظ قلبك، ودورنا بالعسكر متجاورة، ومنازلنا بمدينة السلام متقابلة، ونحن ننظر في علم واحد، ونرجع في النحلة إلى مذهب واحد؛ ولكن اشتدّ عجبى منك اليوم وأنا بفرغانة وأنت بالأندلس<sup>(٣)</sup>، وأنا صاحب كلام وأنت صاحب إنتاج، وصناعتك جودة الخط وصناعتى جودة الخو<sup>(٤)</sup>، وأنت كاتب وأنا أُمّى، وأنت خراجى وأنا عُشرى، وأنت زرعى وأنا نخلى. فلو كنت إذ كنت من بكر كنت من تميم، كان ذلك<sup>(٥)</sup> إلى العداوة سبباً، وإلى المنافسة سُلماً.

أنت أبقاك الله شاعر وأنا راوية، وأنت طويل وأنا قصير، وأنت أصلع وأنا أنزع، وأنت صاحب براذين وأنا صاحب حمير، وأنت ركين وأنا عجول، وأنت تدبر لنفسك وتقيم أود غيرك، وتنفع لجميع الرعية، وتبلغ

---

(١) الخطب: الجمع للجد والردى، والمراد الإفساد.

(٢) الحرا: الساحة والناحية. وفي الأصل: «حر القضاء»، مع ضبط

الحاء بالفتح.

(٣) فرغانة، بالفتح: مدينة وكورة واسعة بما وراء النهر، متاخمة لتركستان.

(٤) كذا في ب وفي الأصل: «النجوم».

(٥) في الأصل «كان لك».

بتدبيرك أقصى الأمة ، وأنا أعجز عن نفسي وعن تدبير أمتي وعبدى .  
 وأنت منعم وأنا شاكر ، وأنت ملك وأنا سُوقَة ، وأنت مصطنع وأنا  
 صنيع ، وأنت تفعل وأنا أصِف ، وأنت مقدّم وأنا تابع ، وأنت إذا نازعت  
 الرجال وناهضت الأكفاء لم تقل بعد فراغك وانقطاع كلامك : لو كنت  
 قلتُ كذا كان أجود ، ولو تركت قول كذا لكان أحسن ؛ وأمضيت  
 الأمور على حقائقها ، وسَلّمت إليها أقساطها على مقادير حقوقها ؛ فلم تندم بعد  
 قول ، ولم تأسف بعد سكوت . وأنا إن تكلمت <sup>(١)</sup> ندمت ، [ وإن جازيت  
 أبدعت <sup>(٢)</sup> ] ورأيي كله دَرَي . وأنت تمُدُّ في الشطرنج زبرب ، وأنا في  
 الشطرنج لا أحد <sup>(٣)</sup> .

١٠٢ و

وما أعرف ها هنا اجتماعاً على مشاكلة إلا في الإيثار بخبز الخشكار  
 على الحواري <sup>(٤)</sup> ، والباقي على الجوزينج <sup>(٥)</sup> ، وأنا جميعاً ندعى الهندسة .

(١) م : « حلت » .

(٢) التكملة من م وفيها : « جازيت » ، وفي ب : « وإن جازيت هربت » .  
 أبداع ، بالبناء للجهول وللعلوم أيضاً : كلت راحلته أو عطبت .

(٣) ب : « لا جد » .

(٤) في الألفاظ الفارسية ٥٥ : « الخشكر : ما خشن من الطعن ، فارسيته خشكار ،  
 وهو القصرى » . وانظر استنجاس ٤٠٢ والبخلا ٨٤ . والقصرى ، كبشرى :  
 ما يبق في المتخل بعد الانتخال ، أو القشرة العليا من الحبة . والحواري بضم الحاء  
 وتشديد الواو وفتح الراء : الدقيق الأبيض ، وهو لباب الدقيق وأجوده وأخلصه .

(٥) الباقي : بتشديد اللام مقصورة ، ومثله الباقلاء بتخفيف اللام مع المد :  
 الحب للعروف بالقول والجرجر ، وهو الباقلاء النبطية ، أما الباقلاء المصرية  
 فهي الترمس . اللسان ، وتذكرة داود . والجوزينج : ضرب من الحلوى يصنع  
 من الجوز . ويقال له جوزنيق أيضاً ، فارسيته « كوزينه » . الألفاظ الفارسية ٤٨ .

فقد بلغ الآن من جُرمي في مساواتك في خبز الخُشكار ، وإيثاري الباقي ،  
والعرفة بتقدير المدُن وإجراء القنَى ، أن أنقَى من جميع الأرض ، وأن تجعل  
في دمي الجمائل <sup>(١)</sup> ؛ فإنّي قد هجرت الخبزَ البتّة إلى مواصلة التمر ، وزلت  
الوبرَ بدلاً من المدر .

دعنا الآن فإنك فارغ . إن الله يعلم - وكفى به علماً ، وكفى به شهيداً ،  
وكفى به حفيظاً ووكيلاً ، وكفى بجرأة من يعلمه مالا يعلم جرأةً وتعرضاً ،  
وكفى بحاله عند الله بُعْداً ومقتاً - لقد أردتُ أن أفديك بنفسي في بعض كتبي ،  
وكنّت عند نفسي في عداد الموتى وفي حيزِ المهلكي ، فرأيت أن من الخيانة  
لك ومن اللؤم في معاملتك ، أن أفديك بنفسي ميتة ، وأن أربك أتّي قد  
جُدتُ لك بأنفس علقٍ والعلق معدوم . ليس أن من قد فداك فقد جعل  
فداك ، ولكنها نهايةٌ من نهايات التعظيم ، ودليل من دلائل الاجتهاد .  
ومن أعلن الاجتهاد لك واستسرَّ خلافَ ذلك فقد نافق وخان ، وغشَّ  
والآم <sup>(٢)</sup> . وأخلق بمن أخلَّ بهذه ألا يرعى حقاً ، ولا يرجع إلى صحّة  
ولا إلى حقيقة .

نم أنت لا يشفيك مني السمُّ المجهز ، ولا السمُّ الساري ؛ فإنه أبعد غايةً  
في التطويل وأبلغ في التمذيب . لا ولا ألعاب الأفاعي وداهية الدواهي ، فإنه  
يُعجز الرُئي ويَفوت ذرع الأطباء . لا ولا نارُ الدنيا ، بل لا يشفيك من نار  
الآخرة إلا الجحيم ، ولا يشفيك من الجحيم إلا أن أرى في سوائه <sup>(٣)</sup> وفي

(١) الجمائل : جمع جمالة ، وهي بتثنية الجيم ما يجعل في مقابل العمل .

(٢) آلام : أتى بما يلام عليه .

(٣) سواء الشيء وسطه .

أصطمة ناره<sup>(١)</sup> ، وفي معظم حريقه ، وفي موضع الصميم من هيبه . بل لا تكفى بذلك دون الدرك الأسفل ، بل لا يرضيك شيء سوى الهاوية ، بل لا ترضى إلا بعذاب آل فرعون ، أشد العذاب ، بل لا يرضيك إلا عذاب إبليس الذي زين النحر للعباد ، وبثه في البلاد ، والذي خطأ الرب وعانده وردّ قوله ، وغير عليه تديره ، ولم يزد إلا شكاً والحاجة ، وتمادياً<sup>(٢)</sup> وإصراراً . ثم لم يرض من الجد في مخالفة أمره ، وخلع العذار في شدة الخلاف عليه إلا بأن يحلف على شدة اجتهاده في ذلك بعزته ، فجعل العزة المانعة من إسقاطه سبيلاً إلى إسقاطه ، والقسم الحارز دون إغضابه وسيلة إلى إغضابه ، حيث قال : ﴿ فبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾<sup>(٣)</sup> .

فعليك عافاك الله بإبليس إن كنت لله تغضب ، أو عليك بالأ كفاء إن كنت لنفسك تتشقى .

لا ولكنك استغفرتني واستضعفتني ، وجعلتني فرج الرقاء<sup>(٤)</sup> ، وتريد أن تتعلم في معاقبة الأعداء . فإن كنت إلى هذا تذهب فجعفر بن معروف أضعف مني ، وعبد الله بن عيسى أسوأ خبراً مني . سبحان الله ، يَسَلِّمُ عليك حيدر الأفشين<sup>(٥)</sup> ، ويهلك عليك عمرو الجاحظ ،

(١) الأصطمة والأسطمة : الوسط والمجتمع .

(٢) في الأصل : « تباينا » ، صوابه في ب .

(٣) الآية ٨٠ من سورة ص .

(٤) الفروج ، لعل المراد به الدجاجة ، وهي كبة الغزل .

(٥) يذكر ابن خلكان ٢ : ٦٥ أنه بفتح الحاء المعجمة وسكون الياء المثناة من تحتها . قال : « وإعماقيدته لأنه يصحف على كثير من الناس بحيدر بالحاء المهملة » واسم أبيه كاوس ، كما في الأغاني ٧ : ١٤٧ ، ١٢ : ٦٤ .

ويسعد<sup>(١)</sup> بك أبعدُ البعداء ويشقى بك أقرب القرباء . وتتغافل عن مثل  
الجبال التماساً للتسليم وحباً للسلامة ، وتغفلُ إلى المحقرات طلباً للتعريض  
وحباً للشر .

ومتى قدرتَ على عدوك فلم تجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه ، ومتى  
لم تتغافل عنه تكثر ما أوتدعه احتقاراً ، ومتى اكثرث لكبير وضاق  
صدرُك عن شيء عظيم فهانذا بين يديك ، فكُنْ بخلٍ وخرذل ؛ فوالله  
إنَّك لتأكله غثاً غير مرى ، وخبيثاً غير شهى .

لا والله ، لكأنَّك وقعتَ على مطبورة ، وظفرت برأس خاقان . كنت  
أظنَّ أن الرشاقة والحلم لا يجتمعان ، وأنَّ ظَرْف الإنسان وأصالة الرأي  
لا يفترقان<sup>(٢)</sup> ، وأنَّ النَّزَق والخفة مقرونان بحقة البدن ، وأنَّ الرَّكَّانة والأناة  
مجموعان لصاحب السَّمَن ، حتى رأيتُك فاعتقدت بك خلاف ذلك الرأي ،  
واستبدلت فيك ضدَّ ذلك الظَّن . فتركتني حتى إذا نازعتُ الرجال ، وتعرَّضت  
للشَّجَى ، وشغلتُ نفسي بطلبِ الخِصام<sup>(٣)</sup> ، وانقطعتُ إلى أصحاب القُدود ،  
وجعلتُ عُدَواتي<sup>(٤)</sup> في تقديم القِضاف<sup>(٥)</sup> ، وطال لِسَانِي ، وأظهرت الاستبصار  
في فضلك ، وجعلتُ مزاج أخلاطك هو الحجة ، واعتدالك هو النهاية ، وطبيعتك

١٠٣ و

(١) في الأصل : « ويسود » .

(٢) في الأصل : « وإطالة الرأي لا يعترفان » .

(٣) لعل صوابها : « القصار » .

(٤) العدواء : الشغل . وفي الأصل : « عداوتي » .

(٥) جمع قضيف ، وهو المشوق الجسم .

هي المسكة<sup>(١)</sup>؛ وزعمت أن منظر ك يغنى عن مخبرك، وأن أولئك يُجلى عن آخرك - شددت على شدة المهر الأرین، وتسرعت إلى تسرع الفِرّ التزق، وألححت [على<sup>(٢)</sup>] إلحاح اللجوج الحنق. كأنك لم تحفل بما يشيع لك من اسم المتسرع، وبما تضاف إليه من سُخف المتترع<sup>(٣)</sup>، بعد أن تكذب قولي وتفند خبري<sup>(٤)</sup>.

وقد تقدمت التجربة أن الحديد لا يكون حقوداً<sup>(٥)</sup>، وأن المصطنع لا يكون للصنعة حاسداً، فقصدت على رأس<sup>(٦)</sup> إلى القياس المتحن فافسده، وإلى الطبايع المعتدلة فنقضتها، وإلى القضايا الصحيحة فرددتها.

وقالوا بأجمعهم: حالان لا تقبلان الحسد، ولا يخلوان من الرشد: حال الصنعة لمصطنعه<sup>(٧)</sup>، وحال المولى لمعتقه. فكيف إذا كان الصنعة صديقاً، وكان للخاصة محتملاً.

وإنما صارت - أبقاك الله - أجزاء النفس وأعضاء الجسد مع كثرة عددها، واختلاف أخلاطها، وتباعد أماكنها، نفساً واحدة وجسداً واحداً،

(١) المسكة، بالضم: القوة، والعقل. وفي الأصل: «المسكة».

(٢) الكلمة من ب.

(٣) المتترع: الشرير المسارع إلى ما لا ينبغي له. وفي الأصل: «المتبرع».

(٤) التفند: التكذيب. وفي الأصل: «وتفند».

(٥) الحديد: ذو الحدة، وهي الغضب والنشاط والسرعة في الأمور. ولكن

الحجاج بن يوسف كان يقول: «أنا حديد حقود». الحيوان ٣: ٤٧٠ / ٥: ٤٩٢ والبيان ٣: ٢٥٥.

(٦) في الأصل «على رأس».

(٧) يقال فلان صنعة فلان، إذا اصطنعه وأدبه وخرجه ورباه.

لاستواء الخواطر ، ولا تفاقها على الإرادة . فأنت وصديقك الموافق ، وخليك  
 ذو الشكل المطابق ، مستويان في المحاب ، متفقان في الهوى ، متشاكلان  
 في الشهوة ؛ وتعاونكما كمتعاون جوارح أحكما ، وتسالمكما كتسالم المتفق من  
 طبائعكما . فإذا بان منك صديقك فقد بان منك شطرك ، وإذا اعتلّ خليلك فقد  
 اعتلّ نصفك ، بل النفوس المضمّنة كالمعانى المضمّنة ، فذهاب بعضها هو ذهاب  
 جميعها . فموتى هو موتُ صديقي ، وحياتى هي حياة صديقي . فلا تبعده من  
 قلبك بعدَ بدنه من بدنك ؛ فقد يقرب البغيض وينأى الحبيب . ولعلّ بعضَ  
 طبائعك المخالط لروحك ، أن يكون أعدى من كلِّ عدو ، وأقطع من كلِّ  
 سيف ، وأخوف عايك من الأسد الضارى ، ومن السم السارى .

ثم اعلم أنَّ الموثق بمودّته قليل ، وقد صار اليومَ المعتمدُ عليه في صحّة  
 العقدة ، وفي كرم الغيب والعشرة ، عنقاء مُغْرِبٍ<sup>(١)</sup> . ولا أعلم الكبريت  
 الأحمرَ إلّا أوجدَ منه . وإني لأظنُّ القناعةَ أكثرَ منه . وما أكثرَ مَنْ جعل  
 انقطاع سببه وضعف طمعه لا انقطاع سببه قناعةً .

١٠٣ ظ

وقيل ليحيى بن خالد : أى شيء أقل ؟ قال : قناعة ذى الهمة البعيدة  
 بالعيش الدُّون ، وصديق قليل الآفات كثير الإمتاع ، شكور النفس ، يصيب  
 مواضع المدح<sup>(٢)</sup> .

(١) عنقاء مغرب . بالوصف ، وبالإضافة أيضاً ، مثلُ الندرة أو لما لا يكون ،  
 قل في القاموس : « طائر معروف الاسم لا الجسم ، أو طائر عظيم يبعد في طيرانه ،  
 أو من الأناط الدالة على غير معنى » .  
 (٢) جعلت في ط « المرح » .



لا والله إن تعرف<sup>(١)</sup> على ظهرها موضعاً للسر ، ولا مكاناً للشكوى ،  
ولا روحاً تأنس بها ، ولا نفساً تسكن إليها . ولو أردت أن تعرفني من  
جميع العالمين رجلاً لما قدرت على أحدٍ يحتمل الغنى . ويحتمل الفقر قليل ،  
ويحتمل الفنى عديم .

إن الخير — أبقاك الله — في أيام كثرته كان قليلاً فما ظنك به في أيام  
قلته ، وإن الشر في أيام قلته كان كثيراً فما ظنك به في أيام كثرته ، وأنت  
غريب في المصطنعين . وأنا غريب في الصنائع ، والغريب للغريب سبب ،  
ونسب للمشاكلة وقرابة الطبيعة الموافقة ، أقرب من نسب الرحيم ؛ لأن  
الأرحام مولة بالتحاسد ، لهجة بالتقاطع ، وأن التحاب على طبع المشاكلة .  
والتلاقى على وفاق من الطبيعة ، أبعد من التماسد ، وأبعد من التعادى .  
وسبب التعادى عرّض في طبائع الغرباء ، وجوهر في طبائع الأقرباء .

واعلم أنك لا تزال في وحشة إلى وحشة ، وفي غربة إلى غربة ، وفي  
تسكّر العيش وتسخط الحال ، حتى تجد من تشكو إليه بشك ، وتقضى إليه بذات  
نفسك . ومتى رأيت مجباً لم تضحكك رؤيتك له بقدر ما يضحكك إخبارك  
إياه . فمن أغلب عليك ممن كانت هذه حاله منك ، وموقعه من نفسك .

ولو أن شيبتي التي بها استعطفتك ، وكبرة سني التي بها استرحمتك ،  
اللتان لم يحدّثنا على إلا وأنا في ذراك ، ولم يخلّ بي إلا وأنا في ظلك ، لكان  
في شناعة الكبرة ، واسترحام الضعف والوهنة ، ما يردعك عن أشدّ الردع ،

(١) جعلت في ط : « لن تعرف » .

ويؤثر في طباعك أئين الأثر . فكيف وقد أكرمتني جديداً ، ثم تريد أن تهينني خلقاً ، وقويت عظمى أغلظ ما كان ، ثم تريد أن توهنه أرقاً ما كان . وهل هربت إلأى طاعتك ، وهل أخلقني إلامعانة خدمتك ! .

قال علي بن أبي طالب : رأى الشيخ الضعيف أحب إلينا من جلد الشاب القوي<sup>(١)</sup> .

وأنا أقول كما قال أخو ثقيف<sup>(٢)</sup> : مودة الأخ التالذ وإن أخلق خيراً من من مودة الطارف وإن ظهرت بشاشته ، ورآعتك جدته .

وقال عبد الملك بن مروان : رأى الشيخ أحب إلينا من مشهد الغلام .

وقال بعضهم : ليس بغائب من شهد رأيه<sup>(٣)</sup> ، وليس بغافل من بقي أثره .

وما كمل العقل ولا<sup>(٤)</sup> وفر التجربة شيء كنفقسان البدن ، وكأخذ الأيام من قوى الأعضاء .

وقال آخر : ما قبح الرجال شيء كالو كال ، ولا أفسد الكريم شيء كحب الاستطراف . وخير الناس من أتبع الغضب مواقع الذنوب ، وأتبع العقاب مواقع الغضب ، ولم يتبع الغضب مواقع الهوى .

(١) البيان ٢ : ١٤ وفي أمثال الميداني ١ : ٢٦٧ : « رأى الشيخ خير من مشهد الغلام » . وأشار الميداني إلى أن علياً قالها في بعض حروبه .

(٢) يعني الحجاج بن يوسف .

(٣) شهد : كان شاهداً ، أى حاضراً . وقوم شهود أى حضور .

(٤) في الأصل : « إلا » .

ولقد منحنتك جلد شبابي كَمَلا ، وغَرَبَ نشاطي مُقْتَبَلا ، وكان لك  
مَهْنَاهُ<sup>(١)</sup> ، وثمرة قواه<sup>(٢)</sup> ، واحتملت دونك عُرامَه وغَرَبَه<sup>(٣)</sup> ، وكان لك  
غنمه وعلى غُرمه ، وأعطيتك عند إِدبار بدني قوَّة رأبي ، وعند تكامل معرفتي  
نتيجة تجربتي ، واحتملتُ دونك وَهْن الكبر وإسقامَ الهرم .

وخير شركائك مَنْ أعطاك ما صفا ، وأخذ لنفسه ما كدُر . وأفضل  
خاطائك من كفالك مؤونته ، وأحضرَك معونته ، وكان كلاله عليه ،  
ونشاطه لك . وأكرم دخلائك وأشكر مؤمليك مَنْ لا يظن أنك تسمي  
جزيل ما تحتمل في بَذلك ومواساتك مؤونة ، ولا تتابع إحسانك إليه  
نعمة ، بل يرى أنَّ نعمة الشاكر فوق نعمة الواهب ، ونعمة الوادِّ المحلِّص  
فوق نعمة الجواد المُغنى ؛ وأنَّه لا يبلغ في إعطاء المجهود من نفسه في خلع  
جميع ماله إلى مؤمليه والمتحرِّمين به ، حُسن نية الشاكر الوامق ، وحقَّ  
تمنى الوادِّ العارف .

ولو اقتضيت جميع حقوقك على ، وأنكرت جميع حقوق عليك ،  
أو جعلت حقَّ عليك حقَّا لك ، ثمَّ زعمت أنَّ حقَّك لا يؤدِّي إلى شكره ،  
وأنَّ حقَّ لا يلزم حكمه ، وأنَّ إحساني إساءة ، وأنَّ الصغير من ذنوبي كبير ،  
وأنَّ اللَّمَمَ مِنِّي إصرار ، وأنَّ خطائي عمد ، وأنَّ عمدي كلُّه كفر ، وأنَّ

١٠٤ ظ

(١) أي مهناه . ولعلها : « مجناه » .

(٢) في الأصل : « قوله » صوابه في م .

(٣) في الأصل وم : « غرامه » والوجه ما أثبت . وفي الأصل : « وعدمه »

صوابه في م . والعرام : بضم العين : الشدة . والغرب : الحدة .

كفرى يوجب القمع<sup>(١)</sup> ويمنع من التزوع لِمَا كان عندك . وما اتسع  
قولى لأكثر من هذا العقاب ، ولا أشد من هذا الغضب . وما ينبغي أن  
يكون هذا المقدار من النقم إلا لبارى النَّسَم في دار البقاء ، لا في دار الفناء .  
[ و ] الذى يجوز بين العباد إنما هو تعزير أو حدٌّ ، أو قَوْد أو قصاص ،  
أو حبس أو تغريب ، أو إغرام<sup>(٢)</sup> أو إسقاط عدالة ، أو إلزام اسم العداوة ،  
أو عقاب يجمع الألم والتقويم والتنكيل ، فيكون مَضَضُ الألم جزاء له<sup>(٣)</sup>  
ومعدلاً لأسبابه .

وربما قصر الإيقاع على السُّخْط وجاوز حدَّ الغضب . وربما كان  
مقصوراً على مقدارها ، ومحبوساً على نهاية حالها .  
وليس كلُّ عقابٍ نتيجة سخط ، وقد لا يسمَّى ذلك الموقِع والمعاقب  
واجداً كما يسمَّى ساخطاً ، ولا يسمَّى عاتباً كما يسمَّى غضبان ، فيخرج كما ترى  
من أن يسمَّى سُّخْطاً أو مَوْجِدَةً وَغَضَباً ، كما خرج عقابُ آدم عليه السلام  
من هاتين الصِّفتين ، ومن جميع القسمين . وعلى أنه كان إخراجاً من دار  
الخلد والكرامة إلى دار الابتلاء والحنة ؛ ومع ما في ذلك من إعراء الجلد ،  
والتسمية بالظلم ، مع الوصف له بضعف العزم ، والاغترار بيمين الخصم .

والعجبُ أنك تضجر من طول مسألتنا لعفوك مع حاجتنا إلى عاجل  
عفوك ، ولا تضجرُ بطول تشاغلِكَ بظلم صديقك مع استغنائك عن ظلم  
صديقك . فلو كنت إنما تفعل ذلك لأنك تلذُّ ضَرْبَ السَّيَاط ورضَّ العظام ،

(١) في الأصل : « الطمع » .

(٢) الإغرام : التعزيم . وهو العقوبة المالية .

(٣) في الأصل : « أجراله » .

فَجَنَّبَ « دندن » أحمل ، والسَّوطُ في ظهر قاسم أحسن ، وأبدانها تحت  
السيَّاط أثبت ، وإنَّ أرواحها أبقى ، وهي بأرواح الكلاب أشبه ، وإلى  
طبائع الضَّباب أقرب ، وأرحامهم بالحير أَمْسُ ، وَمَنْ يُشِيرَ فِيهِمْ بِذَلِكَ  
أَكْثَرُ ، والأجر في ضربهم أعظم . فاستدِمْ اللَّذَّةَ بطريق اللَّذَّةِ ، وضع  
الأُمُورَ في مواضعها بطلَّ سروركُ بها .

١٠٥ و إنَّ عتاقَ الخيل وأحرارَ الطَّيْرِ أدقُّ حِثًّا ، وأشدُّ اكتراثًا .  
والكوادِنُ الفِلاظُ والحامِرُ الثَّقَالُ<sup>(١)</sup> ، أَكَلٌ حِثًّا وَأَقْلٌ اكتراثًا .  
وليس الصَّبْرُ بالصَّمْتِ والسَّكُوتِ ، ولا بَقَلَةُ الصَّيَّاحِ والضُّمُوزِ<sup>(٢)</sup> . وقد يصيح  
تحت السَّوطِ مَنْ لا يقرُّ على صاحبه ، ولا يدلُّ على عورة نفسه . والكلب  
المضروب يجمع الصَّيَّاحَ والمُهرَبَ ، والفرس العتيق يعدو ولا يصيح ، والحافر  
كلُّه كظومٍ ضامنٍ<sup>(٣)</sup> ، والمُخَلَّبُ كلُّه ضَجُورٌ صَيَّاحٌ ، والضَّجْرُ في الخُفِّ عامٌ ،  
والبَخَّاتِيُّ أضجَرُ . فَمِنْ الظِّلْفِ عامٌ ، وهو في الضَّانِّ أخفى ، وكلُّ مضروب  
هارب صَيَّاحٌ ، ومنها ما يجمع انخِصالَ كالبُكْبِ والبُعيرِ . والمُهرَبُ من  
المُكْرُوهِ محمودٌ ، والمقام عليه مذمومٌ ؛ كالذِّى يَعتَرِي العيرَ السَّقيمَ<sup>(٤)</sup> وتجمده  
في الفرس الكريم ، من قلة الاكتراث وشدته .

(١) الحامِر : جمع محمر ، يقال فرس محمر . أى لثيم يشبه الحمار في  
جريه من بطئه . ويقال للفرس الهجين محمر أيضاً ، فارسيته « بالاني » . والجمع  
الحامِر والحامير .

(٢) الضموز ، بالزاي : السكوت . وفي الأصل : « الضمور » ، تصحيف .

(٣) في الأصل : « ضامن » . وانظر الحاشية السابقة .

(٤) في الأصل : « عين السقم » وانظر ٢٧٨ س ٢ .

وصبرُ البدن غير صبر النفس . وليس بقاء الأرواح المنعقدة تحت الضرب الشديد من اعتزام النفس ، ولا يدلّ على الكرم .

وفي المثل : « مارُوح فلانٍ إلّا رُوح كلب » . وتقول العرب : « الضبُّ أطول شيء ذمّا »<sup>(١)</sup> . والكلب لثيم ، والضبُّ غير كريم .

والبازي أكرم من الصقر وأشدُّ وأكثر ثمنًا ، وأجمل جمالًا ، وأعنى صيدًا<sup>(٢)</sup> ، وأنبِل نبلا ؛ إن قبضَ عليه قتله ، وإن لم يُنَحَّ كُنْدُرتَه عن قربه أو هن نفسه<sup>(٣)</sup> . ثم بلغ من رقة طبع<sup>(٤)</sup> البازي وعِيقه أنه ينقطع برَدِّ البازيار له<sup>(٥)</sup> إلى مسقطه من يده . والصقر يتعلّق بسِباقيه<sup>(٦)</sup> من رجل حمل بدرع<sup>(٧)</sup> فيضطرب منكسًا إلى الصُّبح ، ثم تجده وكأنّه لم يزل على كُنْدُرتَه وعلى مسقطه الذي بوّئى له .

(١) الذمّاء ، كسحاب : بقية الروح في المذبوح . وانظر الحيوان ٢ : ١٧٥ و ٣ : ٥٠٨ و ٥ : ٢٥١ و ٦ : ٥٤ ، ٦٤ ، ١٣٧ و ٧ : ٢٥٤ .

(٢) من قولهم : عفا الشيء يعضو ، إذا كثر .

(٣) الكندرة . بضم الكاف والدال كما في اللسان ، وبفتحهما كما في القاموس ، هي مجتم البازي الذي يهيا له من خشب أو مدر . قال في اللسان : « وهو دخيل ليس بعربي » . وأوهق نفسه : جعلها في الوهق ، وهو جبل مغاري رمي ، فيه أنشوطه ، فتؤخذ به الدابة والإنسان . وفي الأصل : « أرهق » .

(٤) في الأصل : « طمع » .

(٥) في الأصل : « برده البازيار له » ، والبازيار ويقال له « البازدار » أيضاً لفظان فارسيان ، معناهما واحد ، وهو القائم بأمر البازي ويعرب فيقال له « البزار » . انظر الحيوان ٤ : ٤٣٠ و ٦ : ٤٧٨ .

(٦) السباقان : قيدان في رجل الجارح من الطير ، من سير أو غيره . وفي ط : « بساقه » ، خلافاً لما في الأصل .

(٧) كذا في الأصل .

فليس بدنى من أبدان الاحتمال فأمتعت بطول ثباته لك ، ولا أثبت لك ثبات العير الكليل الحسن ، ولا أجعل الصياع دليلاً على الإقرار ، فيكون ذلك أحد ما تتمتع به ، وتذكر به حاجات نفسك .

وقد دلتك على ناس يجمعون لك الخصال التي فيها دوام لذتك ، وتنام شهوتك ؛ فإن زعمت أن الذي يثبت روح دندن في بدنه ، وروح القاسم في جسمه ، سرورهما بما قد احتجنا من كنوز الخلافة وأموال الرعية ، وليس ذلك من رسوخ أرواحهما في أبدانهما ، ومن شدة الاحتجان وقوة الاكتناز ، ففرق بينهما وبين تلك الأموال التي تمسك أرواحهما بالحيل اللطيفة ، والتدبير النافذ ، وبأن تمضى فيها حكم الكتاب والسنة ؛ فإنه سيحل عقدة أرواحهما عقداً عقداً ، فيعظم أجرك ، ويطيب ذكرك ، وتطيع الخليفة ، وتحبب به إلى الأمة ؛ فتكون قد أحسنت في صرف الضرب إلى أهله ، وأرحت منه غير أهله .  
والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

١٠٥ ظ

\* \* \*

تمت الرسالة بعون الله ومنه وتوفيقه ، والله الموفق للصواب برحمته ،  
والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه ، وآله الطيبين الطاهرين  
وسلامه .

٦

## رِسَالَةٌ

إِلَى أَبِي الْوَلِيدِ مُحَمَّدَ بْنَ أَحْمَدَ بْنِ أَبِي دُوَادٍ

بَنِي

بَنَفِيَّ التَّشَّيْبِيَّةِ



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وهذه هي الرسالة السادسة من رسائل الجاحظ ، وعنوانها :

« رسالة إلى أبي الوليد محمد بن أحمد بن أبي دواد ، في نفي التشبيه »

وأبو الوليد هذا هو قاضي بغداد في خلافة المتوكل ، ولاء القضاء بعد أن فلج أبوه أحمد بن أبي دواد ، ثم عزله المتوكل ومات في حياة أبيه أحمد في ذي الحجة سنة ٢٣٩ . وترجم له الخطيب في تاريخ بغداد ١ : ٢٩٧ - ٣٠١ .

وليس لهذه الرسالة إلا نسخة مكتبة داما ، وعليها اعتمادنا في إخراج هذه الرسالة .

وقد كتبها الجاحظ في أيام الخليفة المعتصم ، كما نص على ذلك في أواخرها .

أطال الله بقاءك وحفظك ، وأتمَّ نعمته عليك ، وكرامته لك .

قد عرفتَ - أكرمك الله - ما كان النَّاسُ فيه من القول بالتَّشبيه والتَّعاون عليه والمعاداة فيه ، وما كان في ذلك من الإثم الكبير والفِرْيَة الفاحشة ، وما كان لأهله من الجماعات الكثيرة والقُوَّة الظاهرة ، والسُّلطان المكين ، مع تقليد العوامِّ وميل السَّفلة والطَّعام .

وليست للخاصَّة قوَّة بالعامَّة ، ولا للعِلية قوَّة على الأراذل ؛ فقد قالت الأوائل فيهم ، وفي الاستعاذة بالله منهم :

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : نعوذ بالله من قوم إذا اجتمعوا لم يُمْلِكُوا ، وإذا تفرَّقوا لم يُعرَفُوا .

وقال واصل بن عطاء : « ما اجتمعوا إلَّا ضُرُّوا ، ولا تفرَّقوا إلَّا نفعوا »  
ف قيل له : قد عرفنا مضرة الاجتماع ، فما منفعة الافتراق ؟ قال : يرجع الطَّيَّان إلى تطيينه ، والحائل إلى حياكته ، والملاح إلى ملاحته ، والصَّائغ إلى صياغته ، وكلُّ إنسانٍ إلى صناعته . وكلُّ ذلك مَرَفَقٌ للمسلمين ، ومَعُونَةٌ للمحتاجين .

وكان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إذا نظرَ إلى الطَّعام والخشُو قال : « قَبِّحَ اللهُ هذه الوجوه ، لا تُعرَفُ إلَّا عند الشرِّ » .

وقال الخرمي<sup>(١)</sup> عند ذكره إياهم ، في شعره ، بالتعاوي مع الخلو<sup>(٢)</sup> :  
 من البواري ترأسها ومن الـ خوص إذا استلأمت مفاقرها<sup>(٣)</sup>  
 لا الرزق تبغى ولا العطاء ولا يحشرها بالفناء حاشرها<sup>(٤)</sup>  
 وقال شبيب بن شيبه : قاربوا هذه السفلة وابعدوها ، وكونوا معها  
 وفارقوها ، واعلموا أن الغلبة لمن كانت معه ، وأن المقهور من صارت عليه .  
 وقد وصفهم بعض العلماء فقال : يجتمعون من حيث يفترقون ، ويفترقون  
 من حيث يجتمعون ، لا يُفَلَّ غربهم إذا صالوا ، ولا تنجع فيهم الحيلة  
 إذا هاجوا .

والعوام - أبقاك الله - إذا كانت نشرًا<sup>(٥)</sup> فامرؤها أيسر ، ومدة هيجها  
 أقصر . فإذا كان لها رئيس حاذق ومطاع مدبر ، وإمام مقلد ، فعند ذلك

(١) هو إسحاق بن حسان بن قوهي . قال الخطيب : « وأصله من خراسان  
 من بلاد السغد ، وكان متصلاً بخريم بن ناعم المري وآله ، فنسب إليه . وقيل : كان  
 اتصاله بعتان بن خريم . وأبوه خريم الموصوف بالناعم » . تاريخ بغداد ٣٣٦٩ .

(٢) تعاووا معه : اجتمعوا . والخلو هو الخليفة الأمين أخو المأمون . وقصيدة  
 خريم رواها الطبري في تاريخه ١٠ : ١٧٦ - ١٨١ في حوادث سنة ١٩٧ وبعض  
 آياتها في الحيوان ١ : ٢٢٥ .

(٣) البواري : الحصير المنسوج ، واحده بوري وبورية ، وباري وبارية .  
 والتراس : جمع ترس . استلأمت : لبست اللأمة ، وهي الدرع . والمفاقر :  
 جمع مفقر ، وهو زرد يلبس تحت القلنسوة . والبيت وتاليه وبينهما ثالث في الطبري  
 ١٠ : ١٧٨ .

(٤) في الطبري : « ولا يحشرها للقاء حاشرها » .

(٥) النشر بالتحريك : القوم المتفرقون لا يجمعهم رئيس

ينقطع الطمع ، ويموت الحق ويُقتل الحق . فلولا أن لهم متكلمين ، وقصاصاً ١٠٧ و متفقيين ، وقوماً قد باينوهم في المعرفة بعض المباينة ، لم يلحقوا بالخاصة ، ولا بأهل المعرفة التامة . ولكننا كما نخافهم نرجوهم ، وكما نشفق منهم نطمع فيهم .

ثم قد علمت ما كنا فيه من إسقاط شهادات الموحدين وإخافة علماء المتكلمين . ولولا الكلام لم يقم لله دين ، ولم ينب من الملحددين ، ولم يكن بين الباطل والحق فرق ، ولا بين النبي والمنتبي فصل ، ولا بانت الحجة من الحيلة ، والدليل من الشبهة .

ثم لصناعة الكلام مع ذلك فضيلة على كل صناعة ، ومزية على كل أدب . ولذلك جعلوا الكلام عياراً على كل نظر ، وزماماً على كل قياس . وإنما جعلوا له الأمور وخصوه<sup>(١)</sup> بالفضيلة لحاجة كل عالم إليه ، و [ عدم<sup>(٢)</sup> ] استغنائه عنه .

فلم يزل - أكرمك الله - كذلك حتى وضع الله من عزهم ، ونقص من قوتهم . وليس لأمر الله مرد ، ولا لقضائه مدفع . وحتى تحول إلينا رجال من قادتهم ومن أعلامهم ، والمطاعين فيهم ، وارتاب قوم وناق آخرون . وحتى تحولت الحنة عليهم ، والتقية فيهم . وذلك كله على يد شيخك وشيخنا بعدك - أعزه الله - بما بذل من جهده ، وعرض من نفسه ، وتفرّد بمكروهه ، وغرر مراره ، صابراً على جسيمه ؛ يرى الكثير في ذلك قليلاً ، والإغراق

(١) في الأصل : « وخصوا » .

(٢) تكملة يفتقر إليها الكلام .

تقصيرا ، وبذل النفس سيرا . على حين خار<sup>(١)</sup> كل بطل ، وحاد كل مُقدم ،  
وعرّد كل رئيس ، وأضاف كل متبصّر<sup>(٢)</sup> ، وطاح كل نقاج ، واستخفى كل  
مُراء . وحتى صاروا هم الذين يُشيرون عليه بالملابنة ، ويحسنون عنده المقاربة ،  
ويخوّفونه العاقبة ، ويزعمون أن لكل زمان تديراً ومصلحة ، وأن إبعادهم  
أقرب<sup>(٣)</sup> لطبائعهم ، وإن إطلاقهم أنجع فيما يراد منهم . وحتى سمّوا المداهنة  
مدارة ، وإعطاء الرضا تقية ، والشدة عند الفرصة خرقا ، والانحياز مع صواب  
الإقدام رفقا ، وموالاته المخالف مخالفة ، والمصافاة معاشرة ، والمهانة حلما ،  
والضعف في الدين احتمالا . كما سمّى قوم الفرار انحيازاً ، والبخل اقتصادا ،  
والجائر مستقصيا ، والبلاء عارضا ، والخطل بلاغة . فكذلك كانوا وكان .  
وعلى هذا افترق أمرهم ؛ وذلك مشهور عنهم .

١٠٧ ظ

ثم يصُول أحدُهم على مَنْ شتمه ، ويسالم من شتم ربه ، ويفضّب على  
من شبّه أباه بعبده ، ولا يفضب على من شبّه الله بخلقه ، ويزعم أن [ في<sup>(٤)</sup> ]  
أحاديث المشبهة تأويلاً ومجازاً ومخارج<sup>(٥)</sup> ، وأنها حقٌ وصِدق . فإذا  
قيس . . . . .<sup>(٦)</sup> طلب لهذا المجاز ظم ، وقال ما يليق بلفظ الحديث ،

(١) خار : ضعف . وفي الأصل : « خان » .

(٢) أضاف : : أشفق وحذر . وفي الأصل : « أصاب » .

(٣) كذا في الأصل .

(٤) ليست في الأصل .

(٥) في الأصل : « ومخارجا » .

(٦) يياض في الأصل بمقدار كلمتين .

فيكون بشهادته<sup>(١)</sup> لصحة أحاديثهم مُقَرَّرًا ، فيصير فيما بدَّعى من خلاف تأويلهم مدَّعيًا . ولو كانت هذه الأحاديث كلها حقًا كان قول النبي صلى الله عليه وسلم : « سيفشو الكذب بعدى ، فما جاءكم من الحديث فاعرضوه على كتاب الله » باطلاً .

وهذا المذهب لمن يفتحل طريقتنا ، ويسلك بزعمه سبيلنا ، جورٌ شديد ، ومذاهبٌ قبيحة ، وتقرب<sup>(٢)</sup> فاحش .

وليس ينبغي للديان أن يوادَّ من حادَّ الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم .

فتى إذن تزول التَّقية ، ويجبُ إظهار الحقِّ والنَّصرة للدين ، والنباينة للمخالفين ؟ ! أحين يموت الخصم ويبيدُ أثره ويهلك عقبه ويقلُّ ناصره ، ويزول جميع الخوف ويكون على يقين من السَّلامة . وكيف يكون القائم حينئذ بالحقِّ مطيعاً ، والله معظماً ؟ !

فقد سقطت المحنة وزالت البلوى والمشقة . وهل المعصية إلا ما مازجه الهوى والشهوة ، وهل الطاعة إلا ما شابهُ المكروه والكلفة<sup>(٣)</sup> ، وكيف يُشكِّف مالا مؤونة فيه ، وكيف يُحمّد مالا مرزئة عليه . وكيف يكون شجاعاً من أقدم في الأمن ، وتكتمن في الخوف . أو ليست النارُ مخفوفةً بالشهوات ، أو ليست الجنةُ مخفوفةً بالكاره . وكيف صاروا في باطلهم أيامَ قدرتهم أقوى منا في حقنا أيامَ قُدرتنا .

(١) في الأصل : « سهدته » .

(٢) كذا في الأصل .

(٣) شابهُ ، من الشوب بمعنى الخلط والمزج .

وقد علمت - أرشد الله أمرك - أن التشبيه وإن كان أهله مقموعين ومُهَانِينَ وَمُمْتَحَنِينَ ، فإنَّ عدد الجاحم على حاله ، وضمير أكثرهم على ما كان عليه ، والذين ماتوا قليلٌ من كثير . ونحن لا ننتفع بالمنافق ، ولا نستعين بالمرتاب ، ولا نثق بالجاحح ، وإن كانت المبادأة قد نقصت فإنَّ القلوب أفسدُ ما كانت .

١٠٨ و

وقد كانوا يتكلمون على السلطان والقدرة ، وعلى العدد والثروة ، وعلى طاعة الرعاع والسفلة ؛ فقد صاروا اليوم إلى المنازعة <sup>(١)</sup> أميل ، وبها أكلف ؛ لأنهم حينما يئسوا <sup>(٢)</sup> من القهر بالحشوة والسفلة ، وبالباعة ، وبالولاية الفسقة ، وقلوبهم ممتلئة ونفوسهم هائجة . ولا بد لمن كانت هذه صفته ، وهذا نعمته ، من أن يستعمل الحيلة والحجة ، إذ أعجزه البطش والصولة . وكلُّ مَنْ كان غيظه يفضل عن حلمه ، وحاجته تفضل عن قناعته ، فواجب أن ينكشف قناعه ، ويظهر سره ، ويبدو مكنونه .

وقد أطمعني فيهم مناظرتهم لنا ، ومقايستهم لأصحابنا . وقد صاروا بعد السب يحفون <sup>(٣)</sup> ، وبعد تحريم الكلام يجالسون ، وبعد التصام يستمعون ، وبعد التجليح يدارون <sup>(٤)</sup> ؛ والعامية لا تظن لتأويل كنفها ، ولا تعرف مقاربتها . فقد مالت إلينا على قدر ما ظهر من ميلها ، وأصفت لما ترى من استماعها .

(١) في الأصل : « على المنازعة » .

(٢) في الأصل : « نسوا » .

(٣) حفه يحفه : مدحه . وفي المثل : « من حفنا أورفنا فليقتصد » يقول :

من مدحنا فلا يغفلون في ذلك ولكن ليتكلم بالحق منه .

(٤) التجليح : المكاشفة في الكلام .

وقد كتبت - مدّ الله في عمرك - في الردّ على المشبهة كتاباً لا يرتفع عنه الخاذق المستغنى ، ولا يرتفع عن الرّيض المبتدئ . وأكثر ما يعتمد عليه العامة ودّهما . أهل التشبيه من هذه الأمور ويشتمل عليه الفضل من حُشوة الناس<sup>(١)</sup> ، ويُختدع به المحدثون من الجمهور الأعظم ، تحريف أي كثيرة إلى غير تأويلها ، وروايات كثيرة إلى غير معانيها . وقد بينت ذلك بالوجوه القريبة ، والدلالات المختصرة ، وبالأشعار الصحيحة والأمثال السائرة ، واستشهدت الكلام المعروف ، والقياس على الموجود .

وهو مع ذلك كله كتاب قصّد ، ومقدار عدلّ ، لم يفضل عن الحاجة ، ولم ينقص عن مقدار البغية . على أن الكلام لا ينبغي أن يكثر وإن كان حسناً كله ، إذا كان السامع لا ينشط له ، وجاز قدر احتماله ؛ لأن غاية المتكلم انتفاع السامع . وقد قال الأولون : « قليل الموعظة مع نشاط الموعوظ ، خير من كثير وافق من الأسماع<sup>(٢)</sup> نبوة ، ومن القلوب ملالة » .  
قال بكر بن عبد الله المزني<sup>(٣)</sup> : ليس الواعظ من جهل أقدار السامعين ، وإنابة المرتدين ، وملالة المستطرفين .

وقال علي بن أبي طالب ، رضوان الله عليه : « إن هذه القلوب تمثّل كما تمثّل الأبدان ، فابتغوا لها طرّف الحكمة » .

(١) الفضل : الزيادة . والحشوة ، بالضم : رذال الناس .

(٢) في الأصل : « الاستماع » .

(٣) هو أبو عبد الله ، نسبته إلى مزينة ، ثقة جليل توفي سنة ١٠٦ . تهذيب

التهذيب وصفة الصفوة ٣ : ١٧١ .



وقد كان يقال : إنَّ للقلوب شهوة وإقبالاً ، وفترة وإدباراً ؛ فأتوها من حيث شهوتها وإقبالها .

وكان يقال : إذا أُكْرِهَ القابُ عَمِيَ .

وقال واصل بن عطاء : طول التحديق يُكْمِلُ الناظر ، وناظر القلب أضعف منه .

وزعم عمران بن حدير<sup>(١)</sup> قال : قال قسامة بن زهير<sup>(٢)</sup> : روَّحوا هذه القلوبَ تَعِ الذِّكْرَ<sup>(٣)</sup> .

وقال عبد الملك بن قُريب : قال أبو الدرداء : إني لأستجثم نفسي ببعض الباطل كراهة أن أحملَ عليها من الحقِّ فأكلَّها<sup>(٤)</sup> .

وكتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص ، رضى الله عنهما ، وهو بالقادسية : أن جنَّبتهم حديث الجاهلية ؛ فإنه يذكرُّ الأحقاد . وعظَّمهم بأيَّام الله ما نشطوا لاستماعها .

وقالوا : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخولنا بالموعظة<sup>(٥)</sup> .

ولذلك أمروا بالجمام<sup>(٦)</sup> وزيارة الغيب .

(١) بن رواية قسامة . تهذيب التهذيب ٨ : ١٢٥ ، ٣٧٨ . في الأصل : « عمر بن أبي حدنه » .

(٢) قسامة بن زهير اللزني ، له إدراك ، وكان ممن افتتح الأبله مع عتبة ابن غزوان ، وكان رأساً في تلك الحروب . مات بعد الثمانين . الإصابة ٧٢٨ . وتهذيب التهذيب

(٣) في الأصل : « يعني من الذكر » ، صوابه من البيان ١ : ٣٢٧ .

(٤) في الحيوان ٣ : ٧ : « من الحق ما يملها » .

(٥) يتخولنا : يعمدنا ، وذلك مخافة السامة علينا .

(٦) الجمام ، كسحاب : الراحة .

ورروا أن شرَّ السَّيرِ الحقيقة<sup>(١)</sup> .

ولأنَّ يَنْقُصَ الكتابُ عن مقدار الحاجة أحبُّ إلىَّ من أن يَفْضَلَ عن مقدار القوة ؛ لأنَّ الملالة تبغض [ في ] الجميع ، وترهّد في السكّل .  
فأنا أسألك - أكرمك الله - أن ترى هذا الكتابَ وتقرأ ماخفَ عليك منه . فإن بصلاح الكلام [ و ] كان كما وصفتُ وكما ضمنتُ ، حثتَ على قراءته وعلى اتِّخاذه ، وعلى تخليده وعلى تدوينه ، وأمرت مَنْ يحتاج إلى المادّة ، وإلى حُسن المعونة من الموافقين والإخوان الصّالحين ، أن ينظروا فيه ، وأن يبتشروه ويُسيعوه .

وقد كنتُ أنا على ذلك قادراً ، وبه مستوصياً ؛ ولكنَّ الرجلَ الرفيع إذا رفعَ الشيء ارتفع ، كما أنّه إذا وضعَ الشيء اتّضع .

وإن كنتَ فيه غَلَطاً<sup>(٢)</sup> أو لعلّته مستكثراً ، كان لك بحسن نيتك وصلاح مذهبك ، والذي رجوتُ عنده من المنفعة وصلاح قلوب العامّة ، الأجرُ الكبير ، والثوابُ العظيم ، مع ما تقتضى بذلك من ذِمّام المتحرّم بك ، والمتحلّى من بيتك ؛ ومع اليد البيضاء والصَّنيع المشكور .

١٠٩ و

وحرامٌ على كلّ متكلمٍ عالمٍ ، وفقهه مطايح ، وخطيب مفوّه إن كان<sup>(٣)</sup>

(١) الحقيقة : شدة السير . وهو في حديث عبد الله بن مطرف بن الشخير حين تعبد فلم يقتصد ، فقال له أبوه : « يا عبد الله ، العلم أفضلُ العمل ، والحسنة بين السيئتين ، وخير الأمور أوساؤها ، وشر السيئر الحقيقة » أمثال اليداني ١ : ٣٢٧ واللسان ( حقق ) والبيان ٣ : ٢٥٤ .

(٢) الغلق : الضجر . وفي الأصل : « غلطا » .

(٣) في الأصل : « كلف » .

عنده من الأمر شيء ، إلا أن يأتيكم به ، ويدرككم بما عنده ، قل ذلك أو أكثر ،  
وصادف منكم شغلاً أو فراغاً ، لأن ذلك من عندكم أنفق ، والناس إليه أسرع ،  
والقلوب إليه أسكن ، وهو في العيون أعظم ، لما جعل الله عندكم من حسن  
الاختيار ، والعلم بمنافع العباد ، ومصالح البلاد ؛ إذ كنتم التفزع والمقنع ،  
والأئمة والمنزع . ولولا ما قلّدتكم من أمر الجماعة ، والقيام بشأن الخاصة والعامة ،  
وأن الشغل برعاية حقها والدفاع عنها ، لم يبق في قواكم فضلاً للدعاء  
والمنازعة ، ولو وضع الكتب بالجواب والمسألة - لبدأ بكم الفرض ، ولكنكم  
أحق بهذا الأمر .

على أننا لم ننطق إلا بالسنتكم ، ولم نحتذ إلا على مثالكم ، ولم نقو  
إلا بما أعزمتونا من فضل قوتكم . وعلى الرثاوة من الأدباء ، وعلى أهل  
اللسن من الخطباء ، معاونتكم ومكاتفتكم ، والجلوس بين أيديكم والاستماع  
منكم ، وعلى أن يطيعوا أمركم ، وأن ينفذوا لطاعتكم ، وأن يخاصوا في الدعاء ،  
وأن يحضوا النصيحة ، وأن يضمروا غاية المحبة ، وأن يعملوا في كف<sup>(١)</sup>  
الغل والحسد ، وأن لا يرضوا من أنفسهم بالنفاق ، وأن يعلموا أن الحسد  
لا يقع إلا بين الأشكال ، وأن التنافس لا يكون إلا مع تقارب الحال .

وقد كان يقال : لا يزال الناس بخير ما تفاوتوا ، فإذا تقاربوا هلكوا .  
وكان يقال : ثلاثة توجب الضغن وتكثر من الغل : المجاورة في المنزل ،  
والاستواء في النسب ، والمشاكلة في الصناعة .

ولذلك قال شبيب بن شيبه لرجل ادعى محبته ونصيحته : « وكيف

(١) في الأصل : « كفى » .

لا يكون كما وصفت وكما ذكرت ، ولست بخطيب ، ولا جار قريب ،  
ولا ابن عم نسيب . »

وقال بعض الحكماء : لو لم تعرفوا من لؤم الحسد إلا أنه موكل  
بالأدنى فالأدنى . وليس يقع ذلك بين المتباينين ، ولا يجوز في المتقاربين .

ولا يكون الطلب إلا بالطمع ، ولا يكون الطمع إلا بالسبب . فإذا  
انقطع السبب انقطع الطمع ، وفي عدم الطمع [ عدم ] الطلب . وكيف  
يتكلف الطيران من لا جناح له ، وكيف يرجو صلاح أمر العامة وترتيب  
الخاصة من عجز عن تدبير بيته ، وقصر عن تدبير عبده ؟ !  
وإنصاف اللسان قليل ، وإنصاف القاب أقل منه .

ونحن نرغب إلى الله في صلاحهم ؛ فإن في صلاح قلوبنا لهم .  
وقد جعل الله الشكر موصولاً بالمزيد ، ومن الشكر على نعمة الله علينا  
بكم أن نعظم ما عظم الله من أمركم . ومن صغر ما عظم الله فقد عظم ما صغر  
الله . ولا يفعل ذلك إلا الصغير القدر ، والجاهل بالأمر .

وكيف لا تكونون<sup>(١)</sup> على ما خبرت وكما وصفت ، وقد أغنيتم من  
العيلة ، وآنستم من الوحشة ، وجمعتم الشمل ، وأعدتم الألفة ، ورددتم  
الظلمة ، وأحييتم الشنة ، وأبرزتم التوحيد بعد اكتتامة ، وأظهرتموه بعد  
استخفائه ، واحتلمتم عداوة الجميع ، ووترتم المطاعين في تقويتنا .

ونحن لا نطالب ما كنتم قياماً ، ولا نذكر ما كنتم شهوداً . ونحن  
مع قلة علمنا لا نجد أبداً عملنا إلا مقصراً عن علمنا . وأتم مع اتساع قلوبكم ،

(١) في الأصل : « يكونون » .

أعمالكم وفق علومكم : لأنَّ كلَّ مَنْ بذل كلَّ مجهوده ، وخاطر بجميع نعمته ، وكانت الواحدة من نعمه كالجميع من نعم غيره ، مع خذلان الموافق ونكوص الموازر ، ثمَّ لم تزد الشدائد إلَّا شدَّةً ، والوحدة [ إلَّا ] أنسة - حقيق بالتفضيل والتعظيم ، والإنابة له بالتقديم .

ولعلَّ قائلًا أن يقول : أدخله في جملة صفات أبيه ، وجِلَّة مشيخته وأقربيه ، حيث خصَّهم بالتقديم ، وأبانهم بالتعظيم . بل كيف بقدم من صغرت سنه وقلَّت تجربته على من تقاربت سنه وكثرت تجربته . وكيف تمكن الطاعة الكثيرة في الأيام القصيرة والشهور اليسيرة ؟ وهل يقول ذلك صاحبُ تحصيل ومقايسة ، والبعيد من الملق والمخادعة .

وما قلت ذلك - حفظك الله - ولا انتحلته ، إلَّا وبرهاني حاضر ، وشاهدي شاهد . وذلك أنَّ للشَّباب<sup>(١)</sup> سكرة وطِّاحًا ، وقِراعًا وصولة . والهرمُ داخلٌ على جميع الأعضاء ، وآخذ بقسطه من جميع الأجزاء . ألا ترى كيف يكلُّ ناظره وسامعه ، وذائقه وشامه ، وهاشمه وعامله ؛ وكيف تُنقصُ على مرور الأيام قوَّته ، وكذلك قلبه وكلُّ ما بطن من أمره ، على قدر ما نقص من قوَى جسمه وتُنقصُ من قوَى شهوته . [ و ] يخفُّ عليه مخالفةُ هواه ، ومحاربةُ نوازِعه<sup>(٢)</sup> . ومن حمَل<sup>(٣)</sup> على نفسه في كمال شبابه وأيام سكرته ، وفي سلطان حدِّته وكمال قوَّته ، فظلفها مرَّةً<sup>(٤)</sup> وكبحها

و ١١٠

(١) في الأصل : « للشارب » .

(٢) في الأصل : « ، وادعه » .

(٣) في الأصل : « لمن جعل » .

(٤) ظلف نفسه : منعها هواها .

أخرى ، وعاین تلك التكاليف ، وغابَ تلك الرِّيح كان أبرزَ طاعةً ؛ إذ كان أحملَ للمشقة .

وعلى قدر المشقة تكون المثوبة ، وتعظم عند الله المنزلة ، وتقنع له في قلوب الناس المحبة . ولذلك قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لسعد ابن أبي وقاص ، حين وجهه إلى العراق : « يا سعد بن وهيب <sup>(١)</sup> ، إن الله إذا أحبَّ عبداً حبَّبه إلى خلقه . فاعتبر منزلتك من الله بمنزلك من الناس ، واعلم أن مالك عند الله مثل ما لله عندك <sup>(٢)</sup> . ونحن نعتبر حالك عند الله بالذى نجد لك في قلوب عباده . وقد ملَّك الله بعض الناس أبدان بعض ، ولم يملَّك القلوب أحداً غيره . »

وأما قولهم : إن الغرارة مقرونة بالخدانة ، والخفكة موصولة بطول التجربة ، فإنَّ الذَّهن الحديد والطَّبع الصحيح ، والإرادة الوافرة ، ينال في الأيام اليسيرة ، ويُدرك في الدُّهور القصيرة ، ما لا تدركه العقول المخدوجة <sup>(٣)</sup> ، ولا الطبايع المدخولة ، والإرادة الناقصة ، في الأيام الكثيرة ، والدُّهور الطويلة .

(١) هم بنو وهيب بن عبد مناف بن زهرة . وهو سعد بن أبي وقاص بن وهيب . واسم أبي وقاص مالك . جمهرة أنساب العرب ١٢٩ والإصابة ٢١٨٩ وفي البيان ١ : ٢٦١ : « يا سعد ، سعد بن أهيب » . وأهيب ووهيب لغتان .

(٢) إلى ينتهى الخبر في البيان والتبيين .

(٣) المخدوجة : الناقصة . من قولهم : خدجت الناقة : ألقت ولدها قبل أوانه لغير تمام . ويقال خدجت المرأة ولدها وأخدجته بمعنى واحد .

وربما صادف القائل مع ذكائه وكثرة قراءته<sup>(١)</sup> وجوده اعتباره ،  
 زماناً أكثر عجباً ، وأكثر معتبراً ، وإن كانت شهرته أقل ، وأيامه  
 أقصر ، فينال مع قلة الأيام مالا ينال سواه مع كثرتها ، ولا سيما إذا أُعِينَ  
 بحفظ ، وأحسن من نفسه بفضل بيان . ١١٠ ظ

وليس من نظر في العلم على الرغبة والشهوة له كمن نظر فيه على المكسبة  
 به والهرب إليه ؛ لأن النفس لا تسمع بكل قواها إلا مع النشاط والشهوة ،  
 وهي في ذلك لنفسها مستكرهة ولها مكابدة . والسامة إلى من كانت هذه  
 صفته أقرب ، وله ألزم . ولولا ذلك لما ولى رسول الله صلى الله عليه وسلم  
 معاذ بن جبل اليمن ، وجعل<sup>(٢)</sup> إليه قبض الصدقات ، ومحاسبة العمال ،  
 وقلده الأحكام وتعليم<sup>(٣)</sup> الناس الإسلام ، وهو ابن ثمانى عشرة سنة . ولا يدفع  
 ذلك صاحب خير ولا حامل أثر .

وعلى مثل ذلك عقد لأسامة بن زيد الإمرة ، وأبانه بالتقدمة على  
 جلة الأنصار وكبار المهاجرين ، وخيار السلف المتقدمين .

وعلى مثل ذلك ولى عتاب بن أسيد<sup>(٤)</sup> مكة ، وبها عطاء قريش  
 وكبراء العرب وذوو الأخطار من كل قبيلة ، وذوو الأسنان من كل جيل .

(١) في الأصل : « فوابله » بالإهمال .

(٢) في الأصل : « وحمل » .

(٣) في الأصل : « ويعلم » .

(٤) بفتح الهجزة ، كما في الإصابة ٥٣٨٣ وقد أسلم عتاب يوم الفتح ،  
 واستعمله رسول الله على مكة لما سار إلى حنين .

ومكة فتتح الفتوح ، وأمُّ القرى ، وخاتمة الهجرة وقبلة العرب ، وموضع الحرم والموسم الأعظم والحج الأكبر ، والأصل والمفخر .

وقد رأيتم مابلغ بخالد بن يزيد في الشؤدد والمحبة ، وقود الجيوش والهيبة ، وهو ابن خمس عشرة سنة . وقد ذكر ذلك السكيت بن زيد فقال :  
قاد الجيوش لخمس عشرة حجة ولدائه عن ذاك في أشغال<sup>(١)</sup>  
قعدت بهم همتهم وسما به همهم الملوك وسورة الأبطال<sup>(٢)</sup>  
فأما ابن بيض<sup>(٣)</sup> فقال :

بلغت لعشر مضت من سنه لك ما يبلغ السيد الأشيب  
فهشك فيها جسام الأمور وهم لداك أن يلعبوا

(١) البيت في فتوح البلدان ٦١٩ برواية « ساس الرجال لسبع عشرة » .  
وفي الأصل هنا : « بخمس عشرة » ، تحريف .

(٢) في الأصل : « قعدت بهم همتهم » . وعند البلاذري أن الشعر مقول  
في عهد بن القاسم .

(٣) ابن بيض ، بكسر الباء ، وهو حمزة بن بيض الحنفي . شاعر إسلامي  
من شعراء الدولة الأموية ، كوفي خلیع ماجن كان منقطعاً إلى المهلب بن أبي صفرة  
وولده ، ثم إلى أبان بن الوليد ، وبلال بن أبي بردة ، واكتسب بشعره مالا  
بلغ ألف ألف درهم . ولم يدرك الدولة العباسية . الأغاني ١٥ : ١٤ - ٢٥ والمؤتلف  
١٠٠ وحواشي الحيوان ٥ : ٤٥٤ - ٤٥٥ . وفي عيون الأخبار ١ : ٢٢٩ أن حمزة  
ابن بيض قال البيتين لخالد بن يزيد بن المهلب .



وعلى مثل ذلك قال الفرزدق في يزيد بن المهلب :

ما زال منذ عقدت يده إزاره ودنا وكان خمسة الأشبار<sup>(١)</sup>

وإذا الرجال رأوا يزيد رأيتهم خضع الرقاب نواكس الأبصار

و ١١١

وعلى هذا المجرى مدح الشاعر من مدح فقال :

ما زلت في عقل الكبير بر وأنت في سن الصغير

وقد رأيت ما بلغ محمد بن القاسم<sup>(٢)</sup> من الفتوح العظام والأيام الجسام ،  
والقهر للأعداء ، وبلغ المحبة في الأولياء ، وهو ابن خمس عشرة سنة . وقد  
ذكر ذلك زياد الأعجم فقال :

ما إن سمعت ولا رأيت عجيبة كمحمد بن القاسم بن محمد<sup>(٣)</sup>

قاد الجيوش بخمس عشرة حجة<sup>(٤)</sup> يا قرب ذلك سوددا من مولد<sup>(٥)</sup>

(١) ديوان الفرزدق ٣٧٨ والخزاعة ١ : ١٠٣ . والرواية في الديوان : « فدنا  
فأدرك خمسة الأشبار » . وفي الخزاعة : « وسما فأدرك خمسة الأشبار » .

( ) هو محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم بن أبي عقيل ، أحد ولاة الحجاج ،  
غزا السند وفتحها في أواخر أيام الحجاج : فتوح البلدان للبلاذري ٦١٢ - ٦١٩ .

(٣) في فتوح البلدان ٦١٩ وعيون الأخبار ١ : ٢٢٩ :

إن المروءة والسماحة والندی لمحمد بن القاسم بن محمد

(٤) في الأصل : « بخمس عشرة » والوجه ما أثبت لكن في فتوح البلدان  
« ساس الجيوش لسبع عشرة حجة » ، وفي عيون الأخبار : « قاد الجيوش  
لسبع عشرة » .

وقال الآخر<sup>(١)</sup> :

إذا المرء أعيته المروءة ناشئاً فطلبها كهلاً عليه عسير<sup>(٢)</sup>

وقال آخر<sup>(٣)</sup> :

إذا ما ترعرع فينا الفلام فليس يقال له من هـو<sup>(٤)</sup>

إذا لم يَدَّ قبل شدَّ الإزار فذلك فينا الذي لا هو

ولى صاحب من بنى الشيصبان فطوراً أقول وطورا هـو<sup>(٥)</sup>

وزعموا أن عمرو بن سعيد<sup>(٦)</sup> قال له معاوية - وذلك قبل أن يبلغ

ويحتلم - إلى من أوصى بك أبوك ؟ قال : إنَّ أبى أوصى إلىَّ ولم يوصِ بي .

قال : فبم أوصاك ؟ قال : أوصانى ألاَّ يفقد إخوانه منه إلاَّ وجهه<sup>(٧)</sup> .

(١) هو المألوط بن بدل القريني ، كما في التنبية على الحماسة لابن جني ،  
وعيون الأخبار ٣ : ١٨٩ . وفي الحماسة بشرح الرزوقي ١١٤٨ : « وقل رجل  
من بني قريع » .

(٢) في الأصل : « كهلاً » ، صوابه في المراجع المتقدمة . وأما « عسير »  
فالرواية فيها : « شديد » ؛ فإن البيت من مقطوعة دالية في الحماسة .

(٣) هو حسان بن ثابت ، كما في ديوانه ٤٢٢ واللسان : ( شصب ) وثمار  
القلوب ٥٥ . وللابيات قصة في الديوان واللسان . ورويت في الحيوان ٦ : ٢٣١  
بدون نسبة .

(٤) في الديوان واللسان : « فما إن يقال له » .

(٥) الشيصبان ، بفتح الشين والصاد : أبو حى من الجن ، زعموا .

(٦) هو أبو أمية عمرو بن سعيد بن العاصي بن سعيد بن العاصي بن أمية ،  
المعروف بالأشدق . جمهرة أنساب العرب ٨١ وتهذيب التهذيب وتاريخ الطبري ٧ :

١٧٨ - ١٨١ وحواشي البيان ٣ : ٣١٤ .

(٧) في البيان ٣ : ٣١٦ : « إلا شخصه » . والخبر في عيون الأخبار ١ : ٢٣٥

وأمالى المرتضى ١ : ٢٧٧ .

فهذا كله دليل واضح ، وبرهان بين .

ولعل قائلًا أن يقول : إنما الفضل في خشونة الملابس ؛ وليس ذلك لمن مدحت ، ولا هذه صفة من وصفت .

وهذا باب - أبقاك الله - قد يفاط فيه العاقل ما لم يكن بارعاً ، والفطن ما لم يكن ثاقباً ، والأريب ما لم يكن كاملاً . ولو كان الفضل والرياسة والقدر والنباهة على قدر قشَف الجلدة وبذاذة الهيئة ، وكثرة الصوم ، وإيثار الوحشة والسياسة - لكان عثمان بن مظعون متقدماً لأبي بكر الصديق رضوان الله عليه ، ولكان بلال بن رباح غامراً لعثمان بن عفان رضى الله عنهما .

وقد قال ابن شهاب الزهري : ليس الناسك<sup>(١)</sup> إلا من غلب الحرام صبره ، والحلال شكره .

فهذا ما حضرنا من القول ، وأمكننا من الاحتجاج . وما أشك أن من خبر أمرك أكثر من اختباري كان عنده أكثر من علمي . وعلى أن منظر ك - أسعدك الله - يعني عن الخبر ، والفراصة فيك تكفي مؤونة التجربة ١١٢ و لك . وقد ثقّلت بحمد الله أخلاق شيخك<sup>(٢)</sup> ، واحتذبت على مثاله كما احتذى على مثال من كان قبله . ولولم يتعقبوا أمرك ، وبتصفّحوا سيرتك في نفسك ثم في خاصتك وعامتك ، لكان في صدق الفراسة وظهور الحجة ما تقضى به النفوس ، ويستدل به الجرب .

وظن العاقل كيقين غيره .

(١) في الأصل : « ليس الناسك » . وفي البيان ٢ : ١٨٧ : « وميل له أيضاً :

ما الزهد في الدنيا : قال : ألا يغلب الحرام صبرك ، ولا الحلال شكرك » .

(٢) ثقّيلة : تشبه به

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : إنا لن ننتفع بعقله حتى ننتفع بظنه .  
وقال أوس بن حجر :

الأمي الذي يظن لك الظأ ن كأنه قد رأى وقد سمعاً<sup>(١)</sup>  
وقال وهو يمدح ابن كلداء بصدق الحس ، وصواب الحدس ، وجودة  
الظن :

أريب أديب أخو مازق نقاباً يخبر بالغائب<sup>(٢)</sup>  
وقال آخر<sup>(٣)</sup> يمدح بمثل ذلك عبد الملك بن مروان :

رأيت أبا الوليد غداة جمع به شيب وما فقد الشبابة<sup>(٤)</sup>  
ولكن تحت ذاك الشيب حزم إذا ما ظن أمرض أو أصاب<sup>(٥)</sup>  
وقال الله تبارك وتعالى : ﴿ ولقد صدق عليهم إبليس ظنه ﴾<sup>(٦)</sup> .  
وقال : ﴿ إن بعض الظن إثم ﴾<sup>(٧)</sup> . وفي ذكره البعض دليل على أن سائر  
ذلك صواب وطاعة .

(١) ديوان أوس بن حجر ٣ء والسكائل ٧٣١ والحيوان ٣ : ٩٥ والبيان ٤ :  
٦٨ يرثى به فضالة بن كلداء . وروى : « يظن بك الظن » .

(٢) ديوان أوس ١٢ والحيوان ٣ : ٦٠ . والنقاب الرجل العالم بالأشياء المبحث  
عنها الفطن الشديد الدخول فيها . وقد وردت « نقاباً » في الأصل منصوبة . وروى :  
« نقاب » .

(٣) هو كثير . كما في الحيوان ٣ : ٦٠ والبيان ٤ : ٦٧ .

(٤) جمع ، بالفتح ، هو المزدلفة .

(٥) أمرض : قارب الصواب في الرأي وإن لم يعصب كل الصواب . وفي الأصل :

« أعرض » ، صوابه من الحيوان والبيان واللسان ( مرض ) .

(٦) الآية ٢٠ من سورة سبأ .

(٧) الآية ١٢ من سورة الحجرات .

وكان من أسباب دفعي إليك هذا الكتاب — أبقاك الله — دون  
أبي عبد الله<sup>(١)</sup> أكرمه الله ، أنكما قد تجريان في بعض الأمور مجرى وحداً ،  
ولأنك وإن كنت كثير الشغل فهو أقل فراغاً منك على كثرة شغلك ، وفرط  
عنايتك بما استكفأك واسترعاك . وإن جعلت لي قسماً من وقت فراغك ،  
ونصيباً من ساعة نشاطك . رجوت أن يصير إلى ما أماناه عندك من الإناعام  
علي ، والاسترهان لشكري ؛ فإن العرب لم تعظم شيئاً قط كتعظيمها موقع  
الإناعام والشكر والأحدوثة الحسنة ، والذكر والتميز ، والاستمداد للنعم ،  
والكفر حائل بين العود والبذل .

١١٢ ظ

قال عنتره :

نبئت بشراً غير شاكر نعمتي والكفر محبته لنفس المنعم<sup>(٢)</sup>  
وقال السندي :

فلم أجز بالحسنى وعادت مشاربي بلاقع يقروها الحمام المقرقر  
تبدلت بالإحسان سوءاً وربما تنكر للمعروف من كان يكفر

(١) هو أبو عبد الله أحمد بن أبي دواد القاضي ، والد من كتب إليه الجاحظ :  
هذه الرسالة . وأبو دواد اسمه كنيته ، وقيل اسمه « دهمي » وقيل « طاحه » .  
ولي أحمد القضاء للمعتصم ثم للوائق ، وكان موصوفاً بالجود والسخاء وحسن الخلق  
ووفور الأدب ، وهو صاحب محنة القول بخلق القرآن في أيام المعتصم والوائق .  
ولد سنة ١٦٠ بالبصرة وتوفي سنة ٢٤٠ في بغداد . تاريخ بغداد ٤ : ١٤١ - ١٥٦  
ووفيات الأعيان ١ : ٢٢ - ٢٦ .

(٢) البيت من معلقة عنتره . والرواية : « نبئت عمراً » . انظر شرح  
القصائد السبع الطوال لابن الأنباري ٣٥٥ .

ويدل على حبهم للثناء وجميل الذِّكر قولُ الأسدَى :

فإِنِّي أَحَبُّ الخَلْدِ لو أستطيعه      وكان الخلد عندي أن أموت ولم أَلَمْ<sup>(١)</sup>

وقال :

فأثْنُوا علينا لا أبا لأبيكم      بَمَعَاتِنَا إِنَّ الثناء هو الخلد<sup>(٢)</sup>

وقال الفَنَوَى :

فإذا بلغتم أهلَكُم فتحدَّثُوا      إِنَّ الحديث مَهَالِكٌ وخلود<sup>(٣)</sup>

فجعلوا الذِّكر بالجميل مثلَ الخلود في النعيم .

وعلى هذا المعنى قال في درك الثَّار :

فَمَتَّلًا بَتَقْتِيلٍ وعَقْرًا كَعَقْرِكُمْ      جزاء العطاس لا يموت من أثار<sup>(٤)</sup>

وقال حكيم الفرس حين بلغه موت الإسكندر ، وهو قاتل دارا بن دارا :

ما ظننت أن قاتل دارا يموت !

وهذا القول هو أمدح منه لقاتله . ولم أسمع للمعجم كلمةً قطُّ أمدح منها .

فإنما العرب فقد أصبتُ لهم من هذا الضَّرْبِ كلاماً كثيراً .

(١) الحيوان ٣ : ٤٧٥ والبيان ٣ : ٣٢٠ .

(٢) الحيوان ٣ : ٤٧٥ والبيان ٣ : ٣٢٠ . والرواية فيهما « بإحساننا » .

(٣) في بعض نسخ الحيوان : « بلغتم أرضكم » و « متالف وخلود » . انظر

الحيوان ٤ : ٤٧٥ .

(٤) هو مهلهل ، كما في البيان ٣ : ٣٢٠ . وهو بدون نسبة في الحيوان

٣ : ٤٧٥ . تحريف . وفي الأصل : « وعفوا كعقوكم » تحريف . والعقر : القتل

والإهلاك . جزاء العطاس ، هو تسميت العطاس والثناء له بالخير ؛ أى نعجل بذلك

كقدر ما بين العطاس والتسميت . وانظر اللسان ( عقب ١١٠ جزى ١٥٩ ) .

لا يموت من أثار ، أى لا يموت ذكره . أثار : أدرك ثأره .

ومما يدلُّ على قدر عِظَم الشُّكْرِ عند الشَّاكِر والمشكُور له من العرب ،  
قولُ أوسِ بنِ حجرٍ في حَلِيمَة<sup>(١)</sup> :

سَنَجْزِيكَ أَوْ يَجْزِيكَ عَنَّا [ مُثَوَّبٌ ]

وَحَسْبُكَ أَنْ يُذَنِّي عَلَيْكَ وَتُحَمِّدِي<sup>(٢)</sup>

وقال بعض الشعراء<sup>(٣)</sup> :

فَلَمْ أَجْزِهِ إِلَّا الذُّشْكَرَ جَاهِدًا      وَحَسْبُكَ مِنِّي أَنْ أَقُولَ فَأَحْمَدًا<sup>(٤)</sup>

و ١١٤

وكانوا يرون للذَّنْبِ مالا يراه غيرهم . وقال امرؤ القيس بن حُجْر :

\* وَجُرْحُ اللِّسَانِ كَجُرْحِ الْيَدِ<sup>(٥)</sup> \*

(١) هي حليلة بنت فضالة بن كعدة . وكانت قد أسدت إليه صديعا حين جالت به نافته فصرعته ، في قصة رواها أبو الفرج في الأغاني ١٠ : ٧ .

(٢) المثوب : المجازي . يقال أثابه وأثوبه وثوبته ، وفي الكتاب العزيز : « هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون » . وموضع الكلمة بياض في الأصل ، وإثباتها من ديوان أوس ١٧ والحيوان ٣ : ٧١ والبيان ٣ : ٣٢٠ . ويروى : « عني مثوب » ويروى : « وقصرك » بدل « وحسبك » ؛ وهما بمعنى .

(٣) هو أبو يعقوب الأعور ، كما في الحيوان ٣ : ٧٢ .

(٤) في الحيوان :

فَلَمْ أَجْزِهِ إِلَّا الْمُودَةَ جَاهِدًا      وَحَسْبُكَ مِنِّي أَنْ أُوْدَ وَأُجْهِدًا  
وفي بعض نسخ الحيوان : « أن أود وأحمدا » .

(٥) صدره في ديوان امرئ القيس ١٨٥ والبيان ١ : ١٥٦ :

\* وَلَوْ عَنْ ثَنَاءٍ غَيْرِهِ جَاءَنِي \*

وقال جرير :

\* وَلَاسَيْفُ أَشْوَى وَقْعَةً مِنْ لِسَانِيَا <sup>(١)</sup> \*

في أشعار كثيرة .

ولست أُمْتُ إِلَيْكَ — أكرمك الله — بعدَ التوحيد ونفى التشبيه ،  
ونصرتي للدين ، بأمرِ أنا به أوثق من رغبتك في شكر الكرام والأحدوثِ  
الحسنة . قال الله عز وجل : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ <sup>(٢)</sup> ﴾ وقال : ﴿ وَإِنَّهُ  
لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ <sup>(٣)</sup> ﴾ . فلو كان حبُّ الذكر خطيئةً لما رَغَّبَهم فيه ،  
ولا عُدَّ في نِعَمِهِ .

ولعل قائلًا أن يقول : وكيف لم تذكر أمير المؤمنين ، والمعتصم  
رب العالمين ، الذي حقق الله به الدين وسدَّد به الشُّغُور ، وردَّ به المظالم ،  
وحَسَم به عِرق البغي ونواجم الفتنه ؛ الذي لم يزل الله يزيده في كلِّ طرفة  
مَحَبَّة ، ومع كلِّ مَحَبَّة هَيِّبَةٍ ، ومع كلِّ نِعْمَةٍ شُكْرًا ، ومع كلِّ شُكْرٍ فَضلاً .  
وهو المبتدئ بهذا الأمر والقائم به ، والقطب الذي عليه تدور الرَّحَى ، وعلى  
مِثَالِهِ احْتَدَى من احتذى ، وبلسانه نطق ، وعن رأيه صدر . وبُيُمن قِيَمَتِهِ  
ظهر ، وبفضل قُوَّتِهِ نهَض . وهو أول هذا الأمرِ ووسطه ، به يتم  
إن شاء الله تعالى .

(١) صدره في ديوان جرير ٦٠٦ والبيان ١ : ١٦٧ :

\* وليس لسيفي في العظام بقية \*

أى هو يكسر العظام ويتجاوزها لا يغيب فيه . أشوى . من الشوى ، وهو  
إخطاء للقتل . يعنى أن لسانه أشد فتكاً من سيفه ، على ما في سيفه من قوة وفتك .

(٢) الآية ٤ من سورة الانشراح .

(٣) الآية ٣٤ من سورة الزخرف .



قلنا : إنَّ عقلَ الرَّسولِ يدلُّ على مُرسله ، واعتدالُ القناةِ يدلُّ على حِذْقِ  
 المثقَّف ، ومَدِّحكُ الوزيرَ راجعٌ إلى مَنْ اختاره ، وإنَّ تصويبَ ظنِّ المتفرِّسِ  
 فيه ومديحنا له غيرُ راجعٍ إلى وزيره والمحتدِّي على مثاله ، بل قد علم النَّاسُ  
 أنَّ الحِظَّ الأكبرَ للأمرِ دونَ المطيع ، والمعلمُ دونَ القائل ، ولأنَّ المسبَّبَ في  
 عداله . . . . . <sup>(١)</sup> وعند النَّظرِ والتحصيل ، أفضلُ من المسبَّب ،  
 والمتبوعُ خيرُ من التابع . ألا تَرى أنَّ مَنْ مَدَحَ الأنصارَ فهو للنبيِّ صلى الله  
 عليه وسلم والمهاجرين أمدحُ ، وإن لم يُظهر ذكرهم في الوصف .

قال جرير :

\* تَلَكُمُ قُرَيْشِي وَالْأَنْصَارُ أَنْصَارِي <sup>(٢)</sup> \*

وقال رؤبة :

\* وَمَنْ عَلَى الْمِنْبَرِ لِي وَالْمِنْبَرُ \*

وربما كانت الكناية أبلغَ في التعظيم ، وأدعى إلى التقديم ، من الإفصاح  
 والشرح . وربما أتى من السكوت بما يَعجزُ القولُ عنه وقد بلغ أقصى حاجته  
 وغاية أمنيته بالإيثار والإشارة ، حتَّى يكون تكلفُ القولِ فضلاً ، والكلامُ  
 خطلاً .

وما عسى أن أقولَ فيمن قد قَوِيَ عقله بطبيعته ، وانتصف عزمه من  
 شهوته ، وكان عمله وَفَّقَ علمه ، وعمله غامراً لخصمه .

(١) بياض في الأصل بمقدار كلمتين .

(٢) صدره في ديوان جرير ٣١١ :

\* إن الذين اجتروا محمدا ومكرمة \*

وفي الأصل : « نبيهم قرشي والأنصار الصابرين » .

وقد يجري الملك على عرقٍ صالح ومنشأ سَوءٍ ، فيقدح ذلك في عرقه وإن لم يستأصله ، وقد يكون له عرقٌ صالحٌ ومنشأٌ صديقٍ ، وتكون أداؤه تامةً ويكون مؤثرًا لهواه ، فيكون في الاسم وفي ظاهر الحكم كمن فسد عرقه وخُبث منشؤه .

وقد جمع الله لأمر المؤمنين<sup>(١)</sup> مع كرم العروق وصلاح المنشأ ، البعد من إثارة الهوى . وهل رأيت أفعالا أشبه بأخلاقٍ ، ولا أخلاقاً أشبه بأعراقٍ ، من أفعاله بأخلاقه ، وأخلاقه بأعراقه .

فنسأل الله الذي أسندنا بخلافته ، أن يمنَّ علينا بطول بقائه ، وأن يَخَصَّنَا بحسن نظره كما خَصَّنَا بمعرفة حقه ، والاحتجاج لملكه ، والذبُّ عن سلطانه .

ولربما كان اللسانُ أنفذَ من السنان ، وأقطعَ من السيفِ اليمان .  
أطال الله بقاءك وحفظك ، وأتمَّ نعمته عليك ، وكرامته لك .

\* \* \*

تمت الرسالة بعون الله تعالى ومنه وتوفيقه وتأييده . والحمد لله أولاً وآخراً  
وصلواته على سيدنا محمد نبيه ، وآله وصحبه ، وسلامه .

٧  
رِسَالَة

إلى أبي عبد الله أحمد بن أبي دُواد  
يخبره فيها بكتاب

الفِصْرِ ٧ ٢ ٧  
كيا



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وهذه هي الرسالة السابعة من رسائل الجاحظ ، وعنوانها :

« رسالة إلى أبي عبد الله أحمد بن أبي دؤاد الإيادي ، من كلام أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، كتبها إليه يخبره فيها بكتاب الفتيا » .

أما أبو عبد الله أحمد بن أبي دؤاد الإيادي فقد سبقت ترجمته في أثناء الرسالة السابقة فأغنى ذلك عن إعادتها .

وقد أجرى الجاحظ ذكر كتاب الفتيا في الحيوان ١ : ٩ قال : « وعبت كتابي في القول في أصول الفتيا والأحكام » .

وما هذه الرسالة إلا تقديم وعبارة إهداء لكتاب الفتيا ، وليست هي كتاب الفتيا بعينه .

وتم أجد لهذه الرسالة أصلا في غير مجموعة مكتبة داماد ، وعليها اعتمادى في إخراج هذه الرسالة .



أطال الله بقاءك وأعزك ، وأصلح على يدك .

كان يقال : السلطان سوق ، وإنما يجلب إلى كل سوق ما ينفق فيها .  
وأنت أيها العالم معلم الخير وطالبه ، والداعي إليه ، وحامل الناس عليه -  
من موضع السلطان بأرفع المكان ؛ لأن من جعل الله إليه مظالم العباد ،  
ومصالح البلاد ، وجعله متصفحا على القضاة<sup>(١)</sup> ، وعتادا على الولاة ، ثم جعله  
الله مزرع العلماء ، ومفزع الضعفاء ، ومستراح الحكماء ، فقد وضعه بأرفع  
المنازل ، وأسمى المراتب .

وقد قال أهل العلم ، وأهل التجربة والفهم : « كما يزرع الله بالسلطان  
أكثر مما يزرع بالقرآن<sup>(٢)</sup> » .

وقد كان يقال : شيان متباينان ، إن صلح أحدهما صلح الآخر : السلطان  
والرعية .

فقد صلح السلطان ، وعلى الله تمام النعمة في صلاح الرعية ، حتى يحقق  
الأثر ، وتصدق الشهادة في الخير .

(١) إشارة إلى أنه كان قاضي القضاة .

(٢) في اللسان ( وزع ) : « وفي الحديث : من يزرع السلطان أكثر ممن  
يزرع القرآن » . قال : معناه أن من يكف عن ارتكاب العظائم مخافة السلطان  
ممن تكفه مخافة القرآن والله تعالى . فمن يكفه السلطان عن المعاصي أكثر ممن  
يكفه القرآن بالأمر والنهي والإنذار .

فَسَأَلَ الَّذِي مَنَعَكَ حُسْنَ الرَّعَايَةِ أَنْ يَمْنَحَنَا حُسْنَ الطَّاعَةِ .

وقد نظرتُ في التَّجَارَةِ الَّتِي اخْتَرْتَهَا ، وَالشُّوقَ الَّتِي أَقَمْتَهَا ، فَلَمْ أَرْ فِيهَا شَيْئاً  
يَنْفَقُ إِلَّا الْعِلْمُ وَالْبَيَانُ عَنْهُ ، وَإِلَّا الْعَمَلُ الصَّالِحُ وَالِدُّعَاءُ إِلَيْهِ ، وَإِلَّا التَّعَاوُنُ  
عَلَى مَصْلَحَةِ الْعِبَادِ ، وَنَفْيُ الْفَسَادِ عَنِ الْبِلَادِ .

وَأَنَا - مَدَّ اللَّهُ فِي عَمْرِكَ - رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ النَّظَرِ ، وَمِنْ حَالَ الْأَمْرِ ،  
وَلَا أَكْمُلُ لِكُلِّ ذَلِكَ وَلَا أَفِي ؛ إِلَّا أَنِّي فِي سَبِيلِ أَهْلِهِ وَعَلَى مِنْهَاجِ أَصْحَابِهِ .  
وَالْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ ، وَلَهُ مَا اكْتَسَبَ .

وَعِنْدِي - أَبَقَاكَ اللَّهُ - كِتَابٌ جَامِعٌ لِاخْتِلَافِ النَّاسِ فِي أَصُولِ الْفُتْيَا ،  
الَّتِي عَلَيْهَا اخْتَلَفَتِ الْفُرُوعُ وَتَضَادَّتِ الْأَحْكَامُ ، وَقَدْ جُمِعَتْ فِيهِ جَمِيعُ الدَّعَاوِي  
مَعَ جَمِيعِ الْعُلَلِ . وَلَيْسَ يَكُونُ الْكِتَابُ تَأَمُّلاً ، وَلِحَاجَةِ النَّاسِ إِلَيْهِ جَامِعاً ، حَتَّى  
تَحْتَجَّ لِكُلِّ قَوْلٍ بِمَا لَا يُصَابُ عِنْدَ صَاحِبِهِ ، وَلَا يُلْفَغُ أَهْلُهُ ؛ وَحَتَّى لَا تَرْضَى  
بِكَشْفِ قِنَاعِ الْبَاطِلِ دُونَ تَجْرِيدِهِ ، وَلَا بِتَوْهِينِهِ دُونَ إِبْطَالِهِ . وَقَدْ قَالَ رَسُولُ  
رَبِّ الْعَالَمِينَ وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ ، مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « تَهَادَوْا تَحَابُّوا » .

خُشْتُ عَلَى الْهَدْيَةِ وَإِنْ كَانَ كِرَاعًا وَشَيْئًا يَسِيرًا . وَإِذَا دَعَا إِلَى الْيَسِيرِ الْخَفِيرِ  
فَهُوَ إِلَى الثَّمِينِ الْخَطِيرِ أَدْعَى ، وَبِهِ أَرْضَى .

١١٦ و

وَلَا أَعْلَمُ شَيْئًا أَدْعَى إِلَى التَّحَابِّ ، وَأَوْجِبَ فِي التَّهَادِي ، وَأَعْلَى مَنْزِلَةٍ  
وَأَشْرَفَ مَرْتَبَةٍ ، مِنَ الْعِلْمِ الَّذِي جَعَلَ اللَّهُ الْعَمَلَ لَهُ تَبَعًا ، وَالْجَنَّةَ لَهُ ثَوَابًا .

وَلَا غُذِرَ لِمَنْ كَتَبَ كِتَابًا وَقَدْ غَابَ عَنْهُ خَصْمُهُ ، وَقَدْ تَكْفَّلَ بِالْإِخْبَارِ  
عَنْهُ ، فِي تَرْكِ الْحَيْطَةِ لَهُ ، وَالْقِيَامِ بِكُلِّ مَا احْتَمَلَهُ قَوْلُهُ . كَمَا أَنَّهُ لَا غُذْرَ لَهُ  
فِي التَّقْصِيرِ عَنْ فَسَادِ كُلِّ قَوْلٍ خَالَفَ عَلَيْهِ ، وَضَادَّ مَذْهَبَهُ ، عِنْدَ مَنْ قَرَأَ كِتَابَهُ



وتفهم أدخاله<sup>(١)</sup> ، لأن أقل ما يُزيل<sup>(٢)</sup> عذره ويزيح عِلته ، أن قول خصمه قد استهدف لخصمه ، وأصحَرَ لسانه<sup>(٣)</sup> ومكّنه من نفسه ، وسلّطه على إظهار عورته . فإذا استراح وأضع الكتاب من شغب خصمه ومداراة جابسه ، فلم يبقَ إلّا أن يقوى على كسر الباطل أو يعجزَ عنه<sup>(٤)</sup> .

ومن شكر المعرفة بمقاوى الناس ومراشدهم ، ومضارّهم ومنافعهم ، أن تحتل ثقل مؤوتهم في تعريفهم<sup>(٥)</sup> ، وأن تتوخى إرشادهم ، وإن جهلوا فضل ما يسدى إليهم .

ولم يُصنِ العلمُ بمثل بذله ، ولم يُستَبَقْ بمثل نشره . على أن قراءة الكتب أبلغُ في إرشادهم من تلاقيهم ، إذ كان مع التلاقي يكثر التّظالم ، وتقرط النصرة ، وتشتد الحمية . وعند المواجهة يفرط حبُّ الغلبة ، وشهوة المباهاة والرئاسة ، مع الاستحياء من الرجوع ، والأنفة من الخضوع . وعن<sup>(٦)</sup> جميع ذلك تحدث الضّفائن ، ويظهر التّباين . وإذا كانت القلوبُ على هذه الصّفة وهذه الحليّة ، امتنعت من المعرفة<sup>(٧)</sup> ، وعميت عن الدّلالة .

(١) الأدخال : جمع دخل بالتحريك ، وهو العيب والفساد .

(٢) في الأصل : « يزيد » .

(٣) أصحَرَ : ظهر وبرز .

(٤) الكلام بعده إلى « وقامت سوق العلم والبيان » في ص ٢١٧ مجده مع

خلاف يسير في الحيوان ١ : ٨٤ - ٨٧

(٥) في الحيوان : « في تقويمهم » .

(٦) في الأصل « وعند » ، ووجهه من الحيوان .

(٧) في الأصل : « الفرقة » . وفي الحيوان : « التعرف » .

ولست في الكتب علة تمنع من درك البغية ، وإصابة الحجة ؛ لأن المتوحد بقراءتها ، والمتفرّد بفهم معانيها ، لا يباهى نفسه ، ولا يغالب عقله .

والكتاب قد يفضل صاحبه ، ويرجع على واضعه بأمور :

منها أنه يوجد<sup>(١)</sup> مع كل زمان على تفاوت الأعصار ، وبعد ما بين الأمصار . وذلك أمر يستحيل في واضع الكتاب ، والمنازع بالسألة والجواب . وقد بذهب العالم وتبقى كتبه ، ويقتى العقب<sup>(٢)</sup> ويبقى أثره . ولولا ما رسمت لنا الأوائل في كتبها ، وخلدت من عجيب حكمها ، ودوّنت من أنواع سيرها ؛ حتى شاهدنا بها ما غاب عنا ، وفتحنا بها المستغلق علينا ، فجمّعنا إلى قليلنا كثيرهم ، وأدركنا ما لم نكن ندركه إلا بهم - لقد خسر حظنا في الحكمة ، وانقطع سبيلنا من المعرفة ، وقصرت الهمة ، وضعفت النية ، فاعتقم الرأي وماتت الخطوط ، ونابا العقل<sup>(٣)</sup> .

١١٦ ظ

وأكثر من كتبهم نفعا ، وأحسن ما تكلموا به موقعا ، كتب الله التي فيها الهدى والرحمة ، والإخبار عن كل عبرة ، وتعريف كل سيئة وحسنة . فينبغي أن يكون سبيلنا فيمن بعدنا كسبيل من قبلنا فينا . على أننا قد وجدنا من العبرة أكثر مما وجدوا ، كما أن من بعدنا يجد من العبرة أكثر مما وجدنا .

فما ينتظر العالم بإظهار ما عنده ، والناشر<sup>(٤)</sup> للحق من القيام بما يلزمه .

(١) في الأصل : « يوجد » .

(٢) في الأصل : « العقب » ، وفي الحيوان « العقل » .

(٣) في الحيوان : « وتبلد العقل » .

(٤) في الحيوان : « والناصر » .

فقد أمكن القول وصلح الدهر ، وخوى نجم التقيّة<sup>(١)</sup> ، وهبت ريح العلماء ،  
وكسد الجهل والعى<sup>(٢)</sup> وقامت سوق العلم والبيان<sup>(٣)</sup> .

وهذا الكتاب - أرشدك الله - وإن حسن في عيني ، وحلا في صدري ،  
فلست آمن أن يعتريني فيه من الغلط ما يعترى الأب في ابنه ، والشاعر  
في قريضه .

والذي دعاني إلى وضعه مع إشفاق منه ، وهبتي لتصفحك له ، أتى حين  
علمت أن الغالب على إرادتك ، والمستول على مذهبك ، تقرب العالم وإقصاء  
الجاهل ، وأنت متى قرأت كتاباً أو سمعت كلاماً ، كنت من وراء ما فيه  
من نقص أو فضل ، باتساع الفهم ، وصحة العلم ؛ وأنت متى رأيت زللاً غفرتة  
وقومت صاحبه ، ولم تقرّعه به ، ولم تحرمه له . ومتى رأيت صواباً أعلنتمه  
ورعيته ، فدعوت إليه وأثبتت عليه . ولأني حين أمنت عقاب الإساءة ،  
[ و ] وثقت بثواب الإحسان ، كان ذلك موجباً لوضعه ، ولم أستكره نفسي  
عليه ، وصار ذلك موجباً لتنظيمه وموحياً للتقرب به . والسبب أحق بالتفضيل  
من السبب ؛ لأن الفعل محمول على سببه ، ومضاف إليه ، وعيال عليه ،  
ومضن به .

وإحساني - مد الله في عمرك - في كتابي هذا إن كنت محسناً ، صغيراً

(١) خوى : اختفى وذهب .

(٢) في الأصل : « والعمل » ، صوابه من الحيوان .

(٣) في الحيوان : « سوق البيان والعلم » . وإلى هنا ينتهي النص المقارب

لنص الحيوان ، الذي أشرت إليه في ص ٢١٥ .

في جنب إحسانك ، إذ كنت المثير له من مراقبه ، والباعث له من مراقده .  
فلذلك صار أوفر النصيدين لك ، وأمتن السبيين مضافاً إليك . وإن كنت  
قد قصّرت عن الغاية ، فأنا المضيع دونك . وإن كنت قد بلغت فضلك أظهر  
وحظك أوفر . لأنني لم أنشط له إلا بك ، ولا اعتمدت فيه إلا عليك .

ولولا سوقك التي لا ينفق فيها إلا إقامة السنّة ، وإماتة البدعة ، ودفع  
الظلامة ، والنظر في صلاح الأئمة — لكانت هذه السّاعة باثرة ، وهذا الجلب  
مدفوعاً ، وهذا العلق خسيساً .

فالحمد لله الذي عمّر الدنيا بك ، وأخذ لظنومها على يديك ، وأيد هذا  
الملك بيمينك ، وصدّق فِراسة الإمام فيك .

وآية منزلة أرفع وآية حالة أحمّد ، ممن ليس على ظهرها عالم إلا وهو  
يخبر إليه ، أو قد رحل إليه ، أو قد صار إلى كنفه وتحت جناحه . وليس على  
ظهرها ظالم إلا وهو يتقيّه ، ولا مظلوم إلا وهو يستعديه .

ومن يقف على قدر ثواب من هذا قدره ، وهذه حاله ؟ !

وعندي — مدّ الله في عمرك — كتب سوى هذا الكتاب ، وليس  
يمنعني من أن أهديها إليك معاً إلا ما أعرفه من كثرة شغلك ، وكثرة ما يلزمك  
من التدبير في ليلك ونهارك . والعلم وإن كان حياة العقل ، كما أن العقل حياة  
الروح ، والروح حياة البدن ، فإن حكمه حكم الماء وجميع الغذاء ، الذي إذا  
فضل عن مقدار الحاجة عاد ذلك ضرراً . وإنما يسوغ الشراب ويستمرأ  
الطعام الأول فالأول . فكذلك العلم يجري مجراه ، ويذهب مذهبه .

ومن شأن النفوس الملالة لِمَا طال عليها ، وكثر عندها . فليس لنا  
أن نكون من الأعوان على ذلك ، ومن الجاهلين بما عليه طبائع البشر ؛

فإن أقوامهم ضعيفٌ ، وأنشطهم سَوُومٌ ؛ وإن كانت حالاتهم متفاوتةً فإنَّ الضَّعْفَ لهم شاملٌ ، وعليهم غالبٌ .

فإذا قُرئَ عليك — أيَّدك الله — هذا الكتابُ التمسنا أوقاتَ الجِمام<sup>(١)</sup> وساعاتِ الفراغِ ، بقدر ما يُمكن من ذلك وتهيئاً . والله الموفقُ لذلك ، والمهيئُ له . ثُمَّ أَتَبَعْنَا كُلَّ كِتَابٍ بِمَا يَلِيهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

وليست بحمد الله من باب الطَّفْرةِ والمداخلةِ<sup>(٢)</sup> ، ولا من باب الجوهرِ والعرَضِ ، بل كالأُهمِّ في الكتابِ والشَّئِ ، وبجميعِ الأُمَّةِ إليها أعظمُ الحاجةِ . ثُمَّ نَسَأَلُ الَّذِي عَرَّفَنَا فَضْلَكَ ، أَنْ يَصِلَ حَبْلُنَا بِحَبْلِكَ ، وَأَنْ يَجْعَلَنَا مِنْ صَالِحِي أَعْوَانِكَ ، الْمُسْتَمِعِينَ مِنْكَ ، وَالنَّاظِرِينَ مَعَكَ ؛ وَأَنْ يُحَسِّنَ فِي عَيْنِكَ وَيُزَيِّنَ فِي سَمْعِكَ ، مَا تَقَرَّبْنَا بِهِ إِلَيْكَ ، وَالتَّمَنَّا الدُّنْوَى مِنْكَ ، إِنَّهُ قَرِيبٌ بِحَبِيبٍ ، فَقَالَ لَمَّا يَرِيدُ .

أطال الله بقاءك ، وأتمَّ نعمته عليك ، وكرامته لك في الدنيا والآخرة .

\*\*\*

تمت الرسالة بعون الله تعالى ومنه وتوفيقه . والله الموفق للصواب .  
والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه الطيبين الطاهرين وسلامه .

(١) الجِمام ، كسحاب : الراحة .

(٢) انظر للطرفة والمداخلة حواشي الحيوان ٤ : ٢٠٨ .



٨

رِسَالَةٌ

إِلَى أَبِي الْفَرَجِ بْنِ نَجَاحٍ الْكَاتِبِ





## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وهذه هي الرسالة الثامنة من رسائل الجاحظ ، انفردت بها نسخة مكتبة داماد وعنوانها :

« رسالة لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، كتب بها إلى أبي الفرج بن نجاح الكاتب » .

وهي غير الرسالة التي كتب بها إليه في « المودة والحلطة » ، فهذه لم ترد في مجموعة داماد ، وإنما وردت في الفصول المختارة لعبيد الله بن حسان ، وكذا في مختارات فصول الجاحظ نسخة المتحف البريطاني ، وقد نشرها السندوبي كذلك في رسائل الجاحظ .

وسأقوم بتحقيقها ونشرها إن شاء الله بعد الفراغ من هذه المجموعة : مجموعة داماد .

وأبو الفرج هذا هو محمد بن نجاح بن سلمة ، كما في جمع الجواهر للعصرى ١٢١ . وأبوه نجاح بن سلمة كان على ديوان التوقيع في خلافة المتوكل وقتله سنة ٢٤٥ ووجه إلى ابنه أبي الفرج وأبي عمده ، فأخذ أبو الفرج وهرب أبو عمده ، كما ذكر الطبري في حوادث تلك السنة .

والملاحظ في هذه الرسالة أن الجاحظ قد عني فيها بجمع أسماء من كنيته « أبو عثمان » التي هي كنيته أيضاً ، كما أنها قد سجلت للجاحظ قصيدة من شعره .



جُعِلَتْ فِدَاكَ ، وَأَطَالَ اللَّهُ بِقَاكَ ، وَأَعَزَّكَ وَأَكْرَمَكَ ، وَأَتَمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَأَبَدَكَ .

قد نسخت لك - أعزَّكَ الله - في صدر هذا الكتاب قصيدةً قيلت في أبي الفرج أدام الله عزَّه ، ذكرُوا أن قائلها رجلٌ يكنى أبا عثمان ، ولا أدري أهو أبو عثمان هشام بن المغيرة<sup>(١)</sup> ، أم أبو عثمان عفان بن أبي العاص<sup>(٢)</sup> .

ولا أدري أهو أبو عثمان عنبة بن أبي سفيان ، أم أبو عثمان سعيد ابن عثمان<sup>(٣)</sup> ، ولا أدري أهو أبو عثمان النهدي عبد الرحمن بن مِلْ<sup>(٤)</sup> ، أم أبو عثمان ربيعة الرأي بن أبي عبد الرحمن<sup>(٥)</sup> .

(١) جمهرة أنساب العرب ١٤٥ . وهو والد أبي جهل .

(٢) جمهرة أنساب العرب ٨٣ وهو والد عثمان .

(٣) جمهرة أنساب العرب ١١١ . وهو سعيد بن عثمان بن عفان .

(٤) في الأصل : « مليل » . صوابه من الجمهرة ٤٤٧ ونهذيب التهذيب ٦ : ٢٧٧ وتقريب التهذيب . وهو عبد الرحمن بن مل - بتثنية الليم - بن عمرو بن عدي بن وهب بن ربيعة بن سعد بن جذيمة بن كعب بن رفاعه بن مالك ابن نهدي .

(٥) هو ربيعة الرأي بن أبي عبد الرحمن فروخ التيمي ، أدرك بعض الصحابة والأكابر من التابعين ، وكان صاحب الفتوى بالمدينة . توفي سنة ١٣٦ . تهذيب التهذيب والمعارف ٢١٧ وصفة الصفوة ٢ : ٨٣ - ٨٦ .

ولا أدرى أهو أبو عثمان سعيد بن خالد بن أسيد<sup>(١)</sup> ، أم أبو عثمان  
إسحاق بن الأشعث بن قيس .

ولا أدرى أهو أبو عثمان المنذر بن الزبير بن العوام<sup>(٢)</sup> ، أم أبو عثمان  
عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك<sup>(٣)</sup> .

ولا أدرى أهو أبو عثمان عبد الله بن خالد بن أسيد<sup>(٤)</sup> ، أم أبو عثمان  
أبو العاص بن [ بشر بن<sup>(٥)</sup> ] عبد دُهمان ، وهو اسمه .

ولا أدرى أهو أبو عثمان عبد الله بن عبد الرحمن بن سُمرة بن حبيب  
ابن عبد شمس<sup>(٦)</sup> ، أم أبو عثمان عبد الله بن عامر بن كُرَيْز<sup>(٧)</sup> .

ولا أدرى أهو أبو عثمان سعيد بن أسعد بن إمام المسجد الجامع الأعظم ،  
أم أبو عثمان عمرو بن عبيد بن باب<sup>(٨)</sup> .

(١) جمهرة أنساب العرب ١١٣ .

(٢) جمهرة أنساب العرب ١٢٣ .

(٣) جمهرة أنساب العرب ٩٠ - ٩١ .

(٤) جمهرة أنساب العرب ١١٣ .

(٥) التكملة من جمهرة أنساب العرب ٢٦٦ .

(٦) جمهرة أنساب العرب ٧٤ . وفي الأصل : « بن جندب بن عبد شمس » ،  
صوابه من الجمهرة والإصابة ٣٤٦٩ .

(٧) الجمهرة ٧٤ ، ٧٥ ، ٣١١ .

(٨) عمرو بن عبيد بن باب : شيخ من شيوخ المعتزلة ، وأحد الزهاد  
المشهورين . توفي بخران سنة ١٤٤ وورثاه النصور . قالوا : ولم يسمع بخليفة رثى  
من دونه سواه . تاريخ بغداد ٦٦٥٢ والمعارف ٢١٢ .

ولا أدري أهو أبو عثمان فيروز حُصَيْنِ العنبري<sup>(١)</sup> ، أم أبو عثمان  
ابن عمر بن أبي عثمان السَّمري<sup>(٢)</sup> .

ولا أدري أهو أبو عثمان خالد بن الحارث بن سليمان الهَجِيمِي<sup>(٣)</sup> ،  
أم أبو عثمان أبو العاص بن عبد الوهاب الثقفي<sup>(٤)</sup> .

(١) في الأصل : « فيروز بن حصن » ، صوابه ما أثبت من البيان ٢ : ٤٣  
وجمهرة أنساب العرب ٢٠٩ . وهو مولى حصين بن مالك بن الحشخاش العنبري .  
قال ابن قتيبة في المعارف ١٤٧ : « ومن موالى آل الحشخاش فيروز ، أعظم مولى  
بالعراق قدراً . وقد ولي الولايات وخرج مع ابن الأشعث ، فقال الحجاج : من  
جاءني برأس فيروز فله عشرة آلاف درهم ! فقال فيروز : من جاءني برأس الحجاج  
فله مائة ألف درهم ! فلما هزم ابن الأشعث هرب إلى خراسان فأخذه يزيد بن المهلب  
فبعث به إلى الحجاج » . وقد نكل به الحجاج تشكيلا وقتله .

(٢) في الأصل : « السمرى » ، صوابه من البيان ١ : ١٦ حيث ذكر أبو  
« أبو حفص عمر بن أبي عثمان السمرى » .

(٣) هو خالد بن الحارث بن عبيد بن سليمان الهجيمي البصري ، كان من  
عقلاء الناس ودهاتهم ، وكان يقال له « خالد الصدق » . ولد سنة ١٢٠ وتوفي  
سنة ١٨٦ . ذكره في البيان ٢ : ٢٢١ .

(٤) هو صاحب الرسالة التي رواها الجاحظ في البخلاء ١٤١ - ١٥٣ وعقب  
عليها بذكر رد ابن التوأم عليها . وانظر أخبار أبي نواس لابن منظور ١٨٤  
حيث ذكر أباه وإخوته ، ومنهم عبد المجيد الثقفي صاحب ابن مناذر الذي  
رثاه بقوله :

إن عبد المجيد يوم تولى هـد ركننا ما كان بالمهدود

ولا أدري أهو أبو عثمان سعيد بن وهب الشاعر<sup>(١)</sup> ، أم أبو عثمان عمرو الأعور الخاركي<sup>(٢)</sup> .

ولا أدري أهو أبو عثمان الحكم بن صخر الثقفي<sup>(٣)</sup> ، أم أبو عثمان عمرو بن بكر المازني .

ولا أدري أهو أبو عثمان الأعور النحوي<sup>(٤)</sup> ، أم أبو عثمان عمرو ابن بحر الجاحظ .

والذي لا أشك فيه أنه لم يقرضها أبو عثمان عمرو بن حَزْرَة ، ولا أبو عثمان عمرو المخلخل ، ولا أبو عثمان إبراهيم بن يزيد المتطَّيب ، ولا أبو عثمان سعيد بن حيان البزاز .

وقد بلغني عن أبي عثمان هذا الجُمُولِ موضعه ، المفعور نسبه ، أنه قال :  
ما راكبُ الأسد الأسود ، والبحر الأخضر ، والمصبور على السَّيف الحسام<sup>(٥)</sup> ،

(١) ذكره الجاحظ في البيان ٣ : ١٦٢ - ١٦٣ وترجم له ابن العز في طبقات الشعراء ٢٤٧ - ٢٦١ . وكان شاعراً ماجناً ، وله خبر مع هارون الرشيد . وانظر الأغاني ٢١ : ١٠٤ وتاريخ بغداد ٩ : ٧٣ .

(٢) ترجم له المرزباني في معجمه ٢١٩ وقال : « أزدي بصرى أصله من خارك : قرية بفارس على البحر ، ماجن خبيث ، كان على عهد المخلخل الوراق » . وخارك ، بفتح الراء كما في معجم البلدان ، قال ياقوت : « منهم الخاركي الشاعر ، في أيام المأمون أو ما يقاربها .

(٣) ذكره أبو الفرج في الأغاني ١٧ : ١٢١ في رواية للعتبي عنه . والعتبي ، هو محمد بن عبد الله العتبي الأخباري المتوفى سنة ٢٢٨ .

(٤) ذكره الجاحظ في البخلا ، ١٨٠ .

(٥) صبر على القتل صبراً : حبس حتى يقتل .

بأحقَّ بجهد البلاء وشماتة الأعداء ، ممن تعرَّضَ للمتصفِّحين<sup>(١)</sup> ، وتحكَّك  
بالعيَّابين ، وحكَّم في عرض الحسدة المفتابين .

فإن سَلِمَ فبحسُنِ النِّية ، ولأنه مَدَحَ كريماً ، ووصفَ حليماً . والكريم  
صفوح ، والحليم متغافل . وإن ابتليَ فبذنبٍ ، وما عفا اللهُ عنه أكبر .  
وقال : اللهمَّ اجعلْ هذا القولَ حسناً في عينه ، خفيفاً على سمعه ، وألهمه  
حُسْنَ الظنِّ به ، وبَسْطَ العُذرِ له ، إنَّكَ سميعُ الدعاء ، رحيمٌ بالضعفاء .  
والقصيدة هي قوله :

أقامَ بدارِ الخلفِ راضٍ بحظِّهِ  
وذو الحرصِ يسرى حين لا أحدٌ يسرى  
يظنُّ الرِّضا بالقسمِ شيئاً مهوَّناً  
ودون الرضا كاسُ امرئٍ من الصِّبرِ  
جَزِعْتُ فلم أعْتَبْ فلو كنتُ ذا حِجَا  
لَقَنَنْتُ نَفْسِي بِالْقَلِيلِ من الوَفْرِ  
أظنُّ غيَّ القومِ أرغَدَ عيشَةً  
وأجذَلَ في حالِ اليَسَّارةِ والعُسْرِ  
تمرُّ به الأحداثُ تُرْعِدُ مَرَّةً  
وتُبْرِقُ أخرى بالخطوبِ وما يدرى  
سواء على الأيامِ صاحبُ حُنْكَرٍ  
وآخرُ كابٍ لا يَرِيشُ ولا يَهْرى

(١) المتصفِّح : التأمل المتعرف .

فلو شاء ربِّي لم أكن ذا حفيظة  
 طَلوباً لـ\_\_\_\_\_ايات المكارم والفخر  
 خضعتُ لبعض القوم أرجو نواله  
 وقد كنتُ لا أعطي الدنية بالقسر  
 فلما رأيت الرءى يـ\_\_\_\_\_بشره  
 ويجعلُ حُسن البشر واقية الثبر<sup>(١)</sup>  
 ربعتُ على ظلعي وراجعتُ منزلي  
 فصرتُ حليفاً للدراسة والفكر<sup>(٢)</sup>  
 وشاورت إخواني فقال حكيمهم  
 عليك الفتي المرئى ذا الخلق الغمر  
 فتى لم يقف في الدهر موقف ظنية  
 فيحتاج فيه للتنصل والعذر  
 أعيتُك بالرحمن من قولٍ شامت  
 أبو الفرج المأمول يزهد في عمرو  
 ولو كان فيه راغباً لرأيتَه  
 كما كان دهرأ في الرخاء وفي اليسر  
 أترغى - فدتك اليومَ نفسي وأسرني -  
 بتأخير أرزاق وأنت تلى أمرى

١١٩ ظ

(١) أى يجعل بشره بدلا من بذله وعطائه .

(٢) ربيع على ظلمه : توقف وانتظر . والظلم : بالفتح : العرج أو شبيه به .



ألا يافتى الكتاب والعسكر الذي      تآزر بالحسنى وأبد بالنصر  
 أخاف عليك العين أو نفس وامي      وذو الوُد منخوب الفؤاد من الذعر  
 وعهدى به والله يرشد أمره      ويحفظه في القاطنين وفي السفر  
 مُطِلاً على التدبير ما يستفره      مكابذ محال عقاربته تسري  
 برأي يزبل الطود من مستقره      وأوضح عند الخصم من وضح الفجر  
 وعزيم كغرب المشرق مصمم      وقلب ربيط الجأش منتلج الصدر  
 فيما ابن نجاح أنجح الله سعيكم      وأيدكم بالنصر والعدد الدثر<sup>(١)</sup>  
 قعدت فلم أطلب وجلت فلم أصب      خيلاً يواسيني ويرغب في شكري  
 وإن أخفقت كفى وقد علقنكم      فقد قال رأبي واستنمت إلى شعري<sup>(٢)</sup>  
 أعيدك بالرحن أن تسمت المدي      فللفقر خير من شماتة ذي الغدير<sup>(٣)</sup>  
 فإن ترع وُدّي بالقبول فأهله      ولا يعرف الأقدار غير ذوى القدر  
 وحسبك بي إن شئت ودّاً وخلة      وحسبك بي يوم النزاهة والعبر  
 ألا رب شكر دائر الرسم دارس      وشكر كنفس الحيرية في الصخر  
 قال أبو عثمان المجهول : إذا كان الممدوح ظاهراً الحامس كثير المناقب  
 فلم يُجد الشاعر كان ألوم .

(١) الدثر : الكثير .

(٢) استنام إليه : أنس به واطمأن إليه . وفي الأصل : « واستنمت »  
 وإزاءها في هامش الأصل الحرف « ظ » وتحت الحرف « ن » معناه الظاهر  
 أسما « استنمت » .

(٣) الغمر بالكسر وبالتعريب أيضاً : الحقد والغل .

ونعوذ بالله أن يكون فيكم ما يستدعى الألفاظ الشريفة والمعاني النفيسة ،  
ويكون التقصير مني .

وكيفما تصرفت بي الحال فإني لم أخرج من جهد المجتهدين الراغبين  
المخلصين . فإن وقعت هذه القصيدة والتي قدّمتها قبلها بالموافقة فالحمد لله . وإن  
خالفت فستغفر الله . وإن شيعتم ضعفها بقوة كرمكم<sup>(١)</sup> ، وقوّتم أودها  
بفضل حلمكم ، كان في ذلك بلاغ لما أمّلنا . والله الموفق .

\* \* \*

تمت الرسالة بعون الله وتوفيقه ، والله الموفق للصواب برحمته  
والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله الطيبين الطاهرين  
وسلامه .

---

(١) شيعه تشيعاً : قواه .

٩

كِتَابُ

فَصِيلُ مَا بَيْنَ الْعَدَاوَةِ وَالْحَسَدِ



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وهذه هي الرسالة التاسعة من رسائل الجاحظ ، ومُعنوانها :

« فصل ما بين العداوة والحسد » ، أى فرق ما بينهما .

وقد سجل الجاحظ في صدر هذه الرسالة أن هذه الرسالة مسبقة بكتاب فضل الوعد ، وأن فضل الوعد مسبوق بكتاب أخلاق الوزراء .

أما الأول منهما فقد أشار إليه الجاحظ في مقدمة الحيوان ١ : ٩ . وأما الثانى منهما فلم أجده ذكرًا .

ويبدو أنه ألف هذه الرسالة لأبي الحسن عبيد الله بن يحيى بن خاقان ، وزير للتوكل ثم المتمد ، كما تدل عليه أواخر هذه الرسالة في شعر الجاحظ وتعليقه على شعره ذلك .

وانظر لترجمة عبيد الله هذا تاريخ الطبرى ١١ : ٤٤ ومروج الذهب ٤ : ١١٩ والتنبية والإشراف للسعودى ٣١٤ وإعتاب الكتاب لابن الأبار ١٥٩ — ١٦٣ والوزراء والكتاب للجهشياري ٢٥٤ والفخرى لابن طباطبا ٢١٦ ، ٢٢٨ .

وقد اعتمدت في إخراج هذه الرسالة على نسخة الأصل في مجموعة مكتبة داماد ، وهي النسخة الوحيدة التى نشر عنها الأستاذان الدكتور طه الحاجرى ، والمستشرق باول كراوس نسختها التى أشرت إليها بالرمز « ط » .

ومما يجدر ذكره أن للجاحظ رسالة أخرى في موضوع مماثل لهذا ، هي « رسالة الحاسد والحسود » . وليست في مجموعتنا هذه ، فوعدها في النشر والتحقيق بعد الفراغ من نشر هذه المجموعة بعون الله وتوفيقه إن شاء .



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) أَحْصَى اللَّهُ مَدَّتِكَ السَّعَادَةَ وَالسَّلَامَةَ ، وَقَرَنَهَا بِالْعَافِيَةِ وَالشُّرُورَ ،  
وَوَصَّلَهَا بِالنِّعْمَةِ الَّتِي لَا تَزُولُ ، وَالسَّكْرَامَةِ الَّتِي لَا تَحُولُ .

هَذَا كِتَابٌ - أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَكَ - نَبِيلٌ بَارِعٌ ، فَصِّلَ فِيهِ بَيْنَ الْحَسَدِ  
وَالْعَدَاوَةِ ، وَلَمْ يَسْبِقْنِي إِلَيْهِ أَحَدٌ وَلَا إِلَى كِتَابِ فَضْلِ الْوَعْدِ الَّذِي تَقَدَّمَ هَذَا  
الْكِتَابُ ، وَلَا إِلَى كِتَابِ أَخْلَاقِ الْوُزَرَاءِ الَّذِي تَقَدَّمَ كِتَابُ فَضْلِ الْوَعْدِ .

وَإِنَّمَا نُبَلَّتْ هَذِهِ الْكُتُبُ وَحَسُنَتْ وَبَرَّعَتْ ، وَبَدَّتْ غَيْرَهَا ؛ لِمَشَاكَلَتِهَا  
شَرَفَ الْأَشْرَافِ ، بِمَا فِيهَا مِنَ الْأَخْبَارِ الْأَنِيقَةِ الْغَرِيبَةِ ، وَالْآثَارِ الْحَسَنَةِ اللَّطِيفَةِ ،  
وَالْأَحَادِيثِ الْبَاعِثَةِ عَلَى الْأَخْلَاقِ الْمَحْمُودَةِ ، وَالْمَكَارِمِ الْبَاقِيَةِ الْمَأْثُورَةِ ، مَعَ  
مَا تَضَمَّنَتْهُ (٢) مِنْ سِيَرِ الْمُلُوكِ وَالْخُلَفَاءِ وَوُزَرَائِهِمْ وَأَتْبَاعِهِمْ ، وَمَا جَرَتْ  
عَلَيْهِ أَحْوَالُهُمْ .

فَأَنَا أَسْأَلُكَ بِسَاطِعِ كَرَمِكَ وَنَاصِعِ فَضْلِكَ ، لَمَّا (٣) امْتَنَنْتَ عَلَيَّ بِصَرْفِ  
عَنَابَتِكَ إِلَى قِرَائَتِهَا . فَإِنْ لَمْ يُمْكِنَكَ تَبَخُّرُهَا وَالتَّقَصُّيُ لَجْمِيعِهَا ، لِلْأَشْغَالِ الَّتِي

(١) صدرت هذه الرسالة بعبارة ليست من أسلوب الجاحظ ، ونصها :  
« الحمد لله رب العالمين كما هو أهله ، وصلى الله على محمد خاتم النبيين كما أمر به ،  
وعلى آل محمد كما سنه محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم كثيراً » .

(٢) في الأصل : « ما تضمنتها » .

(٣) ١ - هنا ، بمعنى إلا ، كما في التزويل العزيز : « إن كل نفس لما عليها

حافظ » .

تَعْرُوكَ ، فَبِحَسْبِكَ<sup>(١)</sup> أَنْ تَقِفَ عَلَى حُدُودِهَا ، وَتَتَعَرَّفَ مَعَانِيَ أَبْوَابِهَا بِتَصَفُّحِ  
أَوَائِلِهَا ؛ فَإِنَّ مَعَكَ قَلْبًا بِهِ مِنَ الْيَقِظَةِ وَالذِّكَاءِ ، وَالتَّوَقُّدِ وَالْحَفِظِ ، مَا يَكْفِي  
مَعَهُ النَّظَرَ الْخَاطِفَ<sup>(٢)</sup> .

إِنَّهُ لَمْ يَخْلُ زَمَنٌ مِنَ الْأَزْمَانِ فِيمَا مَضَى مِنَ الْقُرُونِ الذَّاهِبَةِ إِلَّا وَفِيهِ عُلَمَاءُ  
مُحَقِّقُونَ ، قَدْ قَرَأُوا كُتُبَ مَنْ تَقَدَّمَهُمْ ، وَدَارَسُوا أَهْلَهَا ، وَمَارَسُوا [ الْمَوَافِقِينَ<sup>(٣)</sup> ]  
لَهُمْ ، وَعَانُوا<sup>(٤)</sup> الْمُخَالَفِينَ عَلَيْهِمْ ، فَمَخَّضُوا الْحِكْمَةَ وَعَجَمُوا عِيدَانَهَا ، وَوَقَفُوا  
عَلَى حُدُودِ الْعُلُومِ ، فَحَفَظُوا الْأُمَمَاتِ وَالْأَصُولَ ، وَعَرَفُوا الشَّرَائِعَ وَالْفُرُوعَ ،  
فَفَرَّقُوا مَا بَيْنَ الْأَشْبَاهِ وَالنَّظَائِرِ ، وَصَاقَبُوا بَيْنَ الْأَشْكَالِ وَالْأَجْنَاسِ ،  
وَوَصَلُوا بَيْنَ الْمُتَجَاوِرِ وَالْمُتَوَازِي<sup>(٥)</sup> ، وَاسْتَنْبَطُوا الْغَامِضَ الْبَاطِنَ بِالظَّاهِرِ الْبَيِّنِ ،  
وَاسْتَظْهَرُوا عَلَى الْخَفِيِّ الْمَشْكَلَ بِالْمَكْشُوفِ الْمَعْرُوفِ ، وَعُرِفُوا بِالْفَهْمِ الثَّاقِبِ  
وَالْعِلْمِ النَّاصِعِ ، وَقَضَتْ لَهُمُ الْمِجْنَةُ بِالذِّكَاءِ وَالْفِطْنَةِ ، فَوَضَعُوا الْكُتُبَ فِي  
صُرُوبِ الْعُلُومِ وَفَنُونِ الْأَدَابِ لِأَهْلِ زَمَانِهِمْ ، وَالْأَخْلَافِ مِنْ بَعْدِهِمْ .  
يَزْدَلِفُونَ بِذَلِكَ إِلَى الْمَتْنِ عَلَيْهِمْ بِفَضْلِ الْمَعْرِفَةِ الَّتِي رَكَّبَهَا اللَّهُ فِيهِمْ ، وَأَبَانِهِمْ  
مِنْ غَيْرِهِمْ ، وَفَضْلِهِمْ عَلَيْهِمْ ، وَيَبَاهُونَ بِهِ الْأُمَمَ الْمُخَالَفَةَ لَهُمْ ، وَيَتَبَارُونَ بِذَلِكَ  
فِيمَا بَيْنَهُمْ . وَلَهُمْ حُسَادٌ مُعَارِضُونَ مِنْ أَهْلِ زَمَانِهِمْ فِي تِلْكَ الْعُلُومِ وَالْكَتُبِ ،

١٢١ و

(١) فِي الْأَصْلِ : « وَبِنَفْسِكَ » .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « نَظَرَ الْخَاطِفِ » .

(٣) مَوْضِعُهَا بَيَاضٌ فِي الْأَصْلِ .

(٤) مِنَ الْعَانَاةِ . وَفِي الْأَصْلِ : « وَعَابُوا » .

(٥) فِي الْأَصْلِ : « بَيْنَ الْمُتَجَاوِزِ وَالْمُتَوَازِي » .



منتحلة يدعون مثل دعاويهم ، قد وسموا أنفسهم بسمات الباطل<sup>(١)</sup> ،  
وتسموا<sup>(٢)</sup> بأسماء العلم على المجاز من غير حقيقة ، ولبسوا لباس الزور  
متزخرين متشبعين بما لا محصول له<sup>(٣)</sup> . يحتذون أمثلة المحققين في زيهم  
وهديهم ، ويقتفون آثارهم في ألفاظهم وأحاديثهم ، وحركاتهم وإشاراتهم ،  
لئیسبوا إليهم ويحلوا محلهم ، فاستلوا بهذه الحيلة قلوب ضعفاء العامة ،  
وجاهلاء الملوك ، واتخذهم<sup>(٤)</sup> المادون للعلماء المحققين عُدَّةً يستظهرون بهم  
عند العامة . وحمل المدعية للعلم الزور الحسد على بهت العلماء المحققين ،  
وعرضهم والطعن عليهم<sup>(٥)</sup> ، وجرائم على ذلك ما رأوا من صفو ضعفة  
القلوب وإذلة الناس إليهم<sup>(٦)</sup> ، وميل جاهلاء الملوك معهم عليهم ، وأملوا  
أن ينالوا بذلك بشاشة العامة ، وتستوى لهم الرئاسة على طغام الناس  
ورعاعهم ، ويستغلوا رعاتهم<sup>(٧)</sup> وقومهم ، فهمروا وهدرروا<sup>(٨)</sup> وتوردوا

---

(١) أي بسمات غير حقيقة .

(٢) في الأصل : « وسموا » .

(٣) تشبع : تزين بما ليس عنده . وفي الحديث : « المتشبع بما لا يملك كلابس ثوبي زور » .

(٤) في الأصل : « وانجدم » .

(٥) العرض : أن يقول فيه ما لم يكن ؛ إفكا وبهتاناً .

(٦) الصفو : الميل . وفي الأصل : « منه رأوا من صفو » .

(٧) في الأصل : « رعاعهم » .

(٨) الهمر : الدمدمة بفضب . وجعلت في ط : « فهمزوا » .

على أهل العلم بغيابوتهم<sup>(١)</sup> ، وكشفوا أغطية الجهل عن أنفسهم ، وهتكوا  
سترًا كان مُسدلاً عليهم بالصمت . فقد قيل : « الصمت زين العالم ، وسير  
الجاهل » ؛ طمعاً في الرياسة وحباً لها . وقد قيل :

حبُّ الرياسة داءٌ لا دواء له      وقلما تجدُ الراضين بالقسم  
ولم يخل زمنٌ من الأزمنة من هذه الطبقة ولا يخلو . وهلاك من هلك  
من الأمم فيما سلف بحبِّ الرياسة . وكذلك من يهلك إلى انقضاء الدهر  
فبحبِّ الرياسة .

١٢١ ظ      وقد قيل : هلاك الناس منذ كانوا إلى أن تأتي الساعة بحبِّ الأمر  
والنهي ، وحبِّ السَّمع والطاعة .

فأشكل على العامة أمرُ العالم الحقيقي والمدعى المجارى المنتحل للزُّور  
والباطل ؛ ثم ترادفَ عليهم من هذه العلل التي يعمى لها السبيل الواضح  
والطَّرِيق للنشأ<sup>(٢)</sup> ، على الجاهل المستضعف ؛ وذى الغباء المسترهف<sup>(٣)</sup> .

ولست آمنُ - جعلني الله فداك - أن تكون هذه الكتب التي أعنى  
بتأليفها ، وأتأنق في ترصيفها ، يتولَّى عرضها عليك من قد ليس لباسَ  
الزُّور في انتحال وضع مثلها ، ونسبَ نفسه إلى القوَّة على نظائرها ، والمعرفة  
بما يقاربها ، إن لم يكن أخاها فابنَ عمِّها ، وتشبَّع بما لم يُطعمه الله منها .

(١) من قولهم : توردت الخيل البلدة ، إذا دخلتها قليلاً قليلاً قطعة قطعة .  
وفي الأصل : « توددوا » .

(٢) في الأصل : « المتنا » .

(٣) من الرهيف ، وهو الرقيق اللطيف . وفي الأصل : « وذى الغنا » ،  
ووجه ما أثبت .

ولعلَّ بعضَ من حَوَّله<sup>(١)</sup> ، أو بعضَ من يهزل به ، ويرتفع في عقله ويلاهو بلبَّه ، ويضعه على طَبْطَابَةِ اللَّعِبِ<sup>(٢)</sup> ، وفي أرجوحة العُبثِ ، يوهمه<sup>(٣)</sup> الحسدَ له على ما يدَّعى من ذلك ، ويتقدَّم إلى آخرين في إيهامهم إياه ذلك ، فيزيده فعاثهم ضراوةً بادِّعاء ما ليس معه وهو منه عارٍ . فإذا رجع إلى الحقائق علم أن مثله كما قد قيل :

وَمَنْ يَسْكُنِ الْبَحْرَيْنِ بِعَظْمٍ طِحَالُهُ

وَيُغْبَطُ بِمَا فِي الْبَطْنِ وَالْبَطْنُ جَائِعٌ<sup>(٤)</sup>

وقد قيل : « الذئب يُغْبَطُ وهو جائع » . فيلتوى في قراءتها ، ويقبض لسانه عن بَسَطِ ما يحتاج أن ينشره منها ، ويقصِّر في تفخيم حروفها ولا يملأ فمه منها .

بل لا آمن أن يتجاوز ذلك إلى الطَّعن عليها بقول أو إشارة ، فيوهم فسادَ معانيها ويؤمى إلى سقوط ألفاظها ، من غير أن يُظهر المعادة لها ، والحسدَ لمؤلَّفها ، والحمل عليها بقول يكون دليلاً على ما يضر ، وهو أبلغ ما يكون من قلب المستمع وأنجعُه فيه<sup>(٥)</sup> ، فيقع ذلك بخَلْدِهِ . وقد قيل :

« مَنْ يَسْمَعُ يَخْلُ » .

(١) في الأصل : « ما خوله » .

(٢) الطَّبْطَابَةُ : خشبة عريضة يلعب بها بالكرة . وفي الأصل : « طبطاب » .

(٣) في الأصل : « فيوهمه » .

(٤) البيت في الحيوان ٤ : ١٣٩ والشعر والشعراء ٧٣١ وأمثال الديداني ١ : ٢٥٥ .

(٥) في الأصل : « وأنجعه » .

وليس يقابله أحدٌ بَرَدٍ<sup>(١)</sup> ، ولا يوازيه بنزاع ، فيزداد نشاطاً عندما يرى من خلاء الأمر . وقد قيل : « كلُّ مُجَرِّدٍ في الخلاء يُسَرُّ<sup>(٢)</sup> » وكلُّ مناظر متفرِّدٍ بالنظر مسرور ، وإنَّما يُعرَفُ جَرِّى الخليل عند المسابقة ، وبراعة النظر عند المحاصمة .

وقال لى بشرٍ المريسي<sup>(٣)</sup> : عُرض كتابى على المأمون فى تحليل النِّبِذِ ، وبحضرتة محمد بن أبى العباس الطُّوسى ، فانبرى للطَّمن عليه والمعارضة للحُجج التى فيه ، وأسهبَ فى ذلك وخطب ، وأكثر وأطنب ، فقلقَ المأمونُ واحتدم ، وهاج واضطرم ؛ لاستحقار الطُّوسى<sup>(٤)</sup> وخلاء المجلس له ، وكان

١٢٢ و

(١) فى الأصل : « بود » .

(٢) فى الأصل : « يسبق » ، صوابه من الحيوان ١ : ٨٨ و ٤ : ٢٠٧ واليدانى ٢ : ٧٣ وأمالى القالى ٢ : ٨٩ . ويروى أيضاً « مسر » كما فى البيان ١ : ٢٠٣ . وأصله أن الرجل يجرى فرسه فى المكان لا مسابق له فيه ، فهو مسرور بما يرى من فرسه . يضرب للرجل تكون فيه الحيلة يحمدها من نفسه ولا يشعر بما فى الناس من الفضائل .

(٣) هو أبو عبد الرحمن بشر بن غياث بن أبى كريمة المريسي ، نسبة إلى مريس أو مريسة . ومريس : قرية بمصر ، اختلف فى ضبطها بفتح الميم وكسر الراء مخففة أو مثقلة ، أما مريسة فقد ضبطها صاحب القاموس كسكينة بكسر الميم وبتشديد الراء . كان أحد دعاة الجهمية ، وأبوه كان يهودياً قصاراً صابغاً . وإليه تنسب فرقة المريسية . توفى سنة ٢١٨ . تاريخ بغداد ٣٥١٦ والسمعاني ٥٢٣ ولسان الميزان ٢ : ٢٩ - ٣١ .

(٤) الاستحقار : الاحتقار والاستعغار .

يحبُّ أن يَزَعَهُ وازعَّ يكفُّه بحجة تُسكته ، فلما لم ير أحداً بحضرته يذبُّ  
عن كتابي قال متمثلاً :

يالكِ من قُبْرَةٍ بِمَعْمَرٍ خِلالِكَ الجَوْ فَيَبْضِي وَاَصْفَرِي  
وَنَقْرِي مَا شِئْتُ أَنْ تَنْقَرِي<sup>(١)</sup>

فما كان إلا ريثَ فراغِهِ من التمثيل بهذه الأبيات حتى استؤذن لي  
فدخلتُ عليه ، فقال : يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، مَا تَقُولُ فِي النَّبِيذِ ؟ قُلْتَ : حِلٌّ طَلَقُ  
يَأْمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ . فقال : فما تقول فيما أسكر كثيره ؟ قلت : لَمَنْ اللهُ قَلِيلُهُ  
إِذَا لَمْ يَسْكُرْ [ إِلَّا<sup>(٢)</sup> ] كثيره . ثم قال : إِنَّ مُحَمَّدًا يَخَالِفُكَ . فَأَقْبَلْتُ عَلَى  
ابْنِ أَبِي الْعَبَّاسِ فَقُلْتُ لَهُ : مَا تَقُولُ فِيمَا قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ؟ قَالَ : لَا خِلَافَ  
بَيْنِي وَبَيْنَكَ . كَلَامًا يَوْمَ بِهِ أَهْلُ الْجُلُوسِ ، حُبًّا لِلتَّسْلُمِ مِنِّي وَالتَّخَافِ مِنْ  
مَنَاطِرَتِي ، لَا عَلَى حَقِيقَةِ التَّحْلِيلِ لَهُ . فَاسْتَفْنَمْتُ ذَلِكَ مِنْهُ وَقُلْتُ لَهُ : فَمَا لِي  
لَا أَرَى أَثَرَ قَوَاهِ فِي عَقْلِكَ ؟ فَضَحِكَ الْمَأْمُونُ ، فَلَمَّا رَأَيْتُ ضَحْكَهُ أَطْنَبْتُ  
فِي مَعَانِي تَحْلِيلِ النَّبِيذِ ، وَابْنُ أَبِي الْعَبَّاسِ سَاكِتٌ لَا يَنْطِقُ ، وَكَانَ قَبْلَ دُخُولِي  
نَاطِقًا لَا يَسْكُتُ . فَلَمَّا رَأَى الْمَأْمُونُ سَكُوتَهُ عِنْدَ حُضُورِي مَعَ كَثْرَةِ كَلَامِهِ  
فِي ثَلَاثِ كِتَابِي وَعِيبِهِ - كَانَ - قَبْلَ دُخُولِي ، قَالَ مَتَمَثَّلًا :

مَا لَكَ لَا تَنْبَحُ يَا كَلْبَ الدَّوْمِ قَدْ كُنْتَ تَبَاحًا فَمَا لَكَ الْيَوْمَ<sup>(٣)</sup>

(١) الرجز لطرفة ، قاله وهو صغير يصطاد القبر ، وهو ضرب من الطير .  
وقال ابن بري : هو السكيب بن ربيعة التغلبي وليس لطرفة . اللسان ( قبر ) .  
وذكر ابن قتيبة في الشعراء ١٤٠ أنه أول شعر قاله طرفة . وانظر الحيوان ٣ : ٦٦

(٢) ليست بالأصل .

(٣) أنشده في الحيوان ٢ : ٧٥ .

ثم نظرَ إلىَّ فقال : إنَّ الكتبَ عقولُ قومٍ وراءها عندهم حججٌ لها ،  
فما ينبغي أن يُقضى على كتابٍ إلَّا إذا كان له دافع عنه ، وخَصْمٌ يبين عَما فيه ؛  
فإنَّ أبناءَ النعمِ وأولادَ الأسدِّ محسودون .

ثم قال : يا أبا عبد الرحمن ، يازاء كل حاسد راهن .

وقد قيل في مثلٍ من الأمثال : « الحسن<sup>(١)</sup> محسود » . وفي مثل  
١٢٢ ظ آخر : « لن تعدَّ الحسنةَ ذامًا<sup>(٢)</sup> » . وقال الأحنف بن قيس :

ولن تصادف مرعى ممرعًا أبدًا    إلَّا وجدت به آثار ما كُول<sup>(٣)</sup>  
يقول : يُعَاثُ<sup>(٤)</sup> في كلِّ [ مرعى<sup>(٥)</sup> ] حَسَنٍ وبؤكل منه ، فيعييه ذلك .  
وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « ما أحدث الله بعددِ نعمةٍ  
إلَّا وجدت له عليها حاسدًا . ولو أنَّ امرأً كان أقومَ من القِدْحِ لوجدتَ  
له غامزًا<sup>(٦)</sup> » .

(١) في الأصل : « الحسد » .

(٢) الذام ، بتخفيف الميم : العيب . ومثله القديم . وضبطت في ط بتشديد  
الميم سهوا .

(٣) وكذا في أصل عيون الأخبار ٤ : ٩ . لكن في أدب الدنيا والدين ١٣٥  
« آثار منتجع » . والبيت فيه بدون نسبة .

(٤) في الأصل : « يقال يعاب » .

(٥) تكملة يقتضها القول .

(٦) القدح ، بالكسر : السهم .

وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : الحاسد لا يملك إلا عنان حسده ؛ لأنه مغلوبٌ على نفسه .

وقال الخطّاب بن نمير السّعدى : الحاسد مجنون ؛ لأنه يحسد الحسن والقيبح .

وقال المهلب بن أبى صفرة : الحسد شهابٌ لا يبالي من أصاب ، وعلى من وقع .

والعداوة لها عقل تسوس به نفسها فينجّم قرنُها ، وتبْدَى صفحتها في أوقات الهِتر . وإلا فإنها كامنَةٌ تنتهز أزمنة الفرص . والحسد مسلوب المعقول بإزاء الضمير في كلِّ حينٍ وزمانٍ ووقت .

ومن لؤم الحسد أنه مَوَكَّل بالأذى فالأذى ، والأخصُّ فالأخص . والعداوة وإن كانت تقبّح الحسن فهي دون الحسد ؛ لأنَّ العدوَّ المبين قد يحُول وليًّا منافقًا ، كما يحُول المولى المنافق عدوًّا مبينًا .

والحاسد لا يزول عن طريقته إلا بزوال المحسود عليه عنده . والعداوة تَحْدُثُ لَعْلَةً<sup>(١)</sup> ، فإذا زالت العلة زالت معها . والحسد تركيب لعله يحسد عليه<sup>(٢)</sup> فهو لا يزول إلا بزواله . ومن هذا قال معاوية رحمه الله : يمكننى أن أَرْضَى الناس كلَّهم إلا حاسدَ نعمة ، فإنه لا يرضيه منها إلا زوالها .

وأعداء النعمة إذا شوركوا فيها ونالوا منها ترحزحوا عن عداوتها ، وكانوا من أهلها المحامين عنها ، والدافعين عنها .

(١) في الأصل : « العلة » .

(٢) كذا في الأصل .

ومن هذا قال المفيرة بن شعبة : النعمة التي يُعاش فيها نعمةٌ محروسة ليس عليها ثائر يفتالها ، ولا ذو حسد يَحْتال في غيرها .

وقال قتيبة بن مسلم : خير الخير وأحصنه خير عيش فيه . وكل خير كان يَرْضَخُ<sup>(١)</sup> بذلاً كان من المتالف ممنوعاً ، ومن الغير آماناً .

وحُسَادُ النعمة إن أُعطوا منها وتَبَحَّحُوا فيها ، ازدادوا عليها غِيظاً وبها إغراء .

والعداوة تُخْلِقُ وتُكَلِّمُ ، والحسد غَضٌّ جديد ، حُرِمَ أو أُعْطِيَ<sup>(٢)</sup> ، لا يبيد . فكل حاسدٍ عدوٌّ ، وليس كل عدوٍّ بحاسد . وإنما حمل اليهود على الكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم — وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم أنه نبيٌّ صادق ورسولٌ مُحَقَّقٌ ، يقرءون بعثته في توراتهم ، ويتدارسونه في بيت مدراسهم<sup>(٣)</sup> — الحسدُ ، وحجز بين علمائهم والإيمان به ، ثم نتج لهم الحسدُ عداوته .

ومن الدليل على أن الحسدَ آلم وآذى وأوجعُ وأَوْضَعُ من العداوة ، أنه مُغَرِّى بفعل الله عزَّ وجلَّ ، والعداوة عارية من ذلك لا تتصل إذا اتصلت إلا بأفعال العباد . ولا يُعَادَى على فعل الله تباركت أسماؤه . ألا ترى أنك لم تسمع أحداً عادى أحداً لأنه حسن الصورة جميلُ الحاسن ، فصيح

(١) رَضَخَ له من ماله رضا : أعطاه . والبذل : السخاء . وفي الأصل : « يوضح بذلاً » .

(٢) في الأصل : « إذا عطى » .

(٣) المدراس : الموضع الذي يدرس فيه . وفي الأصل : « مدارسهم » .



اللسان حسن البيان . وقد رأيت حاسداً هذه الطبقة وسمعت به ، وهم كثير تعرفهم بالخبر والمشاهدة .

فهذا دليل على أن الحسد لا يكون إلا عن فساد الطبع ، واعوجاج التركيب ، واضطراب الشؤس<sup>(١)</sup> .

والحسد أخو الكذب ، يجريان في مضمار واحد ؛ فهما أليفان لا يفترقان ، وضجيعان لا يتباينان . والعداوة قد تخلو من الكذب ؛ ألا ترى أن أولياء الله قد عادوا أعداء الله إذ لم يستحلوا أن يكذبوا عليهم ؟ ! والحسد لا يبرأ من البُهت ، وكيف يبرأ منه وهو عموده الذي عليه يعتمد ، وأساسه الذي به البناء يُعقد . وأنشد :

كضرائر الحسناء قلن لوجهها كذباً وزوراً إنه لدميم<sup>(٢)</sup>  
والحسد نارٌ وقوده الروح ، لا تبوخ أبداً أو يفنى الوقود<sup>(٣)</sup> . والحسد لا يبلى إلا ببلى المحسود أو الحاسد . والعداوة جمر يؤقده الغضب ، وبطفئه الرضا ، فهو مؤمل الرجوع مرجو الإنابة<sup>(٤)</sup> . والحسد جوهر والعداوة اكتساب .

وقال بعضهم : الحسد أشئ ، لأنه ذليل ؛ والعداوة ذكرٌ فحل ،  
لأنها عزيزة .

(١) الشؤس : بالضم : الطبع ، والخلق ، والسجية .

(٢) البيت لأبي الأسود الدؤلى . انظر حواشى البيان ٤ : ٦٣ . وفي البيان : « حسداً وبغياً » . والضرائر : جمع ضرة ، بالفتح وهى امرأة الزوج ، جمع نادر .

(٣) فى الأصل : « ويفنى الوقود » .

(٤) الإنابة : الرجوع ، وفى التنزيل العزيز : « منيبين إليه » .

والحسد وإن كان موكلًا بالأدنى فالأدنى فإنه لم يمر منه الأبعد فالأبعد .  
فقد رأينا وشاهدنا من كان يسكن العراق وينتحل العلم والأدب ، انتهى إليه  
خبرُ مشاركٍ له في الصناعة من أهل خراسان وجنبة بلخ<sup>(١)</sup> من اتساق الرياسة  
في بلده ، وجميل حاله ونيل محله عند أهل مصره ، وطاعة العامة له ،  
وترادف الناس عليه ، فطار قلبه فرقا ، وأخذته الأرباه<sup>(٢)</sup> ، وتنفس الصعداء  
وانتفض انتفاض الفيلس المطور<sup>(٣)</sup> ، فقال لي رجل من إخواني كان  
عن يميني ، حين رأى ما رأى منه : بحق قال من قال : « لم ير ظالم أشبه  
بمظلوم من حاسدٍ نعمة ؛ فإن نفسه متصل ، وكربة دائم ، وفكرته  
لاتنام » .

وهو في أهل العلم أكثر ، وعليهم أغلب ، وبهم أشد لصوقاً منه  
بغيرهم من الملوك والشوكة . وكان من ناله التقصير في صناعة العلم عن غايته  
القصوى<sup>(٤)</sup> قد استشعر حسد كل ما يرد عليه من طريف أدب ، أو أنيق  
كلام ، أو بديع معنى . بل قد وقع بخلد له لضعفه ، وقر في روعه لخساسته<sup>(٥)</sup> ،  
أنه لا ينال أحد منهم رياسة في صناعة ، ولا يتهيأ له سياسة أهلها ، إلا بالطعن

(١) في الأصل : « وحه » ، بدون نقط . والجنبة : الناحية . وانظر الحيوان

٤ : ٤٩ .

(٢) الأرباه : جمع ربو ، وهو البهر والنهيج وتواتر النفس .

(٣) هذا عكس ما أنشده في الحيوان ٣ : ٢٢٨ :

وكننت فيهم كمطور يبلدته فسر أن جمع الأوطان والطران

وفي الأصل : « العلس » تحريف .

(٤) في الأصل : « عن غاية القصوى » .

(٥) الخساسة : الحسة والدناءة . وفي الأصل : « لخاسته » .

على نواصيهم<sup>(١)</sup> ، والعيب جَلَّتْهُمْ ، والتَّحْيِيفُ لحقوقهم .

قال لي مسلم بن الوليد الأنصاري الشاعر ، الذي يُعرَفُ بصريح الفوائ<sup>(٢)</sup> : خَيْلٌ إِلَى نَوَكِي الشُّعْرَاءِ أَنَّهُمْ لَا يَقْضِي لَمْ بِجُودَةِ الشُّعْرِ إِلَّا بَهْجَانِي وَالطَّمَنُ فِي شَعْرِي ، وَلِسَانِي يَهْجِي بِهِ عَرْضِي ، لَا أَنْفَكُ مَتَّهًا<sup>(٣)</sup> مِنْ غَيْرِ جُرْمٍ ، إِلَّا مَا سَبَقَ إِلَى قُلُوبِهِمْ مِنْ وَسَاوِسِ الظُّنُونِ وَالْخَوَاطِرِ الَّتِي أَوْهَمَتْهُمْ أَنَّهُ لَا يَسْجَلُ لَمْ بِجُودَةِ الشُّعْرِ إِلَّا إِذَا اسْتَعْمَلُوا فِي مَا خَيْلٌ إِلَيْهِمْ .

وأخبرني أشياخنا من أهل خراسان أَنَّ أَبَا الصَّلَاتِ الْهَرَوِيَّ كَانَ عِنْدَ الْفَضْلِ بْنِ سَهْلٍ ذِي الرِّيَاسَتَيْنِ بِمَرُو ، فَقَرَأَ عَلَيْهِ كِتَابًا أَلْفَهُ النَّضْرُ بْنُ شُمَيْلٍ ، فَطَقَّنَ أَبُو الصَّلَاتِ فِيهِ ، وَكَانَ الْفَضْلُ عَارِفًا بِالنَّضْرِ الشُّمَيْلِيِّ ، وَاقِعًا بِعِلْمِهِ ، مَائِلًا إِلَيْهِ ، فَأَقْبَلَ عَلَى أَبِي الصَّلَاتِ وَقَالَ لَهُ : إِنْ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ قَالَ يَوْمًا : إِنْ كَتَبِي لَتُعَرِّضُ عَلَى مَنْ يَفْظُظُ فَهَمَّهُ عَنْ مَعْرِفَتِهَا ، وَيَجَسُّوْ ذَهْنَهُ عَنْهَا ، وَلَا يَبْلُغُ أَقْصَى عِلْمِهِ مَا فِيهَا<sup>(٤)</sup> — يُعَرِّضُ<sup>(٥)</sup> يَأْسَمَاعِيلُ بْنُ صَبِيحٍ<sup>(٦)</sup> — فَيَطْمَنُ فِيهَا وَلَا يَدْرِي مَا يَقْرَأُ عَلَيْهِ مِنْهَا . إِلَّا أَنْ تَارَ الْحَسَدَ تَلَاهِيهِ قَيْهَذِي

(١) النواصي : جمع ناصية ، وهم الرؤساء والأشراف .

(٢) توفي مسلم بن الوليد سنة ٢٠٨ ، كما في النجوم الزاهرة . ٢ : ١٨٦ . وكان قد اتصل بذِي الرِّيَاسَتَيْنِ الْفَضْلِ بْنِ سَهْلٍ ، فَوَلَّاهُ بَرِيدَ جَرَجَانَ ، وَبِهَامَاتٍ . معجم الرزباني ٣٧٢ .

(٣) في الأصل : « منها » .

(٤) في الأصل : « أمانها » .

(٥) في الأصل : « فعرض » .

(٦) كان إسماعيل بن صبيح كاتباً ليحيى بن خالد البرمكي . الجهمشياري ١٥٠ .

وقلده إبراهيم الخرائي ديوان زمام الشام وما يليها . الجهمشياري ١٦٨ .

هَذَيَانِ الْمَرِيضَ ، وَيَهْمُزُ هَمْزَاتِ الْفَيْرَى <sup>(١)</sup> ، ثُمَّ لَا يَرْضَى أَنْ يَقِفَ عِنْدَ أَوَّلِ  
الطَّعْنِ وَيَمِيلَ عَنْهُ حَتَّى يَسْتَقْصِيَ عَلَى نَفْسِهِ إِظْهَارَ جَهْلِهِ عِنْدَ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ ،  
بِاسْتِعْمَالِهِ الطَّعْنَ عَلَى مَا لَمْ يَبْلُغْ دَرَجَتَهُ ، وَلَمْ يُحِطْ بِهِ عِلْمُهُ ، ثُمَّ يُنْسِيهِ جَهْلُهُ  
الطَّعْنَ الَّذِي تَقَدَّمَ مِنْهُ فِيهَا ، وَيَحْمِلُهُ نَوْكُهُ عَلَى اسْتِعْمَالِ مَعَانِيهَا وَأَلْفَاقِهَا ،  
فِي كِتَابِهِ إِلَى إِخْوَانِهِ وَأَعْوَانِهِ الَّذِينَ شَهِدُوهُ فِي أَوَانِ طَعْنِهِ عَلَيْهَا ، وَحِينَ  
تَلْبَسُهَا .

وَقَدْ عَرَفْتُ حَقِيقَةَ مَا قَالَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ بِالتَّجَرُّبَةِ وَالْإِبْتِلَاءِ . وَإِنِّي رَبَّمَا  
أَلَقْتُ الْكِتَابَ الْحَكَمَ الْمُتَقَنَّ فِي الدِّينِ وَالْفَقْهِ ، وَالرِّسَائِلِ وَالسَّيْرِ ،  
وَالْخَطَبِ وَالْخَرَاجِ وَالْأَحْكَامِ ، وَسَائِرِ فُنُونِ الْحِكْمَةِ ، وَأَنْسَبُهُ إِلَى نَفْسِي ،  
فَيَتَوَاطَأُ عَلَى الطَّعْنِ فِيهِ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ ، بِالْحَسَدِ الْمُرَكَّبِ فِيهِمْ ، وَهُمْ  
يَعْرِفُونَ بَرَاعَتَهُ وَنَصَاعَتَهُ . وَأَكْثَرُ مَا يَكُونُ هَذَا مِنْهُمْ إِذَا كَانَ الْكِتَابُ  
مُؤَلَّفًا لِمَلِكٍ مَعَهُ الْقُدْرَةُ عَلَى التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ ، وَالْحُطُّ وَالرَّفْعُ ، [ وَالتَّرْغِيبُ <sup>(٢)</sup> ]  
وَالتَّرْهِيْبُ ، فَإِنَّهُمْ يَهْتَاجُونَ عِنْدَ ذَلِكَ اهْتِيَاجَ الْإِبْلِ الْمَغْتَلَمَةِ ، فَإِنْ أَمَكْنَتْهُمْ  
حِيلَةٌ فِي إِسْقَاطِ ذَلِكَ الْكِتَابِ عِنْدَ السَّيِّدِ الَّذِي أُلْفَ لَهُ فَهُوَ الَّذِي قَصَدُوهُ  
وَأَرَادُوهُ ، وَإِنْ كَانَ السَّيِّدُ الْمُؤَلَّفُ فِيهِ الْكِتَابُ نَحْرِيرًا نِقَابًا ، وَنَقَرِيْسًا  
بَلِيغًا ، وَحَازِقًا فَطْنًا ، وَأَعْجَزَتْهُمْ الْحِيلَةُ ، سَرَقُوا مَعَانِيَ ذَلِكَ الْكِتَابِ وَأَلْفَوْا  
مِنْ أَعْرَاضِهِ وَحَوَاشِيهِ كِتَابًا ، وَأَهْدَوْهُ إِلَى مَلِكٍ آخَرَ ، وَمَتُّوا إِلَيْهِ بِهِ <sup>(٣)</sup> ، وَهُمْ  
قَدْ ذَمُّوهُ وَتَلَبَّوْهُ لَمَّا رَأَوْهُ مَنْسُوبًا إِلَيْهِ ، وَمَوْسُومًا بِي .

(١) الهمز : العيب . والهماز : العيب . وفي الأصل : « همزان » ، تحريف .

(٢) ليست في الأصل .

(٣) أى توسلوا به إليه . والمث : التوسل بحرمة أو قرابة .

وربما ألفت الكتاب الذي هو دونه في معانيه وألفاظه ، فأترجمه باسم  
 ١٢٤ ظ غیری ، وأحيله على من تقدمني عصره مثل ابن المقفع والخليل ، وسلم صاحب  
 بيت الحكمة<sup>(١)</sup> ، ويحيى بن خالد ، والعتابي ، ومن أشبه هؤلاء من مؤلفي  
 الكتب ، فيأتيني أولئك القوم بأعيانهم الطاعنون على الكتاب الذي كان  
 أحكم من هذا الكتاب ، لاستنساخ هذا الكتاب وقراءته على ، ويكتبونه  
 بخطوطهم ، ويصيرون إمامًا يقتدون به ، ويتدارسونه بينهم ، ويتأدبون  
 به ، ويستعملون ألفاظه ومعانيه في كتبهم وخطاباتهم ، ويروونه عن  
 لغيرهم من طلاب ذلك الجنس فتثبت لهم به رياسة ، [ و ] يأتهم بهم قوم فيه ؛  
 لأنه لم يترجم باسمي ، ولم ينسب إلى تاليفي .

ولربما خرج الكتاب من تحت يدي مُحَصَّفًا كأنه متن حجري أملس ،  
 بمعان لطيفة محكمة ، وألفاظ شريفة فصيحة ، فأخاف عليه طعن الحاسدين  
 إن أنا نسبته إلى نفسي ، وأحسد عليه من أهم<sup>(٢)</sup> بنسبته إليه لجودة نظامه  
 وحسن كلامه ، فأظهره مبهمًا غفلاً في أعراض أصول الكتب التي لا يعرف  
 وضاعها ، فينهالون عليه<sup>(٣)</sup> انهيار الرمل ، ويستيقنون إلى قراءته سباق  
 الخليل يوم الحلبة إلى غايتها .

وحسد الجاهل أهون شوكة وأذلّ محنا ، من حسد العارف الفطن ؛  
 لأن الحاسد الجاهل يبتدر إلى الطعن على الكتاب في أول وهلة يقرأ عليه ، من

(١) ذكره ابن النديم في الفهرست ١٧٤ قرينا سهل بن هارون صاحب  
 خزانة الحكمة ، وسعيد بن هارون شريك سهل بن هارون في بيت الحكمة .

(٢) ط : « أهم » ، خلافاً لل في الأصل .

(٣) في الأصل : « عليها » .

قبل استتمام قراءته ورقة واحدة ؛ ثم لا يرضى بأيسر الطعن وأخفّه حتى يبلغ منه إلى أشدّه وأغلظه ، من قبل أن يقف على فصوله وحدوده<sup>(١)</sup> . وليس ثلّبه مفسّراً مفصّلاً ، ولكنه يُحمل ذلك ويقول : هذا خطأ من أوّله إلى آخره ، وباطل من ابتدائه إلى انقضائه ، ويحسب أنّه كلما ازداد إغراقاً<sup>(٢)</sup> وطعنًا وإطناً<sup>(٣)</sup> في الحُمل على واضع الكتاب<sup>(٤)</sup> ، كان ذلك أقرب إلى القبول منه . وهو لا يعلم أنّ المستمع إليه إذا ظهر منه على هذه المنزلة استخفّ به ، وبكته بالجهل ، وعلم أنّه قد حكم من غير استبراء ، وقضى بغير روية ، فسقط عنه وبطل .

١٢٥ و

والحاسد العارف الذي فيه تقيّة ومعه مُسكة ، وبه طعمٌ أو حياة<sup>(٥)</sup> ، إذا أراد أن يغتال الكتاب ويحتال في إسقاطه ، تصفّح أوراقه ووقف على حدوده ومفاصله ، وردّد فيه بصره وراجع فكره ، وأظهر عند السيّد الذي هو بحضرته وجلسائه ، من التثبّت والتأنّي حباله يقتنص بها قلوبهم ، وسبباً يسترعى به ألبابهم<sup>(٥)</sup> ، وسلّمًا يرتقى به إلى مراده منهم ، وبساطاً يقرش عليه مصارع الخدع . فيوهم به القصد إلى الحق والاجتباء له . فربما استرعى<sup>(٦)</sup> بهذه الخاتل والخدع قلب السيّد الحازم .

فمن أعظم البلايا وأكبر المصائب على مؤلّف الكتب إذا كان العارض

(١) في الأصل : « وحروفه » . وانظر ص ١١ .

(٢) في الأصل : « غرقاً » .

(٣) في الأصل : « وضع الكتاب » .

(٤) الطعم : العقل . وفي الأصل : « طعمة » .

(٥) في الأصل : « يستدعى » .

(٦) في الأصل : « استدعا » .

لها على السيد الذي منه تُرجى أمانها ، وعنده تنفق بضائع أهلها ، على هذه الصفة التي وصفتها من الحسد والحقد بأسبابه ، والمعرفة بالوجوه التي تنلم الحسود وتهذه ، وتضع منه ومن كتبه . لاسيما إن كان مع استبطان الحسد واستعمال الدهاء والذكاء جليسا لازما ، وتابعا لا يفارق ، ومحدثا لا يريم ، وليست له رعة<sup>(١)</sup> تحجره عن الباطل ، ولا معه حذر يبعثه على الفكر في العواقب ؛ فإن هذا ربما وافق فترة السيد بطول ترداد الكلام ، وكثرة تكراره عليه ، من تأكيد خطائه<sup>(٢)</sup> ، ونصرتة قوله ، وزياده عنه ، واحتجاجة فيه ، فيؤثر في قلبه ، ويضع رأيه<sup>(٣)</sup> . فليس للسيد الذي يحب أن يصير إليه الأمور على حقائقها ، وتصور له الأشياء على هيئاتها ، حيلة في ذلك إلا حسم مادة هذا من أهل الحسد ، بالإعراض عنهم ، والاحتجاز دونهم .

وربما بلغ من الحاسد جهد الحسد إذا لم يعمل بشهوته ، ولم تنفذ سهام لطائفه ، أن يقرّ على نفسه بالخطأ ، ويعترف أن الطعن الذي كان منه في الكتاب عن سهو وغفلة ، وأنه لم يكن بلغ منه في الاستقصاء ما أراد ، وكان مشغول الفكر مقسم الذهن ، فلما فرغ له ذهنه وانفرد له همة راجع ما كان<sup>(٤)</sup> بدر منه ، لتظن به الرعة ، ويقال إنه لم يرجع عن قوله واعترف بالخطأ إلا من عقل وازع ، ودين خالص . وإنما ذلك حيلة منه ودهاء

(١) الرعة: التقى والتخرج ، يقال ورع يروع ويورع ورعة وورعا ، وورع يورع ووروعا ووراعة . وفي الأصل : « زعة » تحريف .

(٢) الخطاء ، كسحاب : الخطأ . وجعلت في ط « خطابه » سهوا .

(٣) التضييع : التوهين .

(٤) في الأصل : « وكان » .

قدّمه أُمَامَ ما يريد أن يوكّد لنفسه ويوطّد لها ، من قبول القول في سائر ما يَرِدُ عليه من الكتب عن غير موافقةٍ على مواضع ، ويجعل ما قد تقدّم له من الرّجوع عن قوله عند ما تبين له <sup>(١)</sup> خلافُ ما قال ، أو ثَقَّ أسباب عدالته ، وأحكمَ عَرَى نَصَفته .

وكان يقال : من لطيف ما يستدعى به الصّدقُ إظهار الشك في الخبر الذي [ لا <sup>(٢)</sup> ] يَشْكُ فيه .

وكان يقال : من غامض الرياء أن تُرَى بأنك لا ترائي . ومن أبلغ الطّعن على ما تريد الطّعن عليه أن تطعن ثم تستغفر الله ، ثم تتمهل فترة <sup>(٣)</sup> ، ثم تَمُودَ الطّعنِ هو أعظم منه وأطمُ من الأوّل ؛ ليوثّق بك فيه ، ويقال : إن هذا لو كان عن حسدٍ مارجع عن الطّعن الأوّل .

وقد قيل : ذو الغيبة المشهورُ بها المنسوب إليها يقلُّ ضررُهُ ، ويضعف كيدُهُ ، لما شاع له في الناس وانتشر منه ، فكان عندهم ظنيناً متهماً ، ومطبوعاً عليها ، يستمعون منه على قضاء ذمام المجالسة والتلذُّذ به ، من غير قبول <sup>(٤)</sup> ولا اصطفاء له .

وإنما البلية في غيبة حُذّاق المفتابين الذين يسمعون ، فيضحكون ولا يتكلّمون . وأحذق منهم الذين يستمعون ويُسكّتون القائل ويدعون الله

(١) في الأصل : « عند التبين له » .

(٢) ليست في الأصل .

(٣) في الأصل : « ثم تتمهل فترة » .

(٤) في الأصل : « قول » .



بالصّلاح المقول فيه ، فهم قد أسكتوا القائل المقتاب ودعّوا للمقول فيه ، وأؤكدوا قول القائل<sup>(١)</sup> ؛ لأنّه لو حلّ عندهم محلّ البراءة مما قيل له لجبّه القائل ورُدّع عن قوله .

ومُظهر التّوقّي قليله عند العامّة كثير . والمتورّد المتفحّم لا تسكاد العامّة ١٢٦  
تقبل منه .

وقد قال بعض العلماء : إنّ عُبيد الله<sup>(٢)</sup> بن عبد الله بن عتبة بن مسعود كان من نبلاء المقتابين وحذّاقهم حيث يقول :

مَسَا تَرَابَ الْأَرْضِ ، مِنْهُ خُلِقْتُمَا      وَفِيهَا الْمَعَادُ وَالْمَصِيرُ إِلَى الْحَشْرِ  
وَلَا تَعْجَبَا أَنْ تُؤْتِيَا وَتَعْظُمَا      فَمَا حَشِيَ الْإِنْسَانُ شَرًّا مِنْ الْكِبَرِ<sup>(٣)</sup>  
فَلَوْ شِئْتُ أَدُلِّي فِيكُمْ غَيْرَ وَاحِدٍ      عَلَانِيَةً أَوْ قَالَ ذَلِكَ فِي سِرٍّ<sup>(٤)</sup>  
فَإِنْ أَنَا لَمْ أَمُرْ وَلَمْ أَنَا عَنْكُمْ      ضَحِكْتُ لَهُ حَتَّى يَلْجَأَ فَيَسْتَشْرِى  
وَمِنْ هَذَا سَرَقَ الْعَتَابِيُّ<sup>(٥)</sup> الْمَعْنَى حَيْثُ يَقُولُ :

إِنْ كُنْتُ لَا تَحْذَرُ شَتْمِي لِمَا      تَعْرِفُ مِنْ صَفْحِي عَنِ الْجَاهِلِ

(١) يقال وكده توكيدا ، وأوكده ، وآكده إيكادا .

(٢) في الأصل : « عبد الله » ، صوابه من البيان ١ : ٣٥٦ . وانظر الحيوان ١٤ : ١ .

(٣) في الخبر ٢٩٧ : « لانعجا أن تؤتيا وتكلميا » . وفي البيان والحيوان : « ولا تأتيا أن ترجعا فتسلما » .

(٤) في الأصل : « أدنى فيكم » ، صوابه من المراجع السابقة .

(٥) هو كاثوم بن عمرو العتابي ، من شعراء القبولة العباسية . كان منقطعا إلى البرامكة فوصفوه للرشد ووصلوه به ، فبلغ عنده كل مبلغ . الأغاني ١٢ : ٢ - ٩ وتاريخ بغداد ١٩٦١ ومعجم الأدباء ١٧ : ٢٦ . على أن الأبيات نسبت في الحزانة ٤ : ١٢ إلى كعب بن زهير .

فاخسَ سكوتي سامعاً ضاحكاً فيك لمشروع من القائل  
مقالة الشؤء إلى أهلها أسرع من منحدر سائل  
ومن دعا الناس إلى ذمّه ذمّوه بالحق وبالباطل  
وسئل القاسم بن معن عن ابن أبي ليلى ، فقلّب كفيه<sup>(١)</sup> وقال :  
من الناس من يخفى أبوه وجدّه وجدّ أبي ليلى لكالبدر ظاهر  
فلم تثبت عليه به حجة في ذمّه ولا مدح . وقد بلغ ما أراد .  
وسئل يوماً عن علمه فقال : أوغوه وطبّا ، فإن كان محضاً أو مشوباً  
أظهره الوطب وماخضوه<sup>(٢)</sup> .

فإن قدح - جعلني الله فداك - بالحسد قدح فيما أولفه من كتابي لك ،  
وسبق إلى وهمك شكّ فيه ، أعلمتني التكتة التي قدح فيها ، ثم قابله  
بجوابي ، فإني أرجو ألاّ تحتاج إلى حاكم عند تجاّي القولين بين يديك ،  
لعلّ الحق على الباطل ، ودموغه إيّاه .

١٣٠ ظ

والحسد أذلّ نفساً من أن يجاّي أحداً ، والعداوة إنّما قدّمت عليه لأنها  
عزيزة منيعة .

ويقال : الحسد لا يبدو إلّا في العين وعلى اللسان المقصور عند أهله  
المؤتلفين على . . .<sup>(٣)</sup> والعداوة تبدو وتنجم قرونها وينبسط لسانها عند  
الموافقين له والمخالفين عاياه .

(١) في الأصل : « كفه » .

(٢) يعني من يمحضون الوطب .

(٣) يابض في الأصل بمقدار كلمة .

وسئل خالد بن صفوان عن شبيب بن شيبة فقال : ذاك امرؤ سيّط بالحسد وجبيل عليه ، فليس له أخ في السر ولا عدو في العلانية<sup>(١)</sup> .

وسئل المتأبى عن أهل بغداد فقال : حُساد ، إخوان العلانية ، وأعداء السريرة ، يعطونك الكل<sup>(٢)</sup> ويمنعونك القل .

ومما يدلّك على أنّ الحسد أخس وأغبى من العداوة ، أنّ الميل كلّها ذمّة وعابته . ولا نعلم أنّ شاذّا من الشواذ ، وشاردّا من الشرّاد ، فضلاً عن جيل من الأجيال ، أمر بالحسد ؛ كما قيل : « عادٍ من عاداك ، وقارع بالعداوة أهلها » . ثم عظم شأن العداوة عندهم ، وجلّ قدرها لديهم ، حتّى اختلفوا في وجوه العمل فيها ؛ فمنهم من أمر بها على الحزم والعقل .

وقال الشعبي لبشر بن مروان : لو وجّهت إلى عمرو بن محمد بن عقيل مولى آل الزبير - وكان شتمه - من يأتيك به سحياً وجراً ! فقال بشر : إننى مستعمل في عدوى قول القائل :

وعادٍ إذا عاديت بالحزم والنهى تنل ظفراً ممن تريد وتغلب

فكان بهذا ممن يرى المعاداة بالحزم ، ويغتالها بالعقل والتأنى .

وكان عروة بن المغيرة يقول : شرّ العداوة ما شتر بالمداراة ، وأشقها للأنفس ما قرع بمثلها بادياً . وكان ينشد :

(١) انظر البيان ١ : ٤٧ ، ٣٤٠ والعيون ٥ : ٥٩٢ وعيون الأخبار

٣ : ٧٣ .

(٢) انظر ما سبق في ص ٢٤٨ ، ٢٩٨ .

لا أَتَقَى حَسَكَ الضَّغَائِنِ بِالرُّقَى      فَعَلَ الدَّلِيلَ وَلَوْ بَقِيَتْ وَحِيداً<sup>(١)</sup>  
 لَكِنْ أَعِدْتُ لَهَا ضَغَائِنَ مِثْلِهَا      حَتَّى أَدَاوَى بِالْحَقُودِ حُقُوداً  
 كَأَنَّهُمْ خَيْرُ دَوَائِهَا مِنْهَا بِهَا      تَشْفَى السَّقِيمَ وَتُبْرِئُ الْمَنْجُوداً<sup>(٢)</sup>  
 فَاتَهَى قَوْلَهُ إِلَى ابْنِ شَبْرَةَ فَقَالَ : « اللَّهُ دَرْعُ عُرْوَةٍ ، هَذِهِ أَنْفُسُ  
 الْعَرَبِ ! » .

١٢٧ و

فَهَؤُلَاءِ رَأَوْا كَشْفَ الْمَعَادَةِ وَلَمْ يَرَوْا التَّانِيَّ .

وَمِنْهُمْ مَنْ رَأَى الْمَعَادَةَ بَعْدَ الْفِرَارِ مِنْهَا وَالْإِعْذَارِ فِيهَا ، فَإِنْ هِيَ أَبَتْ  
 إِلَّا الْمَقَارَنَةَ قَارَنُوهَا بِمِثْلِهَا .

قَالَ شَيْبِ بْنِ شَيْبَةَ : إِذَا رَأَيْتَ الشَّرَّ قَدْ أَقْبَلَ إِلَيْكَ فَتَطَامَنُ لَهُ حَتَّى  
 يَتَخَطَّكَ ، وَلَا تَهْجُجْهُ وَلَا تَبْحَثْ عَنْهُ ؛ فَإِنْ أَبَى إِلَّا أَنْ يَبْرُكَ عَلَيْكَ فَكُنْ  
 مِنَ الْأَرْضِ نَاراً سَاطِعَةً تَتَلَطَّى<sup>(٣)</sup> . وَأَنْشَدَ :

إِذَا عَادَاكَ مَحْتَفِكٌ لَيْبٌ      فَعَادِ النَّوْمَ وَاحْتَرَسِ الْبَيَاتَا  
 وَلَا تُثِرِ الرَّبْوَضَ وَخَلَّ عَنْهَا      وَإِنْ ثَارَتْ فَكُنْ شَبَحًا مَوَاتَا

(١) الحسك : جمع حسكة ، وهي الشوكة .

(٢) المنجود : المكروب . ونحوه قول أبي نواس :

دَعِ عَنْكَ لَوْمَى فَإِنَّ اللُّومَ إِغْرَاءٌ      وَدَاوَنِي بِالتِّي كَانَتْ هِيَ الدَّاءُ  
 وَأَصْلُ الْمَعْنَى لِلْأَعْنَى حَيْثُ يَقُولُ :

وَكَأْسٌ شَرِبْتُ عَلَى لَذَّةٍ      وَأُخْرَى تَدَاوَيْتُ مِنْهَا بِهَا

انظر سرقات أبي نواس لمهل بن يَمُوت ص ٧٠ .

(٣) فِي الْأَصْلِ : « سَاطِعًا سَلَقَى » .

تَجُزُّكَ إِلَى سِوَاكَ وَنَحَّ عَنْهَا نَحِيرَ الشَّرِّ أَسْرَعَهُ فَوَاتَا<sup>(١)</sup>  
 وَإِنْ مَالَتْ عَلَيْكَ وَخَفَتْ مِنْهَا فَوَاجِئُهَا بِجَاهِرَةٍ صِلَاتَا<sup>(٢)</sup>  
 وَمِنْهُمْ مَنْ أَمَرَ بِقَبُولِ الْإِنْصَافِ وَتَرَكَ الْحَاسِبَةَ . قَالَ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ  
 ابْنُ [عَتَبَةَ بْنِ] مَسْعُودٍ : إِنَّ الْمَلَامَاتِ وَالْمَذَمَّاتِ كُلُّهُمَا قَبِيحَةٌ ، وَأَقْبَحُ الْعَلَامَةِ  
 وَالْمَذَمَّةِ مَا كَانَتْ فِي تَرْكِ نَصْفَةٍ أَوْ شِدَّةِ مَنَافَسَةٍ فِي تَعْدَادِ الذُّنُوبِ . وَأَنْشَدَ :  
 مَنَافَسَةُ الْعَدُوِّ أَوْ الصَّدِيقِ تَجْرُؤُ إِلَى الْمَذَمَّةِ وَالْمَلَامَةِ  
 إِذَا أَعْطَاكَ نِصْفًا ذُو وَدَادٍ وَبَعْضَ النِّصْفِ فَاتَهَزَّ السَّلَامَةُ<sup>(٣)</sup>  
 وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : لَا تَرْضَ مِنْ عَدُوِّكَ إِلَّا بِالظُّلْمِ ، وَلَا تَقْبَلْ إِنْصَافَهُ  
 وَنَافَسَهُ فِي ذَلِكَ<sup>(٤)</sup> . قَالَ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ :

أَبَا طَالِبٍ لَا تَقْبَلِ النِّصْفَ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنْصَفُوا حَتَّى تَعُقَّ وَتَغْلَا  
 وَمِنْهُمْ مَنْ أَمَرَ بِمَعُونَةِ الدَّهْرِ عَلَى الْعَدُوِّ إِذَا حَمَلَ عَلَيْهِ . قَالَ : حَدَّثَنِي  
 إِبْرَاهِيمُ بْنُ شُعْبَةَ الْخَزَزِيِّ قَالَ : سَمِعْتُ مَنْ حَكَى لِي عَنْ مُصْعَبِ بْنِ الزَّيْرِ  
 قَالَ : إِذَا رَأَيْتَ يَدَ الدَّهْرِ قَدْ لَطَمَتْ عَدُوَّكَ فَبَادِرْهُ بِرَجْلِكَ ، فَإِنْ سَلِمَ مِنَ  
 الدَّهْرِ لَمْ يَسْلَمْ مِنْكَ . وَأَنْشَدَ :

إِذَا بَرَكَ الزَّمَانُ عَلَى عَدُوِّكَ بَنَكَبْتَهُ أَعْنَتْ لَهُ الزَّمَانَا

(١) فِي الْأَصْلِ : « وَنَحَّ عَلَيْهَا » .

(٢) مَصْدَرٌ صَالَتٌ ، وَالْفِعْلُ وَمَصْدَرُهُ لَمْ يَرَدْ فِي الْمَعَاجِمِ التَّدَاوُلَةِ . وَمَادَّةُ (صَلَتْ)

تَدُلُّ عَلَى الظُّهُورِ وَالسَّرْعَةِ .

(٣) النِّصْفُ ، بِالْكَسْرِ : الْإِنْصَافُ .

(٤) فِي الْأَصْلِ : « مِنْ ذَلِكَ » .

قال العتابي : قالت لطوق بن مالك<sup>(١)</sup> : إنَّ من شرط الدهر ومن صناعة الزمان السَّلب ، فإذا حملت الأيام على عدوك ثِقْلاً وأمكنك منه فزده ثِقْلاً إلى ثقله . قال : فقال لي طَوْق : من لم ينتهز من عدوه انتهر منه ، وحالت الأيام التي كانت بيضاً عليه سوداً . وأنشد :

لله درُّك ما ظننت بشائرِ حَرَّانَ ليس على التُّرابِ براقِدِ  
أحقدته ثم اضطجعت ولم ينم أسفاً عليك وكيف نومُ الحاقِدِ  
إن تُمكن الأيامُ منك ، وعَلَّها ، يوماً نُوفِّك بالصُّواعِ الزائد<sup>(٢)</sup>  
ولئن سلمت لأتركَنَّك عارضا بعدى لكل مُسلمٍ ومعاقد  
ومنهم من كان يرى جبر كسرِ العدوِّ وإقالة عثرته ، ونُصرته عند  
وثوب الدهر عليه .

قال : حدثني ابن عبد الحميد قال ابن شبرمة<sup>(٣)</sup> : كانت الحرب يوم

(١) في الأصل : « لملك بن طوق » وفي هامشه : « لطوق بن مالك » ، وهو الصواب بدليل ما سيأتي بعده . وهو طوق بن مالك بن طوق بن مالك بن عتاب ، كما في جمهرة أنساب العرب ٣٠٤ . وله خبر آخر مع العتابي في الأغاني ١٢ : ٦ . وأبوه مالك بن طوق ، كان والياً على الأهواز ، وكان شاعراً . الأغاني ١٧ : ١٥٧ . وهو صاحب رجة مالك بن طوق ، أنشأها في عصر الرشيد ، وهو القاتل للرشيد حين أراد أن يفتك به :

أرى الموت بين السيف والنطع كامنا

يلاحظني من حيثما أتلفت

(٢) وعليها ، أي ولعلها . في الأصل : « توفك » ، تحريف . والصواع : مكبال ،

وربما شرب به .

(٣) هو عبد الله بن شبرمة بن حسان بن المنذر الضبي ، أبو شبرمة الكوفي القاضي ، ولأه أبو جعفر قضاء الكوفة . وكان ثقة في الحديث ، شاعراً حسن الخلق جواداً . ولد سنة ٧٢ وتوفي سنة ١٤٤ . تهذيب التهذيب .

صِفَيْنَ بين العرب مَحْضَةً لَا شُوبَ فِيهَا ، فَكَانَتْ مَحَارِبَتَهُمْ كِدَامًا وَاعْتِنَاقًا ،  
وَكَانُوا إِذَا مَرُّوا بِرَجُلٍ جَرَّحَ كَانُوا يَقُولُونَ : خَذْلَهُ قَوْمُهُ فَانصروه ،  
وَأَقَامَ دَهْرَهُ بِمَضِيْعَةٍ فَرَدُّوهُ إِلَى أَهْلِهِ .

وَقَالَ ابْنُ شُبْرَمَةَ : مَا زِلْنَا نَسْمَعُ أَنَّ الْمَصِيبَاتِ تَنْزِعُ السَّجِيَّاتِ .

قَالَ : وَأَنْشَدَنِي بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي هَذَا الْمَعْنَى :

فَلَوْ بِي بَدَأْتُمْ قَبْلَ مَنْ قَدْ دَعَوْتُمْ لَفَرَجْتُهَا وَحْدِي وَلَوْ بَلَغَتْ جَهْدِي  
إِذَا الْمَرْءُ ذُو الْقُرْبَى وَذُو الْحَقْدِ أَجْعَفَتْ بِهِ سَنَةٌ سَلَّتْ مَعِيْبَتُهُ حَقْدِي <sup>(١)</sup>  
وَمِنْهُمْ مَنْ رَأَى الْإِفْضَالَ عَلَى عَدُوِّهِ وَتَرَكَ مَجَازَاتِهِ . وَهَذَا كَثِيرٌ لَا يُحْتَاجُ  
فِيهِ إِلَى اسْتِقْصَاءِ شَوَاهِدِهِ .

قَالَ غِيلَانُ بْنُ خَرْشَةَ الضَّبِّيُّ <sup>(٢)</sup> — وَقَالَ بَعْضُهُمْ : بَلِ الْأُحْنَفُ  
ابْنُ قَيْسٍ <sup>(٣)</sup> — لَا تَزَالُ الْعَرَبُ بِخَيْرٍ مَا لَبِسَتْ الْعِمَامُ وَتَقَلَّدَتْ السُّيُوفَ  
وَرَكِبَتْ الْخَيْلَ ، وَلَمْ تَأْخُذْهَا حِمْيَةُ الْأَوْغَادِ . قِيلَ : وَمَا حِمْيَةُ الْأَوْغَادِ ؟ قَالَ :

(١) نَسَبَ هَذَا الْبَيْتَ فِي عَيُونِ الْأَخْبَارِ ٣ : ١٠٧ إِلَى أَبِي الْأَسْوَدِ الدَّوْلِيِّ .  
وَلَيْسَ فِي دِيْوَانِهِ الْمَنْشُورِ فِي نَفَائِسِ الْمَخْطُوطَاتِ . وَالسَّنَةُ : الْعَدْبُ وَالْقَعَطُ .

(٢) غِيلَانُ بْنُ خَرْشَةَ ، كَانَ سَيِّدَ بَنِي ضَبَّةَ بِالْبَصْرَةِ ، وَكَانَ مِنَ الْبُلْغَاءِ . الْإِشْتِقَاقُ  
١٩٤ وَجَمْهَرَةُ ابْنِ حَزْمٍ ٢٠٤ . وَكَانَ غِيلَانُ أَحَدَ أَصْحَابِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ ،  
ثُمَّ انْتَفَضَ عَلَيْهِ وَكَانَ سَبِيًّا فِي أَنْ يَعْزِلَ عُثْمَانُ أَبَا مُوسَى الْأَشْعَرِيَّ وَيُوَلِّيَ مَكَانَهُ عَبْدَ اللَّهِ  
ابْنَ عَامِرٍ . الْجَهْشِيَّارِيُّ ١٤٧ .

(٣) الَّذِي فِي الْيَاقِ ٢ : ٨٨ وَ ٣ : ٩٨ أَنَّ الْقَوْلَ لِلْأُحْنَفِ . وَالنَّصُّ فِيهِ :  
« وَقَالَ غِيلَانُ بْنُ خَرْشَةَ لِلْأُحْنَفِ ، يَا أَبَا بَحْرٍ ، مَا بَقِيَ مَا فِيهِ الْعَرَبُ ؟ قَالَ :  
إِذَا تَقَلَّدُوا السُّيُوفَ ، وَشَدُّوا الْعِمَامَ ... » . فَالْقَوْلُ وَالْجَوَابُ إِنَّمَا هُوَ لِلْأُحْنَفِ .

أَنْ يَرَوْا الْحِلْمَ ذُلًّا ، وَالتَّوَاهِبَ ضِيًّا<sup>(١)</sup> .

وقال الشعبي لرجل قال له : ألا تنتقم من فلان فقد عاداك ونصب لك ؟ فقال :

ليست الأحلام في حال الرضا إنما الأحلام في حال الغضب  
وأشدني بعض العلماء بيتين وقال : إن الزبيرى<sup>(٢)</sup> كان كثيراً ما يمثل  
بهما :

وإنني لأعدائي على المقت والقتلى بنى العم منهم كاشح وحسود  
أذُبُّ وأرمى بالخصى من ورائهم وأبدأ بالحسنى لهم وأعسود  
وكان عبد الملك بن مروان إذا أنشد :

إني وإن كان ابن عمي كاشحاً لمراجم من دونه وورائه<sup>(٣)</sup>  
ومُعيدُه نصرى وإن كان امرأ متزعزعا في أرضه وسمائه<sup>(٤)</sup>  
وإن اكتسى ثوباً نقيساً لم أقل ياليت أن على حسن ردائه<sup>(٥)</sup>

(١) في حاشية هـ من نسخ البيان : « التواهب هو أن يترك من حقه لصاحبه عند الحاكم ، على وجه الروءة ومكارم الأخلاق . فإذا رأى أن ترك ذلك ذلة فتلك حمية الأوغاد » .

(٢) هو عبد الله بن مصعب ، كما في تاريخ الطبرى ١٠ : ١١٢ وكان عاملاً  
لرشيد على المدينة واليمن . وانظر البيان ١ : ٣٢ و ٣ : ١١٠ .

(٣) الشعر لهديل بن مشجعة البولانى ، كما فى الحماسة ١٨٦٠ بشرح المروزقى .  
والكاشح : المضمرة العداوة . وفى الحماسة : « غائباً لمقاذف من خلفه » .

(٤) فى الحماسة : « ومفيدة نصرى » .

(٥) فى الأصل : « ثوباً نسيماً » ، تحريف . وفى الحماسة : « ثوباً جميلاً » .



وإذا تخرَّق في غناه وفَرَّته وإذا تصعلك كنت من قرانته<sup>(١)</sup>

قال : هذا والله من شعر الأشراف . نفى عن نفسه الحسد واللؤم والانتقام عند الإمكان ، والسألة عند الحاجة .

ومنهم من أمرَ بالسَّفه في العداوة واستعمالِ الخرق فيها .

حدثني نوح بن أحمد عن أبيه عن ابن عباس قال : جاء النابغة الجعدي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : هل معك من الشعر ما عفا الله عنه ؟ قال : نعم . قال : أنشدني منه . فأنشده :

وإنَّ لقومَ مانعٍ — وُدَّ خيلنا

إذا ما التقينا أن تحيِّدَ وتنفرا<sup>(٢)</sup>

وتنكر يومَ الرُّوع ألوانَ خيلنا

من الطَّمن حتى تحسبَ الجونَ أشقرا

١٢٨

وليس بمعروف لنا أن نردّها

صحاحنا ولا مستنكرًا أن تعقرا

بلفنا السماء مجذنا وسناؤنا

وإنَّ لنبغي فوق ذلك مظهرًا

(١) التخرق : التوسع في الإنفاق . ويقال وفره ماله : جعله وافرا لم ينقص منه .

(٢) الأبيات من قصيدة للنابغة الجعدي في جمهرة أشعار العرب ١٤٥ — ١٤٨ . وهي أولى الشوبات . ورويت أيضاً في الاستيعاب ص ١٥١٥ والخزانة ١ : ٥١٣ — ٥١٤ والآلئ ١٤٧ : ٧٧٢ .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إلى أين يا أبا ليلى ؟ فقال : إلى الجنة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إلى الجنة إن شاء الله » .  
ثم رجع في قصيدته فقال :

ولا خير في جهل إذا لم يكن له      حلیمٌ إذا ما أورد الأمرَ أصدرًا  
ولا خير في حِلْمٍ إذا لم تكن له      بوادرٌ تحمى صفوه أن يكدرًا<sup>(١)</sup>

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا فضَّ الله فاك ! » . قال : فأتت عليه عشرون ومائة سنة ، كلما سقطت له سِنَّةٌ انْفَرَّتْ أخرى مكانها ؛ لدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فهذا أحسن ما روى في البادرة التي بُصان بها الحلم .  
وقال الشاعر الجاهلي<sup>(٢)</sup> :

صَفَحْنَا عَنْ بَنِي ذُهَلٍ      وقلنا : القومُ إخوانُ  
عسى الأيامُ أن يرجع      نَحْيًا كالذي كانوا<sup>(٣)</sup>  
فلما صرَّح الشرُّ      وأمسى وهو عُريانُ

(١) البادرة : الكلام الذي يسبق من الإنسان في الغضب ، كما في اللسان ( بدر ) عند إنشاد هذا البيت .

(٢) هو الفند الزماني ، واسمه شهل بن شيان . شاعر جاهلي قديم ، كان أحد فرسان ربيعة المشهورين ، شهد حرب بكر وتغلب وقد قارب المائة . الخزانة ٢ : ٥٨ - ٥٩ والأغاني ٢٠ : ١٤٣ - ١٤٤ والآلئ ٥٧٩ . والقصيدة هي ثاني مقطوعة في حماسة أبي تمام .

(٣) الحى : الواحد من أحياء العرب ، والبطن من بطونهم . وفي الحماسة : « قوما » .

مَشِينًا مِشِيَةَ اللَّيْثِ      بَدَا وَاللَّيْثُ غَضْبَانٌ<sup>(١)</sup>  
 بِضَرْبٍ فِيهِ تَوْهِينٌ      وَتَضْجِيعٌ وَإِذْعَانٌ<sup>(٢)</sup>  
 وَطَعْنٌ كَفَمِ الزَّقِّ      وَهِيَ وَالزَّقُّ مَلَأَنَ<sup>(٣)</sup>  
 وَفِي الشَّرِّ نَجَاةٌ حَيْثُ لَا يُنَجِّيكَ إِحْسَانٌ

حدثنا أبو مسهر عن أبيه عن خالد بن عمرو الكلبي قال :

كُنَّا مَعَ أَبِي بَرَزَةَ الْأَسْلَمِيِّ<sup>(٤)</sup> فِي غَزَاةٍ ، فَكَانَ مَنَا رَجُلٌ يَمْتَارُ لَنَا الْمِيرَةَ  
 وَيَقُومُ بِحَوَائِجِنَا ، فَإِذَا أَقْبَلَ قُلْنَا : جِزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا . فَغَضِبَ لِدَعَائِنَا ، فَشَكُونَا  
 ذَلِكَ إِلَى أَبِي بَرَزَةَ ، فَقَالَ أَبُو بَرَزَةَ : كُنَّا نَسْمَعُ أَنَّ مَنْ لَمْ يَصَاحِهِ الْخَيْرُ أَصْلَحَهُ  
 الشَّرُّ ، فَاقْبَلُوا لَهُ . فَكُنَّا نَقُولُ لَهُ إِذَا أَتَانَا بِالْحَوَائِجِ : جِزَاكَ اللَّهُ شَرًّا وَعَرًّا<sup>(٥)</sup> ،  
 فَيَضْحَكُ لَذَلِكَ .

وَأَنشَدَنِي رَجُلٌ عَنْ بَعْضِ الْأَعْرَابِ :

١٢٩ و

أَرَى الْحَلَمَ فِي بَعْضِ الْمَوَاطِنِ ذَلَّةً      وَفِي بَعْضِهَا عِزًّا يُشْرَفُ قَاعُهُ  
 إِذَا أَنْتَ لَمْ تَدْفَعْ بِحِلْمِكَ جَاهِلًا      سَفِيهًا وَلَمْ تَقْرِنْ بِهِ مِنْ يُجَاهِلُهُ  
 لَبَسَتْ لَهُ ثُوبَ الْمَذَلَّةِ صَاغِرًا      فَأَصْبَحَ قَدْ أَوْدَى بِحَقِّكَ بَاطِلُهُ

(١) فِي الْحَمَاسَةِ : « غَدَا » .

(٢) فِي الْحَمَاسَةِ : « وَتَضْجِيعٌ » ، وَهُوَ اخْتِلَاطُ الصَّوْتِ .

(٣) فِي الْحَمَاسَةِ : « غَدَا » بِالذَّالِ الْمَعْجَمَةِ ، أَيْ سَالَ

(٤) صَحَابِي جَلِيلٌ ، وَهُوَ نَضْلَةُ بْنُ عُبَيْدِ الْأَسْلَمِيِّ ، مَشْهُورٌ بِكُنْيَتِهِ ، نَزَلَ  
 الْبَصْرَةَ وَشَهِدَ مَعَ عَلِيٍّ قِتَالَ الْخَوَارِجِ بِالنَّهْرَوَانِ ، وَآتَى خُرَاسَانَ فَزَلَ مَرُّهُ . وَمَاتَ  
 بِالْبَصْرَةِ سَنَةَ ٦٠ . الْإِصَابَةُ ٨٧١٠ وَالِاسْتِعَابُ ٢٨٧٢ وَالِاشْتِقَاقُ ١٠٦ .

(٥) الْعَرُّ : الشَّرُّ وَالشَّيْنُ ، وَأَصْلُ مَعْنَاهُ الْجَرْبُ .

فَأَبَقِ عَلَى جَهْمَالِ قَوْمِكَ إِنَّهُ لَكُلِّ حَلِيمٍ مَوْطِنٌ هُوَ جَاهِلُهُ<sup>(١)</sup>  
وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : « استَوْضُوا بِالْفَوْغَاءِ خَيْرًا ،  
فَإِنَّهُمْ يَطْفَثُونَ الْحَرِيقَ ، وَيَسُدُّونَ الْبَثُوقَ<sup>(٢)</sup> » .

وقال أبو سلمى<sup>(٣)</sup> فى الجاهلية :

لَا بَدَّ لِلشُّوَدَدِ مِنْ رِمَاحٍ<sup>(٤)</sup> وَمِنْ عَدِيدٍ يُتَّقَى بِالرَّاحِ<sup>(٥)</sup>  
\* وَمِنْ كَلَابٍ جَمَّةِ الثُّبَاجِ \*

وقال مسلم بن الوليد<sup>(٦)</sup> :

حَافَتْ لَنْ لَمْ تَلْقَى سَفَهَاؤَهَا خُرَاعَةُ وَالْحَيَّانِ عَوْفٌ وَأَسْلَمٌ  
لَأَرْجَمَنَّ الْوَدَّ بَيْنِي وَبَيْنَهَا بِقَافِيَةٍ تَقْرَى الْعُرُوقَ فَتَحْسِمُ  
مَنْ الْإِلَاءِ لَا يَرْجِعُنْ إِلَّا شَوَارِدًا لَهْنٌ بِأَفْوَاهِ الرِّجَالِ تَهْتُمُهُمْ  
أَصَابُوا حَايِمًا فَاسْتَعْدُّوا بِجَاهِلٍ إِذَا الْحِلْمُ لَمْ يَمْنَعَكَ فَالْجَهْلُ أَحْزَمُ  
وَلَمْ نَسْتَقْصِرِ الْأَبْوَابَ كُلَّهَا بِالْمَعَارِضَةِ<sup>(٧)</sup> فِى هَذَا الْكِتَابِ ، وَلَوْ اسْتَقْصَيْنَا

(١) أى لكل حلِيم موطِن يجب أن يجهل فيه وينزع عن حلمه .

(٢) البثوق : جمع بثق ، وهو منبعث الماء بخرقه السيل .

(٣) الحيوان ١ : ٣٥١ / ٣ : ٧٩ . والرجز بدون نسبة فى البيان ٣ . ٣٣٥ .

(٤) فى الحيوان والبيان : « من أرماح » .

(٥) فى الأصل : « ومن عداء » ، صوابه فى الحيوان والبيان .

(٦) الأبيات لم ترد فى ديوان مسلم ولا ملحقاته ، وفى الديوان ١٧٧ - ١٨٣ قصيدة على روى هذه الأبيات .

(٧) فى الأصل : « المعارضة » .

لطالت بنا الأيام وتراخت الليالي إلى بلوغ الغاية في تمام الكتاب . وإنما ذكرنا من كل باب عرض فيه ما دلّ على معناه الذي إليه قصد .

ولم نر الحسد أمر به أحد من العرب والعجم في حال من الأحوال ، ولا ندب إليه ونبه عليه . وقد نبّه على العداوة وفصل بين أحوالها بما قد ينفّاه ، فظهر فصاها على الحسد بذلك .

وكنت امرأة قليل الحساد حتى اعتصمت بعروتك ، واستمسكت بحبلك واستذريت في ظلك<sup>(١)</sup> ، فتراكم على الحساد وازدحموا ، ورموني بسبامهم من كل أوب وأفق ، وتتابعوا على تنابيع الدّبر<sup>(٢)</sup> على مُشتار القسل . ولئن كثروا لقد كثّر بهبوب ريحك إخواني ، وبنضرة أيامك وزهرة دولتك خلّاني . وأنا كما قلت :

فَاكْثَرَتْ حُسَادِي وَأَكْثَرْتُ خُلَّتِي  
وَكُنْتُ وَحُسَادِي قَلِيلٌ وَخُلَّتِي

فلما بلغت هذا الفصل من تأليف هذا الكتاب دخل على عشرة نفر من الكتّاب قد شملهم معروفك ، ورفع مراتبهم جميل نظرك ، فهم من طاعتك والمحبة لك على حسب ما أوليتهم من إحسانك وجزيل فوائذك ، فافاضوا في حديث من أحاديث الحسد ، فشعب لهم ذلك الحديث شعوباً

(١) استذرى بالشجرة : استظل بها ومار في دفتها . واستذرى بفلان : التجأ إليه . وفي الأصل : « واستذرات » .

(٢) تنابع على الشيء : نهافت فيه وأسرع وتناقص . وفي الحديث : « ما يعملكم على أن تنابعوا في الكذب . كما يتتابع الفراش في النار » . وفي الأصل : « تنابعوا على تنابع » ، صوابه بالياء والدبر : جماعة النحل .

افتنوا فيها - والحديث ذو شجون - فما برحوا حتى أتتني رقعة أناسية<sup>(١)</sup> من الحساد فيها سهام الوعيد ، ومقدمات التهديد والتحذير والتخويف ، للظعن على ما ألفت<sup>(٢)</sup> من السكتب إن أنا لم أضمن لهم الشركة فيما يُجرى على ، فدفعت رُقعتهم إلى من قُرب إلى منهم ، فقرأها ثم قال : « قاتلهم الله ! أبظلم يرومون النيل ويلتمسون الشركة في المعروف ! كنزغ الرُوح بالكلاليب أهون من بذل معروف بترهيب » . وأنشأ يقول :

أبقى الحوادث من خلية لك مثل جندلة المَراجِم<sup>(٣)</sup>  
 قد رامي الأعـداه قبـ لك فامتنعتُ من المظالم  
 ودفعها إلى من قُرب منه فقرأها . وقال الثاني : « صكّة جُلُود ، لكل مُرعدٍ حَسُود ، يَستطر العُرف بالتهديد . خلّ الوعيد ، يذهب في اليد » .  
 وأنشأ يقول :

أبرق وأرعى يا يزير دُ فما وعيدك لي بضائر<sup>(٤)</sup>  
 ودفعها إلى الثالث فقرأها وقال : « سألوا ظلما ، وخوفوا هَضْمًا ، لَقُوا حرباً ولقيت سِلما » . وأنشأ يقول :

(١) أناسية : جمع إنسي أو أناس . وفي اللسان ( أنس ) : « وبين جواز أناسي بالتخفيف - يعني تخفيف الياء - قول العرب : أناسية كثيرة . والواحد إنسي وأناس إن شئت » .

(٢) في الأصل : « ألف » .

(٣) الشعر لمعاوية ، في أمالي القالي ٢ : ٣١١ . وفي الأصل : « أما الحوادث » و « المزاحم » ، صوابهما في الأمالي وشرح القصائد السبع لابن الأباري ٣٢٩ .

(٤) البيت للكيت ، كما في اللسان ( برق ، رعد ) ومجالس العلماء ١٤١ وشرح القصائد السبع ٥٢٣ .

زعم الفرزدق أن سيقتل مِربعاً أبشِرْ بطول — سلامة يا مِربع<sup>(١)</sup>  
ودفعها إلى الرابع فقرأها وقال : « قول الذليل وبوله سيّان » .  
وأنشأ يقول :

ماضراً تغلبَ وائلٍ أجهوتَها أم بُلتَ حيثُ تناطحَ البحران<sup>(٢)</sup> ١٣٠ و  
ودفعها إلى الخامس فقرأها وقال : « نهيق الحمار ، ودمُ الأعيار جُبَّارٌ  
جُبَّار<sup>(٣)</sup> » . وأنشأ يقول :

ما أبالي أنبَ بالحزنِ تيسَ أم لَعاني بظهِرِ غيبٍ لثيم<sup>(٤)</sup>  
ودفعها إلى السادس فقرأها وقال : « إذا عَلِمْتَكَ الأجداد ، فليهنُ عايك  
الحُساد » . وأنشأ يقول :

إذا أهلُ الكرامة أكرموني فلا أخشى الهوانَ من اللُثامِ  
ودفعها إلى السابع فقرأها وقال : « كيف يخاف الصُرعة ، من هو في ذى  
المنعة » . وأنشأ يقول :

(١) البيت لجرير في ديوانه ٣٤٨ وجمهرة أنساب العرب ٢٨٣ والشعراء ٤٦٦ .  
ومربع ، هو مربع بن وعوة بن سعيد ، كما في جمهرة أنساب العرب . ومربع هذا هو  
راوية جرير ، وكان الفرزدق قد حلف ليقبله .

(٢) للفرزدق في ديوانه ٨٨٢ والبيان ٣ : ٢٤٨ والحزاة ٢ : ٥٠١ .  
وهو من قصيدة يذكر فيها تفضيل الأخطل إياه ، . ادحا في ذلك بنى تغلب ،  
ويهجو فيها جريرا . وتغلب هم قوم الأخطل . تناطح البحران : تقابلا . وانظر  
الحيوان ١ : ١٣ .

(٣) الأعيار : جمع غير بالفتح ، وهو الحمار الوحشى . والجبار : الهدر . وكذا  
وردت الكلمة مكررة .

كم تنبحون وما يفنى نباحكم

ما يملك الكلب غير النبح من ضرر

ودفعها إلى العاشر<sup>(١)</sup> فقرأها وقال : « نوكى هلكى ، لم يعرفوا خبرك ، ولا دروا أمرك » . وأنشأ يقول :

فلو علم الكلاب بنو الكلاب بحالك عند سيدنا لذئوا

وعندى صديق لي من الشوق له أدب ، فقال لي بعقب فراغهم مسيراً :  
إن هؤلاء الكتاب قد أظهروا الاستخفاف بقول الحساد ، وضربوا الأمثال  
في هوانهم عليك ، وعرفوا أنك في منعة من عز أبي الحسن أطال الله بقاءه ،  
ومعقل لا يسامى ولا يُنال . وأنا أقول بالشفقة<sup>(٢)</sup> :

توق قومًا من الحساد قد قصدوا لحط قدرك في سر وفي علن

فقلت له : إني أقول بيتين هما جوابك وجواب الحساد :

إن ابن يحيى عبيد الله أمتنى

من الحوادث بعد الخوف من زمني<sup>(٣)</sup>

فلست أحذر حسادي وإن كثروا

مادمت مُمسيك حبل من أبي الحسن

فلما رأى صديقي اقتفائي آثار الكتاب ، باستهانتي للحساد عند اعتلاقي

(١) كذا في الأصل بدون أن يذكر قبله ما قال الثامن والتاسع ، فقد يكون  
إغفالاً من الجاحظ لهما ، وقد يكون سقطاً من النسخة .

(٢) في الأصل : « بالشفقة » .

(٣) يعني عبيد الله بن يحيى بن خاقان ، وزير التوكل ثم المعتمد . انظر مروج

الذهب ٢ : ٣٧١ والتنبية والإشراف ٣١٤ وإعتاب الكتاب لابن الأبار ١٥٨ ،

١٦٢ والفخرى ٢١٦ ، ٢٢٨ .



حياتلك أعزك الله ، أنشأ متمثلاً بقول نصر بن سيار<sup>(١)</sup> :

٣٠

إني نشأت وحُسادى ذوو عدى  
إذا المعارج لا تنقص لهم أحداً<sup>(٢)</sup>  
إن يحسدوني على ما قد بنيت لهم  
فمثل حُسن بلائى جرّ لى الحسدا  
وليس العجب أن يكثرُوا وأنا أنفق بمحاسنك ، وأهتف بشكرك ،  
ولكن العجب كيف لا تتفتت أكيادهم كدا .

وكان بعضهم يقول : اللهم كثر حُسادَ ولدى ؛ فإنهم لا يكثرُونَ  
إلا بكثرة النعمة .

فإن كان واليدى سبق منه هذا الدعاء ، فإن الإجابة كانت مخبوءة إلى  
زمان عزك ؛ فقد رأينا تبشيرها ، وبدت لنا عند عنايتك غايتها .

وكان بعض الصالحين يقول : اللهم اجعل ولدى محسودين ، ولا تجعلهم  
مرحومين ؛ فإن يوم المحسود يوم عِزَّة ، ويوم الحاسد يوم ذلَّة .

(١) نصر بن سيار : أمير من الدهاة الشجعان ، كان أمير خراسان سنة ١٢٠  
ولاه هشام بن عبد الملك ، ثم غزا ماوراء النهر ففتح حصونا وغنم كثيراً ، وعمل  
أيضاً على خراسان لمروان بن محمد آخر الأمويين ، وقد انتبه إلى استفحال الدعوة  
العباسية فكتب إلى بنى مروان بالشام فلم يأبهوا بالخطر ، وظل يكافح حتى عجز  
وتغلب أبو مسلم على خراسان ، فخرج نصر من مرو إلى قومن ، واستمر في كفاحه  
إلى أن لحقه المرض في مهاجرة بين الرى وهمدان ، ومات بساوة سنة ١٣١ . وفي  
الأصل : « يقول بشعر »

(٢) فى الكتاب العزيز : « من الله ذى المعارج » قال قتادة : ذى المعارج :  
ذى الفواضل والنعم ، وقيل معارج الملائكة ، وهى مصاعدها التى تصعد فيها  
وتعرج فيها . وقال الفراء : ذى المعارج من نعت الله ، لأن الملائكة تعرج إلى الله  
فوصف نفسه بذلك .

ويقال : إنه لما مات الحجاج سمعوا جارية<sup>(١)</sup> خلف جنازته وهي تقول :  
اليوم يرحمنا من كان يحسدنا . واليوم تنبع من كانوا لنا تبعاً .  
ويقال : إن زياد بن أبيه قال لِحُرْقَةَ ابنة النعمان<sup>(٢)</sup> : أخبريني بحالك .  
قالت : إن شئت أجلت وإن شئت فسرت . فقال لها : أجلى . فقالت :  
« بقنا نحسد ، وأصبحنا نرحم<sup>(٣)</sup> » . فخطبها زياد وكانت في دير لها فكشفت  
عن رأسها ، فإذا رأس مخلوق ، فقالت : رأس عروس كما ترى يا زياد ؟  
وأعطاها دنانير فأخذتها وقالت : جزتك يد افتقرت بعد غنى ، ولا جزتك  
يد استغنت بعد فقر !

ولا نعلم الحسد جاء فيه شيء أكثر من حديث روى عن النبي صلى الله  
عليه وسلم : « لا حسد إلا في اثنتين<sup>(٤)</sup> » : رجل آتاه الله حفظ القرآن فهو يقوم به

(١) في البيان ٣ : ١٧٧ : « خرجت عجوز من داره وهي تقول » .  
(٢) حرقة هذه بنت النعمان بن المنذر بن امرئ القيس بن عمرو بن عدى  
ابن نصر بن ربيعة بن الحارث بن مالك بن عثم بن نمارة بن لحم . المؤلف ١٠٣ .  
ولها مقطوعة في الحماسة ١٢٠٣ بشرح الرزوقي رويت أيضاً في المؤلف . وبعض  
أخبارها في البيان ٢ : ٨٩ / ٣ : ١٤٥ ، ١٦١ . وحرقة بضم الحاء للمهمل  
وفتح الراء ، كما في اللسان والقاموس . قال في اللسان : « وحريق ابن النعمان  
ابن المنذر . وحرقة بنته » ، ومثله في شرح الحماسة للتبريزي لكنه جعل أخاها  
« حرق » كزفر . وفيهما يقول الشاعر :

نعم بالله نسلم الحلقة ولا حريقاً وأخته الحرقة

(٣) أى كنا في نعمة محسودين بالأمس ، فأصبحنا اليوم ولا حاسد لنا ، بل نحن  
في موضع الرثاء .

(٤) في الأصل : « اثنتين » ، صوابه في صحيح البخارى . انظر فتح البارى ٣ :  
٢١٩ و ١٣ : ٢٥٣ وصحيح مسلم ١ : ٥٥٨ - ٥٥٩ والترغيب والترهيب ٣ : ١١  
ومسند ابن حبان ١٢٥ ، ١٢٦ .



١٠

رِسَالَةٌ

فِي صِنَاعَاتِ الْقَوَاد



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وهذه هي الرسالة العاشرة من رسائل الجاحظ ، وعنوانها في نسخة الأصل :  
« رسالة لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ رحمه الله ، في ذم القواد » .  
وفي مقدمة نسخة الأصل أيضاً أنها تسمى « صناعات القواد » وتسمى أيضاً  
« طبائع القواد » .

وجاء في جمع الجواهر للعصرى ١١٦ : « وللاجاحظ في هذا النوع رسالة  
كتب بها إلى العتصم ، وقيل إلى المتوكل ، في الحظ على تعليم أولاده ضروب  
العلوم وأنواع الأدب » .

ثم روى الحصرى طرفاً من هذه الرسالة كانت موضع مقارنة في النص .  
وجاء عنوانها في طراز المجالس ٦٧ « صناعات القواد » ثم ساق الرسالة بأكملها .  
وكان هذا النص موضع مقارنة أيضاً في نسخته المطبوعة والنسختين المودعتين  
بدار الكتب برقم ٦٦ ، ٦٧ أدب م .

وتمتاز هذه الرسالة بأنها قد سجلت كثيراً من الألفاظ الدخيلة والمولدة  
التي كان يستعملها الصناع والعمال وأصحاب المهن المختلفة .



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) أرشدك الله للصواب ، وعرفك فضل أولى الألباب ، ووهب لك ١٣٣ ظ  
جميل الآداب ، وجعلك ممن يعرف عز الأدب كما تعرف زوائد الغنى .

قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : دخلت على أمير المؤمنين  
المعتصم بالله فقلت له : يا أمير المؤمنين ، في اللسان عشر خصال : أداة يظهر  
بها البيان ، وشاهد يُخبر عن الضمير ، وحاكم يفصل بين الخطاب ، وناطق  
يُرَدُّ به الجواب ، وشافع تدرك به الحاجة ، وواصف تُعرف به الأشياء ،  
وواعظ يُعرف به القبيح ، ومُعزّ يُرَدُّ به الأحران<sup>(٢)</sup> ، وخاصّة يُرْهِى  
بالصنّعة<sup>(٣)</sup> ، ومُلِّه يوثق الأسماع .

وقال الحسن البصري : إن الله تعالى رفع درجة اللسان ، فليس من  
الأعضاء شيء ينطق بذكره غيره .

وقال بعض العلماء : أفضل شيء للرجل عقل يُؤَلِّد معه ، فإن فاتته ذلك

---

(١) قبله في الأصل : « هذه رسالة لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، منسوبة  
في نسخة إلى ذم القواد ، وفي أخرى إلى كتاب صناعات القواد ، وفي أخرى إلى  
كتاب طبائع القواد » .

(٢) في المطبوعة من الطراز : « ومُرد ترد به الأحران » ، تحريف .

(٣) في الأصل : « يذهب بالصنّعة » ، وأثبت ما في النسخة المطبوعة من الطراز .



فَالْ يُعْظَمُ بِهِ ، فَإِنْ فَاتَهُ ذَلِكَ فَعَلِمَ بِعَيْشِهِ<sup>(١)</sup> ، فَإِنْ فَاتَهُ ذَلِكَ فَهُوَ  
يَحْتَثُ أَصْلَهُ .

وقال خالد بن صفوان : ما الإنسان لولا اللسان إلا ضالة .  
أو بهيمة مرسلة ، أو صورة ممثلة<sup>(٢)</sup> .

وذكر الصمت والنطق عند الأحنف فقال رجل : الصمت أفضل  
وأحمد . فقال : صاحب الصمت لا يتعداه نفعه ، وصاحب النطق ينتفع به  
غيره . والنطق الصواب أفضل<sup>(٣)</sup> .

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « رحم الله امرأً أصلح  
من لسانه » .

قال : وسمع عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه رجلاً يتكلم فأبلغ في  
حاجته ، فقال عمر : هذا والله السحر الحلال .

وقال مسلمة بن عبد الملك : إن الرجل ليسألني الحاجة فتستجيب نفسي له  
بها ، فإذا لحن انصرفت نفسي عنها .

و ١٣٣

وتقدم رجل إلى زياد فقال : أصلح الله الأمير ، إن أئينا هلك ، وإن  
أخونا غصبنا ميراثه . فقال زياد : الذي ضيعت من لسانك أكثر مما ضيئت  
من مالك<sup>(٤)</sup> .

(١) ما بعد « يولد معه » ساقط من الطراز .

(٢) البيان ١ : ١٧٠ .

(٣) في الأصل والطراز : « والصواب » ، صوابه من مطبوعة الطراز .

(٤) الخبر في البيان ٢ : ٢٢٢ وعيون الأخبار ٢ : ١٥٩ ونزهة الألباء ١٢ .

وقال بعض الحكماء، لأولاده : يا بني أصلحوا من أنفسكم ، فإنَّ  
الرجل لتنوبه النائبة فيستعير الدابة والثياب ، ولا يقدر أن يستعير اللسان .  
وقال شبيب بن شيبه ورأى رجلاً يتكلم فأساء القول ، فقال :  
يا ابن أخي ، الأدبُ الصالح خيرٌ من المالِ المضاعف .  
وقال الشاعر<sup>(١)</sup> :

وكأن ترى من صامتٍ لك مُعجِبٍ زيادته أو نقصه في التكلمِ  
لسانُ الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤاده فلم يبقَ إلَّا صورةُ اللحمِ والدمِ  
نخذ يا أمير المؤمنين أولادك بأن يتعلموا من كلِّ الأدب ؛ فإنَّك إن  
أفردتهم بشيء واحد ثم سئلوا عن غيره لم يحسنوه .  
وذلك أني لقيت حزاماً<sup>(٢)</sup> حين قدِمَ أمير المؤمنين من بلاد الروم ،  
فسأله عن الحرب كيف كانت هناك ؟ فقال :

لقيناهم في مقدار مِخْن الإصطبل ، فما كان بقدر ما يحسُّ<sup>(٣)</sup> الرجل دابته  
حتى تركناهم في أضيق من تمرغة . وقتلناهم فجعلناهم كأنهم أنابيب مِرجين<sup>(٤)</sup> ،

(١) هو زهير بن أبي سلمى ، كما في المعلقات برواية الزوزنى ، وليس في رواية  
ابن الأنباري أو التبريزي أو ديوانه بشرح ثعلب وبشرح الشنتمري .

(٢) في الأصل : « خزاما » ، وأثبت ما في الطراز وجمع الجواهر . وفي جمع  
الجواهر : « وذلك أن حزاما صاحب خيلك حين سأله عن الوقعة ببلاد الروم » .

(٣) حس الدابة يحسها حساً : تقص عنها التراب ، وذلك إذا فرجتها بالحصى .  
وفي مطبوعة الطراز فقط : « بحش » بالشين .

(٤) الأنابيب : الأكداش ، جمع أنبار ، وهذه جمع نير بالكسر .

فلو طرحت روثه ماسقطت إلا على ذنب دابة .

وعمل أبياتاً في الغزل فكانت :

إن يهدم الصد من جسمى مَعَالَفَه

فإن قلبي بقى الوجود معمر<sup>(١)</sup>

إنى امرؤ فى وثاق الحب يكبحه

لجام هجر على الأسقام معذور<sup>(٢)</sup>

علل بجلى نبيل من وصالك أو

حسن الرقاد فإن التوم مأسور<sup>(٣)</sup>

أصاب جبل شكال الوصل حين بدا

ومبضع الصد فى كفيه مشهور<sup>(٤)</sup>

لبست برقع هجر بعد ذلك فى

إصطبل وُدّ فروث الحب منشور<sup>(٥)</sup>

(١) القى : الفصصة ، وهى من علف الدواب .

(٢) عذر الدابة عذراً : شد عليها العذار ، وهو السير الذى يكون عليه اللجام .

وفى جمع الجواهر : « ويح امرؤ فى وثاق الحب » .

(٣) فى جمع الجواهر : « أنل خليلك نيلاً من وصالك » ، والمأسور : المشدود

بالأسار ، وهو الجبل .

(٤) الشكال ، ككتاب : ما تشد به قوائم الدابة . وفى جمع الجواهر : « أمنت

فعل شكالى حين ودعنى ومبضع الحب » .

(٥) فى الطراز : « إصطبل حب » .

قال : وسألت بَخْتِيشُوع [ الطبيب <sup>(١)</sup> ] عن مثل ذلك فقال :

لقيناهم في مقدار صَحْنِ البِيارِستان ، فما كان بقدر ما يختلف الرجل ١٣٣ :  
مَقْعِدِينَ <sup>(٢)</sup> حتى تركناهم في أَضِيقٍ من مَحَقَّةٍ ، فقتلناهم فلو طرحت مِبْضَعًا  
ما سقط إلا على أَكْحَلِ رَجُلٍ <sup>(٣)</sup> .

وعمل أبياتًا في الغزل فكانت :

شَرِبَ الوصلُ دَسْتَجَ الهجر فاستَطَ أَقَ بطنُ الوِصالِ بالإسهالِ <sup>(٤)</sup>  
ورماني حَبِيٍّ بقولنَجِ بَيْنِ مُذهِلٍ عن مَلامَةِ العُذَّالِ <sup>(٥)</sup>  
فقواد الحبيب ينحله الشَّـ لَ وقلبي معذبٌ بالمالِ <sup>(٦)</sup>  
وفوادى مُبرَسَمَ ذو سَقَامٍ يابنَ ماسُوءَ ضلَّ عَنِّي احتيالي <sup>(٧)</sup>  
لو يبقراط كان مابى وجالي نُوسَ باتا منه بأ كَسَفٍ بالِ

(١) التكملة من طراز المجالس وجمع الجواهر . وهو بختيشوع بن جبريل  
ابن بختيشوع ، وكان سريانيا نبيل القدر ، وكان يضاهاى التوكل في اللباس والفرش ،  
وكان عظيم المنزلة عنده ، ثم إنه أفرط في إِدلاله عليه فنكبه . وكان موته سنة ٢٥٦ .

طبقات الأطباء ١ : ١٣٨ - ١٤٤ والقفطى ٧٢ - ٧٣ .

(٢) اختلف الرجل : ذهب إلى المتوضأ إذا أخذه بطنه .

(٣) الأكل : عرق في اليد إذا قطع لم يرقأ الدم .

(٤) الدسج ويقال الدسجج : آنية نحول باليد .

(٥) البيت ساقط من جمع الجواهر .

(٦) وهذا ساقط من الطراز .

(٧) كذا في الأصل وإحدى مخطوطي الطراز . يريد « ماسويه » . وفي سائر

نسخ الطراز : « باين السوء » . وفي جمع الجواهر : « يابن ماسويه » ولا يستقيم  
به الوزن . وابن ماسويه هو أبو زكريا يحيى أو يوحنا ، خدام المأمون والمعتمد

والواثق والمتوكل . الفهرست ٤١١ والقفطى ٢٤٨ - ٢٥٦ .

قال : وسألت جعفرًا الخياط عن مثل ذلك فقال :

لقيناهم في مقدار سوق الخلقان ، فما كان بقدر ما يخطط الرجل درزًا<sup>(١)</sup>  
حتى قتلناهم وتركناهم في أضيق من جربان<sup>(٢)</sup> ، فلو طرحت إبرة ما سقطت  
إلا على رأس رجل .

وعمل أبياتًا في الغزل فكانت :

فتفت بالهجر دروز الهوى إذ وخزنتي إبرة الصّد  
فالقلب من ضيق سراويله يعثر في بايكة الجهد<sup>(٣)</sup>  
جشمتني يا طيلسان النوى منك على شوزكتي وجدى<sup>(٤)</sup>  
أزارار عيني فيك موصولة بمروة الدمع على خدى  
يا كستبان القلب يازيقه عذّبتني التذكار بالوعد<sup>(٥)</sup>  
قد قص ما يعهد من وصله مقراض بين مرهف الحد<sup>(٦)</sup>

(١) الدرز : موضع الخياطة ، كما في شفاء الغليل ، ويقال للقمل والصئبان :  
بنات دروز ، ومنه أخذ الدرزي الخياط الذي صحفته عامة عصرنا بالترزي .

(٢) جربان القميص : جيبه ، يقال بضم الجيم والراء وبكسرهما ، وهو بالفارسية  
« كريان » .

(٣) في جمع الجواهر : « يعثر بي في تسكة الجهد » .

(٤) في جمع الجواهر : « على سوء شقا جدى » ، وفيه أيضًا « حسدتني » بدل :  
« جشمتني » .

(٥) في جمع الجواهر : « يادستبان القلب » ، كما أن سائر البيت فيه محرف .

(٦) في جمع الجواهر : « ما أعرف من وصلة » .

يا حُجْزَةَ النَّفْسِ ويا ذَيْلَهَا مَالِي مِنْ وَصْلِكَ مِنْ بُدٍّ<sup>(١)</sup>  
 ويا جَرْبَانَ سُرُورِي ويا جَيْبَ حَيَاتِي خُلْتُ عَنْ عَهْدِي<sup>(٢)</sup>  
 قال : وسألت إسحاق بن إبراهيم عن مثل ذلك - وكان زراعاً<sup>(٣)</sup> -  
 فقال :

لَقِينَاهُمْ فِي مَقْدَارِ جَرِيْبَيْنِ مِنَ الْأَرْضِ ، فَمَا كَانَ بِقَدْرِ مَا يَسْتَقِي الرَّجُلُ  
 مَشَارَةً<sup>(٤)</sup> حَتَّى قَتَلْنَاهُمْ ، فَتَرَكْنَاهُمْ فِي أَضِيقٍ مِنْ بَابٍ ، وَكَأَنَّهُمْ أَنْبَاءُ سُنْبُلٍ<sup>(٥)</sup> ،  
 فَلَوْ طُرِحَ فِدَانٌ<sup>(٦)</sup> مَاسِقَطٍ إِلَّا عَلَى ظَهْرِ رَجُلٍ<sup>(٧)</sup> .

وعمل أبياتاً في الغزل فكانت :

زَرَعْتُ هَوَاهُ فِي كِرَابٍ مِنَ الصَّفَا وَأَسْقَيْتُهُ مَاءَ الدَّوَامِ عَلَى الْعَهْدِ<sup>(٨)</sup>

(١) الحُجْزَةُ ، بالضم : معقد السراويل والإزار وفي الأصل والطرار المطبوع .  
 « يا حُجْزَةَ النَّفْسِ » ، وفي المخطوط : « يا حُجْزَةَ النَّفْسِ ويا ويلها » ، صوابه من جمع  
 الجواهر .

(٢) سبق تفسير الجربان في ص ٣٨٤ . وفي جمع الجواهر : « جيب غرامي » .

(٣) في جمع الجواهر : « زارعا » .

(٤) المشارة ، بفتح الميم : الدبرة ، وهي البقعة من الأرض تزرع . وفي طراز  
 المجالس : « من سانية » .

(٥) الأنباير ، سبق تفسيرها في ص ٣٨١ .

(٦) الفدان : الذي يجمع أداة الثورين في القران للحرث ، والآلة التي  
 يحراث بها .

(٧) في طراز المجالس : « على ظهر ثور » ، تحريف . وفي جمع الجواهر :

« إِلَّا عَلَى رَأْسِ رَجُلٍ » وبعده في جمع الجواهر : « فصاروا مثل أكوام التبن » .

(٨) في جمع الجواهر : « في جريب مثلث » .

وَسَرَجَنَّتْهُ بِالْوَصْلِ لَمْ آلْ جَاهِدًا      لِيُحْرَزَهُ السَّرَجِينِ مِنْ آفَةِ الصَّدِّ (١)  
 فَلَمَّا تَعَالَى النَّبْتُ وَاخْضَرَ يَانِعًا      جَرَى يَرْقَانُ الْبَيْنَ فِي سُنْبُلِ الْوَدِّ (٢)  
 قَالَ : وَسَأَلْتُ فَرْجًا الرُّخَجِيَّ (٣) عَنْ مِثْلِ ذَلِكَ — وَكَانَ خَبَّازًا —  
 فَقَالَ :

لِقِينَاهُمْ فِي مَقْدَارِ بَيْتِ التَّنُّورِ ، فَمَا كَانَ بِقَدْرِ مَا يَخْبِزُ الرَّجُلُ خَمْسَةَ  
 أَرْغِفَةٍ حَتَّى تَرْكَنَاهُمْ فِي أَضْيَاقٍ مِنْ حَجَرٍ تَنُّورِ ، فَلَوْ سَقَطَتْ جَمْرَةٌ مَا وَقَعَتْ  
 إِلَّا فِي جَفْنَةِ خَبَّازٍ (٤) .

وَعَمِلَ أَيْبَاتًا فِي الْغَزْلِ فَكَانَتْ :

قَدْ عَجَّنَ الْمَجْرُ دَقِيقَ الْهُوَى      فِي جَفْنَةٍ مِنْ خَشَبِ الصَّدِّ  
 وَاخْتَمَرَ الْبَيْنَ فَنَارُ الْهُوَى      تَذَكَّى بِسَرَجِينِ مِنَ الْبُعْدِ (٥)  
 وَأَقْبَلَ الْمَجْرُ بِمَحْرَاكِهِ      يَفْتَحُصُّ عَنْ أَرْغِفَةِ الْوَجْدِ (٦)

- 
- (١) السرجين : السهام تدمل به الأرض ، معرب .  
 (٢) اليرقان : دود يكون في الزرع ثم ينسلخ فيصير فراشاً وفي جمع  
 الجواهر : « وأفرك حب الحب في سنبل الود » . وبعده بيتان ، وهما :  
 أتته أكف المجر فيها مناجل فأسرعن فيه حين أدرك بالحصد  
 فياشؤم مالى إذ يعطل للشقا ويأويح ثورى صار معلقه كبدى  
 (٣) نسبة إلى رخج ، كسكر ، وهى كورة ومدينة من نواحي كابل .  
 (٤) فى جمع الجواهر : « فلو طرحت جردقاً لما وقع إلا فى خوان الخبز على  
 كثرة القتلى » .  
 (٥) السرجين ، سبق تفسيره . وفى جمع الجواهر : « ترجى بشوك المجر  
 من بعدى » .  
 (٦) المحراك أداة تحرك بها النار . وفى جمع الجواهر : « وأقبل الصد  
 بهجرانه »

جَرَادِقُ المَوْعِدِ مَسْمُومَةٌ مَثْرُودَةٌ فِي قَصْعَةِ الجَهْدِ<sup>(١)</sup>  
 قَالَ : وَسَأَلَتْ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبْدِ الصَّمَدِ بْنِ أَبِي دَاوُدَ عَنْ مِثْلِ ذَلِكَ  
 — وَكَانَ مُؤَدِّبًا — فَقَالَ :

لَقِينَاهُمْ فِي مَقْدَارِ صَحْنِ الكُتَّابِ<sup>(٢)</sup> ، فَمَا كَانَ بِقَدَرِ مَا يَقْرَأُ الصَّبِيُّ  
 إِمَامَهُ<sup>(٣)</sup> حَتَّى أَلْجَأْنَاهُمْ إِلَى أَضِيقٍ مِنْ رَقْمٍ<sup>(٤)</sup> فَقَتَلْنَاهُمْ ، فَلَوْ سَقَطَتْ دَوَاةٌ  
 مَا وَقَعَتْ إِلَّا فِي حِجْرِ صَبِيٍّ .

وَعَمِلَ أَيْبَاتًا فِي الْغَزَلِ فَكَانَتْ :

قَدَامَتِ الْمَجْرَانُ صَبِيَّانَ قَابِي قَفْوَادِي مَعَذَّبَ فِي خَبَالٍ<sup>(٥)</sup>  
 كَسَرَ الْبَيْنَ لَوْحَ كِبْدِي فَمَا أَطَ مَعَ مِمَّنْ هَوَيْتُهُ فِي وَصَالٍ<sup>(٦)</sup>  
 رَفَعَ الرِّقْمَ مِنْ حَيَاتِي وَقَدْ أَطَ لَمَقَ مَوْلَايَ حَبْلَهُ مِنْ حَبَالِي  
 مَشَقَ الْخَبِّ فِي فَوَادِي لَوْحِي نِ فَاغْرَى جَوَانِحِي بِالسَّلَالِ<sup>(٧)</sup>

١٣٤ ظ

(١) الجرادق : جمع جردق ، وهو الرغيف ، فارسي معرب . وفي جمع  
 الجواهر : « جرادقاً للوعد مسمومة » .

(٢) الصحن : الساحة وسط الدار . والكتاب : موضع تعليم الصبيان ، وأصل  
 الكتاب هؤلاء الذين يتعلمون الكتابة ، ثم أطلق الاسم مجازاً على الموضع الذي  
 يتعلمون فيه . وفي اللسان : « والكتاب موضع تعليم الكتاب » . وفي جمع  
 الجواهر : « في مقدار كتف » .

(٣) إمام الصبي : ما يتعلمه كل يوم ، يقدر له على مقدار يوم .

(٤) في جمع الجواهر : « من فم الرقم » . والرقم ، بسكون القاف : الرمز  
 الكتابي المستعمل للتعبير عن أحد الأعداد ؛ وفتح القاف خطأ شائع .

(٥) جمع الجواهر : « موله ذو حبال » .

(٦) في جمع الجواهر : « لوح وصلي » .

(٧) المشق : سرعة الكتابة ، ومد الحروف في الكتابة . والسل : السد .



لاقَ قلبي بنائه فداد الـ عَيْن من هجر مالِكِي في انهمال<sup>(١)</sup>  
 كُرسِفُ البين سوّد الوجه من وصـ لى فقابي بالبين في إشعال<sup>(٢)</sup>  
 قال : وسألت عليّ بن الجهم بن يزيد<sup>(٣)</sup> — وكان صاحبَ خمام —  
 عن مثل ذلك فقال :

لقيناهم في مثل بيت الأنبار<sup>(٤)</sup> ، فما كان إلّا بقدر ما يغسل الرجل  
 رأسه حتى تركناهم في أضيق من باب الأتون ، فلو طرحت لينة ما وقعت  
 إلّا على رأس رجل .

وعمل أبياتاً في الغزل فكانت :

يا نُورَةَ الهجر حَاقَتِ الصِّفا لما بدت لي لِيْفَةُ الصَّدِّ<sup>(٥)</sup>  
 يا مِيزَرَ الأسقام حَتَّى متى تُنْقَعُ في حوض من الجَهد  
 أوقِدْ أَتُونَ الوصلِ لي مَرَّةً منك بِزِينِيلٍ من الودِّ<sup>(٦)</sup>

(١) أصله من لاق الدواء : أصلح مدادها . وفي طراز المجالس : « لاق قلبي  
 مداده » ، وفي جمع الجواهر : « لاق كبدي دواته » .

(٢) الكرسف : القطن ، وكانوا يجعلونه هو أو الصوف في الدواء .

(٣) في جمع الجواهر : « وسألت الجهم بن بدر » .

(٤) لعله يعنى البيت الذى تحفظ فيه الثياب . وفي اللسان : « والأنبار : بيت

التاجر الذى ينضد فيه متاعه » . وبعده في جمع الجواهر : « ققاتلناهم بمقدار  
 ما تحلق النورة ، ثم ألقناهم إلى أضيق من الأذن ، فهزمناهم بقدر ما يغسل الرجل  
 وجهه ، فلو طرحت لينة . . . »

(٥) جمع الجواهر : « بما بدا من ليفة » .

(٦) الأتون : الموقد ، وهو بتشديد التاء ، وتخفيفها من لغة العامة . والزنبيل

بكسر الزاى كقنديل ، وقد تفتح ، وهو القفة .

فالبين مُذْ أَوْقَدَ خَمَامَهُ قَدْ هَاجَ قَلْبِي مَسَاخَ الْوَجْدِ<sup>(١)</sup>  
 أَفْسَدَ خِطْمِي الصِّفَا وَالْهُوَى نُحَالَةَ النَّاقِصِ لِلْعَهْدِ<sup>(٢)</sup>  
 قال : وسألت الحسن بن أبي قماش<sup>(٣)</sup> عن مثل ذلك — وكان  
 كَنَسًا — فقال :

لَقِينَاهُمْ فِي مَقْدَارِ سَطْحِ الْإِيوَانِ ، فَمَا كَانَ إِلَّا بِقَدْرِ مَا يَكْنُسُ الرَّجُلُ  
 زَبِيلًا<sup>(٤)</sup> حَتَّى تَرَكَنَاهُمْ فِي أَضْيَاقٍ مِنْ جُجُرِ الْمَخْرَجِ ، ثُمَّ قَتَلْنَاهُمْ بِقَدْرِ  
 مَا يَشَارِطُ الرَّجُلُ عَلَى كَنْسٍ كَنِيفٍ ، فَلَوْ رَمَيْتَ بَابِنَا وَرَدَانَةً<sup>(٥)</sup> مَا سَقَطَتْ  
 إِلَّا عَلَى فَمٍ بِالْوَعَةِ<sup>(٦)</sup> .

وعمل أبياتاً فكانت :

أَصْبَحَ قَلْبِي بَرْبَاجًا لِلْهُوَى تَسَاخُ فِيهِ فَقْعَةُ الْهَجْرِ<sup>(٧)</sup>  
 بَنَاتُ وَرْدَانَ الْهُوَى لِلْبَلَى أَصْبَرُ مِنْ ذَا الْوَجْدِ فِي صَدْرِي<sup>(٨)</sup>

(١) في جمع الجواهر : « هيج قلبي مشلح الوجْد » .

(٢) جمع الجواهر : « بحالهِ الناقص » .

(٣) جمع الجواهر : « الحسن بن أبي قماش » .

(٤) الزبيل : الزنبيل ، وهو القفّة . وفي جمع الجواهر : « زنبيلًا » .

(٥) بنت وردان ، هي المعروفة في مصر بالخنفس . معجم المألوف ٣٦ وانظر

الحيوان ٢ : ١٥٣ و ٣ : ١٣ ، ٣٧١ و ٤ : ٣٩ ، ٢٧٢ ، ٣٠٠ . وابنة وردانة ،  
 لعلها من لغة العامة في عصره .

(٦) في جمع الجواهر : « إلا على ظهر قنيل » .

(٧) البربج : مجرى البول . يسلح ، من السلاح بالضم ، وهو النجو . وفي جمع

الجواهر : « للهوى مخرجا » .

(٨) البيت ساقط من جمع الجواهر .

خَنَافُسُ الْهِجْرَانِ أَثْكَلَنِي يَوْمَ تَوَلَّى مُعْرِضًا صَبْرِي<sup>(١)</sup>  
 أَسْقَمَ دِيدَانُ الْهَوَى مُهْجَتِي إِذْ سَاحَ الْبَيْنُ عَلَى عَمْرِي  
 قال : وسألت أحمدَ الشَّرابيَّ عن مثل ذلك فقال :

١٣٥ و

لَقِينَاهُمْ فِي مَقْدَارِ صَحْنِ بَيْتِ الشَّرَابِ ، فَمَا كَانَ بِقَدْرِ مَا يَصْنُقُ الرَّجُلُ  
 دَنَا<sup>(٢)</sup> حَتَّى تَرَكْنَاهُمْ فِي أَضْيَاقٍ مِنْ رَطْلِيَّةٍ<sup>(٣)</sup> فَقَتَلْنَاهُمْ ، فَلَوْ رَمَيْتُ تَفَاحَةً  
 مَا وَقَعَتْ إِلَّا عَلَى أَنْفِ سَكْرَانٍ .

وعمل أبياتاً في الغزل فكانت :

شَرِبْتُ بِكَأْسٍ لِلْهَوَى نَبْذَةً مَعًا وَرَقَرْتُ خَمْرَ الْوَصْلِ فِي قَدَحِ الْهَجْرِ<sup>(٤)</sup>  
 فَالْتِ دِنَانُ الْبَيْنِ يَدْفَعُهَا الصَّبَا فَكَسَّرَن قَرَابَاتِ حُزْنِي عَلَى صَدْرِي<sup>(٥)</sup>  
 وَكَانَ مِزَاجُ الْكَأْسِ غَلَّةَ لَوْعَةٍ وَدُورِقَ هِجْرَانٍ وَقَيْنِنْتِي غُدْرٍ  
 قال : وسألت عبد الله بن طاهر<sup>(٦)</sup> عن مثل ذلك — وكان طباحاً —  
 فقال :

لَقِينَاهُمْ فِي مَقْدَارِ صَحْنِ الْمَطْبَخِ ، فَمَا كَانَ بِقَدْرِ مَا يَشْوِي الرَّجُلَ حَمَلًا حَتَّى

(١) جمع الجواهر : « نومي فولي معرُشاً » .

(٢) جمع الجواهر : « بمقدار ما يبزل الرجل دنا » .

(٣) الرطلية ، بفتح الراء وكسر ها : نسبة إلى الرطل ، والمراد وعاء أو كأس  
 يسع رطلا من الشراب . وانظر الحيوان ٣ : ٢٣٦ . وبعده في جمع الجواهر :  
 « ثم سألت دماؤهم كالدردى ، فلو طرحت كأساً لما وقع إلا في كف رجل » .

(٤) جمع الجواهر : « بكأس اللهو من راحة الهوى » .

(٥) القرابات : ضرب من الأواني ، كما هو ظاهر ؛ ولم أجده في المعاجم .

(٦) جمع الجواهر : « عبد الله الطاهري » .

تركناهم في أضيق من موقد نار ، فقتلناهم فلو سقطت مفرقة ما وقعت  
إلا في قدر<sup>(١)</sup> .

وعمل أبياتاً في الغزل فكانت :

يا شبيهة الفالوذ في حمرة الخد - ولوزينج النفوس الظماء  
أنت جوزينج القلوب وفي اللب - ن كلين الخبيصة البيضاء<sup>(٢)</sup>  
عذت مستهتراً بسكباج ود - بعد جودابة بحنب شواء<sup>(٣)</sup>  
يا نسيم القدور في يوم عرس - وشبهها بشهدة صفراء<sup>(٤)</sup>  
أنت أشهى إلى القلوب من الزبد - د مع الرسيان بعد الغداء<sup>(٥)</sup>  
أطعم الحاسدون ألوان غم - في قصاع الأحزان والأدواء<sup>(٦)</sup>

(١) جمع الجواهر : « لقيناهم في مقدار مطبخ أمير المؤمنين ، فما كان إلا بمقدار  
ما يشوى الرجل حملاً أو جدياً ، أو يفرغ من طبخ ثلاثة ألوان أو يعقد فالوذجة ،  
حتى تركناهم في أضيق من أثافي القدر ، فلو طرحت معلقة لما وقعت إلا على  
بطن قتيل » .

(٢) في جمع الجواهر : « الصفراء » .

(٣) السكباج : لحم يعالج بالخل والتوابل ، ويضاف إليه أحياناً الزعفران  
والسذاب . محاضرات الراغب ١ : ٢٩٢ وكتاب الطيبخ للبغدادى ٩ . والجوداب ،  
بالضم : طعام يتخذ من سكر ورز ولحم . وانظر باقى صفته فى كتاب الطيبخ  
٧٠ - ٧٢ .

(٤) جمع الجواهر : « ياقتار القدور » و « بشهدة بيضاء » .

(٥) الرسيان : ضرب من أجود التمر . وفى اللسان : « وأهل العراق يضربون  
الزبد بالرسيان مثلاً لما يستطاب » .

(٦) فى جمع الجواهر : « والضراء » .

قد غلا القلبُ مذناً عنك دارى غليانَ القدور عند الصَّلاء<sup>(١)</sup>  
 هام قلبي لَمَّا كَسَرَنَ غَضَارَا تِ سرورى مغارف الشَّحناء<sup>(٢)</sup>  
 فتفضَّلْ على العميدِ بيومِ جُدِّ بوصلٍ يُكَبِّتُ به أعدائى<sup>(٣)</sup>  
 وتفضَّلْ على الكئيبِ بِبَرِّمَا وَرَدِ وَصَلٍ يَشْفِي من الأدواء<sup>(٤)</sup>  
 قال : وسألتُ — أطال الله بقاءك — محمد بن داود الطوسى عن مثل  
 ذلك — وكان فرأشا — فقال :

١٣٥ ظ

لقيناهم فى مقدار صَحْنِ بساط<sup>(٥)</sup> ، فما كان إلا بقدر ما يفرش الرجل  
 بيتاً<sup>(٦)</sup> حتَّى تركناهم فى أضيق من مِنَصَّة فقتلناهم ، فلو سقطت خِدَّة ما وقعت  
 إلَّا على رأس رجل .

ثم عمل أبياتاً فى الغزل فكانت :

كسَحَ الهجرُ ساحةَ الوصلِ لَمَّا غَبَرَ البينُ فى وجوه الصِّفاء<sup>(٧)</sup>  
 وجَرى البينُ فى مرافق ريشٍ هى مذكورةٌ ليوم اللِّقاء<sup>(٨)</sup>

- 
- (١) فى الأصل وطراز المجالس : « السلاء » ، صوابه فى جمع الجواهر .  
 (٢) الغضارات : الصحف المتخذة من الغضار ، وهو الطين الحر .  
 (٣) العميد والعمود : الذى عمده الحب ، أى أوجعه وأضناه .  
 (٤) البزماء ورد : ضرب من الخبز يحشى بشواء ، مدقوق مضاف إليه الخلد والأفاويه .  
 وانظر بقية صفته فى كتاب الطبخ ٥٩ .  
 (٥) جمع الجواهر : « فى مثل تريع القسطاط » .  
 (٦) بعده فى جمع الجواهر : « أو بيتين » .  
 (٧) الكسح : الكنس . وفى الأصل والطراز : « كسر » تحريف . وفى  
 جمع الجواهر : « كنس » ، وهى بمعنى كسح .  
 (٨) المرافق : جمع مرفقة ، وهى الخدّة .

فرش الهجر في بيوت هموم تحت رأسي وسادة البرحاء<sup>(١)</sup>  
 حين هيأت بيت خيش من الوص لي لأبوابه ستور البهاء<sup>(٢)</sup>  
 فرش البحر لي بيوت مسوح متكاها مطارح الحصباء<sup>(٣)</sup>  
 رق للصب من براغيث وجد تعزى جلده صباح مساء<sup>(٤)</sup>  
 قال : فضحك المعتصم حتى استلقى ، ثم دعا مؤدب ولده فأمره أن يأخذهم  
 بتعليم جميع العلوم .

تم كتاب الجاحظ والله المنة ، ويده الحول والقوة ، والله سبحانه الموفق للصواب .  
 والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه وسلامه .  
 بعده زيادات ليست للجاحظ<sup>(٥)</sup>

- (١) في الأصل ومخطوط الطراز : « لي بيوت » ، صوابه في مطبوع طراز  
 المجالس . والبرحاء : الشدة ، والشقة . وفي جمع الجواهر :  
 فلقد بث في فراش همومي تحت خدي وسائداً لضنائي
- (٢) الخيش : ثياب رفاق النسج غلاظ الخيوط تتخذ من مشاقة الكتان .
- (٣) التكا : ما يتوكأ عليه لـطعام أو شراب أو حديث . وفي الأصل وطراز  
 المجالس : « متكاها من الحصباء » ، صوابه في جمع الجواهر . والمطارح : جمع  
 مطرح ، بالكسر ، وهو المفروش ، كما في المعجم الوسيط .
- (٤) في جمع الجواهر : « من بواعث وجد قد تحالسنه » . وبعد هذا البيت في  
 جمع الجواهر بدلا من الكلام التالي هنا : « يأمر المؤمنين ، إنما ينطق اللسان بما  
 يتصور الجنان ، ويظهر في الكلام ما يختر على الأوهام ، فمن لم يعرف إلا شيئا  
 واحدا لم يتكلم عليه ، ومن كثر علمه كثر خواطره ، واتسعت مذاهبه ، ورب  
 هزل أنفع من جد إذا أصيب به موضع الحاجة ، ووضع بحيث تقع هم النفوس  
 عليه . والسلام » . ثم قال الحصري معقباً على هذه الرسالة :
- « والجاحظ صنع هذه الأشعار لما وضع هذه الأخبار ، وكان قديراً على الشعر  
 سراً قاله » .
- (٥) وهي في مقدار ثلاث ورقات من الأصل ، على لسان أهل الصناعات .

## فهرس الكتب والرسائل

---

ص	
١	مناقب الترك
٨٧	المعاش والمعاد
١٣٥	كتبان السر وحفظ اللسان
١٧٣	نحر السودان على البيضان
٢٢٧	في الجد والهزل
٢٧٩	في نفى التشبيه
٣٠٩	كتاب الفتيا
٣٢١	إلى أبي الفرج بن نجاح الكاتب
٣٣٢	فصل ما بين العداوة والحسد
٣٧٥	في صناعات القواد

---

أبو سلوم المعتزلي



